الإيضاح

في علوم البلاغة

للامام الخطيب القزويني

٦٦٦ - ٧٣٩ هـ

الجزء الأول

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

منشورات

دار الكتاب اللبناني

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)

الطبعة السادسة

١٩٨٥ م ١٤٠٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

كان من توفيق الله أن أخرجتُ عام ١٩٤٨ شرحا واسعا لكتاب الايضاح في علوم البلاغة للإمام الخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ ، من ستة أجزاء كبيرة ، ومضت مدة كبيرة على هذه الطبعة حتّى تولت مكتبة حبيح في القاهرة طبعها طبعة ثانية منذ وقت قريب .

ولما كان هذا الشرح مطولا ، ويتناول بتفصيل دقائق البلاغة فقد كتبت شرحا مختصرا للايضاح طبع عام ١٩٤٩ في جزءين ، ثم طبع طبعة ثانية عام ١٩٥٣ ، ثم تفضلت دار الكتاب اللبناني بطبعه طبعة ثالثة ، هي هذه الطبعة التي أقدمها للقراء العرب في كل مكان .

وإني في غنى عن التنويه بالايضاح ومؤلفه الخطيب ، وعن بيان الجهد الذي بذلته في هذا الشرح .

وأترك للقارىء الحكم والتقرير ، والله ولي التوفيق : إنه أكرم مسئول ، وأجل مأمول . وما توفيقي إلا بالله

د . محمد عبد المنعم خفاجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الكلمة الأولى

أحمده وأسأله التوفيق والسداد . وبعد :

فهذا شرح جديد . لكتاب الإيضاح ، تأليف العالم الامام الخطيب القزويني ، إمام البلاغة وشيخ البيان ، المتوفى عام ٧٣٩ هـ

توخيت فيه عمق البحث ، ودقة التحليل . والعناية ببسط المسائل . وحل المشكلات . وأومأت فيه إلى شتى المراجع والمصادر . ليكون جامعاً لمسائل البلاغة ومصدراً للدراسات العالية فيها ، ومرجعاً للطلاب والدارسين والباحثين . والله يعلم مقدار ما أخذ مني من جهد وبحث ومراجعة ؛ ومع ذلك فقد ثابرت على كتابته وإخراجه ، ليسد النقص الذي نلمسه في دراسات البلاغة .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٤٩ . وها هي ذي الطبعة الثانية منقحة مهذبة . والله أسأله أن يجعله خالصاً لوجهه . وأن ينفع به العلم والثقافة ولغة الكتاب العزيز . فهو وليي ، نعم المولى ونعم النصير . .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

د . محمد عبد المنعم خفاجى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات

نشأة البلاغة العربية ومراحل التأليف فيها

١ — كان القرن الثاني الهجري أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة (١) وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء في بحث أصول بلاغات العرب ، وفي تدوين آرائهم في معنى كلمة البلاغة والفصاحة . وأهم ما يؤثر من ذلك : وصية بشر بن المعتمر — من زعماء المعتزلة وتوفي نحو عام ٢١٠ هـ — في البلاغة (٢) ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٣) ، وتعريف العتابي لها (٤) ، ووصية (٥) أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب . ويقول البحتري : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل (٦) . . وفي البيان للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند (٧) . ويقسمها الكندي فيلسوف العرب المتوفى عام ٢٦٠ هـ إلى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به . ونوع بالعكس .

---

(١) لا تجد في العصر الجاهلي كلمات عن البلاغة إلا ما روي عن عامر بن الظرب حين سئل من أبلغ الناس؟ فقال: من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز (٢٠٦ ج ١ العمدة، ٢٨٠ ج ٢ الامالي) . . وفي العصر الاموي نجد لمعاوية كلمات في البلاغة ولسواه. روي أن معاوية سأل صحارا عنها فأجابه (راجع ٨١ ج١ البيان ١٨ ج ٢ الكامل) (٢) ١٠٤ وما بعدها ج ١ البيان (٣) ٩١ ج ١ البيان . ٢١٤ ج ١ العمدة. ٧٥ ج ١ البيان . ٤٤ — ٤٦ الرسالة العذراء. ٢ و ٣ و ٢٢ و ٢٣ ج ٣ العقد ، ١٤٠ — ١٥٠ ج ١ زهر الآداب . (٤) ٩٠ و ١٥٧ ج ١ البيان . (٥) ١٥١ ج ١ زهر الآداب . (٦) ٣٦ ج ١ المستطرف وتروى عن الثعالبي برواية أخرى : «ما قل ودل» (٢١٨ ج ١ العمدة) . (٧) ٧٨ و ٧٩ ج ١ البيان . ٢٠ — ٣٨ الصناعتين ، ١٤٤ ج ١ زهر ، ٤٤ الرسالة العذراء .

ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها (١) ، وذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله في كلمة طويلة مترجمة رواها صاحب الموازنة (٢) . إلى آخر هذه الكلمات والآراء .

٢ ــ ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيراً من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها . ومن هذه الكتب : إعجاز القرآن لأبي عبيدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينوري م ٢٨٠ هـ (٣) والتشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٤) وصناعة الكلام للجاحظ (٥) . ونظم القرآن (٦) والتمثيل (٧) له أيضاً ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد (٨) . . وفي الكامل شارات لمسائل كثيرة في البلاغة . وكذلك الرسالة العذراء لابن المدبر والبلاغة للحراني (٩) . وقواعد الشعر لثعلب ، وقد نشرته عام ١٩٤٨ إبشروح كثيرة ، والبلاغة والخطابة للمروزي (١٠) والمطابق والمجانس لابن الحرون (١١) وتهذيب الفصاحة لأبي سعيد الأصفهاني (١٢) وإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه للواسطي المعتزلي م ٣٠٦ هـ وصنعة البلاغة للباحث . وللسيرافي م ٣٦٨ هـ . ونظم القرآن لابن الأخشيد (١٣) ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ (١٤) وكتاب الرد على من نفى المجاز في القرآن للحسن بن جعفر (١٥) . . . ومن هذه الكتب أيضاً المفصل في البيان والفصاحة للمرزباني م ٣٧٨ هـ .

---

(١) ٢١٩ جـ ١ العمدة . (٢) ١٨٣ الموازنة (٣) ١١٦ الفهرست لابن النديم . (٤) ٣٨٣ المرجع . (٥) ٣٨ الجاحظ لمردم .
(٦) ٤٠ المرجع (٧) ٧٦ جـ ٦ معجم الأدباء (٨) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ جـ ٧ معجم الأدباء (٩) ١٧٨ فهرست (١٠) ٢١٥ فهرست
(١١) ٢١٢ فهرست (١٢) ١٩٧ فهرست (١٣) ٥٧ و٥٨ فهرست
(١٤) ٣٢٤ فهرست (١٥) ٥٢٠ فهرست .

على أن أهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ، أو التي ألفت فيها خاصة هي : كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي . ففي مقدمتها بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة . وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثراً وشعراً ، وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ ؛ وفيه كثير من بحوث البلاغة : فهو يعرف الاستعارة (١) ويتكلم على السجع (٢) ويشير إلى التفصيل والتقسيم (٣) والاستطراد والكناية (٤) والأمثال (٥) والاحتراس (٦) والقلب (٧) والأسلوب الحكيم (٨) . والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامي (٩) ويرى البلاغة في النظم لا في المعاني (١٠) وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (١١) . والجاحظ يشيد بالإيجاز (١٢) ؛ كما يدعو في البيان كثيراً إلى ترك الوحشي والسوق . ويحث على الإفهام والوضوح وعلى ترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام، إلى غير ذلك من شتى ما دونه في البيان..ولا يضير الجاحظ ان كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (١٣) ، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان ، وهي التي أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين المحدثين .

---

(١) ١١٦ ج ١ البيان . (٢) ١٩٤ ج ١ البيان . (٣) ١٧٠ ج ١ و ٩١ ج ٢ البيان . (٤) ١٨٠ ج ١ و ٨ و ٢٩ و ٣١ و ٨٠ ج ٣ البيان .

(٥) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ ج ١ و ٢٢٤ ج ٢ البيان . (٦) ١٦١ ج ١ البيان . (٧) ١٨٠ ج ١ البيان . (٨) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان .

(٩) ١٠١ البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجي ، ٧٦ ج ٢ العمدة .

(١٠) ٤٠ ج ٣ الحيوان . (١١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون . ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا .

(١٢) ٨٣ و ٨٦ ج ١ ومواضع أخرى . (١٣) ص ٦ و ٧ الصناعتين .

٣ ــ وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم « البديع » (١) وثعلب الذي ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ . ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ - ثم كتاب الموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة .

٤ ــ ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ . فألف في البلاغة كتابين جليلين هما :

١ ــ أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ ــ دلائل الاعجاز : وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني . كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا ، ويعد الجرجاني بكتابيه أول من وضع مناهج بحوث علم البلاغة العربية على وجه التحقيق .

٥ ــ وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره ، والرازي في كتابه « نهاية الإيجاز » ، وابن الأثير صاحب المثل (٢) السائر ، وبدر الدين ابن ابن مالك صاحب المصباح ، والتنوخي صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء في البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفى عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمي (٣) ، الذي ألف كتابه « المفتاح » ، وجعله أقساما ،

---

(١) على نهجه ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ هـ كتابه « البديع » .

(٢) شرحه عز الدين بن أبي الحديد م ٦٦٥ هـ في كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » . (٣) ٧٣ المفتاح .

وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعاني — البيان — البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل .

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي إلى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .

وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدويناً كاملا .

٦ — وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص (١) المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيراً من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها الأطول للعصام . والمطول (٢) للسعد وشروح التلخيص وسواها . . . وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي م ٦٢٩ هـ ، والتبيان لابن الزملكاني م ٦٥١ هـ والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن لابن أبي الإصبع م ٦٥٤ هـ . والفوائد الغياثية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرماني م ٧٨٦ هـ ، والتبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ . والطراز ليحي بن حمزة العلوي م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكي م ٧٧٣ هـ ، والسمرقندية للسمرقندي وهي رسالة في الاستعارات ، وتوفي السمرقندي عام ٨٨٠ هـ .

---

(١) لزكريا الأنصاري م ٩٢٦ هـ « مختصر تلخيص المفتاح » . وللعباسي م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص (٢) عليه كتاب في شرح شواهده اسمه عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ في ١٦٦ صفحة .

٧ — شروح المفتاح للسكاكي

أ — شرحه بتمامه المولى حسام

ب — وشرح القسم الثالث منه : الشيرازي م ٧١٠ هـ في « مفتاح المفتاح » ، والترمذي وهو معاصر للشيرازي ، والخلخالي م ٧٤٥ هـ ، والسعد (٧١٢ — ٧٩١ هـ) ، والسيد م ٨١٦ هـ في « المصباح » الذي ألفه عام ٨٠٣ هـ (١) ، وعماد الدين الكاشي . وله رسالة في حل المتشابهات التي أوردها الخطيب على المفتاح ، والابهري سلطان شاه ، وطاشكبري زاده م ٩٦٢ هـ ، وشيخ زاده م ٩٥١ هـ ، والشريشي م ٧٦٩ هـ ، والخوارزمي ، وقد فرغ منه عام ٦٤٢ هـ ، والفناري م ٨٣٤ ، وله على شرحي السعد والسيد تعليقات ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ ؛ وسواهم .

حـ — واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجي ٩٩٠ هـ ، والقزويني ٦٦٦ — ٧٣٩ هـ ، والإيجي م ٧٥٦ هـ في الفوائد الغياثية ، وبدر الدين ابن ابن مالك م ٦٨٦ هـ في « المصباح في اختصار المفتاح » ؛ ونظم « المصباح » المراكشي ، ثم شرحه وسماه « ضوء الصباح على ترجيز المصباح » ؛ واختصر هذا المختصر ابن النحوية م ٧١٨ هـ ، وسماه « ضوء الصباح » ، ثم شرحه في مجلدين في كتاب إسفار المصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد بن خضر « مصباح الزمان في شرح المصباح » .

هذا وقد ألف السعد « المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني »

---

(١) على شرح السيد حواش : للبسطامي م ٨٧١ هـ ، وللمولى اللطفي م ٩٠٠ هـ ، ولحميد الدين م ٩٠٨ هـ ، ولأسعد الناجي م ٩٢٢ ، ولمحي الدين الفنري م ٩٥٤ ، وللشهاب الخفاجي م ١٠٦٩ هـ .

وانتهى من تأليفه عام ٧٤٨ هـ ؛ كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام ٧٥٦ هـ . . وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر السعد في مكناسة في المحرم ١١٠٨ هـ . . وانتهى ابن السبكي من تأليف شرحه « عروس الأفراح » على مختصر السعد في جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ . . وانتهى الدسوقي من كتابة شرحه على مختصر السعد في شوال عام ١٢١٠ هـ.

٨ ــ ويمتاز الايضاح للخطيب القزويني بعدة ميزات ظاهرة : فهو أوفى كتاب في بحوث البلاغة ، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما وأسلوبا ، وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط لاسرار البلاغة العربية ، فوق أنه كتاب تطبيقي جميل في البلاغة ، وينقد القزويني فيه كثيراً من آراء السكاكي ، وإن كان يعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر والسكاكي كثيرا . ومع ذلك فالخطيب يجمع في كتابه خلاصات لبحوث علماء البلاغة في شتى العصور حتى عصره ، والكتاب بعد ذلك غزير المادة كبير الفائدة في الادب والنقد والبلاغة والبيان (١) .

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت في البلاغة في عصر الحواشي ، ومن بينها عقود الجمان للسيوطي . كما ظهرت في العصر الحديث عدة مؤلفات في البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار .

---

(١) شرحه الأقصرائي م ٨٠٠ هـ ، وحيدرة م ٨٢٠ هـ ، والأستاذ الصعيدي والأستاذ التنوخي .

٢

مؤلفات متأخرة في البلاغة

١ — من شروح تلخيص المفتاح للخطيب : شرح للخلخالي م ٧٤٥ هـ . وشرح للزوزني م ٧٩٢ هـ . وشرح لابن عربشاه م ٩٤٥ . وقد شرح العباسي أبيات التلخيص في كتابه « معاهد التنصيص » ونظمه السيوطي في كتابه «عقود الجمان» .. وقد شرح جمال الدين محمد بن محمد الأقصرائي م ٨٠٠ هـ كتاب الإيضاح للخطيب القزويني في كتاب أسماه « إيضاح الإيضاح » . . (٢ و ٤٥٩ بلاغة — دار الكتب المصرية — مخطوطات) .

٢ — وعلى المطول حواش كثيرة : منها حاشية السيد م ٨١٦ . وحاشية الفنري م ٨٨٦ ، وحاشية منلا خسروم ٨٨٥ . وحاشية السيرامي المصري م ٨٣٣ وحاشية الحفيد م ٩٠٦ هـ ، وحاشية الشيرازي م ٩٩٤ هـ ، وعز الدين بن جماعة م ٨١٩ هـ ؛ والبساطي م ٨٤٢ هـ ؛ والسمرقندي م ٨٨٠هـ وعبد الحكيم السيلاكوتي م ١٠٦١ هـ .

٣ — ومن الكتب المتأخرة في البلاغة : الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضري وقد شرحه ابن يعقوب . والشيخ أحمد الدمنهوري م ١١٩٢ هـ .

ومنها : تحفة الأعواز في علاقات المجاز للسجاعي م ١١٩٧ . وتحفة الإخوان في علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ . والرسالة البيانية للصبان م ١٢٠٦ هـ ، والتجريد للبنان م ١٢١١ هـ ، وحسن الصنيع للشيخ البسيوني م ١٣١٣ هـ ، وزهر الربيع للحملاوي م ١٣٥٢ هـ . والبلاغة الواضحة للجارم المتوفى في ٨ فبراير ١٩٤٩ ، وكتاب « فن القول »

للأستاذ أمين الخولي . وهناك مذكرات قيمة مطبوعة في بحوث البلاغة للأستاذ سليمان نوار . وللأستاذ حامد عوني . .

وللشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر سابقا . كتاب فيم في البلاغة لم يطبع بعد . ولا ننسى محاضراته البلاغية التي كان يلقيها في قسم الأستاذية بكلية اللغة العربية ؛ والتي أفاد منها جمهور كبير من العلماء ؛ وقد نشر بعضا منهـــا في مقالات علمية في مجلة الرسالة المصرية. ومجلة الأزهر منذ أمد طويل .

• • •

٣

نشأة البيان العربي

١ ـ كان للعرب في حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما في غنى من الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن . وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي ، وجمع مواد اللغة العزيزة . . وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل . وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي ، وظل التقدم الفكري والنضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة . . وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

ا ـ الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والإخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجـــاه (٢) . . وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء (٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية .

---

(١) ٢٠٩ ـ ١ البيان . (٢) ٢٢٤ ـ ٣ البيان . (٣) ٥٤ ـ ١ البيان .

ب ــ والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة في البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا (١) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) ، وحكم مذهبهم في النقد (٣) ؛ ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤) وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره في فهم أصول البيان وفي توجيــه دراسته وبحوثه وفي الدعوة الى آراء توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلقن مذاهبــه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ، كما نرى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة (٥) ، والتي يقول الجاحظ عنها إن بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة (٦) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان (٧) ؛ ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٨) وابن المقفع وسهل بن هرون (٩) والحسن والفضل (١٠) ابنا سهل ويحيي البرمكي وأخوه جعفر (١١) وأيوب بن

---

(١) ١٠٥ ــ ١ البيان . (٢) ٢٢٥ ــ ٣ البيان . (٣) ٢٤٠ ــ ١ البيان .

(٤) ١٠٦ ــ ١ البيان . (٥) ١٠٤ ــ ١ وما بعدها البيان . ٢٢٨ وما بعدها صناعتين . (٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ٥٥ ــ ١ البيان .

(٧) ولبشر كتاب في نظم كليلة ودمنة . (٨) ١٥١ ــ البيان .

(٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١٤٤ ــ ١ البيان . ٣٢ــ٣ العقد) .

(١٠) ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦ ــ ١٩ ج ٢ زهر) .

(١١) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥ و ٩١ ــ ١ البيان . ٨١ــ٢ زهر) ؛ وكان يؤثر الايجاز (٨١ــ١ البيان ، ١٧٧ ــ ١ الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون (١١ ــ ٢ زهر) .

جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة (١) وابن الزيات وسواهم .

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام . . ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع إلى آرائهم المبثوثة في شتى أصول الأدب . والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها . وان شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة (٢) ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز (٣) واقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجاز (٤) . وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٥) ، وحوار الشمري لعمرو بن عبيد في البلاغة (٦) . وتعريف الأصمعي للبليغ (٧) . ورأي ابراهيم بن محمد في البلاغة (٨) . وتعريف جعفر البرمكي للبيان (٩) . وتعريف العتابي للبلاغة(١٠). وتفضيل الجاحظ لرأيه (١١). ووصف الرشيد للبلاغة(١٢). ورأي شبيب بن شيبة في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة الابتداء (١٣). ووصف ابن المقفع كلام الأعراب (١٤)؛ الذين أعجب

---

(١) نوه المأمون ببلاغته (٢٦٤ — ٣ زهر) .

(٢) ٨١ — ١ البيان . وراجع ١٨ — ٢ الكامل .

(٣) ٢١٦ — ١ العمدة ، ٢٨٠ — ٢ الأمالي للقالي . (٤) ٨١ — ١ البيان .

(٥) ٩١ — البيان ، ٢١٤ — ١ العمدة . ١٥ — ١٧ صناعتين .

(٦) ٩٠ — ١ البيان . ١٤٢ — ١ زهر . و ٤٧ الرسالة العذراء .

(٧) ٨٦ — ١ البيان . ٢٢٠ — ١ العمدة . (٨) ٧٥ — ١ البيان .

(٩) ٨٥ — ١ البيان . ٤٢ — ٤٧ صناعتين .

(١٠) ٩٠ — ١ ، و ١٥٧ — ١ البيان . (١١) ١٢١ — ١ البيان .

(١٢) ٢٦٤ — ٣ زهر . (١٣) ٨٩ — ١ البيان . (١٤) ١١٨ — ٢ زهر .

الجاحظ ببلاغتهم (١) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام (٢) ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي (٣) ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى الكلام الخ (٤) ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب من المعنى البعيد والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها إبراهيم الامام : بانها الجزالة والاصابة وعرفها ابن المقفع : بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات (٥) ، ويقول أبو داود الايادي : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الأعراب (٦) الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف (٧) . ووصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب (٨)، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩هـ: البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه (٩) ، وقال ابن الرومي : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الاطالة (١٠)، ويقول البحتري :

---

(١) ١١٠ ـ ١ البيان . (٢) ٢٦٣ ـ ٣ زهر .

(٣) ٤٢٣ صناعتين . (٤) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .

(٥) راجع : ٤٤ ـ ٤٦ الرسالة العذراء . ٧٥ ـ ١ البيان ، ٢ و ٣ و ٢٢ ، ٢٣ـ٣ العقد ، ١٤٠ ـ ١٥٠ ـ ١ زهر ، ٨٧ـ٩١ ـ ٢ ديوان المعاني . ١٠٩ و ٢٠٢ إعجاز القرآن ، ٢١٣ ـ ٢٢١ ـ ١ العمدة . (٦) ١٤٧ ـ ١ زهر ، ٥١ ـ ١ البيان .

(٧) ٤٨ الرسالة العذراء (٨) ١٥١ ـ ١ زهر

(٩) ٢٦٨ ـ ٣ البيان (١٠) ٤١ صناعتين

خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل (١) . ويقول الثعالبي بعد : خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل (٢) ، ويقول ابن الأعرابي : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير (٣) .

جـ — وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بأداب الأمم الأخرى ، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبا تبحث في هذه الاتجاهات . وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيرا واضحا كبيرا ، ويمكننا أن نذكر شيئاً عن مجهود هذه الطبقة في خدمة البيان :

أهم عمل علمي قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ؛ فأما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبد الله وفسره الفارابي م ٣٣٩هـ »(٤) ؛ وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ، ونقله يحيى بن عدي ومتى (٥) في القرن الرابع من السريانية إلى العربية (٦) . . . وقد ألفوا

---

(١) ٣٦ — ١ المستطرف (٢) ٢١٨ — ١ العمدة

(٣) ٢١٧ — ١ العمدة (٤) ٣٤٩ فهرست

(٥) نشر الدكتور شكري عياد ترجمة متى بن يونس لكتاب الشعر لأرسطو أخيرا في القاهرة عن نسخة خطية كانت مودعة في مكتبة جامعة القاهرة .

(٦) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، وتجد تحليلا كاملا للكتاب في (٦٤ — ١٣٦ قواعد النقد الأدبي) ، وهو لم يصل إلينا كاملا وليس من شك في أن للكتاب جزءاً ثانياً قد فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون في رأيه الذي ذهب اليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشري ←

في صناعة الشعر . وللكندي رسالة في صناعة الشعر (١) ، ولأبي زيد البلخي كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضاً (٢) ، وكذلك لأبي هفان (٣). وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة في البلاغة وعناصرها وهي متفرقة في شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد في البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومي بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وعرفها الفارسي بأنها معرفة الوصل من الفصل ، وعرفها الهندي بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ؛ وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها ايضاح المفصل وفك المشكل ؛ واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند (٤) ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد (٥) ؛ ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق (٦) ، ويقسمها الكندي ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ؛ ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها (٧) ، ويقول : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني (٨) ، وذكر بزرجمهر

وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو في أوله : « سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفي البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع) . وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

(١) ٣٥٩ فهرست . (٢)١٩٨ فهرست . (٣) ٢٠٧ فهرست .

(٤) ٧٨ و ٧٩ — ١ البيان ؛ ٢٠ — ٣٨ صناعتين ، ١٤٤ — ١ زهر .

(٥) ٨٨ — ٢ البيان والتبيين . (٦) أصول النقد الأدبي للشايب .

(٧) ٢١٩ — ١ العمدة . (٨) ٣٥ — ١ المستطرف .

فضائل الكلام ورذائله فقال : فضائله ان يكون صدقاً وان يقع موقع الانتفاع به وان يتكلم به في حينه وان يحسن تأليفه وان يستعمل منه مقدار الحاجة ورذائله بالضد (١) الخ ؛ وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشيء وسؤالك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عنه ، فإذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فأحكم وإذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد في القليل (٢) ؛ ولعل ثعلبا حين ذكر في صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمرونهي وخبر واستخبار (٣) قد تأثر بذلك الرأي .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات في خدمة البيان ، ولها جميعا أثرها في نشأته وتطوره .

٢ ــ ومن الكتب الأولى التي ألفت في دراسات البيان وموضوعاته : مجاز القرآن لأبي عبيدة ، وكتاب البيان لابن السكيت (٤) وكتاب الفصاحة للدينوري (٥) ، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٦) ، وصناعة الكلام للجاحظ (٧) ، وكتاب التمثيل له (٨) ، ونظم القرآن أيضا (٩) وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد (١٠) ؛ وللحراني كتاب في البلاغة (١١) ولثعلب قواعد الشعر . ولابن مقسم تلميذه كتاب دخول إلى صناعة الشعر (١٢) ، وللمروزي كتاب البلاغة والخطابة (١٣) ، ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس (١٤) ، ولأبي سعيد الأصفهاني كتاب تهذيب

---

(١) ١٨٣ ــ الموازنة . (٢) ١٠ أدب الكاتب .

(٣) ص ١١ قواعد الشعر . (٤) ٢٠٨ ــ ١ كشف الظنون . وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيان والتبيين .

(٥) ١١٦ فهرست (٦) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسي خدم المنصور والمهدي

(٧) ٣٨ الجاحظ لمردم (٨) ٤١ المرجع ، ٧٦ ــ ٦ معجم الأدباء

(٩) ٤٠ الجاحظ لمردم (١٠) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ ــ ٧ معجم الأدباء

(١١) ١٧٨ فهرست (١٢) ٢٦ بغية الوعاة

(١٣) ٢١٥ فهرست (١٤) ٢١٢ فهرست

الفصاحـــة . وللباحث كتاب صنعة البلاغة (٢) ولمحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي م ٣٠٦ ه كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه . ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن(٣) وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦هـ(٤) وللحسن بن جعفر كتاب في الرد على من نفى المجاز في القرآن (٥) .

٣ ــ وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مزيجا من ثقافات وأراء مختلفة عربية وغير عربية مؤلفة ومترجمة ؛ من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خالصا . وهنا سؤالان لا بد من الجواب عليهما وهما : متى نشأ البيان العربي . وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة . فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي حقا (٦) . ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده (٧) وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن (٨) ؛ وينقد باحث هذا الرأي (٩) . . ومن الضروري أن نفرق بين أمرين . نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ . ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية : فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده .

---

(١) ١٩٧ فهرست (٢) ٥٧ و ٥٨ فهرست

(٣) ٣٢٤ فهرست (٤) ٥٢ فهرست

(٥) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر (٦) ٤٨ ــ ١ النثر الفني ؛ ومن قبل رأى الصاحبي أن النحو والعروض نشآ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبي)

(٧) ٥٦ ــ ١ النثر الفني (٨) ١٦ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كليه اللغة

والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب اليه أكثر الباحثين . فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أو لم تبحث (١) ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم واما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على انها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري . « فعلم البلاغة اسلامي لا عهد للجاهليين به » (٢) ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على انه لا شك كان هناك في العصر الجاهلي وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها (٣) . وهذا كله مما لا سبيل إلى الشك فيه .

وفي رأيي أن الجاحظ جمع أصولا كثيرة للبيان العربي . ومن أجل ذلك يعد الخطوة الأولى في تأسيس علم البيان العربي ، والخطوة الثانية تمت على يدي ابن المقفع وكتابه البديع ، ثم تلاحقت الخطوات إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني ، فاستكمل علم البيان العربي على يديه قواعده ومناهجه واصوله .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية في نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية « فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئاً منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحتري ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في

---

(١) ٨ قواعد النقد الأدبي (٢) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية

(٣) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .

أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد » ، ثم ينفي أن يكون هو قد تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى ان ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا (١) ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي(٢) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان (٣) ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطوره جلهم من الأعاجم (٤) وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي (٥) وأنه حتّى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ، ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو ، على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليونان (٦) . وترجم كتاب الخطابة في النصف الثاني من القرن الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر (٧) وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق (٨) ، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأي الدكتور يظهر أول مرة في « نقد الشعر » (٩) ثم في « نقد النثر » الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة (١٠) .

---

(١) ٢٠ المثل السائر . (٢) ١٧٧ — ١ ضحى الإسلام .
(٣) ٣١ مقدمة نقد النثر . (٤) ص ٦ المرجع نفسه .
(٥) ٨ المرجع . (٦) ١١ وما بعدها المرجع .
(٧) ١٧ المرجع . (٨) ١٦ المرجع .
(٩) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر . (١٠) ١٧ وما بعدها المرجع .

على أننا قد بسطنا القول في ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان العربي وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إلى البيان اليوناني فأخذوا يدأبون على الإفادة منه في بحوث البيان العربي ودراسته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم في دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربي والتأليف فيه .

٤ ــ ونحن الآن نعرض عليك خلاصة وافية لأهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث والتي ألفت فيها خاصة .

ا ــ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي : وفي مقدمتها نجد آراء متفرقة في البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير إلى أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب (١) ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض في شرحه (٢) .

ب ــ الجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » :

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ، وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره فخرج واسع الثقافة عميق التفكير كثير الإحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية .

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (٣) ، كما أنه حذق الثقافة

---

(١) ص ٣ جمهرة أشعار العرب . (٢) ص ٢ المرجع .
(٣) ٤٠١ ــ ١ ضحى الإسلام .

الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه . وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (١) ، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامي عند البديعيين (٢) . ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق بأنه في أسلوب سقيم . فالجاحظ ولا شك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو كثيراً (٣) . وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (٤) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٥) .

ومن البدهي ان الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا . ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففي البخلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك لم أعرفك . قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « اكراز بوست بارون بيائي نشناسم (٦) :

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه « البيان » ، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا في الحيوان وفي كتابه البيان ، قرأ الجاحظ

---

(١) ٣٨٧ – ١ المرجع .

(٢) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ – ٣ البيان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان . (٣) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق . (٥) ص ٣ مقدمة نقد النثر .

(٦) ص ١٩ البخلاء . طبعة قديمة : ١٩ الجاحظ لمردم ، ١٨ البخلاء تحقيق الحاجري ، والنص محذوف من طبعة البخلاء بتحقيق الجارم .

من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأي لأرسطو فيه (١) وكان مصدرا كبيرا له في كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً (٢) ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكيء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٣) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٤) ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير (٥) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٦) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلسفتهم في الخطابة ذكر (٧) ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٨) هي من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (٩) ؛ وللجاحظ رسالة في نقد الكندي (١٠) .

ويذكر الجاحظ في البيان « صناعة الكلام » ويعني بها حينا علم الكلام (١١) ، وحينا آخر البيان (١٢) ؛ ويذكر اصطلحات أخرى كصناعة المنطق (١٣) وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة » (١٤) .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من

---

(١) ٦١ — ١ البيان . (٢) ٦٩ و ١٢٨ — ١ البيان . (٣) ١٥ — ٣ البيان.
(٤) ٧٥ — ١ البيان . (٥) ٧ — ٣ البيان . (٦) ١٦٥ جـ ٢ البيان
(٧) ١٥ — ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابتهم .
(٨) ٦٩ — ١ البيان ، وهي في ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .
(٩) ٧ — ٣ البيان . (١٠) ٤٢ الجاحظ لمردم .
(١١) ٦٩ — ١ البيان . (١٢) ١٠٨ — ١ البيان . ويشيد الجاحظ الكلام . (٣جـ ٤ زهر) . (١٣) ٧٩ — ١ البيان . (١٤) ١٨٣ —

روح أرسطو ؛ فدعوته إلى ترك الوحشي والسوقي (١) له نظير عند أرسطو الذي دعا إلى « هجر الألفاظ الخسيسة التي لا يستعملها إلا العامة » (٢) وقال « ينبغي ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد في المتانة مبلغ الأمر الذي يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة » ؛ ودعوة الجاحظ إلى الوضوح (٣) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور» : واللحن وخروجه عن حد البلاغة (٤) موجود في خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه » ؛ ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) في مواضعه (٥) . والإيجاز يوم الأيجاز والاطناب يوم الاطناب (٦) ؛ وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والاسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أي حال فمرجع هذا التشابه في الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التي شرحها أرسطو في

---

(١) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ جـ ١ البيان . (٢) راجع الشفاء لابن سينا وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهي منقولة من الشفاء .

(٣) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ — ١ البيان . (٤) ١٢١ — ١ البيان .

(٥) ٥١ — ١ البيان . ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ — ١ البيان) . (٦) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب) .

كتابيه . فانواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو (١) لا يشير إليها الجاحظ في بيانه . وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو ، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرا . ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو ، ويكفينا ذلك التحقيق في هذا المقام .

وبعد فللجاحظ في البيان العربي آثار كثيرة : كرسالته في تفضيل النطق على الصمت (٢) ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه (٣) » ،ويشيد به أبو هلال (٤) . ويعده ابن خلدون من أركان الأدب (٥) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام (٦) ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٧) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٨) . وينقد ابن شهيد الكتاب (٩) ورد عليه

---

(١) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه . ونظرية أرسطو في الوصل ، وهي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل . . ونصيب في نقده للكميت في قوله « تكامل فيها الأنس والشنب » لأنه باعد في القول (١٣٤ ــ ١ الأغاني ، ٣٥٥ ـ ١ الكامل) لا يم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٢) تجدها في ١٤٨ ــ ١٥٤ رسائل الجاحظ . (٣) ٨٠ العصر العباسي للاسكندري .

(٤) ٦ و ٧ الصناعتين . (٥) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون .

(٦) ٣٥ الجاحظ لمردم . (٧) ٢٢٧ ــ ١ العمدة .

(٨) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف . (٩) ١٩٨ ــ ١ ذخيرة

بعض المعاصرين (١) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره . وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة(٢) ، أو كما يصورها بشر بن المعتمر (٣) . أو كما يراها ابن المقفع (٤) : ولهذه النصوص قيمة كبيرة . وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي وتعطينا صورة مجملة لنشأته (٥) .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة : فهو يعرف الاستعارة (٦) ، ويتكلم على السجع (٧) ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم (٨) ، والاستطراد والكناية (٩) ، والأمثال (١٠) ، والاحتراس (١١) والقلب (١٢) ، والأسلوب الحكيم (١٣)، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب

(١) ٥٠ — ١ النثر الفني . (٢) ٧٩ — ١ البيان .

(٣) ١٠٤ — ١ وما بعدها البيان . (٤) ٩١ — ١ البيان .

(٥) ٣ مقدمة نقد النثر . (٦) ١١٦ — ١ البيان .

(٧) ١٩٤ — ١ البيان . (٨) ١٧٠ — ١ و ٩١ — ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .

(٩) ١٨٠ — ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٨٥ — ٣ البيان .

(١٠) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ — ١ و ٢٢٤ — ٢ البيان .

(١١) ١٦١ — ١ وما بعدها البيان . (١٢) ١٨٠ — ١ البيان .

(١٣) ٢٠١ و ٢٠٢ جـ ٢ البيان . ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز في الجواب » (١١٦ — ٢ البيان) .

الكلامي بهذا الاصطلاح (١) ، ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لا في المعاني قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجود السبك (٢) ؛ وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (٣) . يقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئاً مذكورا . . وفي البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ؛ مما لا داعي إلى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ؛ والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو اليه كثيراً في بيانه (٤) ؛ وفي الحديث عن رسول الله : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف (٥) ؛ ويحث على ترك الوحشي والسوقي وعلى الإفهام والوضوح ؛ وعلى ترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام ؛ وعلى أي حال فالبيان والتبيين أثر أدبي وعلمي نفيس ؛ والجاحظ يده على البيان العربي لا تجحد . ويعده ابن خلدون من السابقين في التأليف فيه (٦) .

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف من العلماء العرب الأوائل وهو أعظم السابقين إلى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل إليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الإحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت

---

(١) ١٠١ البديع ، ٧٦ — ٢ العمدة (٢) ٤٠ — ٣ الحيوان .

(٣) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ — ٢ البيان .

(٥) ٥ — ١ الكامل للمبرد . (٦) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون .

دراساته في كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (١). فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان .

ج – وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء في مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد في كامله . وإبرهيم بن المدبر في الرسالة العذراء . وثعلب في قواعد الشعر . وابن عبد ربه في العقد . وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه .

* *

---

(١) ٦ للصناعتين .

الجاحظ والبيان العربي

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الاسلامية في النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوي في كل أفق ، ويرن صداه في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالا عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة كما يقول ابن العميد، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الاسلامية في شتى عصورها ، فألفوا الكتب في الاشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقريظ الجاحظ — ، وبالغوا في الاشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره، ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والبيان وكان فخر الرجل في ان يلقب بلقبه واقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الاسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ؛ وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزي والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » . وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثني عليها ويستجيدها (١) .

---

(١) ٢١١ جـ ٣ البيان نشر السندوبي ط ١٩٢٧ .

ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من الشوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة . فقد عاش الجاحظ محروما من كل شيء إلا من مجد الأدب . وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد اليها في عهده كثير من الكتاب . ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل إنه حورب فيها من أجله حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ؛ وهذا الإخفاق في الحياة العامة الذي مني به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع والتوابع » . ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون . وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة . فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق اليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الامل غير بعيد الطموح ؛ لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ؛ فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر في هذا الاخفاق فذلك أحد ما نراه

من أسبابه الكثيرة حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا في روحه ودمه وحياته ؛ وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الاجنبية لا سيما الفرس ؛ وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ هـ . والذي أهدى له كتابه « الحيوان » وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذي سيق اليه الجاحظ مغلولا لانه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة . وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه اليه السياسة مهما حلق في اجوائها . وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من اخلاصه للحياة نفسها . وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها . فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ؛ وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن

(١٥٠ – ٢٥٥هـ) . وكان له في صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام وفي التفكير والمنطق كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة في الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا في عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الاسلامية في عصره لا بطلا من ابطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذاني فيه من أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف (١) . فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من احسانه فيما أحسن فيه ، ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة (٢) . وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الاسلامية في عصره ، فهو عالم من علماء الدين . ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية ؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري ، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الاسلامية في عصر الجاحظ . ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد

---

(١) ص ٨٢ مقامات البديع – المقامة الجاحظية (٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع

والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية . وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتّى مناحيها كابي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثر في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان .

وشخصية الجاحظ تطالعك في أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ؛ وهي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه .. يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم . فلا يفني شخصيته في شخصياتهم ، بل يراهم إخوانه ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب في جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره حتّى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا في معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدي تسترعي السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشعور .

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تآليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروي لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينك صور شتّى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم .

ومنشأ ذلك ان الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه وفي بحثه وتأليفه . فإذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف

فبأسلوبهم ولمن يفكر في مجال تفكيرهم . وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ولذلك كان كتاب «البيان» موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه . أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة . ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضي شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات . كما يرى بعض الباحثين المعاصرين (١) ؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار . ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتّى انه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب

(١) ٤٩ — ٢ النثر الفني .

كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه . وينال كتابه الذكر والذيوع . ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير . فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله – أو كثيراً منها – محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطرادي جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعده . وهذا الأسلوب الاستطرادي أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ؛ ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده ؛ والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء ولا سيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي :

شعره ونثره . وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيها البيان وشرفه ويلم فيها بالكثير من عيوبه الفطريةوسواها في استطراد جميل . ثم يشرح البيان ويحلل عناصره . ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره . ذاكراً بلاغة الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملما بالكثير من الخطباء . داعيا إلى قوة الطبع وشرف المعنى وجمال اللفظ وإلى مراعاة شتى المقامات والأحوال . مبينا أثر هذه البلاغة في النفس والوجدان . ويتكلم عن الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ؛ وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعيا البليغ إلى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العي والحصر ، ويدعو الأدباء الناشئين إلى أن يعرضوا إنتاجهم الأدبي على أولي الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومنزلتها في البيان . كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومتكلفه وعن منزلته الأدبية ، محللا عناصر الشعر نافيا أن يكون ما في القرآن من كلمات موزونة شعرا . ملما بطبقات الشعراء وألقابهم ، وينعي على المتقعرين . ويسرد أحاديث النوكى والحمقى سردا بليغا ، وبذلك ينتهي الجزء الأول من الكتاب الذي أودع فيه الجاحظ جل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها .

أما الجزءالثاني فتحدث فيه عن الخطابة وأقسامها وأثرها،وألم فيه بسحر بلاغة رسول الله في أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم عن الحوليات وطبقات الشعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم عن اللحن واللحانين والنوكى والحمقى والمجانين .

وفي الجزء الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التي قدحت بها في العرب

لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفي مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشعوبية فيه كثير من حرارة الإيمان التي أذكت في دفاعه روح الجدل وقوة المناقشة وسعة التفكير . وينقل الجاحظ كثيرا من حكم النساك ومواعظهم ، وخطب الخوارج وكلماتهم وسياسة بني العباس ودهائهم . ويتحدث عن رواية الأدب واتجاهات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسول الله وسحر إيجازه وبعده عن مذاهب العرب في شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته وعن مجد الشعر وأثره إلى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة: « وهذا أبقاك الله آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته ، وأردناه من تأليفه ، فان وقع على الحال التي أردنا والمنزلة التي أملنا فذلك بتوفيق الله ، وإن وقع خلافها فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب . وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها الفذ الكبير .

وأثر «البيان» وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإيفاؤه فيهما حقه من التقدير والإنصاف ودقة الحكم :

فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الادبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها سواء

كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل . وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميقه إلى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية — في كتابه — عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وأبي العاصي ، وكإبراهيم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر ، وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء ، فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » :

فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع في كتابه « الشعر والشعراء » الجاحظ في مذهبه الأدبي من إيثار الطبع والرونق والماء والبعد عن التكلف الاستكراه والتعقيد .

ومؤلف نقد النثر يبدو في كتابه أثر الجاحظ ، وهو وإن كان نقد بيان » الجاحظ في أول كتابه إلا أنه قد تأثر به إلى حد كبير ، فكلامه على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسعة أعم من البيان بالعبارة هو صنيع لجاحظ في كتابه ، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته ومناسبته سامعين ومطابقة الكلام للمقام (١) وتلك آراء الجاحظ ، ويرى أن لحن يستحسن من الجواري وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام

(١) ٩٦ نقد النثر .

والسكوت واقدار الالفاظ والمعاني بان يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى واللفظ فلا يكون اللفظ إلى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ . إلى غير ذلك من مظاهر التأثر والاحتذاء .

وكذلك دعا الآمدي إلى المذهب الأدبي الذي دعا إليه الجاحظ في كتابه البيان .

ودعوة أبي الحسن الجرجاني في وساطته إلى ترك التكاليف والاسترسال مع الطبع (١) ؛ وإلى تقسيم الألفاظ على رتب المعاني هي دعوة الجاحظ في بيانه ؛ وإن كانت مظاهر التأثر بالجاحظ تبدو معدومة في الوساطة .

وأبو هلال العسكري « في الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الإفادة منه ومن كتابه « البيان » . وكتاب « الصناعتين » سير في السبيل الذي عبده الجاحظ وإتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدها في الصناعتين وإن كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ؛ وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتمر ويشرحها ، وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الأول لأبي هلال .

وكذلك ابن سنان الخفاجى ينقل في كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا .

وعبد القاهر الجرجاني شديد التأثر بالجاحظ وكتابيه « الحيوان » و « البيان » ، يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر له ، وقليلا ما يشير إليه ؛ فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ ورأيه في أن فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه ولا لمعناه هو روح كلام الجاحظ ، وعبد

---

(١) من كتاب الوساطة .

القاهر ورأيه في السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الألفاظ من أن تكون مألوفة ليست وحشية ولا سوقية دعا إليها الجاحظ قبل عبد القاهر . وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ في بيانه ، وإيثاره من لكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك مما سبقه إليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا ، إلى غير ذلك من مظاهر التأثر الكثير .

ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الأدبي فهو سجل حافل للآراء المختلفة في النقد مما لا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب .. والجاحظ الذي نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذهب المطبوعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبي .. وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأي الجاحظ ويسير في تياره الفكري والأدبي كما يسير على ضوئه في البيان العربي وبلاغته .

— ٣ —

كان للعرب في حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، وكانوا بهذا الطبع وذلك الذوق وفي مثل بيئتهم البدوية في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد الأدبي ولأصول البيان العربي ومذاهبه واتجاهاته . كانوا يسمعون النص الأدبي فيوحي إليهم طبعهم بكل شيء ويرون ، من يسمع منهم ويأخذ عنهم في غنى بذوقه وطبعه عن كل شيء ، ولذلك بقيت أصول النقد والبيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات وتجاورت الطباع والأذواق ، فسرت العدوى في البيئة العربية الخالصة ، وظهرت في مظهر من اللكنة المستهجنة ومن الخطإ المردد في اشتقاق بعض الكلمات العربية وتصريفها وفي إعرابها وأشكال الحرف الواجبة لها .

فسرت بين علماء الدين والعربية روح من الجد والإقدام والعزيمة التي صممت على تلافي آثار هذه العدوى حتى لا تمس العربية في صميمها وفي كتابها المقدس الحكيم ، وظهرت لذلك الدراسات النحوية ثم اللغوية بمظهر جاد لا وناة فيه . بيد أن ذلك لم يثن رجال الأدب عن غاياتهم ، ولم يحل بينهم وبين اتجاهاتهم وطبائعهم ، فكثر النقد الادبي ودخلته روح جديدة من البحث والتوجيه والتعليل ، وتكونت من ذلك أصول أدبية موجزة لها قيمتها في الأدب والنقد والبيان .

وبعد أن أشبع الفكر الإسلامي رغباته من البحث والدراسة في تقويم اللسان العربي وتصحيح الملكات العربية في النطق واللهجة ، اتجه رجال العربية – مع مسايرتهم للدراسات العربية واللغوية – إلى الدراسات الأدبية والبيانية حرصا على إرضاء ملكاتهم رأذواقهم وتمشيا مع التطور الفكري والترف العقلي في دراسة العربية وآدابها ، ومسايرة لروح البحث المتجلية في الثقافات الأخرى التي امتزجت بالثقافة الإسلامية ، والتي كان لها الأثر والخطر في إثارة مشكلات الأدب والبيان ، وفي بحث عناصر بلاغة الكلام ، وفي توجيه أذهان الكتاب والأدباء إلى المجدي المقبول من الأساليب وطرق الأداء وفي التفكير والمعنى ، وفي مراعاة شتى المقامات وسائر الاحوال التي يجب على الأديب والخطيب والكاتب والشاعر مراعاتها والإلمام بها . وكانت عناصر الثقافة البيانية والأدبية إذ ذاك تتجلى في طبقتين :

(ا) طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يرونه إشباعا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس

بالعرب والعربية (١) ومن عامة رواة لأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع الممكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة – كما يقول الجاحظ – دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والاخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يرون الا كل شعر فيه غريب (٢) . وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحقي ومنصور النمري وسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٣) ، وغيرهم من الخطباء ، ورجال الأدب والبيان . من بيت بني هاشم وبني العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤) .

(ب) طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (٥) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٦) وحكم مذهبهم في نقد (٧) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم

---

(١) ٢٠٦ – ١ البيان . (٢) ٢٢٣ – ٣ البيان . (٣) ٥٤ – ١ البيان .
(٤) ١٠٦ – ١ .
(٥) ١٠٥ – ١ (٦) – ٣٢٥ – ٣ (٧) ٢٤٠ – ١

قرءوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضي اتجاهات الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني . كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى في محـاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البـلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشراً مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر . فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٢) . وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدول الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية . وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التي تواثم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا في كتاب البيان والتي لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية تفيض سحرا وقوة وروعة . سواء في خطب الخطباء وشعر الشعراء ورسائل الكتاب ومحاضرات المحاضرين وجدل المجادلين . كما ظهر وعناصر البيان العربي تكاد تخطو في طفولتها

---

(١) ١٠٤ — ١ (٢) ١٥١ — ١ .

نحو الغاية وتسير في هدى العلم والذوق إلى منزلتها من الوضوح والتمايز والاستقلال ، فدخل الجاحظ المعمعة وتوسط الميدان وسار أنبه أبطاله المعلمين . . أما الجاحظ في بلاغة بيانه وجلالة أسلوبه وحلاوة منطقه واستقلاله بمذهب خاص في الكتابة والبيان فهو في ذلك ليس له نظير ولا ينكره عليه أحد ، وبحق ما وسم بشيخ الكتاب . . وأما الجاحظ في وضع أسس البيان وعناصر البلاغة العربية فهذا ما نريد أن نعرف أثره فيه.

خدم الجاحظ البيان العربي خدمة لا تقدر ، بالكتابة — في كتبه — في شتى بحوثه وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربي بتأليف قبل الجاحظ ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان في عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة منتهاها ، وما نجده في الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبي عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ في كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأي باحث أن ينكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفرد البيان بمعناه العام بالتأليف في كتابه الكبير « البيان والتبيين » . وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، وإذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل . ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب بعكس كثير من العلماء والباحثين .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبهما وعناصرهما في كتابه « البيان » على الخصوص . له وراء ذلك فضل

خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده ، وقبل أن نفصل ذلك كله نتساءل : ما هو لبيان الذي نريده ويعنيه الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » ؟

لا شك أن الجاحظ لم يعن بالبيان ذكر قواعد البلاغة العربية وأدائها في ألفاظها وأساليبها ومعانيها كما فهم مؤلف نقد النثر ونقد على ضوئه الجاحظ في كتابه البيان حيث يقول : « أما بعد فانك ذكرت لي وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي « سماه البيان والتبيين » وأنك إنما وجدته قد ذكر فيه أخبارا منتخلة وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على اقسامه في هذا اللسان ، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب (١) اليه » .

ولا شك أن أبا هلال العسكري كان أدنى إلى الانصاف حينما نوه في كتابه الصناعتين بكتاب « البيان » وذكر خطورته كمؤلف من مؤلفات البيان العربي ، وإن كانت أبحاثه في البيان موجزة مفرقة (٢) ، فهو بدون شك ومهما أردنا بكلمة البيان من معان مؤلف من مؤلفات البيان ؛ ولا يضيرنا بعد ذلك إن كانت بحوثه في البيان مجملة أو مفصلة أو مفرقة ، ونحن على كل حال في الرأي مع أبي هلال .

ولا شك أيضاأن ابن شهيد حين ذهب إلى أن كتاب « البيان للجاحظ » لم يكشف فيه مؤلفه عن وجه تعليم البيان ليرى القارىء كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان وكيف يكون التوصل إلى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأن الجاحظ استمسك بفائدته وضن بما عنده غيرة

---

(١) ص ١ نقد النثر (٢) ٦ و ٧ الصناعتين .

على العلم وشحا بثمرة الفهم (١) قد ظلم الجاحظ وكتابه وحكم عليه حكمه متأثرا باتجاهه هو في البيان الذي انتحى فيه ناحية تطبيقية حتى كان كما يقول يعلم الشحاذ الأساليب التي يستدر بها عطف الناس (٢) . فابن شهيد حين أراد أن يكون «كتاب البيان » كتابا يرسم فيه مؤلفه طرق الأداء ويعبد سبل التعبير عن مختلف الأغراض التي تؤثر في عقول الناس وعواطفهم ، قد ظلم الجاحظ مرتين : ظلمه حين تناسى ما كتبه وما جمعه الجاحظ في رسم المذاهب الأدبية المختارة في الأداء والتعبير . وظلمه مرة أخرى حين حكم فيه اتجاهه هو ونقده على ضوئه وقاس كتابه بمقياسه .

وعلى كل فالجاحظ إنما أراد بالبيان ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته (٣) ، وأراد ما أراده جعفر بن يحيى من البيان ، وهو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد منه أن يكون سليما عن التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل (٤) . أراد به ساحر الأدب وروائعه من نثر ونظم وأسجاع ورسائل وخطب ومقالات وأحاديث وحجاج . وأراد به أمثل الأساليب وأقوم الألفاظ التي تقرب ما غمض من المعاني وتوضح ما خفي من الأفكار ، ذاكرا معها أصحابها من أولي اللسن والخطابة والبلاغة في المنثور والمنظوم ، ولذلك كان كتابه أخبارا منتخلة وخطبا منتخبة كما يقول مؤلف نقد النثر ، والجاحظ لا يكتفي بذكر ذلك وحده بل يذكر المذاهب الأدبية العامة في عصره وقبل عصره في النقد والأدب والبيان

---

(١) الزوابع والتوابع ، والذخيرة (٢) الذخيرة (٣) ٦٨ — ١ البيان

(٤) ٨٥ و ٨٦ — ١

كلما دعا إليها داع أو ألمت بها مناسبة . ويذكر في سياق ذلك آراءه الأدبية التي يؤثرها ويدعو اليها في شيء من الإجمال والإيجاز وفي مواضع متفرقة من كتابه كما يقول أبو هلال .

— ٤ —

ارتاب بعض الباحثين المعاصرين في شخصية الجاحظ في كتابه البيان ، ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه (١) . وهذا موضع مناقشة هذه الفكرة الجائرة .

ان من يمعن في كتاب « البيان » يؤمن معي ايمانا جازما بمدى ما في هذا الرأي من جور على الجاحظ وغبينة لكتابه ، فشخصية الجاحظ في كتابه البيان ليست معدومة ولا ضعيفة ، بل نراها قوية مهيمنة ونلمسها في ثناياه في مظاهر منوعة :

فهي فيما يذكره الجاحظ من أدب ورواية ، وفيما يسرده من آراء رجال البيان العربي في البلاغة وعناصرها ومذاهبها . ويكفي لظهورها في هذا المظهر صبغ شخصية الجاحظ لهذه الروايات بصبغته ، وهضم عقليته لها وإخراجها في أسلوبه الساحر . وفي استطراده الفاتن العجيب ، وفي سعة تامة وإحاطة كبيرة باللغة والأدب والبيان .

وهي في تعليقه على هذه الروايات والآراء . وفي نقده لها وحكمه عليها . ولن نحصي من ذلك نقده للآراء العامة في الأدب وما يتصل به . مما نراه في تعليقه على رأي الأهتم في الأحنف بن قيس (٢) ، وفي موافقته

(١) ص ٧ مقدمة نقد النثر .

(٢) ٥٧ و ٥٨ — ١ .

لرأي أياس في حمد إعجاب الرجل بقوله (١) ، وفي تعليقه على الحكمة القائلة : قيمة كل امرىء ما يحسنه (٢) ، وفي ثنائه على كلمة بليغة لمحمد بن علي (٣) ؛ وفي نقده لرأي في تعليل تهيب عمر في خطبة النكاح (٤) ؛ وفي مناقشته لكلمة عن ابن الزبير (٥) ؛ وفي نقده لمن يستحمق المعلمين ورعاة الغنم (٦) ؛ وفي نقده لرأي من يضع الحبشة مع الأمم العريقة في الثقافة (٧) ؛ وفي نقده رواية خطبة رويت لمعاوية (٨) إلى آخر ما فيه من التعليق والنقد في هذا الباب . إنما نريد نقده لما يتصل بالبيان من آراء ومذاهب تمس صميم البلاغة العربية ، ولا بأس أن نعد بعض هذه التعاليق والنقود .

أنشد خلف الأحمر الجاحظ :

وبعض قريض القوم أولاد علة   يكد لسان الناطق المتحفظ

فعلق الجاحظ على هذا البيت تعليقا جميلا ، فالشعر « إذا كان مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات . . . وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الأذهان (٩) » وذلك تقرير لبلاغة الألفاظ والنظم ولتنافر الحروف والكلمات سبق اليه الجاحظ عبد القاهر وشيعته والسكاكي ومدرسته بقرون .

ويرى بليغ أن بلاغة الكلام في أن يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا

---

(١) ٨٢ – ١ .   (٢) ٧٣ – ١ .

(٣) ٧٤ – ١ .   (٤) ٩٢ – ١ .   (٥) ١٩٢ – ١ .

(٦) ١٧٤ – ١ .   (٧) ١٤٣ – ١ .   (٨) ٥٧ – ٢ .   (٩) ٦٢ – ١

يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك ، والجاحظ يثني على هذا الرأي ويجتبيه (١) .

ويرى ابن المقفع أنه يجب أن يكون في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته (٩١-١ بيان) ، فيشرح ذلك الجاحظ ويدلي برأيه فيه (٢) ، مقررا بلاغة الاستهلال تقريرا ليس بعده من غاية .

والجاحظ جد معجب ببلاغة الكتاب ، يتجلى ذلك في نقده لمذهبهم الأدبي في الكتابة والبيان (٣) ، وهو يرى أن حديث الأعراب الفصحاء بالغ الغاية في الإمتاع ، وليس أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان (٤) منه ، كما يعجب ببلاغة المتكلمين والنظارين ويراهم فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٥) .

وذكر الجاحظ رأي إبراهيم بن محمد في البلاغة وأنه يكفي من حظها ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع ، ثم أشاد به وأثنى عليه (٧٥ ـ ١) .

واختلف علماء البيان في الخطابة وهل يستجاد فيها الاشارة والحركة ؟ فذهب النظام إلى استجادتها ، وجعلها رجل كأبي شمر عيبا في الخطيب ، والجاحظ يذكر ذلك ويميل إلى رأي استاذه النظام محللا رأي أبي شمر ويرجعه إلى صفاته الخلقية والنفسية من الوقار والتزمت (٦٩ و ٧٧ و ٧٨-١) .

ويختلفون كذلك في شيء آخر يمس الخطيب والبليغ ، فهل السمت

---

(١) ٩١ ـ ١ (٢) ٩٢ ـ ١ (٣) ١٠٥ ـ ١ و ٢٢٥-٣
(٤) ١١٠ ـ ١ (٥) ١٠٦ ـ ١

والجمال من تمام آلة البليغ أو لا ؟ يورد الجاحظ ذلك ويذكر بتفصيل رأي سهل بن هرون في عدم عدهما من أدوات البلاغة (٧٦–١) ، ولا شك أن الجاحظ كان يدافع عن نفسه بما أورده وفصله في ذلك الموضوع .

وكثرة الكلام يراها بليغ كاياس خيرا وبلاغة ، ولكن الجاحظ يرد عليه ، لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية (٨٢–١) . . وكذلك إعادة الحديث من العلماء من ذمه ومنهم من حمده ومنهم من جعل لحمده مواضع وأسبابا ، والجاحظ يتكلم في ذلك ويدلي برأيه فيه ويجعله على قدر المستمعين له ودرجاتهم العقلية ، ويعلل سر ما في الذكر الحكيم من إعادة وتكرير (٨٤ و ٨٥–١) .

والجاحظ يروي وصف ثمامة بن أشرس لبلاغة جعفر بن يحيى (٨٥–١) ، ويصف هو بلاغة ثمامة (٨٩–١) ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره ويدعو إلى اجتناب السوقي والوحشي وإلى أن لا يجعل الأديب همه في تهذيب الألفاظ وشغله في التخلص إلى غرائب المعاني (١٧٦ و ١٧٧–١) . والجاحظ هو نفس هذا البليغ . وكثيرا ما يتستر فيخرج آراءه في معرض الرواية عن سواه لغرض سنعلمه بعد حين ؛ وذلك كله يستحق الدراسة والإمعان ، لأنه يمس عناصر البيان وبلاغته .

والخطبة يستحسن أن يكون فيها آي من القرآن أو بيت من الشعر أم لا ؟ يذكر ذلك الجاحظ ويروي مذاهب البلغاء فيه (٩٣–١) ، ويذكر أن منها الطوال ومنها القصار ، وأن لكل مواضع تليق به(١٩–٢)

ويرى العتابي أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فيذكر الجاحظ ذلك ويحلله (١٢١–١) . والصمت يحمده قوم ويذمه قوم (١٤٣– ١٤٦ ، ١٨٣–١) والجاحظ يقف من هؤلاء وهؤلاء موقف الناقد الحصيف ، فيناقش رأي من آثر الصمت (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٨٤ ،

١٨٥، ٢٠٥ ج ١) ويدلي برأيه هو في قوة وروعة ، داعيا إلى ألا يتمسك البليغ بحكمة الصمت ما دام يجد القوة والمقدرة والملكات البيانية المواتية (١٤٧-١) .

والشاعر أو البليغ قد يستطيع فنا من فنون البيان ويجيد فيه دون فن آخر ، ورأى بعض الشعراء حين سئلوا عن عدم إحسانهم في بعض أنواع الشعر وفنونه أن ذلك ليس مرجعه قصورا في ملكاتهم أو عجزا في مقدرتهم الأدبية ؛ والجاحظ يناقشهم ويفيض معهم في الجدال ذاهبا إلى أن الرجل قد يكون له طبع في فن من فنون الأدب دون فن وفي باب دون باب (٥١، ١٥٠، ١٥١ج ١ ، ٢٥٩ ج ٢) .

وبلاغة المتقعرين من اللغويين والنحويين يستسمجها الجاحظ وينقدها ويرى أن نهجهم فيها ليس من أخلاق الكتاب ولا آدابهم (٢٤٠-١) .

وللشعوبيين رأي في العرب وبيانهم ، والجاحظ لا يدعهم دون ان يحاسبهم ويناقشهم ويرد عليهم في قوة وحرارة دفاع ، وفي كل ما أخذوه على العرب ، لا سيما ما يمس البيان والبلاغة بوجه خاص (١٥ و١٦-٣).

ويرى بعض الباحثين أن أداة الكتابة وقرض الشعر كانت في رسول الله(ص)معدومة ، فيناقش الجاحظ رأيهم ذاهبا إلى أنها كانت في رسول الله تامة ، ولكنه (ص) صرف تلك القوى إلى ما هو أزكى بالنبوة ، وأراد أن لا يكون للشاعر متعلق عما دعا إليه ، وأنه (ص) لما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة (٢٣٠ و ٢٣١-٣) ؛ ونحن نستجيد رأي الجاحظ كل الاستجادة ؛ وعلل الجاحظ أمية رسول الله وعدم قرضه الشعر في إفاضة وقوة بيان (٢٢٨-٢) ، وأدلى برأيه في قوله (ص) : نحن معشر الأنبياء بكاء (٢٧٦-٣) .

وأخيرا فهذه شخصية الجاحظ في بعض ما ناقش فيه آراء رجال البيان وهي لعمري شخصية قوية مهيمنة لا تدعك حتّى تؤمن بالجاحظ وثقافته ومذهبه واتجاهه في الأدب والبيان .

وللجاحظ فوق ذلك كله شخصية الباحث في أصول البيان العربي :

١ - فالجاحظ أظهر من تكلم البيان في وحاجته إلى التمييز والسياسة والترتيب والرياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن وأن حاجة الكلام إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة . وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتزين به المعاني (٣٠ - ١) ولذلك فقد تحدث عن عيوب النطق وآفات اللسان (٣١ و ٣٣ و ٤٤-٤٦ و ٥٨-٦٢ و ٦٦ و ٦٧ ج ١) ، وتكلم على تنافر الحروف والألفاظ (٦٢-٦٤ ج ١) ونادى بضرورة تجنب البليغ ألفاظ المتكلمين (١٠٦-١٠٨ ج ١) وبترك الوحشي والسوقي (١١٠ ، ١٧٦ ج ١) وكراهة الهذر والتكلف والتعقيد والتقعير والإسهاب والفضول (٢١ و ١٤١ و ٣٣٩ ج ١) ، ونفى الكلام الملحون عن أن يكون من البلاغة (١٢١-١٢٤ ج ١) متحدثا عن اللحن واللحانين (١٥٥-١٥٤ ج٢) . . وذكر البيان وأن مداره على الافهام (٦٨-١) والوضوح مع شرف المعنى وبلاغة اللفظ وصحة الطبع والبعد عن الاستكراه والتكلف ومع قوة التأثير وسحر البيان (٧٣ و ٧٥ و ٨٩ ج ١) وأن يكون الكلام موزوناً أصيب به مقدار الحاجة (١٦١، ٦٢ ج ١) مع العارضة واللسن (١٣٠، ١٦٣ ج ١) ومع ترك الاسراف في الصنعة والتهذيب (١٧٦-١) ومع استعمال المبسوط والمقصور في موضع البسط والقصر (٢٨١-٢) ومع الطبع المتمكن والديباجة الكريمة والماء والرونق (٢٢٤ و ٢٢٥ ج ٣) ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف والفضول والتعقيد ، حبب إلى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه الأسماع وخف على الألسن وشاع في الآفاق .

وكثيرا ما يكرر الجاحظ اصطلاحات أدبية خاصة مثل « صناعة الكلام »

(٦٩ و ٢٢٠ ج ١) وصناعة المنطق (٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ ج ١) وهو يعني بذلك هذا اللون الخاص من البيان البلاغي الذي يرسم مناهج الأداء .

وعني الجاحظ أكثر ما عني بالخطابة فأطال الكلام في أوصافها وعناصرها وأدواتها ومظاهرها وفي هيئة الخطيب وسمته ، وذكر عيوبها وآفاتها ، ودعا الخطيب إلى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، وإلى أن يطيل حيث تجب الاطالة ويوجز حيث يجب الايجاز ، وذكر أكثر أعلامها ورجالها حتى عصره . كما تكلم على رسالة الخطيب وأثرها في نفسه ؛ وأورد من الخطب القصار والطوال الكثير الرائع .

وتكلم على النثر والمحادثة والكتابة : بلاغتها وعناصرها ومذاهب الكتاب الأدبية فيها ، وعلى سحر الحديث المعاد ، والسجع مطبوعه ومتكلفه وبلاغة المطبوع منه ، وعلى اللحن وبدء ظهوره واللحانين ، وكثير من المثل في لحنهم ، وذكر الحكم والمواعظ والزهد والدعوات السياسية والدينية وكثيرا من مثلها ، وتكلم على رواية الأدب وطبقات الرواة من نحويين ولغويين وإخباريين وأدباء واتجاهاتهم في الرواية .

كما ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه وطبقات الشعراء ؛ وتحدث عن مذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة منهم ، وعن الحوليات ورجالها ، وذكر بعد كلام الله ورسوله عن الشعر ، ومكانة الشعر والشعراء في الجاهلية وكيف غلبته الخطابة أخيرا بعد التكسب بالشعر وكثرة الشعراء ، وحتم على الأدباء الناشئين عرض ثمراتهم الأولى على أولي العلم ورأى أن اجتماع الشعر والرجز والخطابة قليل ، وقلما ينبه الانسان في أكثر من فن واحد منها ، وأن الشعر والغناء والنادرة مما يستجاد أطرافها دون أوساطها ، و تكلم على استواء الشاعرية واختلافها إلى غير ذلك مما يتصل بصميم البيان ، ومما تراه متفرقا في الأجزاء الثلاثة من كتاب البيان .

٢ – ودعوة الجاحظ في كتابه « البيان » – وفي مواضع متفرقة منه لا سيما الجزء الاول من كتابه الكبير – إلى مذهب أدبي جديد مستمد من عقليته وثقافته وبيئته هي المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين . ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من سحر اللفظ وتلاؤم الحرف ، ووضوح المعنى وترك التكلف والتعقيد والاغراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام وإصابة الغاية ، مع الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر إيجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته ، ومع الحرص على إيثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال عليه ، بالفكاهة الجميلة . والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلقي في روع السامع والقارىء روح الهيبة والاعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقـــد مما تجعل السامع والقارىء متطلعا مسايرا للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية ، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام . ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار ، وليكتسب به رضاه وتقديره واعجابه . ولا أحيلك في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أي صفحة وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن معي بما ذكرت .

٣ – وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان :

اتجاه يرمي إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدي في الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهي من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه . واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة في العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ؛ وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير . وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأي ، فهو حيناً يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم في البيان (١٠٥ ـ ١) وحينا يكرر الدعوة إلى الوضوح والافهام ومسايرة الذوق والطبع (٧٣ج١ و ٢٠ج٢ و ٢٢٥ج٣) ؛ وحينا ينقد مذاهب الصنعة في الشعر (٥٤ ، ١٥٠ ج١ و ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ج ٢) وحينا يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتقعير وايثار الأساليب السمحة الكريمة الساحرة (١١٠ج١ و ٢٠ ، ٢١ ج ٢ و ٢٢٤ ج ٣) .

٤ ــ وتكلم الجاحظ عرضا على ألوان كثيرة من البيان ، وحلل كثيرا من أساليبه البيانية :

ذكر البديع ، حينما ذكر بعض مثله وأساليبه ، ورأى أنه مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وذكر كثيرا من الشعراء الذين أكثروا منه في شعرهم ، « ورأى أنه لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (٢٤٢ج٣ ، ٥٤ و ٥٥ و ١) . . وتكلم على ألوان من البيان من سجع ومزدوج وقصيد وأرجاز (١٦ج٣) ؛ فأما السجع فقد تكلم عليه الجاحظ بتفصيل وذكر آراء رجال البيان فيه وآثر المطبوع منه (١٩٤ و ١٩٥ ج ١) وأما المزدوج من الكلام فقد ذكر له مثلا في باب صغير عقده له (٩٦ج٢) ومن مثله التي ذكرها الحديث : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . وقول مالك بن الاخطل في الشاعرين « الفرزدق وجرير » : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر .

وتكلم على الاستعارة وعرفها حين ساقه الكلام إلى ذكر مثل من مثلها

ورآها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه (١١٥ و ١١٦ جـ ١) ، ويرجع بعض الأساليب إلى الاستعارة (راجع ١٩٢—١) . . وذكر التفصيل والتقسيم حين مر بأسلوبين من أساليبهما (١٧٠—١ ، ٩١ و ٩٢—٢) . . وتكلم على الاستطراد وبلاغته وأثره في التأليف والكتابة (١٣٨—١ ، ١٠٥—٣) . . وذكر كثيرا من مثل الكناية وحللها (١٨٠—١ ، ٣١ جـ ٣) ، كما ذكر كثيرا من الأمثال التي ضرب بها العرب المثل (٨٦، ١٨٣ جـ ١) . . وتكلم على جودة الابتداء ، وجودة القطع والقافية — أي حسن خاتمة الكلام والشعر — (٨٩ و ١٥٥ جـ ١) . . وعقد الجاحظ بابًا قال فيه : ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون إصابة المقدار ، وذكر كثيرا من مثله ، وهذا هو باب الاحتراس الذي ذكره البيانيون . . وحلل الجاحظ كثيرا من الأساليب البيانية البليغة (راجع ١٦٣ ، ١٦٦ جـ ١ و ٢٠١ جـ ٢) تحليلا بيانيا احتذى حذوه فيه العلماء ؛ وذكر مثلا رائعا للتشبيه (٢٢٩—٢) وأشار اليه في الجزء الثالث صـ٢٤٣ ؛ وعقد الجاحظ فصلا من فصول كتابه عنونه بباب اللغز في الجواب (١١٦—٢) ؛ والمذهب الكلامي نوع من البديع كان الجاحظ أول من لقبه (١) به ؛ والجاحظ جد خبير بمذهب الإيجاز وكثير الدعوة والإشارة إليه (٨١جـ ١ و ١٩٨ جـ ٢) ؛ وأشار الجاحظ إلى أسلوب القلب (١٨٠ جـ ١) ، وإلى سواه من الأساليب التي يعنى بها علماء البلاغة .

وبعد فتلك آراء الجاحظ البيانية الخاصة به ، وهي وإن كانت دراسات موجزة مفرقة إلا أنها على كل حال ذات أثر كبير في خدمة البيان العربي .

---

(١) راجع البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجي ، ٧٦ — ٢ العمدة .

أول صحيفة في البلاغة لبشر بن المعتمر (٢١٠هـ)

عن البيان والتبيين للجاحظ

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا . . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جواهر ، وأشرف حسبا ، وأحسن في الاسماع . وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع . .

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

وكن في ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ؛ فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون . ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك بصيراً بما عليك او مالك عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . . فإن ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك . فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات

إليك وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع اليه إلا وبينكما نسب . والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ، فهكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

* *

الخطيب وأثره في البلاغة العربية

والخطيب القزويني (١) هو « جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن ، ابن خطيب دمشق » كما يقول جورجي زيدان ، وبتفصيل أوسع هو « الشيخ الامام العالم العلامة خطيب الخطباء ، مفتي المسلمين ، جلال الدين ، أبو عبد الله ، محمد ، ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن ، إبن إمام الدين أبي حفص عمر ، القزويني الشافعي » كما يقول تلاميذه أو هو نفسه في مقدمة كتابه الايضاح .

فهو من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها ولا شك أثرها في حياته وتفكيره وروحه .

ولد عام ٦٦٦هـ ، وتعلم الفقه ، ونولى القضاء ، وانتقل إلى دمشق ، وتولى الخطابة في مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، اكتسب مالا طائلا ، ثم جاء إلى دمشق وتوفي فيها ، وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والإيضاح في المعاني والبيان(٢) ، وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ، كما يقول صاحب الدرر الكامنة .

وتدل مؤلفات الخطيب في البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات في البلاغة وفي مقدمتها : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكي .

---

(١) شذرات الذهب ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وسواها .

(٢) وقد حرف جورجي زيدان اسمه فذكره « الافصاح » بدل الايضاح (٤٤ ج ٣ تاريخ آداب اللغة العربية) .

ألف الخطيب مختصراً صغيراً للمفتاح في البلاغة ، أو للقسم الثالث بعبارة أوضح ، وسماه « تلخيص المفتاح » (١) . لخص فيه ذلك السفر العظيم وقدم فيه وأخر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون ، « ومن العجيب أن يسمى كتابه بهذا الاسم ، وهو في رأي أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده ، بل أشبه بأن يكون تلخيصا لكتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي . . وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح في مقدمته » (٢) . وقد يكون في هذا الرأي لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة في قليل ولا كثير ، انما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده ، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه إلى المفتاح نفسه ، الذي اعتمد فيه السكاكي على عبد القاهر إلى حد بعيد . وقد يستساغ ذلك في الإيضاح لا في « تلخيص المفتاح » .

ثم ألف الخطيب كتابه الايضاح في البلاغة على ترتيب التلخيص . وبسط القول فيه ليكون كالشرح له . فأوضح مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات في بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير إليه الخطيب نفسه في مقدمة الايضاح . والكتاب فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها

---

(١) شرحه الخلخالي م ٧٤٥ هـ . وناظر الجيش م ٧٧٨ هـ والبابرتي م ٧٨٦هـ . شمس الدين القونوي م ٧٨٨ هـ . والتيزيتي م ٧٩٣ هـ . والسيد عبد الله م ٨٠٠ هـ . عصام الدين م ٩٥١ هـ . والسعد م ٧٩١ هـ ، وعلى شرح السعد شروح : ليسن الحمصي ٩٦١ ، ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ وللدسوقي ١٢٣٠ هـ .

(٢) ٦٢ . ١٣٧ بحوث وآراء في علوم البلاغة للأستاذ المرحوم أحمد المراغي .

روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمي والرصانة الأدبية (١) .

وعلى « تلخيص المفتاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشي والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثين . ولا يزال منهج الخطيب في البلاغة وفي تلخيصه بالذات هو المنهج العلمي في علوم البلاغة إلى عصرنا الراهن .

وكتاب الإيضاح عمل جليل في البلاغة : سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ؛ أم في استيعابه واستقصائه وتحليله ، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم في أسلوبه الأدبي وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية . وهو أهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر .

وهذا شرح جديد للايضاح : يتناول بالبحث والتحليل والدراسة والتعليق والشرح جميع مسائله وشواهده . ويشير إلى مصادره ومراجعه التي الف منها الخطيب هذا الكتاب . وهو عمل سيكون له أثره في البلاغة العربية . وفي خدمة الإيضاح وتذليل صعوبات البحث فيه بتوفيق الله .

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث . وطول المراجعة : وكثرة الشرح والتفصيل : والالمام بكل رأي : وتحليل كل مذهب ما عليه وما له : وبعرض آراء جديدة في شتى بحوث البلاغة وعلومها . . كما يمتاز بمقدمته التي هي تأريخ للبلاغة ونشأتها وأطوار التأليف فيها . وغير ذلك مما يحتوي عليه من مميزات . وقد وضعنا للكتاب بعض العناوين مساعدة على فهمه وإيضاحه .

---

(١) ٦٣ المرجع . . وفي المكتبة الأزهرية حاشية مخطوطة على أبيات الايضاح . وهي نسخة في مجلد بقلم فارسي في ١٢٦ ورقة بنمرة (٤٣) ١٠٩٥ . وفيها نسخة أخرى في مجلد بقلم معتاد بخط محمد حسن سنة ١٣٦٥ في ١٥٠ ورقة بنمرة (٢١١٠) ٥٢٨٦ . وللأقسرائي شرح مخطوط على الايضاح . بدار الكتب المصرية .

ترجمة الخطيب

عن الدرر الكامنة لابن حجر (١) ، والعقد المذهب لابن الملقن ، وشذرات الذهب (٢)

هو قاضي القضاة أبو المعالي جلال الدين محمد بن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن امام الدين عمر القزويني الشافعي .

ولد بالموصل سنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم ، مع والده واخيه واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولي قضاء نيكسار من بلاد الروم ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروثي وطائفة وحدث وتفقه واشتغل في الفنون وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان . وكان فهما ذكيا مفوها ذا ذوق سليم حسن الايراد والمحاضرة حلو العبارة فصيحا جميل الهيئة كبير الذقن جواداً أديبا حسن الخط . وناب عن أخيه الأكبر امام الدين قاضي قضاة الشام إلى أن مات أخوه سنة ٦٩٩ ثم ولي خطابة جامع دمشق فأقام بها مدة طويلة ثم طلبه الملك الناصر إلى القاهرة في سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنه اجتمع بالناصر ساعة وصوله فأمره أن يخطب بجامع القلعة فخطب مرتجلا مع ما هو عليه من التعب وأثر السفر فأعجب به السلطان وشكره وسأله عن حاله وكم عليه من الدين فذكر أن عليه ثلاثين ألفا فأمر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطابة جميعا إلى أن ولاه قضاء الديار المصرية في سنة ٧٢٧ فعظم أمره جداً وصرف مال الأوقاف على الفقراء والمحتاجين وحج مع السلطان فاعانه بمال وأحسن إلى المصريين والشاميين وكان لهم ذخراً وملجأ ولم يزل على

---

(١) ص ٦ ج ٤ طبع الهند عام ١٣٥٠ هـ - لابن حجر م ٨٥٢ .

(٢) ٦ - ١٢٣ شذرات الذهب .

حاله إلى أن أعيد إلى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهل الشام فاقام قليلا وتعلل وأصابه فالج فمات منه في سنة ٧٣٩ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرا وشيعه عالم عظيم ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ومراث عديدة وكان يرغب الناس في الاشتغال بأصول الفقه وفي المعاني والبيان وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمه السيوطي وسماه عقود الجمان . . وله ايضاح التلخيص ايضا . . وكان يعظم الارجاني الشاعر ويقول إنه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه (السور المرجاني من شعر الارجاني) . وقال الذهبي : عظم شأنه لما ولي قضاء الديار المصرية وبلغ من العز ما لا يوصف بحيث لا ترد له شفاعة وربما رمى على يد السلطان نفسه وكان فصيحا حلو العبارة ، مليح الصورة ، سمحا حليما كثيرة التحمل وسيرته تحتمل كراريس ، وذكر اليوسفي في سيرة الملك الناصر محمد أن القاضي كان محسناً إلى الناس كثير التصدق والمكارم والبر لارباب البيوت ، قال : انه لم يوجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركي نظير منزلة جلال الدين ، وكان الناصر يحتمل ما ينقل إليه من سيرة ولده حتى كان يقول لوالي البلد : اكبس فلانا ثم يرسل اليه يقول : لا تفعل ، نبقى في حياء من والده . . . فرحمة الله تعالى عليهم وغفرانه .

وترجم له السيوطي في بغية الوعاة (ص ٦٦) ، فنسبه إلى أبي دلف العجلي ، وذكر ما لا يخرج عما سبق ، ثم قال : ولا أعلمه نظم شيئا مع قوة باعه في الأدب ، ومات في منتصف جمادى الأولى عام ٧٣٩هـ .

ويقول صاحب الدرر الكامنة : إن له ابنا اسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني ، وهو ابن القاضي جلال الدين خطيب جامع دمشق . . وقد ترجم له (١).

---

(١) ١٨٥ جـ ٤ . . ويقول فيه : إنه ولد عام ٧٠١ هـ وتفقه ومهر في الخطابة ومات في جمادى الآخرة عام ٧٤٢ هـ .

أول كتاب الإيضاح للخطيب القزويني

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قال الشيخ الإمام ، العالم العلامة . خطيب الخطباء . مفتّي المسلمين . جلال الدين : أبو عبد الله محمد . ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن ، ابن إمام الدين أبي حفص عمر ، القزويني الشافعي . متع الله المسلمين بمحياه . وأحسن عقباه :

الحمد لله رب العالمين . وصلاته على محمد وعلى آل محمد أجمعين .

أما بعد : فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها (١) ؛ ترجمته (٢) بـ « الإيضاح » وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح . وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ؛ فأوضحت مواضعه المشكلة . وفصلت معانيه المجملة ؛ وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه « مفتاح العلوم (٣) » ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤) رحمه الله — في كتابيه : دلائل الاعجاز .

---

(١) علم البلاغة يشتمل على المعاني والبيان وتوابعها هو علم البديع والكلام في السرقات الشعرية (٢) المراد سميته (٣) تأليف السكاكي م ٦٢٦ هـ .

(٤) هو شيخ البلاغة العربية وفيلسوفها . توفي عام ٤٧١ هـ . واسمه أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني . وله ترجمة في فوات الوفيات في بغية الوعاة للسيوطي وعرض له ولكتابيه : الأسرار والدلائل صاحب كتاب بحوث وآراء في علوم البلاغة (ص ٥٨ ، ١٢٩ — ١٣٢) . . وقد ألفت فيه كتاباً عنوانه « عبد القاهر والبلاغة العربية » .

وأسرار البلاغة ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما (١) ؛ فاستخرجت زبدة (٢) ذلك كله . وهذبتها ورتبتها ؛ حتى استقر كل شيء منها في محله ؛ وأضفت إلى ذلك ما أدى اليه فكري ، ولم أجده لغيري .

فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم . واليه أرغب في أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولي الفهم .

وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(١) أي غير السكاكي والجرجاني (٢) زبدة الشيء : جوهره وخلاصته .

مقدمة

في الكَشْف عن مَعْنى الفَصَاحة والبَلاَغة . وانْحِصَار علم البلاغة في المعاني والبيان .

معنى الفصاحة والبلاغة

١ - للناس في تَفْسير الفصاحة والبَلاَغة أقوالٌ مُخْتَلِفَة . لم أجِدْ ــ فيما بلغني منها ــ ما يَصْلُح لتعريفهما به ، ولا ما يُشير إلى الفَرْق بين كَوْن الموصوف بهما الكلامَ وكَوْنِ الموصوف بهما المتكلمَ ؛ فالأوْلى أن نقتصر على تَلْخيص القَوْل فيهما بالاعتبارين . فنقول :

كلٌ واحدةٍ منهما تقع صفةً لمعنيين .

أحدهما : الكلام . كما في قولك « قَصيدَةٌ فَصيحة ، أو بَليغة » و « رسالة فَصيحةٌ . أو بَليغة » .

والثاني : المتكلم . كما في قولك « شاعر فَصيحٌ . أو بَليغٌ » و « كاتب فصيح . أو بليغ » .

والفصاحَةُ خاصةً تقعُ صفةً للمفرد ، فيقال . «كلمة فصيحة» ولا يقال : « كلمة بليغة » .

فصاحة المفرد

٢ ــ أما فصاحة المفرد . فهي خُلُوصُه من تَنَافر الحُرُوفِ . والغَرَابة ، ومُخَالفة القياسِ اللغويِّ .

التنافر من الحروف

فالتنافر منه ما تكون الكلمةُ بسببه مُتناهيةً في الثِّقَل على اللسان ، وعُسْر النطق بها ، كما رُوِي أن أعرابِياً سُئِل عن ناقته ؛ فقال : تَرَكْتُها تَرْعَى الهُعْخُعَ(١) .

---

(١) أو الهعخع . وكلاهما بزنة هدهد ، قيل : هو اسم لضرب من النبت ، وقيل : هذه كلمة موضوعة للمعاياة ، ولا أصل لها في اللغة .

ومنه ما هو دون ذلك . كلفظ مُسْتَشْزِرٍ في قول امرىء القَيْسِ :

١ – غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلاَ ◦ (١)

والغَرَابة : أن تكون الكلمةُ وَحْشِيَّةً . لا يَظْهَر معناها ، فيُحتاجُ في معرفته إلى أن يُنَقَّر عنها في كُتُب اللغة المبسوطة . كما روي (عن) عيسى بن عمر النحوي (٢) أنه سَقَطَ عن حمارٍ ، فاجتمع عليه الناسُ ، فقال : « ما لَكُمْ تَكأْكأْتُمْ عليَّ تَكَأْكُؤكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ ! افْرَنْقِعُوا عَنِّي » أي اجتمعْتُمْ تَنَحَّوا . الغرابة

أو يُخَرَّجَ لها وَجْهٌ بَعيدٌ . كما في قول العَجَّاج :

٢ – وَفَاحِماً وَمَرْسِناً مُسَرَّجَا ◦ (٣)

فإنه لم يُعْرَفْ ما أراد بقوله « مُسَرَّجَا » حتى اخْتُلِفَ في تخريجه ؛ فقيل: هو من قولهم للسيوف «سُرَيْجِيَّة» منسوبة إلى قَيْنٍ يقال له سُرَيْج . يريد أنه في الاسْتِواء والدِّقة كالسيف السُّرَيْجِيِّ . وقيل : من السِّراج . يريد أنه في البَرِيقِ كالسِّراج . وهذا يقرب من قولهم « سَرِجَ وَجْهُهُ » بكسر الراء – أي حَسُنَ . و « سَرَّجَ (الله) وَجْهَهَ» أي بَهَّجَهَ وحَسَّنه :

---

(١) الغدائر : الذوائب . ومستشزرات : مرتفعات . وبقية البيت :

◦ تضل العقاص في مثنى ومرسل ◦

وهو من أبيات في وصف الشعر . من معلقة امرىء القيس بن حجر الكندي الشاعر الجاهلي . تضل : تختفي . العقاص : الضفائر . المثنى : المفتول ، المرسل : المتروك دون فتل .

(٢) من علماء اللغة والنحو في القرن الثاني الهجري .

(٣) العجاج من رجاز العهد الأموي ، والبيت غزل . الفاحم : الشعر الأسود ، والمرسن : الأنف ، وأصله موضع الرسن من الدابة .

مخالفة القياس

ومخالفة القياس كما في قول الشاعر :

٣ — « الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ » (١)

فإن القياسَ « الأَجَلّ » بالإدغام .

الكراهة في السمع

وقيل : خُلُوصُه مما ذكر . ومن الكَرَاهة في السَّمْعِ . بأن تُمَجَّ الكلمةُ . ويُتَبَرَّأَ من سماعها . كما يُتَبَرَّأ من سَمَاعِ الأصوات المُنْكَرة ؛ فإن اللفظ من قَبِيل الأصوات . والأصواتُ منها ما تَسْتَلِذُّ النفسُ سماعَه . ومنها ما تكره سَمَاعَهُ .

كلفظ « الجِرِشَّى » في قول أبي الطيب :

٤ — كَرِيمِ الجِرِشَّى . شَرِيفِ النَّسَبْ » (٢)

أي كريم النَّفْس . وفيه نَظَر .

ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمالُ العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيراً . أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها .

فصاحة الكلام

٣ — وأما فَصَاحةُ الكلامِ فهي خُلُوصه من : ضَعْفِ التأليف . وتَنَافُرِ الكلمات . والتعقيدِ . مع فصاحتها .

ضعف التأليف

فالضعف كما في قولنا « ضَرَبَ غُلامَهُ زَيْداً » فإن رجوعَ الضمير إلى المفعول المتأخر لفظا ممتنعٌ عند الجمهور ؛ لئلا يلزمَ رجوعهُ إلى ما هو

---

(١) من أرجوزة لأبي النجم العجلي . واسمه الفضل بن قدامة . الراجز الأموي .

(٢) صدره :

مبارك الاسم أغر اللقب

وهو من قصيدة مدح بها المتنبي سيف الدولة الحمداني . والأغر في الأصل : من به غرة . وهي بياض في الجبهة . ولأنه يكون واضحاً مشهوراً . صح استعمال لفظه في كل مشهور واضح . وإن لم يكن به غرة .

متأخرٌ لفظا ورتبة . وقيل : يجوز ، لقول الشاعر (١) :

٥ ــ جَزَى رَبُّهُ عنّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ
جَزَاءَ الكِلاَبِ العَاوِيَاتِ . وَقَدْ فَعَلْ

وَأجيبَ عنه بأن الضميرَ لمصدرِ « جزى » أي ربُّ الجزاء . كما في قوله تعالى « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٢) » أي العَدْلُ .

تنافر الكلمات

والتنافرُ : منه ما تكون الكلماتُ بسببه متناهيةً في الثقل على اللسان وعُسْرِ النطق بها متتابعةً . كما في البيت الذي أَنْشَدَهُ الجاحِظُ :

٦ ــ وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ (٣)

ومنه ما دون ذلك . كما في قول أبي تمام :

٧ ــ كَرِيمٌ . مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالوَرَى
مَعِي . وَإِذَا مَالُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فإن في قوله « أَمْدَحْهُ » ثقلاً ما ؛ لما بين الحاء والهاء من تَنَافُرٍ (٤)

التعقيد

والتعقيدُ : أن لا يكون الكلامُ ظاهرَ الدَّلاَلَةِ على المُرَاد به . وله سببان :

التعقيد اللفظي

أحدهما : ما يرجع إلى اللفظ . وهو أن يختل نظم الكلام ، ولا يَدْرِي السامعُ كيف يتوصَّلُ منه إلى معناه . كقول الفرزدق (٥) :

---

(١) هو النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي .

(٢) بعض الآية ٨ من سورة المائدة .

(٣) مجهول القائل . ويدعي بعض الناسبين أنه لجني رثى به حرب بن أمية جد معاوية . بعد أن هتف به . فمات .

(٤) مثل هذا التعليل يقبل لو كان يتحدث عن تنافر الحروف . ولكنه بصدد الحديث عن تنافر الكلمات .

(٥) من أشهر شعراء الامويين ؛ والمملك ــ في البيت ــ الملك .

٨ – وَمَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً
أَبُو أمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

كان حقُّه أنْ يقول : وما مثلُه في الناس حَيٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكاً أبُو أمه أبوه ، فإنه مَدَحَ إبراهيمَ بن هِشَامِ بن إسماعيلَ المخزوميَّ خالَ هِشَامِ بن عبد الملك بن مَرْوَان . فقال : وما مثله – يعني إبراهيمَ المدوحَ – في الناس حيٌّ يقاربه . أي أحد يشبهه في الفضائل ، إلا مملَّكاً ، يعني هشاماً ، أبو أمِّه ، أي أبو أمّ هشام أَبُوهُ . أي أبو الممدوح ، فالضمير في « أمه » لِلْمُمَلَّك . وفي «أبوه» للممدوح، ففَصَلَ بين « أبو أمه » وهو مبتدأ و « أبوه » وهو خبره بـ « حَيّ » وهو أجنبي ، وكذا فَصَلَ بين « حي » و « يقاربه » وهو نعتُ حي بـ « أبوه » وهو أجنبي . وقَدَّم المستثنى على المستثنى منه ؛ فَهو كما تَراه في غاية التعقيد .

فالكلامُ الخالي من التعقيد اللَّفْظي : ما سَلِمَ نَظْمُه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يُخَالف الأصل – من تقديم ، أو تأخير ، أو إضمار ، أو غير ذلك – إلا وقد قامَتْ عليه قرينة ظاهرة – لفظية ، أو معنوية – كما سيأتي تفصيل ذلك كله . وأمثلتُه اللائقةُ به .

التعقيد المعنوي

والثاني : ما يرجع إلى المعنى ، وهو : أن لا يكون انتقالُ الذهنِ من المعنى الأول إلى المعنى الثاني – الذي هو لازمُه والمرادُ به – ظاهراً ، كقول العباس بن الأحْنَفِ (١) .

٩ – سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا
وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

---

(١) من شعراء الغزل في العصر العباسي .

كَنَى بِسَكْبِ الدُّمُوعِ عما يُوجِبُه الفراقُ من الحزن ، وأصابَ لأن من شأن البُكَاء أن يكونَ كنايةً عنه ، كقولهم : أبكاني ، وأضحكني ، أي أساءني وسرَّني . كما قال الحماسيُّ(١) :

١٠ — أبكانيَ الدَّهْرُ ويَا رُبَّما أضحكني الدَّهْرُ بما يُرْضي

ثم طَرَدَ ذلك في نقيضه ، فأراد أن يَكْنِيَ عما يُوجِبُه دوامُ التلاقي من السرور بالجُمُودِ ، لِظَنّه أن الجمودَ خُلُوُّ العينِ من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر ، وأخطأ ، لأن الجمودَ خُلُوُّ العين من البكاء في حالِ إرادة البكاء منها ؛ فلا يكون كنايةً عن المسرة ، وإنما يكون كنايةً عن البخل ، كما قال الشاعر :

١١ — ألاَ إنَّ عَيْناً لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطٍ
عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ (٢)

ولو كان الجُمُودُ يَصلح أن يُراد به عدمُ البكاء في حال المسرة لجاز أن يُدعَى به للرجل ، فيقال : لا زالت عينُكَ جامدةً ، كما يقال : لا أبْكَى الله عَيْنَكَ ، وذلك مما لا يُشَكُّ في بُطلانه . وعلى ذلك قولُ أهل اللغة « سَنَةٌ جَمَاد » لا مَطَرَ فيها ، و « ناقة جَمَاد » لا لَبَنَ لهَا ، فكما لا تُجْعَل السنة والناقة جَمَاداً إلا على معنى أن السنة بَخِيلة بالقَطْرِ . والناقة لا تَسْخُو بالدَّرِّ ، لا تُجْعَلُ العينُ جَمُوداً إلا وهناك ما يقتضي إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بَكَتْ محسنةً موصوفة بأنها قد جادت . وإذا لم تَبْكِ مسيئة وموصوفة بأنها قد ضَنَّتْ

(١) نسبة إلى الحماسة ، وهي مختارات لأبي تمام من شعر السابقين ، وصاحب هذا البيت هو حطان بن المعلى الشاعر الإسلامي .

(٢) واسط : اسم بلدة كانت عندها موقعة مات فيها ابن هبيرة ، فرثاه أبو عطاء السندي بقصيدة منها هذا البيت .

فالكلام الخالي عن التعقيد المعنوي : ما كان الانتقالُ من معناه الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً . حتى يُخيّل إلى السامع أنه فَهِمَه من حاقِ اللفظ . كما سيأتي من الأمثلة المختارة للاستعارة والكناية .

تعريف آخر

وقيل : فصاحة الكلام هي خلوصه مما ذكر . ومن كَثْرَةِ التكرار . وتتابع الإضافات . كما في قول أبي الطيب :

١٢ — « سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ » (١)

وفي قول ابن بَابَكَ (٢) :

١٣ — « حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الجَنْدَلِ اسْجَعِي »

وفيه نظر ؛ لأن ذلك إن أفْضَى باللفظ إلى الثِّقَلِ على اللسان فقد حَصَلَ الاحترازُ عنه بما تقدم . وإلا فلا تُخِلُّ بالفصاحة . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الكريمُ ابْنُ الكريمِ ابْنِ الكريمِ : يوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْحَاقَ بن إبراهيمَ » .

قال الشيخ عبد القاهر قال الصاحب : إياكَ والإضافاتِ المتداخِلَةَ فإنها لا تَحْسُن . وذكر أنها تستعمل في الهِجَاء . كقول القائل :

---

(١) صدره :

« وتسعدني في غمرة بعد غمرة »

وتسعدني : بمعنى تعينني . والغمرة : الشدة . وسبوح : وصف للفرس إذا كان حسن الجري كأنه يسبح براكبه في الماء .

(٢) هو أبو القاسم عبد الصمد بن بابك من شعراء اليتيمة . وجرعا : مقصور جرعاء ولها معان كثيرة . أنسبها لبقية البيت أنها الكثيب جانب منه رمل وجانب منه حجارة . وحومة الشيء : معظمه . والجندل : الصخر . وسجع الحمام : هديره .

١٤ ـ يا عَلِيُّ بْنَ حَمْزَةَ بْنِ عِمَارَهْ
أَنْتَ ـ وَاللهِ ـ ثَلْجَةٌ في خِيَارَهْ

ثم قال الشيخ : ولا شَكَّ في ثِقَل ذلك في الأكثر ، لكنه إذا سَلِمَ من الاستكراه مَلُحَ وَلَطُفَ .

ومما حَسُن فيه قولُ ابن المعتز أيضاً :

١٥ ـ وَظَلَّتْ تُدِيرُ الرَّاحَ أَيْدِي جَآذِرٍ
عِتَاقِ دَنَانِيرِ الوُجُوهِ مِلاحِ (١)

ومما جاء فيه حَسَناً جَمِيلاً قولُ الخالِدِيِّ (٢) يصفُ غُلاماً له :

وَيَعْرِفُ الشِّعْرَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي وَهْوَ عَلَى أَنْ يَزِيدَ مُجْتَهِدُ
وَصَيْرَفِيُّ القَرِيضِ وَزَّانُ دِينَارِ المَعَانِي الدِّقَاقِ ، مُنْتَقِدُ

فصاحة المتكلم

٤ ـ وأما فصاحة المتكلم فهي : مَلَكَة يُقْتَدَر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح .

فالملكة : قِسْم من مَقُولة الكَيْف التي هي هَيْئة قَارَّة لا تقتضي

---

(١) عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي . الشاعر ، الناقد ، صاحب كتاب « البديع » من أوائل المؤلفات البلاغية . والراح : الخمر ، والجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، وعتاق : جمع عتيق . أي كريم . و « دنانير الوجوه » من إضافة المشبه به للمشبه .

(٢) أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي . من شعراء اليتيمة ، وكان في حاشية سيف الدولة الأدبية ، وقيم دار كتبه مع أخيه أبي بكر محمد . والصيرفي ، والصيرف ، والصراف : من يبيع النقد بالنقد ، ولأنه شديد الخبرة ، جاز إطلاقه على كل خبير ، ودينار المعاني كدنانير الوجوه . ووزانه : من يحسن تقديره .

قِسْمَةٌ ولا نسبة ؛ وهو مُخْتَصٌ بذَوَاتِ الأنفُسِ ، رَاسِخ في موضوعه .

وقيل « مَلَكَة » ولم يُقَلْ « صفة » ليشعرَ بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة ؛ حتى لا يكون المعبِّرُ عن مقصوده بلفْظٍ فصيحٍ فصيحاً إلا إذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخةً فيه .

وقيل « يُقْتَدَر بها » ولم يُقَل « يعبر بها » ليشمل حالَتي النُّطق وعَدَمِه .

وقيل « بلفظ فصيح » ليعم المفرد والمركب .

بلاغة الكلام

٥ ــ وأما بلاغة الكلام فهي : مُطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته .

ومقتضى الحال مختلف ؛ فإن مَقَامَاتِ الكلامِ متفاوتَةٌ ؛ فمَقَامُ التنكيرِ يُبَايِنُ مقامَ التعريف ، ومَقَامُ الإطلاقِ يُبَايِنُ مقامَ التقييدِ ، ومَقَام التقديمِ يباينُ مقامَ التأخير ، ومقامُ الذِّكْرِ يباينُ مَقَامَ الحَذْفِ ، ومَقَامُ القَصْرِ يباينُ مقامَ خلافه ؛ ومقامُ الفَصْلِ يباينُ مقام الوَصْلِ . ومقامُ الإيجاز يباينُ مقامَ الإطناب والمساواة ؛ وكذا خِطَابُ الذَّكِيِّ يباينُ خطابَ الغَبِيِّ .

وكذا لكل كلمةٍ مع صاحبتها مَقَامٌ . إلى غير ذلك ، كما سيأتي تفصيل الجميع .

وارتفاعُ شأنِ الكلامِ في الحُسْنِ والقَبُولِ بمُطَابقتِهِ للاعتبار المناسِبِ ، وانحطَاطُهُ بعدمِ مطابقته له .

فمقتضى الحال هو الاعتبارُ المناسبُ .

بلاغة الكلام وصلتها بالنظم عند عبد القاهر

وهذا — أعني تطبيقَ الكلام على مقتضى الحال — هو الذي يُسَمِّيه الشيخُ عبدُ القاهرِ بالنَّظْمِ حيث يقول (١) : النَّظْمُ تأخِّي (٢) مَعَاني النَّحْوِ فيما بَيْنَ الكَلِمِ على حَسَبِ الأغراضِ التي يُصَاغُ لها الكلامُ .

البلاغة صفة اللفظ أو المعنى

٦— فالبلاغة صفةٌ راجعةٌ إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب. وكثيراً ما يسَمَّى ذلك فصاحةً أيضاً ، وهو مُرَاد الشيخِ عبدِ القاهر بما يكرره في « دلائل الإعجاز» من أن الفَصَاحة صفةٌ راجعةٌ إلى المعنى دون اللفظ ، كقوله في أثناء فَصْلٍ منه : علمتَ أن الفصاحةَ والبلاغة وسائرَ ما يجري في طريقهما أوصافٌ راجعة إلى المعاني . وإلى ما يُدَل عليه بالألفاظ . دون الألفاظ أنفُسِهَا .

رأي عبد القاهر

وإنما قلنا مراده ذلك ، لأنه صَرَّحَ في مواضعَ من « دلائل الإعجاز » بأن فضيلَةَ الكلام للَّفْظِ ، لا لمعناه ، منها أنه حكى قولَ مَنْ ذهب إلى عكس ذلك فقال : فأنتَ تَرَاه لا يُقَدِّمُ شعراً حتى يكونَ قد أودِعَ حكمةً أو أدباً أو اشْتَمَلَ على تشبيه غريبٍ ومعنى نادرٍ .

ثم قال : والأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق وما عليه المحصِّلُونَ لأنا لا نرى متقدِّماً في علم البلاغة مُبَرِّزاً في شأوِها إلا وهو يُنْكِر هذا الرأيَ .

ثم نَقَلَ عن الجاحظ في ذلك كلاماً منه قوله : والمعاني مَطْرُوحَة في الطريق يَعْرِفها العَجَمِيُّ والعربي والقَرَوِيُّ والبَدَوِيُّ ، وإنما الشأنُ في إقامةِ الوزنِ . وتَخَيُّرِ اللفظ . وسُهُولَةِ المَخْرَجِ . وصحة الطَّبْعِ . وكَثْرَةِ الماء ، وجَوْدَةِ السَّبْك .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز (ص ٤٢ وما بعدها . طبع المنار)

(٢) تأخيت الشيء : تحريته وتتبعته .

ثم قال : ومعلومٌ أن سبيلَ الكلامِ سبيلُ التصويرِ والصِّيَاغَةِ . وأن سبيلَ المعنى الذي يُعَبَّر عنه سبيلُ الشيء الذي يقعُ التصويرُ فيه . كالفضة والذهب يُصاغ منهما خَاتَم أو سِوار، فكما أنه مُحَال — إذا أردتَ النظر في صَوْغ الخاتم وجَوْدَة العمل ورَدَاءته — أن تنظرَ إلى الفِضَّةَ الحاملةِ لتلك الصورة . أو الذهبِ الذي وقَعَ فيه ذلك العملُ ؛ كذلك محال — إذا أردتَ أن تعرف مكانَ الفَضْلِ والمَزِيَّة في الكلام — أن تنظر في مجرد معناه ؛ وكما (أنَّا) لوفَضَّلْنا خاتَماً على خاتم ، بأن تكون فِضَّةُ هذا أجْوَدَ ، أو فصُّهُ أنفس ؛ لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ؛ كذلك ينبغي إذا فَضَّلْنا بيتاً على بيتٍ من أجْل معناه ، أن لا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شِعْر وكلام .

هذا لفظه . وهو صريحٌ في أن الكلامَ — من حيثُ هو كلامٌ — لا يوصَفُ بالفضيلة باعتبار شَرَفِ معناه ، ولا شك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة ؛ فلا تكون راجعةً إلى المعنى ، وقد صَرَّحَ فيما سبق بأنها راجعةٌ إلى المعنى دون اللفظ ؛ فالجَمْعُ بينهما بما قَدَّمْنَاه . بِحَمْلِ كلامِهِ حيث نَفَى أنها من صفات اللفظ على أنها من صفات المفردات من غير اعتبارِ التركيب . وحيث أثْبَتَ أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار إفادَتِهِ المعنى عند التركيب .

طرف البلاغة

٧ — وللبلاغة طَرَفَان : أعلى إليه تنتهي ، وهو حَدُّ الإعجاز وما يقرب منه ، وأسفل منه تبتدىء . وهو ما إذا غُيِّرَ الكلامُ عنه إلى ما هو دونه التَحَقَ عند البلغاء بأصْوَاتِ الحيوانات وإن كان صحيحَ الإعراب .

وبين الطرفين مراتبُ كثيرة متفاوتة .

المحسنات

وإذْ قَدْ عرفْتَ معنى البلاغة في الكلام ، وأقسامها ، ومراتبها ؛ فاعلم أنه يتبعها وُجُوه كثيرة — غَيْرُ راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ، ولا إلى الفصاحة — تورِثُ الكلام حُسْناً وقَبُولاً .

بلاغة المتكلم

٨ — وأما بلاغة المتكلم فهي : مَلَكَة يُقْتَدَرُ بها على تأليفِ كلامٍ بليغٍ .

وقد علم بما ذكرنا أمران أحَدُهما : أن كل بليغ — كلاماً كان أو متكلماً — فصيحٌ ، وليس كلُّ فصيحٍ بَلِيغاً . الثاني : أن البلاغة في الكلام مرجعُها إلى الاحترَاز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الكلامِ الفَصيح من غيره ، والثاني — أعني التمييزَ — منه ما يتبين في علم مَتْنِ اللغَة ، أو التصريفِ . أو النَّحْوِ ، أو يُدْرَكُ بالحس . وهو ما عدا التعقيد المعنوي .

وما يُحتَرز به عن الأول — أعني الخطأ — هو علم المعاني .

وما يحترز به عن الثاني — أعني التعقيد المعنوي — هو علم البيان .

علوم البلاغة وبحوثها

وما يُعْرَف به وجُوهُ تحسين الكلام — بَعْدَ رِعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته — هو علم البديع .

وكثير من الناس يسمي الجميع « علم البيان » ؛ وبعضهم يسمي الأول « علم المعاني » . والثاني والثالث « علم البيان » . والثلاثة « علم البديع » .

• • •

علم المعاني

تعريفه عند الخطيب

١ – وهو علم يُعْرَفُ به أحوالُ اللفظِ العربي التي بها يُطابق مُقْتَضَى الحال . وقيل « يعرف » دون « يعلم » رعايةً لما اعتبره بعض الفُضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعْرفة بالجزئيات، كما قال صاحب القانون (١) في تعريف الطب : « الطِّبُّ علم يُعْرَفُ به أحوالُ بَدَنِ الإنسان » وكما قال الشيخ أبو عمر(٢) رحمه الله « التصريفُ علمٌ بأصولٍ يُعْرَف بها أحوالُ أبنيةِ الكَلِمِ » .

تعريفه عند السكاكي

٢ – وقال السكاكي « علمُ المعاني : هو تَتَبُّعُ خَوَاصِّ تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحالُ ذكره » .

وفيه نظر ؛ إذ التتبع ليس بعلم ، ولا صادق عليه ؛ فلا يصح تعريف شيء من العلوم به .

ثم قال « واعني بالتراكيب تراكيب البلغاء » .

ولا شك أن معرفةَ البليغِ من حيث هو بليغٌ متوقفةٌ على معرفة

---

(١) صاحب القانون : الرئيس ابن سينا ، وكتابه « القانون » في علم الطب وهو أول كتاب طبع باللغة العربية ؛ طبع أولا في إيطاليا ، ثم طبع في بولاق مصر .

(٢) أبو عمر : هو ابن الحاجب صاحب « الكافية » في النحو ، و « الشافية » في الصرف .

البلاغة . وقد عرفها في كتابه بقوله « البلاغةُ هي بلوغُ المتكلم في تأدية المعنى حَدًّا له اختصاص بتَوْفِيَةِ خَوَاصِّ التراكيب حقَّها . وإيراد أنواع التشبيه . والمجاز . والكناية على وجهها » .

فإن أراد بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء — وهوَ الظاهر — فقد جاء الدورُ . وإن أراد غيرَها فلم يبينه . على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به .

٣ — ثم المقصودُ من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب : بحوث علم المعاني

أولها : أحوال الإسناد الخبري

وثانيها : أحوال المُسْنَدِ إليه .

وثالثها : أحوال المُسْنَد .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل

وخامسها : القَصْر .

وسادسها : الإنشاء .

وسابعها : الفَصْلُ والوَصْلُ .

وثامنها : الإيجاز والإطناب والمساواة .

ووَجْهُ الحَصْرِ : أن الكَلامَ إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إما أن يكون لنِسْبَتِهِ خارج تطابقه أو لا تطابقه . أولا يكون لها خارج . الأول الخبر . والثاني الإنشاء . ثم الخبر لا بُدَّ له من إسناد ومُسْنَدٍ إليه ومسند . وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المسنَد قد يكون له متعلّقات إذا كان فِعْلاً . أو متصلا به . أو في معناه . كاسم الفاعل ونحوه . وهذا هو الباب الرابع . ثم الإسناد والتعلقُ كلٌّ واحدٍ منهما يكون إما بقصر . أو بغير قصر . وهذا هو الباب الخامس . والإنشاء هو الباب السادس . ثم الجملة إذا قُرِنَتْ بأخرى فتكون الثانية إما معطوفةً على الأولى . أو غيرَ معطوفة . وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ إما زائدٌ على أصْلِ المُرَادِ لفائدةٍ . أو غير زائدٍ عليه . وهذا هو الباب الثامن .

تنبيـــه

٤ ـ اختلف الناسُ في انحصار الخبر في الصادق والكاذب :

رأي الجمهور

فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صِدْقُهُ مطابقةُ حكمِهِ للواقع ، وكذبُهُ عدمُ مطابقةِ حكمه له . هذا هو المشهور وعليه التعويل .

رأي النظام

٥ ـ وقال بعض الناس(١) : صدقُه مطابقةُ حكمِهِ لاعتقادِ المخبِرِ صواباً كان أو خطأ ، وكذبُهُ عدمُ مطابقة حكمه له .

واحْتَجَّ بوجهين :

أحدهما : أن مَنِ اعتقَدَ أمراً فأخبر به ثم ظهر خَبَرُه بخلاف الواقع يقال : ما كذب ، ولكنه أخطأ ، كما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت فيمن شأنه كذلك « ما كَذَبَ ولكنه وَهِمَ » .

ورُدَّ بأن المنفيَّ تَعَمُّدُ الكذبِ ، لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر ـ كاليهودي ـ إذا قال : الإسلام باطل ، وتصديقه إذا قال : الإسلام حق ، فقولها « ما كذب » مُتأوَّل بما كَذَبَ عَمْداً .

---

(١) هو النظام ، أبو إسحاق إبراهيم بن سيار ، شيخ من شيوخ المعتزلة ، توفي بين سنة ٢٢١ ـ ٢٣١ من الهجرة .

الثاني : قولُه تعالى : «وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمنَافقِينَ لَكَاذِبُونَ(٢)» كَذَّبهم في قولهم «إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ (٢)» وإن كان مطابقاً للواقع ؛ لأنهم لم يعتقدوه .

وأجيب عنه بوجوه :

أحدها : أن المعنى نشهد شهادةً واطَأَتْ فيها قلوبُنَا ألسنَتَنَا . كما يترجم عنه «إنَّ» ، واللامُ ، وكونُ الجملةِ اسميةً في قولهم «إنك لَرَسُولُ الله» (٢) فالتكذيبُ في قولهم «نشهد» وادعائِهِمْ فيه المواطأةَ ، لا في قولهم «إنك لَرَسُولُ اللهِ» (٢) .

وثانيها : أن التكذيبَ في تسميتهم إخبارَهُمْ شهادةً ؛ لأن الإخبار إذا خَلاَ عن المُوَاطأة لم يكن شهادةً في الحقيقة .

وثالثها : أن المعنى لَكَاذِبُون في قولهم «إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ»(٢) عند أنْفُسِهِمْ ؛ لاعتقادهم أنه خبر على خلاف ما عليه حالُ المُخْبَرِ عنه .

رأي الجاحظ

٦ ــ وأنكر الجاحظُ انحصارَ الخبرِ في القسمين ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغيرُ صادقٍ ولا كاذبٍ ؛ لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبرِ له أو عدمه . وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه ؛ فالأول ــ أي المطابق مع الاعتقاد ــ هو الصادق ؛ والثالث أي غير المطابق مع الاعتقاد ــ هو الكاذب ، والثاني ، والرابع ــ أي المطابق مع عدم الاعتقاد ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد ــ كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

---

(٢) بعض الآية ١ من سورة «المنافقون» .

فالصدق عنده : مطابقةُ الحكم للواقع مع اعتقاده . والكذب : عدم مطابقته مع اعتقاده . وغيرُهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده. وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده .

واحتج بقوله تعالى « أفْتَرَى عَلى اللهِ كَذِباً أمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ » (١) فإنهم حَصَرُوا دَعْوَى النبي – صلى الله عليه وسلم – الرسالةَ في الافتراءِ والإخبارِ حالَ الجنون ، بمعنى امتناع الخلو . وليس إخباره حال الجنون كذباً ، لِجَعْلِهِمْ الافتراء في مقابلته، ولا صدقاً ، لأنهم لم يعتقدوا صدقه . فثبَتَ أن من الخَبَرِ ما ليس بصادق ولا كاذب .

وأجيب عنه بأن الافتراء هو الكذبُ عن عَمْدٍ ، فهو نَوْعٌ من الكذب ، فلا يمتنع أن يكون الإخبار حالَ الجنون كَذباً أيضاً ؛ لجواز أن يكون نوعاً آخر من الكذب . وهو الكذب لا عن عمد ؛ فيكون التقسيم للخبر الكاذب . لا للخبر مطلقاً . والمعنى افْتَرَى أم لم يَفْتَرِ ؟ وَعَبَّر عن الثاني بقوله : « أمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ » لأن المجنون لا افتراء له .

* * *

---

(١) بعض الآية ٨ من سورة سبأ ، وافترى : اختلق ، والجنة : الجنون .

تنبيه آخر

البلاغة بين الذوق والتقليد

٧ – وهو مما يجب أن يكون على ذُكر الطالب لهذا العلم – قال السكاكي : ليس من الواجب في صناعة – وإن كان المَرْجِعُ في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل – أن يكون الدخيلُ فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها . فكيف إذا كانت الصناعةُ مستندةً إلى تحكّمات وَضْعية واعتبارات إلفيّة ؟ فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلّد صاحبَه في بعض فتاواه إن فاته الذّوْقُ هناك ، إلى أن يتكامل له على مَهَل موجباتُ ذلك الذوق .

٨ – وكثيراً ما يشير الشيخ عبدُ القاهر في « دلائل الإعجاز » إلى هذا . كما ذكر في موضع (١) ما تلخيصُه هذا :

اعلم أنه لا يُصادف القولُ في هذا الباب مَوْقِعاً من السامع . ولا يجدُ لديه قَبُولاً . حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، و(حتى يكون) مِمّنْ تحدّثه نفسه . بأنّ لما نومىء إليه من الحُسْن أصلاً ، فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأرْيَحيّةَ تارةً وَيَعْرَى منها أخرى . وإذا عَجّبْتَه تعجب . وإذا نبهته لموضع المزية انتبه . فأما مَنْ كانت الحالان عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النّظْم إلا الصحة المطلقة . وإلا إعراباً ظاهراً . فليكن عندك بمنزلة مَنْ عَدِمَ الطبعَ الذي يدركُ به وزنَ الشعر . ويميز به مُزَاحَفَه من

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٥ .

سالمه ، في أنك لا تتصدّى لتعريفه ، لعلمك أنه قد عَدِمَ الأداة التي بها يعرف .

واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفَةَ العُظْمَى في هذا الباب . فإنَّ من الآفةِ أيضاً مَنْ زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العِلةِ في شيء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم إلا أن له موقعاً من النفس ، وحظاً من القَبُول ، فهذا يتَوانيه في حكم القائل الأول .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفةُ الكل وَجَبَ تركُ النظر في الكل . وَلأنْ تعرفَ العلة في بعض الصُّوَر ، فتجعله شاهداً في غيره ، أحْرَى من أن تَسُدَّ باب المعرفة على نفسك ، وتُعَوِّدَهَا الكَسَلَ والهُوَيْنَا .

قال الجاحظ : وكلامٌ كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مُرَّةٌ ، فمن أضَرِّ ذلك قولهُم « لم يَدَعِ الأول للآخر شيئاً » فلو أن علماء كل عصر — مذ جرَتْ هذه الكلمة في أسماعهم — تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيتَ العلم مختلاً .

* * * *

القولُ في أَحوال الإسناد الْخَبَري

قصد المخبر بخبره

٩ – من المعلوم لكل عاقل أن قَصْدَ المخبر بخبره إفادَةُ المخاطَبِ إما نَفْسَ الحكم كقولك « زَيدٌ قائم » لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هذا فائـدَةَ الخبر ، وإما كونَ المخبرِ عالماً بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ، ولا يَعلم أنك تعلم ذلك : « زَيْدٌ عِنْدَكَ » ، ويسمى هذا لازِمَ فائدة الخبر .

١٠ – قال السكاكي : والأولى بدون هذه تَمْتنع ، وهذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم المجهولِ المساواة ، أي يمتنع أن لا يحصلَ العلمُ الثاني من الخبر نفسه عند حصول الأول منه ، لامتناع حصول الثاني قبل حصول الأول ، معْ أن سماع الخبر من المخبرِ كافٍ في حصول الثاني منه ، ولا يمتنع أن لا يحصل الأول من الخبر نفسه عند سماع الثاني منه ؛ لجواز حصول الأول قبل الثاني ، وامتناع حصول الحاصل .

تنزيل العالم منزلة الجاهل

١١ – وقد يُنـَزَّلُ العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلَةَ الجاهل لعدم جَرْيِهِ على موجَبِ العلم ؛ فيُلْقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما .

قال السكاكي : وإن شئْتَ فعليك بكلام رب العزة : « وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ . وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (١) كيف تجد صَدْرَه

(١) بعض الآية ١٠٢ من سورة البقرة ، والخلاق : النصيب ، وشروا : باعوا

يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسَمِيّ . وآخرَه ينفيه عنهم ، حيث لم يعملوا بعلمهم ؟! ونَظيرُه في النفي والإثبات : « وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ » (١) وقوله تعالى : « وَإنْ نَكَثُوا أيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ . وَطَعَنُوا في دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ ، إنَّهُمْ لا أيْمَانَ لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » (٢) .

هذا لفظه . وفيه إيهام أن الآية الأولى من امثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلةَ الجاهل بهما . وليست منها ، بل هي من أمثلة تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به ، لعدم جَرْيه على موجَب العلم . والفرقُ بينهما ظاهر .

أضرب الخبر

١٢ — وإذا كان غرضُ المخبر بخبره إفادةَ المخاطب أحد الأمرين فينبغي أن يُقْتَصَر من التركيب على قَدْر الحاجة .

١ — فإن كان المخاطَبُ خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر ، والتردد فيه ، استغنى عن مؤكدات الحكم ، كقولك : « جاء زيد ، وعمرو ذاهب » فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً .

ب — وإن كان متصوِّر الطرَفَيْن ، متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر ، طالباً له ، حَسُنَ تقويته بمؤكد ، كقولك : « لَزَيْد عارِف» أو « إن زَيْداً عارف» .

ج — وإن كان حاكما بخلافه وجب توكيدُه بحسب الإنكار ؛ فتقول :

---

(١) بعض الآية ١٧ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٢ من سورة التوبة ، ونكثوا : نقضوا .

« إني صادق » لمن ينكر صدقك . ولا يبالغ في إنكاره . و « إني لَصَادق » لمن يبالغ في إنكاره .

وعليه قوله تعالى : « واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أصْحَابَ القَرْيَةِ إذْ جاءها المُرْسَلُونَ . إذْ أرْسَلْنَا إليْهِمُ اثْنَيْنِ . فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِث . فَقَالُوا : إنّا إلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ، قالوا : ما أنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا . وَمَا أنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْء . إنْ أنْتُمْ إلاّ تَكْذِبُونَ ، قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إنّا إلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ » (١) حيث قال في المرة الأولى « إنّا إلَيْكُم مُرْسَلون » وفي الثانية : « إنا إلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ » .

ويؤيد ما ذكرناه جوابُ أبي العباس (٢) للكِنْدِيّ (٣) عن قوله : إني أجد في كلام العرب حَشْواً ، يقولون : « عبد الله قائم » و « إن عبد الله قائم » و « إن عبد الله لَقَائم » والمعنى واحد ، بأن قال : بل المعـاني مختلفة ؛ فـ « عبد الله قائم » إخبار عن قيامه . و « إن عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل . و « إن عبد الله لَقَائم » جواب عن إنكار منكر .

ويُسَمَّى النوعُ الأول من الخبر ابتدائياً . والثاني طلبياً . والثالثُ إنكارياً . وإخراجُ الكلام على هذه الوجوه إخراجاً على مقتضى الظاهر .

---

(١) الآيات ١٣ – ١٦ من سورة يس .

(٢) محمد بن يزيد . المبرد . النحوي . صاحب كتابي « الكامل » و « المقتضب » توفي في سنة ٢٨٥ هـ .

(٣) هو أبو يوسف . يعقوب بن إسحاق بن الصباح . الكندي ، فيلسوف العرب ، المتوفى في سنة ٢٥٣ هـ .

خروج الكلام على خلاف الظاهر

١٣ – وكثيراً ما يخرج على خلافه . فيُنَزَّل غيرُ السائل منزلة السائل ، إذا قدم إليه ما يُلَوِّح له بحكم الخبر ، فيَسْتَشْرِف له استشرافَ المتردِّد الطالب ، كقوله تعالى : « وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (١) » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (٢) » وقولِ بعضِ العرب :

١٧ – فَغَنِّها ، وهْيَ لك الفداءُ إنَّ غِناءَ الإبلِ الحُداءُ

وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض . ورُوِيَ عن الأصْمَعِيِّ (٣) أنه قال : كان أبو عمرو بنُ العَلاء (٤) وخَلَفٌ الأحمر (٥) يأتيان بَشّارا (٦) ، فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا مُعاذ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويكتبان عنه مُتَوَاضِعَيْن له ، حتى يأتي وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً . فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصرون بالغريب ، فأحببت أن أورِد عليه ما لا يعرف . قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ . فأنشدهما :

---

(١) بعض الآية ٢٦ من سورة هود .

(٢) بعض الآية ٥٣ من سورة يوسف .

(٣) هو أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب ، الأصمعي ، الراوية ، اللغوي ، المتوفى في سنة ٢١٦ هـ .

(٤) أبو عمرو ، زبان بن العلاء ، إمام أهل البصرة في القراءات واللغة والنحو . توفي في سنة ١٥٤ هـ . أو في سنة ١٥٩ هـ على الخلاف .

(٥) هو أبو محرز ، خلف بن حيان ، الراوية ، المتوفى في سنة ١٨٠ هـ .

(٦) أبو معاذ بشار بن برد ، الشاعر ، الغزل ، المتوفى في سنة ١٦٩ هـ .

١٨ ــ بكّرا صاحِبَيَّ قبلَ الْهَجِير
إنَّ ذاكَ النجاحَ في التبكير (١)

حتى فرغ منها ، فقال له خَلَفٌ : لو قلت يا أبا معاذ مكان إن ذاك النجاحَ : بكّرا فالنجاح ؛ كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتُها أعرابيّةً وحشية ، فقلتُ : إن ذاك النجاحَ ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلتُ : بكرا فالنجاحُ ؛ كان هذا كلام المولّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خَلَف ، فقبل بين عينيه ؛ فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء ــ وهم من فُحولَةِ هذا الفن ــ إلا لِلُطْف المعنى في ذلك وخفائه ؟.

ب ــ وكذلك ينزَّل غيرُ المنكر منزلَة المنكِر ؛ إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار ، كقوله (٢) :

١٩ ــ جاءَ شَقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ إنَّ بني عمِّكَ فيهم رِماح

فإن مجيئه هكذا ، مُدِلاً بشجاعته ، قد وضع رُمْحَهُ عارضاً ؛ دليلٌ على إعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بني عمه أحدٌ ، كأنهم كلّهم عُزْلٌ ليس مع أحدٍ منهم رمح .

جـ ــ وكذلك ينزَّل المنكرُ منزلة غيرِ المنكر ، إذا كان معه ما إنْ تأمّلَه ارتدع عن الإنكار ، كما يقال لمنكر الإسلام : « الإسلام حق » وعليه قوله تعالى في حق القرآن : « لا رَيْبَ فيه » (٣) .

---

(١) الهجير : شدة الحر .

(٢) قائله حجل بن نضلة ، وهو شاعر جاهلي .

(٣) بعض الآية ٢ من سورة البقرة .

١٤ – ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثُمَّ إنكم بَعْدَ ذلكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إنكمُ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ » (١) أكد إثبات الموت تأكيدين – وإن كان مما لا ينكر – لتنزيل المخاطَبِينَ منزلة من يبالغ في إنكار الموت ، لتماديهم في الغفلة ، والإعراض عن العمل لما بعده . ولهذا قيل : « مَيِّتُونَ » دون « تموتون » كما سيأتي الفرق بينهما . وأكَّد إثباتَ البعثِ تأكيداً واحداً – وإن كانَ مما يُنكَرُ – لأنه لمّا كانتْ أدلّته ظاهرةً كان جديراً بأن لا يُنكَر ، بل إمّا أنْ يُعْتَرَف به ، أو يُتَرَدَّدَ فيه ، فنُزِّل المخاطبون منزلةَ المترددين ، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته ، وحثّاً على النظر فيها . ولهذا جاء « تُبْعَثُون » على الأصل .

النفي كالإثبات في هذه الاعتبارات

١٥ – هذا كله اعتبارات الإثبات ، وقِسْ عليه اعتبارات النفي ، كقولك :

« ليس زيد . أو ما زيد ، منطلقاً . أو بمنطلق » و « والله ليس زيد . او ما زيد ، منطلقاً . او بمنطلق » و « ما ينطلق . او ما إنْ ينطلق ، زيد » و « ما كان زيد ينطلق » و « ما كان زيد لينطلق » و « لا ينطلقُ زيد » و « لن ينطلقَ زيد » و « والله ما ينطلق . أو ما إنْ ينطلقْ ، زيد » .

---

(١) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة المؤمنون .

فصــل

الحقيقة العقلية والمجاز العقلي

تعريف الحقيقة العقلية

١٦ ــ الإسناد منه حقيقة عقلية . ومنه مجاز عقلي :

أما الحقيقة فهي إسناد الفعل . أو معناه . إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر . واسم الفاعل .

وقولنا « في الظاهر » ليشمل مالا يطابق اعتقاده مما يطابق الواقع . وما لا يطابقه . فهي أربعة أضرب :

أحدها : ما يُطابِق الواقع واعتقاده . كقول المؤمن : « أنبت الله البَقْل . وشفى الله المريض » .

والثاني : ما يطابق الواقعَ دونَ اعتقاده . كقول المعتزليّ لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » .

والثالث : ما يطابق اعتقاده دون الواقع . كقول الجاهل : « شفى الطبيبُ المريضَ » معتقداً شفاء المريض من الطبيب . ومنه قوله تعالى حكايةً عن بعض الكفرة : « وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ » (١) ولا يجوز أن يكون مجازاً والإنكارُ عليهم من جهة ظاهر اللفظ ؛ لما فيه من ايهام الخطأ . بدليل قوله تعالى عقيبَه « وَمَا لَهُمْ بذلِكَ مِنْ عِلم ، إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ » (٢) وَالمُتَجَوِّز المخطىء في العبارة لا يوصف بالظن . وإنّما الظّانُّ من يعتقد أن الأمر على ما قاله .

---

(١) بعض الآية ٢٤ من سورة الجاثية .

(٢) بعض الآية ٢٤ من سورة الجاثية .

والرابع : ما لا يطابق شيئاً منهما ، كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالماً بحالها دون المخاطب .

تعريف المجاز العقلي

وأما المجاز ، فهو إسناد الفعل ، أو معناه ، الى ملابس له ، غير ما هو له ، بتأوُّل .

العلاقة في المجاز العقلي

١٧ — وللفعل ملابسات شتّى ، يلابس الفاعلَ ، والمفعولَ به ، والمصدرَ ، والزمانَ ، والمكانَ ، والسبب .

فإسناده إلى الفاعل — إذا كان مبنياً له — حقيقة كما مر ، وكذا إلى المفعول إذا كان مبنياً له ، وقولنا : « ما هو له » يشملهما ، وإسناده إلى غيرهما — لمضاهاته لما هو له في ملابسة الفعل — مجاز ، كقولهم في المفعول به : « عيشَةٌ راضيَة » و « ماءٌ دافِقٌ » وفي عكسه « سَيْلٌ مُفْعَم » وفي المصدر « شِعْرٌ شاعر » وفي الزمان « نهاره صائم » و « ليلُه قائم » وفي المكان « طريقٌ سائر » و « نهرٌ جارٍ » وفي السبب « بنى الأميرُ المدينةَ » وقال :

٢٠ — • إذا ردَّ عافي القِدرِ مَن يَستَعيرُها (١) •

القرينة في المجاز العقلي

١٨ — وقولنا : « بتأوّل » يخرج نحوَ قول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » ؛ فإن اسناده الشفاء إلى الطبيب ليس بتأوُّل .

ولهذا لم يُحمَلْ نحوُ قولِ الشاعرِ الحماسيِّ :

---

(١) صدره : • فلا تسأليني ، واسألي عن خليقتي •

وواضح أنه في الفخر ، والخليقة : الخلق والطبيعة ، وعافي القدر : ما يبقيه فيها المستعير من المرق ، والبيت من قصيدة لعوف بن الأحوص ، في المفضليات .

٢١ ـ أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكَبيـ
رَ كَرُّ الغَداةِ ، ومَرُّ العَشِي (١)

على المجاز ، ما لم يعلم أو يظنَّ أن قائلَه لم يُرِدْ ظاهرَه .

كما استدلَّ على أن إسناد « مَيَّزَ » إلى « جذب الليالي » في قول أبي النَّجْمِ (٢) :

٢٢ ـ قد أصبحتْ أمُّ الخِيارِ تَدَّعِي
عليَّ ذنبا كلـه لم أصنـع

مِن أن رأت رأسي كرأس الأصلع
مَيَّزَ عنه قُنْزُعا عن قُنْزُعِ

جَذبُ الليالي : أبطئي ، أو أسرعي

مجازٌ بقوله عقيبَهُ :

أفناه قيلُ اللهِ للشمس : اطلُعي
حتّى إذا واراك أُفْقٌ فارجعي

لم سمي الإسناد عقلياً

١٩ ـ وسُمِّيَ الإسنادُ في هذين القسمين من الكلام عقلياً ؛ لاستناده إلى العقل ، دونَ الوضع ؛ لإن إسنادَ الكلمة شيءٌ يحصل بقصد المتكلم ، دونَ واضع اللغة ، فلا يصير « ضَرَبَ » خبراً عن « زيد » بواضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له ، وإنما الذي يعود إلى واضع

---

(١) البيت من أبيات اختارها أبو تمام في « ديوان الحماسة » ونسبها للصلتان العبدي ، وهو قثم بن خبيَّة بن عبد القيس ، شاعر معاصر لجرير والفرزدق ، وكان يحكم بينهما ، ولكن الجاحظ ينسبها في كتاب « الحيوان » للصلتان السعدي ، وهو غير الأول .

(٢) القنزع ـ بزنة هدهد ـ الشعر حوالي الرأس .

اللغة أن « ضرب » لإثبات الضرب لا لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته في زمان ماض ، وليس لإثباته في زمان مستقبل ، فأما تعيينُ مَن ثبت له ؛ فإنما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين .

ولو كان لغوياً لكان حكمنا بأنه مجاز في مثل قولنا : « خطٌ أحسنُ مما وَشّى الرَّبيعُ » من جهة أن الفعل لا يصح إلا من الحي القادر — حكماً بأن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعلُ بالحي القادر ، دون الجماد ، وذلك مما لا يُشك في بُطلانه .

تعريف السكاكي للحقيقة والمجاز العقليين

٢٠ — وقال السكاكي « الحقيقة العقلية هي الكلام المُفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه » .

قال : وإنما قلت : « ما عند المتكلم » دون أن أقول « ما عند العقل » ليتناول كلامَ الجاهلِ إذا قال « شفى الطبيب المريض » رائياً شفاء المريضِ مِنَ الطبيب ، حيث عُدَّ منه حقيقةً ، مع أنه غير مفيد لما في العقل من الحكم فيه .

وفيه نظر ؛ لأنه غير مُطَّرِدٍ ؛ لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا ، ولا متصلا به ، كقولنا « الإنسان حيوان » مع أنه لا يُسَمَّى حقيقةً ولا مجازا ، ولا مُنْعَكِسٍ ؛ لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقاد المتكلم ، وما لا يطابق شيئاً منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق .

وقال : « المجاز العقلي هو الكلام المُفادُ به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأوُّل ، إفادة للخلاف ، لا بواسطة وضع ، كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة » .

قال : وإنما قلتُ : خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه ، دون أن

أقول : خلاف ما عند العقل ؛ لئلاّ يمتنعَ طردُه بما إذا قال الدَّهْرِيُّ — عن اعتقاد جهل — أو جاهلٌ غيره : أنبت الربيع البقل ، رائياً إنباته من الربيع ، فإنَّه لا يُسمى كلامه ذلك مجازاً ، وان كان بخلاف العقل في نفس الأمر ، واحتجَّ ببيتِ الحماسة وقولِ أبي النجم على ما تقدم .

ثم قال : ولئلا يمتنعَ عَكْسُه بمثل « كسا الخليفةُ الكعبةَ » و « هزَمَ الأميرُ الجندَ » فليس في العقل امتناع أن يَكْسوَ الخليفةُ نفسُه الكعبةَ ، ولا ان يهزم الأمير وحدَه الجندَ ، ولا يقدح ذلك في كونهما من المجاز العقلي .

وإنما قلتُ لضرب من التأوُّل ؛ ليُحترَزَ به عن الكذب ؛ فإنه لا يسمى مجازاً ، مع كونه كلاماً مفيداً خلافَ ما عند المتكلم .

وإنما قلتُ : إفادة للخلاف لا بواسطة وضع ؛ ليُحترزَ به عن المجاز اللُّغويِّ في صورة ، وهي إذا ادُّعِيَ أنَّ « أنبت » موضوعٌ لاستعماله في القادر المختار ، أو وُضِعَ لذلك .

وفيه نظر ؛ لأنا لا نسلم بطلانَ طرده بما ذكر ؛ لخروجه بقوله : « لضرب من التأول » ولا بطلان عكسه بما ذكر ؛ إذ المراد بخلاف ما عند العقل خلافُ ما في نفس الأمر .

وفي كلام الشيخ عبد القاهر إشارة إلى ذلك ؛ حيث عرَّفَ الحقيقة العقلية بقوله : كل جملة وضعتَها على أن الحكمَ المفادَ بها على ما هو عليه في العقل واقع موقعَه ، فإن قوله « واقع موقعه » معناه في نفس الأمر وهو بيان لما قبله .

وكذا في كلام الزَّمَخْشَرِيِّ حيث عرف المجاز العقلي بقوله : أن يُسْنَدَ الفعلُ إلى شيء يتلبَّسُ بالذي هو في الحقيقة له ، فإن قوله

« في الحقيقة » معناه في نفس الأمر ، ونحو « كسا الخليفةُ الكعبةَ » ـ إذا كان الإسناد فيه مجازا ـ كذلك .

ثم القول بأن الفعل موضوعٌ لاستعماله في القادر ، ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقد رده في كتابه بوجوه ، منها أن وضع الفعل لاستعماله في القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة ، وترك القيد دليل في العرف على الإطلاق ، فقوله: « إفادةً للخلاف لا بوساطة وضع » لا حاجة إليه ، وإن ذُكِرَ فينبغي أن لا يُذكَرَ إلا بعد ذكر الحد على المذهب المختار ، على أن تمثيلَهُ بقول الجاهل : « أنبت الربيع البقل » ينافي هذا الاحتراز .

تنبيه :

٢١ ـ قد تبين بما ذكرنا أن المُسَمَّى بالحقيقة العقلية ، والمجاز العقلي ـ على ما ذكره السكاكي ـ هو الكلامُ لا الإسناد ، وهذا يوافق ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من دلائل الإعجاز .

وعلى ما ذكرناه هو الإسناد ، لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو بنُ الحاجب (١) ـ رحمه الله ـ عن الشيخ عبد القاهر ، وهو قول الزمخشري في الكشاف ، وقول غيره ، وإنما اخترناه لأن نسبة المسمَّى حقيقةً أو مجازاً إلى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب إلى العقل ، أعني الإسناد .

* * *

(١) هو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس ، المعروف بابن الحاجب صاحب كتابي « الكافية » في النحو ، و « الشافية » في التصريف ، توفي سنة ٦٤٦ هـ

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه

٢٢ – ثُمَّ المجازُ العقليُّ باعتبار طرفيه – أعني المسند والمسند إليه – أربعة أقسام لا غير : لأنهما إما حقيقتان ، كقولنا « أنبت الربيع البقل » وعليه قولُهُ :

٢٣ – فنام لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي (١)

وقوله :

٢٤ – وَشَيَّبَ أيامُ الفِرَاقِ مَفَارِقِي (٢)

وقوله :

٢٥ – وَنِمْتُ وَما لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ (٣)

وإما مجازان ، كقولنا : « أحيا الأرضَ شبابُ الزمانِ » .

وإما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقلَ شبابُ الزمانِ » وكقولنا « أحيا الأرضَ الربيع » وعليه قولُ الرجل لصاحبه « أحيَتْنِي رُؤْيَتُكَ » أي : آنستني وسَرَّتْنِي ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الأُنْسِ والمسرَّة حياةً ، ثم جَعَلَ الرؤيةَ فاعلَةً له ، ومثله قول أبي الطَّيِّب :

٢٦ – وتُحْيي له المالَ الصَّوَارِمُ والْقَنَا
وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِي التبسُّمُ وَالْجَدَا (٤)

---

(١) تجلى : انكشف وظهر .

(٢) المفارق : جمع مفرق ، وهو موضع افتراق الشعر ، وقائله جرير الشاعر الأموي ، وعجزه : • وأنشزن نفسي فوق حيث تكون •

(٣) المطي : الركائب ، واحده مطية : وينسب لجرير أيضاً ، وصدره :
• لقد لمتنا – يا أم غيلان – في السرى •
السرى : السير ليلا .

(٤) الصوارم : السيوف ، والقنا : جمع قناة ، وهي الرمح ، والجدا : العطاء .

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه في العطاء قتلا له ، ثم أثبتَ الإحياء فعلا للصوارم ، والقتلَ فعلا للتبسُّم ، مع أن الفعلَ لا يصح منهما ، ونحوه قولهم : « أهلك الناسَ الدينارُ والدرهم » جُعِلَتِ الفِتْنَةُ إهلاكا . ثم أثْبِتَ الإهلاكُ فعلا للدينار والدرهم .

٢٣ — وهو في القرآن كثير ، كقوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً » (١) نُسِبَتِ الزيادةُ التي هي فعلُ الله إلى الآيات ؛ لكونها سبباً فيها . وكذا قوله تعالى « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » (٢) .

ومن هذا الضرب قوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ » (٣) فإن الفاعلَ غيرُهُ ، وَنُسِبَ الفعلُ إليه ؛ لكونه الآمرَ به .

وكقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا» (٤) نُسِبَ النزْعُ — الذي هو فعلُ الله تعالى — إلى إبليس ؛ لأن سَبَبَهُ أكلُ الشجرة ، وسبب أكلها وسوستُه ومقاسمتُه إياهما إنه لهما لمن الناصحين .

وكذا قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ ؟ » (٥) نُسِبَ الإحلال الذي هو فعلُ الله إلى أكابرهم ، لأن سببَه كُفْرُهُمْ ، وسبب كفرهم أمْر أكابرهم إياهم بالكفر .

---

(١) بعض الآية ٢ من سورة الأنفال .

(٢) بعض الآية ٢٣ من سورة فصلت .

(٣) بعض الآية ٤ من سورة القصص .

(٤) بعض الآية ٢٧ من سورة الأعراف

(٥) الآية ٢٨ من سورة إبراهيم .

وكقوله تعالى « يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً » (١) نُسِبَ الفعلُ إلى الظَّرْف ؛ لوقوعه فيه : كقولهم « نهاره صائم » .

وكقوله تعالى « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا » (٢) .

المجاز في الإنشاء

٢٤ — وهو غير مختص بالخبر ، بل يجري في الإنشاء ، كقوله تعالى « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابنِ لي صَرْحاً » (٣) ، وقوله « فأَوْقِدْ لي يا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحاً » (٤) وقوله « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى » (٥) .

انواع القرينة

٢٥ — ولا بُدَّ من قرينة إما لفظية ، كما سبق في قول أبي النَّجْم ؛ أو غير لفظية . كاستحالة صدور المُسْنَدِ من المُسْنَدِ إليه المذكور ، أو قيامه به عقلا . كقولك : « محبتُك جاءتْ بي إليك » أو عادةً ، كقولك « هزم الأميرُ الجندَ » و « كسا الخليفةُ الكعبة » و « بَنَى الوزير القصرَ » وكصدور الكلام من الموحِّد في مثل قوله : « أشاب الصغير البيت » (٦) .

هل يحول اسلوب الحقيقة العقلية دائما إلى اسلوب المجاز العقلي

٢٦ — واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأن تتعاطَى فيه المجازَ العقليَّ بسهولة ، بل تجدُكَ في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تُهَيِّئَ الشيء ، وتصلحَه له : بشيء تتوخَّاه في النظم ، كقول من يصف جَمَلاً :

---

(١) بعض الآية ١٧ من سورة المزمل .
(٢) الآية ٢ من سورة الزلزلة .
(٣) بعض الآية ٣٦ من سورة غافر .
(٤) بعض الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٥) بعض الآية ١١٧ من سورة طه .
(٦) الشاهد ٢١ من شواهد هذا الكتاب .

٢٧ – تَجُوبُ له الظلماءَ عَيْنٌ كأنها
زجاجة شَرْبٍ غَيْرُ مَلأى ولا صِفْرِ (١)

يريد أنه يهتدي بنور عينه في الظلماء ، ويمكنه بها أن يخرقها ، ويمضي فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسَّد الذي لا يجد السائر شيئاً يُفرِّجه به ، ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال « تجوب له » فعلَّق « له » بـ « تجوب » لما تبين جهةُ التجوُّز في جعل الجوب فعلا للعين كما ينبغي ؛ لأنه لم يكن حينئذ في الكلام دليلٌ على أن اهتداء صاحبها في الظُّلمة ومُضيَّهُ فيها بنورها ، وكذلك لو قال : « تجوب له الظلماء عينُه » لم يكن له هذا الموقعُ ، ولانقطع السِّلْكُ ؛ من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصفَ العينَ بما وصفها به .

واعلم أن الفعلَ المبنيَّ للفاعلِ في المجاز العقليِّ واجبٌ أن يكونَ له فاعلٌ في التقدير ، إذا أُسْنِدَ إليه صار الإسنادُ حقيقةً ؛ لما يشعر بذلك تعريفُه كما سبق .

وذلك قد يكون ظاهراً ، كما في قوله تعالى : « فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم » (٢) أي : فما ربحوا في تجارتهم .

وقد يكون خفياً ، لا يظهر إلا بَعْدَ نظرٍ وتأمُّلٍ ، كما في قولك « سَرَّتْني رُؤيتُك » أي : سرني الله وقتَ رؤيتك ، كما تقول : « أصل الحكم في أنبتَ الربيعُ البقلَ » أنبتَ اللهُ البقلَ وقتَ الربيع ، وفي « شفَى الطبيبُ المريضَ » شفَى اللهُ المريضَ عند علاج الطبيب ، وكما في قولك « أقْدَمَني بَلَدَكَ حقٌّ لي على فلان » أي : أقْدَمَتْني

---

(١) تجوب : تقطع وتشق ، شرب : جمع شارب أو اسم جمع له ، ملأى : مملوءة صفر : فارغة .

(٢) بعض الآية ١٦ من سورة البقرة .

نفسي بلدك لأجل حقٍّ لي على فلان ، أي : قَدِمْتُ لذلك ، ونظيره « محبتُك جاءت بي إليك » أي : جاءت بي نفسي إليك لمحبتك ، أي : جئتُك لمحبتك ، وإنما قلنا « إن الحكم فيهما مجاز » لان الفعلين فيهما مسندان الى الداعي ، والداعي لا يكون فاعلا ، وكما في قول الشاعر :

٢٨ — وصيَّرني هواكِ ، وبي لحَيْني يُضْرَبُ المَثَلُ (١)

أي : وصيرني اللهُ لهواك وحالي هذه ، أي أهلكني الله ابتلاءً ، بسبب هواك . وكما في قول الآخر وهو أبو نواس (٢) :

٢٩ — يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً إذا مازِدْتَهُ نَظَرا

أي يَزِيدك اللهُ حسناً في وجهه — لما أودعه من دقائق الجمال — متى تأمَّلْتَ —

٢٧ — وأنكر السكاكي وجُودَ المجاز العقلي في الكلام ، وقال : الذي عندي نَظْمه في سلك الاستعارة بالكناية ، بجَعْلِ الربيع استعارةً بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه — على ما عليه مَبْنَى الاستعارة . كما سيأتي — وجَعْلِ نسبة الإنبات إليه قرينةً للاستعارة ، ويجعل الأميرِ المُدَبِّرِ لأسباب هزيمة العدُوِّ استعارةً بالكناية عن الجُنْدِ الهازِمِ ، وجَعْلِ نسبة الهَزْمِ إليه قرينةً للاستعارة . رأي السكاكي في المجاز العقلي

وفيما ذهب اليه نظرٌ ؛ لأنه يستلزم أن يكونَ المرادُ بـ « عيشة » في

---

(١) الحين : الهلاك ، والبيت من جملة أبيات ، نسبها عبد القاهر في دلائل الإعجاز لابن البواب ، أبي الحسن ، علي بن هلال ، الكاتب المتوفى في سنة ٤٢٣ هـ ، ونسبها صاحب معاهد التنصيص لمحمد اليزيدي ، وهو شاعر عباسي من بني تميم .

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانىء ، الحكمي ، شاعر الغزل والمجون في عهد الرشيد والأمين . توفي في سنة ١٩٥ هـ .

قوله تعالى : « فهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (١) » صاحب العيشة ، لا العِيشَةَ ، و بـ (ماءٍ » في قوله تعالى : « خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ (٢) » فاعل الدفق ، لا المنيّ ؛ لما سيأتي من تفسيره للاستعارة بالكناية .

وأن لا تصحّ الإضافة في نحو قولهم : « فلانٌ نهارُهُ صائمٌ وليْلُهُ قائمٌ » . لأن المراد بالنهار — على هذا — فلانٌ نفسه ، وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح .

وأنْ لا يكونَ الأمرُ بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين — وبالبناء — فيهما — لهامان ، مع أن النداء له .

وأن يتوقّف جواز التركيب في نحو قولهم : «أنبت الربيع البقل، وسرتني رؤيتك » على الإذْن الشّرعيّ ؛ لأن أسماء الله تعالى تَوْقِيفيةٌ .

وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء .

ثُمّ ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فإن الإسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهارُ استعارةً بالكناية عن فلان ؛ لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ، ويُوجب حملَه على التشبيه ، ولهذا عُدَّ نحوُ قولهم « رأيت بفلان أسداً ، ولقيني منه أسد » تشبيهاً لا استعارةً ، كما صرح السكاكي ايضاً بذلك في كتابه .

تنبيه : إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان ، كما فعل السكاكي ومَنْ تَبِعه ؛ لدخوله في تعريف علم المعاني ، دون تعريف علم البيان .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ٦ من سورة الطارق .

القول في أحوال المُسْنَد إليه

حذف المسند إليه

٢٨ ـ أما حذفه فاما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بِناءً على الظاهر .

وإما لذلك مع ضيق المقام .

وإما لِتَخْييل أنّ في تركه تعويلاً على شهادة العقل ، وفي ذكره تعويلاً على شهادة اللفظ من حيثُ الظاهر ، وكم بين الشهادتين ! !

وإما لاختبار تنبّهِ السامع له عند القرينة ، أو مقدار تنبهه .

وإما لإيهام أن في تركه تطهيراً له عن لسانك ، أو تطهيراً للسانك عنه .

وإما ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مسّت إليه حاجة .

وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له ، حقيقةً ، أو ادعاءً .

وإما لاعتبار آخر مناسب ، لا يهدي إلى مثله إلا العقلُ السليم ، والطبع المستقيم كقول الشاعر :

٣٠ ـ قال لي : كَيْفَ أنت ؟ قلتُ : عليلُ
سهرٌ دائمٌ ، وحُزْنٌ طَويلُ

وقوله : (١)

٣١ ـ سأشكر عمراً إنْ تراخت مَنيّتي
أياديَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هيَ جَلّتِ

---

(١) ينسب البيتان لأبي الأسود الدؤلي في عمرو بن سعيد بن العاص . ولعبد الله ←

فتىً غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه
ولا مُظْهِرِ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ

وقوله : (١)

٣٢ — أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم
دُجَى الليل حتَّى نظَّم الجَزْعَ ثاقبُهْ

نُجومُ سماءٍ كلَّما انقَضَّ كوكبٌ
بَدَا كوكبٌ تأوِي إليه كواكبُهْ

وقول بعض العرب في ابن عم له مُوسِر ، سأله ، فمنعه ، وقال : كَمْ أُعطيك مالي ، وأنت تنفقه فيما لا يعنيك ؟ ! والله لا أعْطَيْتُكَ . فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم ، وهو فيهم ، فشكاه إلى القوم ، وذمَّه ، فوثب إليه ابنُ عمه ، فلطمه ، فأنشأ يقول : (٢)

←

بن الزبير الأسدي في عمرو بن أبان بن عثمان بن عفان . وينسبان كذلك لإبراهيم بن العباس الصولي ، ولمحمد بن سعيد الكاتب ، وهما أشبه بشعر أبي الأسود . ولعل الباقين قد تمثلوا بالشعر ، فاشتبه الأمر على الرواة .

تراخت : تمهلت وتأخرت ، ومنيّتي : موتي ، والأيادي : النعم على المجاز ، وتمنن : تعقب بالمن والتعيير ، وجلت : عظمت ، وزلت : زلقت ، وزلل النعل مجاز عن الوقوع في المكاره .

(١) ينسبان لأبي الطمحان القيني . وللقيط بن زرارة . وكلاهما جاهلي . الأحساب جمع حسب ، وهو شرف الأصل ، وما يعد من المفاخر . والدجى : جمع دجية ، وهي الظلمة ، والجزع : الخرز ، وانقض : سقط ، وتأوى : تلجأ .

(٢) هو المغيرة بن عبد الله ، الملقب بالأقيشر ، لحمرة وجهه ، شاعر ماجن وصاف للخمر ، مدمن لها ، توفي في سنة ٨٠ هـ . والندى : الكرم .

٣٣ – سريعٌ إلى ابن العمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ
وليس إلى داعي الندا بِسَريع
حريصٌ على الدنيا ، مُضيعٌ لدينه
وليس لما في بيته بمضيع

وعليه قوله تعالى : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » (١) وقوله تعالى « وَمَا أدْرَاكَ مَاهِيَه ؟ ! نَارٌ حَامِيَةٌ » (٢).

وقيامُ القرينة شرطٌ في الجميع .

٢٩ – وأما ذكره فإما لأنه الأصلُ ولا مُقْتَضِيَ للحذف .

وإما للاحتياط لضعف التعويل على القرينة .

وإما للتنبيه على غباوة السامع .

وإما لزيادة الإيضاح والتقرير .

وإما لإظهار تعظيمه أو إهانته ، كما في بعض الأسامي المحمودة ، أو المذمومة

وإما للتبرك بذكره .

وإما لاستلذاذه .

وإما لبسط الكلام حيث الاصغاء مطلوبٌ ، كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « هِيَ عَصَايَ » (٣) ولهذا زاد على الجواب ، وإما لنحو ذلك .

---

(١) بعض الآية ١٨ من سورة البقرة ، ومفردات هذه الجموع : أصم ، أبكم ، أعمى .

(٢) الآيتان ١٠ – ١١ من سورة القارعة .

(٣) بعض الآية ١٨ من سورة طه .

قال السكاكي : وإما لكون الخبر عام بالنسبة إلى كل مسند إليه ، والمراد تخصيصه بمعين ، كقولك : زيد جاء ، وعمرو ذهب ، وخالد في الدار ، وقوله : (١)

٣٤ — اللهُ أنْجَحُ ما طلبتَ به
والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ

وقوله (٢) :

٣٥ — النفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

وفيه نظر ، لأنه إن قامت قرينة تدل عليه إن حُذِفَ . فعمومُ الخبر وإرادة تخصيصه بمعين وحدهما ، لا يقتضيان ذكره ، وإلا فيكون ذكره واجباً .

تعريف المسند إليه

٣٠ — وأما تعريفه فلِتكونَ الفائدة أتم ؛ لأن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعدَ كانت الفائدة في الإعلام به أقوى . ومتى كان أقرب كانت أضعف ، وبُعْدُه بحسب تخصيص المسند إليه . والمسند كلما ازداد تخصيصا ازداد الحكم بعدا ، وكلما ازداد عموما ازداد الحكم قربا ، وإن شئت فاعتبر حال الحكم في قولنا : « شيءٌ ما موجود » وفي قولنا : « فلان بن فلان يحفظ الكتاب » ، والتخصيصُ كمالُه بالتعريف .

التعريف بالإضمار

٣١ — ثم التعريف مختلف :

فإن كان بالإضمار فإما لأن المقام مقام التكلم ، كقول بشار :

---

(١) قائله امرؤ القيس بن عابس الكندي الصحابي . وقد ينسب لامرىء القيس ابن حجر الجاهلي ، والحقيبة : ما يجمع فيه المسافر حوائجه . والرحل هنا بمعنى الرحيل .

(٢) لأبي ذؤيب الهذلي من قصيدته المشهورة في رثاء بنيه .

٣٦ ــ أنا المُرَعَّثُ ، لا أخْفَى على أحــد
ذرَّتْ بِيَ الشمسُ للقَاصِي وللدَّاني (١)

وإما لأن المقام مقام الخِطاب ، كقول الحماسيَّة (٢) .

٣٧ ــ وأنتَ الذي أخْلَفْتَني ما وعدْتَني
وأشْمَتَّ بي مَنْ كان فيكَ يلوم

وإما لأن المقام مقام الغيبة ؛ لكَوْن المسند إليه مذكورا ، أو في حكم المذكور لقرينة ، كقوله :

٣٨ ــ مِنَ البيضِ الُوجوه بني سِنانٍ
لَوَ أنَّكَ تستضيءُ بهم أضاءوا (٣)

هُمُ حَلُّوا منَ الشَّرَفِ المُعَلَّى
ومِنْ حَسَبِ العَشِيرَةِ حَيْثُ شاءوا

وقوله تعالى : « اعْدِلُوا ، هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (٤) أي العَدْلُ ، وقوله تعالى : « وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » (٥) أي ولأبوي الميت .

---

(١) رعثها ، بالتضعيف : ألبسها اللعثة ــ بالفتح وبالتحريك ــ وهي القرط ، وذرت الشمس : طلعت ، وذرورها به في كل مكان : كناية عن شهرته وذيوع صيته.

(٢) اسمها أمامة ، وخطابها في البيت متجه إلى ابن الدمينة الشاعر الأموي .

(٣) بياض الوجوه لازم لصلاح الاعمال ومتسبب عنه . ويقابله سواد الوجوه = = لفساد الأعمال وسوئها ، وعليه قول الله « يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه » ويجوز أن يكون قصده من بياض الوجوه الشهرة والوضوح . وقائل البيتين أبو البرج القاسم بن جبل الذبياني الشاعر الإسلامي .

(٤) بعض الآية ٨ من سورة المائدة .

(٥) بعض الآية ١١ من سورة النساء .

أصل الخطاب

وأصل الخطاب أن يكون لمعين ، وقد يترك إلى غير معين ، كما تقول : « فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك » فلا تريد مخاطباً بعينه ، بل تريد : إن أُكْرِمَ ، وإن أُحْسِنَ إليه ؛ فتخرجه في صورة الخطاب ، ليفيد العموم ، أي سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد .

وهو في القرآن كثير ، كقوله تعالى : « ولَوْ تَرَى إذ المُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءوسِهم عِنْدَ رَبِّهِمْ » (١) أُخْرِجَ في صورة الخطاب لما أُرِيدَ العمومُ ؛ للقصد إلى تفظيع حالهم ، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها ، فلا تختص بها رؤية راء مختص به ، بل كلُّ من يتَأَتَّى منه رؤيةٌ داخلٌ في هذا الخطاب .

التعريف بالعلمية

٣٢ — وإن كان بالعَلَميّة فإما لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم يَخُصُّه كقوله تعال : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » (٢) وقول الشاعر : (٣)

٣٩ — أبو مالِكٍ قاصرٌ فَقْرَهُ على نفسه ، ومُشِيعٌ غِناه

وقوله :

٤٠ — اللهُ يعلم : ما تركتُ قتالَهم
حتّى عَلَوْا فرسي بأشْقَرَ مُزْبِدِ (٤)

---

(١) بعض الآية ١٢ من سورة السجدة .
(٢) الآية ١ من سورة الإخلاص .
(٣) هو المتنخل الهذلي ، الشاعر الجاهلي .
(٤) قائله الحارث بن هشام ، ألد أعداء الرسول ، وبعده :

وعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ، ولا يضرر عدوي مشهدي

الأشقر : الدم صار علقا ، والمزبد : ما علاه الزبد ونحوه من الرغوة ، واحداً : منفرداً ،
←

وإما لتعظيمه ، أو لإهانته ، كما في الكُنَى والألقاب المحمودة والمذمومة .

وإما للكناية حيث الاسم صالح لها ، ومما ورد صالحا للكناية من غير باب المسند إليه قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب » (١) أي جَهَنَّمِيّ.
وإما لإيهام استلذاذه ، أو التبرك به .

وإما لأعتبار آخر مناسب .

التعريف بالموصولية

٣٣ ــ وإن كان بالموصوليَّة فإما لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة ، كقولك : الذي كان معنا أمس رجل عالم .

وإما لاستهجان التصريح بالاسم .

وإما لزيادة التقرير ، نحو قوله تعالى : « وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ » (٢) فإنه مَسُوقٌ لتنزيه يوسف عليه السلام عن الفَحشاء ، والمذكورَ أدلُّ عليه من « امرأة العزيز » وغيره .

وإما للتفخيم كقوله تعالى « فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » وقول الشاعر :

←
مشهدي : حصوري الموقعة . وهو يعتذر في البيتين عن هربه أمام جيوش المسلمين ؛ بأنه لم يفر إلا بعد ان تخثر الدم السائل من جراحه على فرسه ، وبأن قتاله وحده يؤدي به إلى القتل ــ ولا بد ــ دون أن ينال من عدوه نيلا .

(١) بعض الآية ١ من سورة المسد .

(٢) بعض الآية ٢٣ من سورة يوسف .

(٣) بعض الآية ٧٨ من سورة طه .

٤١ - مضى بها ما مَضى مِنْ عَقْلِ شاربها
وفي الزجاجة باقٍ يطلبُ الباقي (١)

ومنه في غير هذا الباب قوله تعالى : « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » (٢) وبيت الحماسة :

٤٢ - صبَا ما صبَا حتى علا الشيبُ رأسَهُ
فلما علاه قال للباطل : ابْعَدِ (٣)

وقول أبي نواس :

٤٣ - ولقد نَهَزْتُ مع الغُواة بَدْلِوهِمِ
وأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظِ حيث أساموا(٤)
وبلغت ما بلغ امرُؤٌ بشبابه
فإذا عُصارة كلِّ ذاكَ أثامُ

وإما لتنبيه المخاطب على خطأ ، كقول الآخر :

٤٤ - إن الذين تَرَوْنَهُمْ إخوانَكـم
يشفي غليلَ صدورهم أن تُصْرَعوا (٥)

---

(١) الضمير المجرور محلا بالباء يعود إلى الخمر ، والبيت لأبي نواس .

(٢) الآية ٥٤ من سورة النجم .

(٣) صبا : مال إلى الصبوة ، وهي جهلة الشباب ، والبيت لدريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله .

(٤) نهز بالدلو في البئر : ضرب بها في الماء لتمتلىء ، وقصده شاركت الغواة في غيهم ، والغواة : أهل الغي والضلال ، واحده : غاو كقاض ، وأسام لحظه : أرسله وأطلقه وسرحه ، وسرح اللحظ : انطلاقه ، وعصارة الشيء : خلاصته ، والأثام : الإثم .

(٥) ترونهم : تظنونهم ، وغليل الصدور : الحقد ، وتصرعوا : تلاقوا مصرعكم وهلاككم ، والبيت لعبدة بن الطبيب الشاعر المخضرم .

وإما للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، نحو « إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين (١) » .

ثم إنه ربما جُعِل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر ، كقوله :

٤٥ – إن الذي سَمَكَ السماء بَنَى لنا
بيتاً دعائِمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ (٢)

أو لشأن غيره ، نحو « الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخاسِرِينَ (٣) »

قال السكاكي : وربما جُعل ذريعةً إلى تحقيق الخبر ، كقوله :

٤٦ – إن التي ضَرَبَتْ بيتاً مُهاجِرةً
بكوفَةِ الجُنْدِ غَالَتْ وُدَّها غُولُ (٤)

وربما جُعِل ذريعةً إلى التنبيه للمخاطب على خطأ ، كقوله : « إن الذين ترونهم البيت (٥) » .

وفيه نظر ؛ إذ لا يظهر بين الايماء إلى وجه بناء الخبر وتحقيق الخبر

---

(١) بعض الآية ٦ من سورة غافر . وداخرين : صاغرين .

(٢) سمك : رفع ، ودعائم البيت : عماده ، والواحدة دعامة ، وأعز : من العزة بمعنى المنعة ، وأطول : من الطول – بالفتح – بمعنى القوة ، أو من الطول – بالضم – ضد القصر ، والبيت للفرزدق همام بن غالب .

(٣) بعض الآية ٩٢ من سورة الأعراف .

(٤) ضرب البيت أو الخيمة : نصبهما وأقامهما . وكوفة الجند : هي الكوفة المشهورة ، المدينة العراقية ، أخت البصرة ، وغالت ودها : أهلكته ، كاغتالته ، والبيت لعبدة بن الطبيب .

(٥) هو الشاهد ٤٤ .

فرقٌ ، فكيف يُجْعَلُ الأولُ ذريعةً إلى الثاني ؟ ! والمسند إليه في البيت الثاني ليس فيه إيماء إلى وجه بناء الخبر عليه ، بل لا يبعد أن يكون فيه إيماء إلى بناء نقيضه عليه .

التعريف بالإشارة

٣٤ – وإن كان بالأشارة فإما لتمييزه أكملَ تمييز ؛ لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا ، كقوله :

٤٧ – هذا أبو الصَّقْرِ فردا في محاسِنِه (١)

وقوله :

٤٨ – أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا
وإن عاهَدُوا أَوْفَوا وإن عقَدُوا شَدُّوا (٢)

وقوله :

٤٩ – وإذا تأمَّلَ شخصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ
مُتَسَرْبِلٍ سِرْبالَ ليلٍ أغْبَرِ (٣)

---

(١) قائله ابن الرومي ، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج ، الرومي ، الشاعر الهجاء المتوفى سنة ٢٨٣ هـ. وعجزه :

* من نسل شيبان بين الضال والسلم *

وهو في مدح أبي الصقر الشيباني ، وزير المعتمد الخليفة العباسي ، والضال : واحدته ضالة ، والسلم : واحدته سلمة : وهما من أشجار البادية ، وبذكرهما حقق مراده من مدح صاحبه وأهله بالبداوة وأنهم لم يفسدوا بالحضارة .

(٢) البيت للحطيئة يمدح ، وعقد الخيط : جعل فيه عقدة ، وشد العقدة : قواها ووثقها .

(٣) متسربل : لابس السربال ، وهو القميص ، أوما : أشار ، وقد سهل الهمزة ، وأصله أومأ ، الكوماء : الناقة الضخمة ، الطارق : النازل ليلا ، والبيتان في المدح بالكرم ، وقبلهما بيتان في المدح بالشجاعة ذكرهما القالي في أماليه ١-٤٣ ، وتنسب الأبيات لابن المولى من شعراء العهدين الأموي والعباسي .

أَوْما إلى الكَوْماء : هذا طـارقٌ
نَحَرَتْنِيَ الأعداءُ إنْ لَمْ تُنْحَرِي

وقوله :

٥٠ ـ ولا يُقِيم على ضَيْمٍ يُراد بـه
إلا الأذلاَّنِ عَيْرُ الحيِّ والوتدُ (١)

هذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمَّتِه
وذا يُشَجُّ فلا يَرْثي له أحـدُ

وإما للقصد إلى أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحسِّ ، كقول الفَرَزْدَقِ :

٥١ ـ أولئك آبائي ، فَجِئْني بمثلِهم
إذا جمعتنا يا جَرِيرُ المجامعُ

وإما لبيان حالِه في القرب ، أو البعد ، أو التوسط ، كقولك : هذا زيد ، وذلك عَمْرو ، وذاك بشر .

وربما جُعِلَ القربُ ذريعةً إلى التحقير ، كقوله تعالى : « وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذونَكَ إلاَّ هُزُواً ، أَهذَا الذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُم (٢) ؟ ! » وقوله تعالى : « وإذا رَأَوْكَ إن يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً ، أهذا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً (٣) ؟ ! » وقوله تعالى : « وَمَا هذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ (٤) » ،

---

(١) البيتان للمتلمس ، جرير بن عبد المسيح ، خال طرفة بن العبد ، وهما شاعران جاهليان . الضيم : القهر والظلم ، العير : الحمار ، الخسف : الذل والهون ، يشج : يكسر .

(٢) بعض الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٤١ من سورة الفرقان .

(٤) بعض الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

وعليه من غير هذا الباب قوله تعالى : « مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهذَا مَثَلاً (١) » وقول عائِشَةَ — رضي الله عنها — لعبد الله بن عَمْرو بن العاص : « يا عجبا لابن عَمْرٍو هذا » وقول الشاعر :

٥٢ — تقولُ ودقَّتْ نَحْرَها بيمينها :
أَبَعْلِيَ هذا بالرَّحا المُتقاعِسُ (٢)

وربما جُعِل البعدُ ذريعةً إلى التعظيم ، كقوله تعالى « أَلم ذَلِكَ الكِتَابُ (٣) » ذهاباً إلى بُعْد درجته ، ونحوه « وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا (٤) » ولذا قالت : « فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٥) » لم تقل : « فهذا » وهو حاضر ؛ رَفْعاً لمنزلته في الحسن ، وتمهيداً للعذر في الافتتان به .

وقد يُجعَل ذريعة إلى التحقير ، كما يقال : ذلك اللعين فعل كذا ، وإما للتنبيه إذا ذُكر قبل المسند إليه مذكورٌ ، وعُقِّب بأوصاف ؛ على أن يَرِدُ بعد اسم الإشارة فالمذكورُ جديرٌ باكتسابه ؛ من أجل تلك الأوصافِ ، كقول حاتِم الطَّائِيِّ (٦) :

---

(١) بعض الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٢) البعل : الزوج ، وتقاعس الرجل : أخرج صدره وأبرزه ، وينشأ عنه دخول ظهره وغوره ، والبيت للهذلول العنبري .

(٣) الآية ١ وبعض الآية ٢ من سورة البقرة ، والريب : الشك .

(٤) بعض الآية ٧٢ من سورة الزخرف .

(٥) بعض الآية ٣٢ من سورة يوسف .

(٦) هو حاتم بن عبد الله الطائي ، الشاعر الجاهلي : المضروب به المثل في الجود. « لله فلان » تركيب يفيد التعجب والتعظيم ، ومثله « لله در فلان » ، والصعلوك : الفقير ، ومن يتلصص لفقره . يساور : يواثب ويغالب ، والهم : ما يشغل بال الإنسان من أمل ونحوه ، والأحداث : النوازل ، والطلبات : جمع طلبة ، وهي ما يطلبه الإنسان ، والخمص : الجوع ، والقرحة : الشقاء والفقر ، والمغنم : الغنيمة ،

٥٣ ـ ولله صُعْلُوكٌ يُساوِر هَمَّـــه
ويمضي على الأحداث والدَّهْرِ مُقْدِما

فتًى طَلِبات، لا يرى الخمْصَ تَرْحَةً
ولاَ شبْعةً ، إن نالها عَدَّ مَغْنما

إذا ما رأى يوماً مُكارِمَ أعرضَتْ
تيممَ كُبْرَاهُنَّ ، ثُمتَ صَمَما

ترى رُمْحَهُ ، ونَبْلَهُ ، ومِجَنَّهُ
وذا شُطَبٍ عَضْبَ الضَّريبة مِخْذما

وأحْناءَ سَرْجٍ قاتِرٍ ، والجِـامَهُ
عتادَ أخي هيجا ، وطِرْفاً مُسَوَّما

فذلك إن يَهْلِكْ فحُسْنَى ثَناؤُهُ
وإن عاش لم يَقْعُد ضعيفا مُذَمَّما

فعدَّد له كما ترى خصالاً فاضلة . من المَضَاء على الأحداث مُقْدِما ، والصبر على ألم الجوع . والأنفة من أن يُعدَّ الشَّبْعَة مَغْنَما ، وتيمُّم كُبرى المكْرمات ، والتأهُّب للحرب بأدواتها . ثم عَقَّب بذلك بقوله : « فذلك » فأفاد أنه جديرٌ باتصافه بما ذكر بعده .

←

وأعرضت : ظهرت وبرزت ، وتيمم : قصد ، وثمت : ثم ، وصمم : مضى في أمره دون تردد ، والرمح : عود طويل في رأسه حربة ، والنبل : واحدته نبلة ، وهي السهم الذي يرمى بالقوس ، والمجن : الترس ، والشطب : طرائق وخطوط في متن السيف ، واحدتها شطبة . والعضب : القاطع . والضريبة من السيف : حده ، والمخذم : القاطع ، والأحناء : واحدها حنو ، ويطلق على كل ما فيه اعوجاج . وعلى قربوس السرج المقدم والمؤخر ، والسرج القاتر : الجيد ، والعتاد : ما تعده لأمر من الأمور ، والهيجا : الحرب ، مقصور بعد المد ، والطرف : الجواد الأصيل . والمسوم : المعلم لشهرته .

وكذا قوله تعالى « أولئك علَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (١) » أفاد اسمُ الإشارة زيادَة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح .

وإما لاعتبار آخَرَ مناسب .

لتعريف باللام

٣٥ – وإن كان باللام فإما للإشارة إلى معهود بينَك وبينَ مخاطَبِك ، كما إذا قال لك قائل : جاءني رجل من قبيلة كذا ، فتقول : ما فَعَل الرجل ؟ وعليه قوله تعالى :

« وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى (٢) » أي وليس الذكر الذي طَلَبَتْ، كالأنثى التي وُهِبَتْ لها .

وإما لإرَادة نَفْسِ الحقيقة ، كقولك : الرجلُ خيرٌ مِنَ المرأة ، والدينارُ خيرٌ من الدّرهم ، ومنه قول أبي العلاء المعَرّي :

٥٤ – والخِلُّ كالماء يُبْدِي لي ضمائرَهُ
مع الصفاء ويُخْفيها معَ الكَدَرِ (٣)

وعليه مِن غير هذا الباب قوله تعالى : « وَجَعَلْنا مِنَ الماء كلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » (٤) أي جعلنا مبدأ كل شيء حي هذا الجنس الذي هو الماء ، روى أنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقَها من الماء ، والجنّ من

---

(١) الآية ٥ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٣) أبو العلاء : هو أحمد بن عبد الله بن سليمان ، المعري ، التنوخي ، الشاعر المتفلسف ، صاحب « سقط الزند » و « اللزوميات » و « رسالة الغفران » و « الفصول والغايات » وغيرها ، توفي سنة ٤٤٩ هـ . والضمائر : جمع ضمير ، و ضمير كل شيء : باطنه .

(٤) بعض الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

من نار خلقها منه ، وآدم من تراب خلقه منه ، ونحوه « أولئكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ، والحُكْمَ ، والنُّبُوَّةَ (١) » .

والمُعرفُ باللام قد يأتي لواحد باعتبار عهديَّتِهِ في الذهن ، لمطابقته الحقيقة كقولك : أدخلِ السوق ، وليس بينك وبين مخاطبك سوقٌ معهودٌ في الخارج ، وعليه قولُ الشاعرِ :

٥٥ — ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني (٢)

وهذا يقرب في المعنى من النكرة ، ولذلك يُقدَّر « يسبني » وصفا للَّئيم ، لا حالاً .

وقد يفيد الاستغراقَ ، وذلك إذا امتنع حملُه على غير الأفراد ، وعلى بعضها دون بعض ، كقوله تعالى : « إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا (٣) » .

أقسام الاستغراق

والاستغراقُ ضربان :

حقيقي ، كقوله تعالى : « عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ (٤) » أي كل غيب وشهادة .

وعُرْفي كقولنا : جمع الأميرُ الصَّاغَةَ . إذا جمع صاغة بلده أو أطرافِ مملكته فَحَسْبُ ، لا صاغةَ الدنيا .

---

(١) بعض الآية ٨٩ من سورة الأنعام .

(٢) بقيته « فمضيتُ ، ثُمّتَ قلت لا يعنيني » ثمت : ثم العاطفة ، وقد رواه البحتري في حماسته : ولقد مررت على اللئيم .. إلخ ، وقائله عميرة بن جابر الحنفي .

(٣) الآية ٢ وبعض الآية ٣ من سورة العصر .

(٤) بعض الآية ٩ من سورة الرعد .

واستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ؛ بدليل أنه لا يصدق « لا رجل في الدار » في نفي الجنس ، إذا كان فيها رجل أو رجلان ، ويصدق « لا رجال في الدار » .

ولا تنافي بين الاستغراق وأفراد اسم الجنس ؛ لأن الحرف إنما يدخل عليه مجردا عن الدلالة على الوحدة والتعدد ، ولأنه بمعنى كلّ الإفراديّ لا كلّ المجموعيّ أي معنى قولنا : « الرجل » كل فرد من أفراد الرجال لا مجموع الرجال ، ولهذا امتنع وصفه بنعت الجمع ، وللمحافظة على التشاكل بين الصفة والموصوف أيضاً .

المراد باسم الجنس

فالحاصل أن المراد باسم الجنس المعرف باللام ؛ إما نفسُ الحقيقة ، لاما يصدق عليه من الأفراد ، وهو تعريف الجنس والحقيقة ، ونحوه علم الجنس ، كأسامة .

وإما فردٌ مُعَيَّنٌ ، وهو العهد الخارجيُّ ، ونحوُه العَلَمُ الخاص ، كزيد .

وإما فردٌ غير معيَّن ، وهو العهد الذِّهْنِيُّ ، ونحوه النكرة ، كرجل .

وإما كلُّ الأفرادِ ، وهو الاستغراق ، ونحوُه لفظ كل مضافا إلى النكرة ، كقولنا : كل رجل .

وقد شكك السكاكي على تعريف الحقيقة والاستغراق بما خرج الجوابُ عنه مما ذكرنا ، ثم اختار — بناءً على ما حكاه عن بعض أئمة أصول الفقه من كون اللام موضوعة لتعريف العهد لا غير — أن المراد بتعريف الحقيقة تنزيلُها منزلةَ المعهود بوجه من الوجوه الْخَطَابية ؛ إما لكون الشيء حاضراً في الذهن ؛ لكونه محتاجاً إليه على طريق التحقيق أو التهكم ، أو لأنه عظيم الخطر معقود به الهمم على أحد الطريقين ، وإما ·· ، لا يغيب عن الحس على أحد الطريقين لو كان معهودا .

وقال : الحقيقة من حيث هي هي لا واحدة ولا متعددة ؛ لتحققها مع الوحدة تارةً ومع التعدد أخرى ، وإن كانت لا تَنْفَكُّ في الوجود عن أحدهما ، فهي صالحة للتوحُّد والتكثُّر ، فكون الحكم استغراقاً أو غيرَ استغراق ؛ إلى مُقْتَضَى المقام ، فإذا كان خَطابياً مثل « المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم (١) » حُمِلَ المُعَرَّفُ باللام ــ مفرداً كان أو جمعاً ــ على الاستغراق ، بعلة إيهام أن القصد إلى فرد دون آخر مع تحقق الحقيقة فيهما ترجيحٌ لأحد المتساوِيَيْنِ ، وإذا كان استدلاليا حُمِلَ على أقل ما يَحْتَمِل ، وهو الواحدُ في المفرد ، والثلاثةُ في الجمع .

التعريف بالاضافة

٣٦ ــ وإن كان بالإضافة فإما لأنه ليس للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريقٌ أخصرُ منها ، كقوله :

٥٦ ــ هَوَايَ مَع الركْبِ اليَمَانِينَ مُصْعِدٌ
جَنِيبٌ ، وجُثْماني بِمَكَّةَ مُوثَقُ (٢)

وإما لإغنائها عن تفصيل مُتَعَذِّرٍ أو مرجوح لجهة ، كقوله :

٥٧ ــ بَنُو مَطَرٍ يومَ اللِّقَــاء كأنهم
أسودٌ لها في غِيل خَفَّان أشْبُلُ (٣)

---

(١) الغر : الشاب لا خبرة له ، والمراد هنا القابل لأن يخدع ، والخب : الشديد الخداع .

(٢) الركب : جمع راكب ، اليمانين : اليمنيين ، مصعد : ذاهب مبعد في الأرض ، جنيب : منحى مبعد ، أو مقدم يتبعه غيره ، جثماني : جسمي ، موثق : مقيد ، والبيت لجعفر بن علبة الحارثي ، شاعر مقل غزل فارس من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية .

(٣) قائله مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة الشيباني ، وبنو مطر : قومه الأدنين ، ويوم اللقاء : هو يوم الحرب ، والغيل : بالكسر : المأسدة ، وخفان : مأسدة قرب الكوفة ، فالإضافة بيانية ، والأشبل : جمع شبل ، وهو ولد الأسد .

وقوله :

٥٨ – قومي هُمُ قتلوا أُمَيْـــمَ أخي
فإذا رمَيْتُ يُصيبُني سَهْمي (١)

وإما لتضمُّنها تعظيما لشأن المضاف إليه ، كقولك : عبدي حضر فتعظِّم شأنَك ، أو لشأنِ المضاف ، كقولك : عبد الخليفة ركب ، فتعظم شأن العبد ، أو لشأن غيرِهما كقولك : عبد السلطان عند فلان ، فتعظم شأن فلان ، أو تحقيراً نحو : ولد الحجام حضر .

وإما لاعتبار آخر مناسب .

تنكير المسند إليه

٣٧ – وأما تنكيره فللإفراد كقوله تعالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى (٢) » أي فرد من أشخاص الرجال ، أو للنوعية كقوله تعالى : « وعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (٣) » أي نوع من الأغطية غير ما يتعارفُه الناسُ ، وهو غطاء التعامي عن آيات الله .

ومن تنكير غير المسند إليه للإفراد قوله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكاءُ مُتَشَاكِسُونَ ورَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ (٤) »

---

(١) «اميم» منادى مرخم ، اصله «اميمة» فميمه جائزة الفتح والضم على اللغتين في مثله ، وقائله الحارث بن وعلة الجرمي الجاهلي .

(٢) بعض الآية ٢٠ من سورة القصص .

(٣) بعض الآية ٧ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ٢٩ من سورة الزمر ، والمتشاكسون : المتنازعون ، والسلم : الخالص .

والنوعية قوله تعالى: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ (١)» أي نوعٍ من الحياة مخصوص ، وهو الحياةُ الزائدة كأنه قيل : ولتجدنّهم أحرص الناس وإن عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم في الماضي والحاضر حياةً في المستقبل ، فان الإنسان لا يوصف بالحرص على شيء إلا إذا لم يكن ذلك الشيء موجوداً له حالَ وصفه بالحرص عليه ، وقولُه تعالى: «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ (٢)» يحتمل الإفرادَ والنوعيَّةَ أي : خلق كلَّ فرد من أفراد الدواب من نُطْفةٍ معينة . أو كلَّ نوعٍ من أنواع الدواب من نوع من أنواع المياه .

أو للتعظيم والتهويل أو للتحقير ، أي ارتفاع شأنه أو انحطاطِه إلى حدٍّ لا يمكن معه أن يُعرَفَ ، كقول ابن أبي السِّمْطِ :

٥٩ – له حاجبٌ عن كل أمر يَشِينُهُ
وليس له عن طالب العُرْفِ حاجبُ (٣)

أي له حاجب أيُّ حاجب ، وليس له حاجب ما .

أو للتكثير ، كقولهم : إن له لإبِلاً ، وإن له لَغَنَماً ، يريدون الكثرة .

وحمل الزَّمَخْشَرِيُّ التنكيرَ في قوله تعالى : «قَالُوا : أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا (٤)» عليه .

---

(١) بعض الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٤٥ من سورة النور .

(٣) العرف : المعروف والعطاء ، وابن أبي السمط : حفيد مروان بن أبي حفصة ونسب في غير هذا الكتاب إلى أبي السمط نفسه ، وإلى أبي الطمحان مولى ابن أبي السمط .

(٤) التلاوة في القرآن : «وجاء السحرة فرعون ، قالوا : إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين» ١١٣ من سورة الأعراف ، وفيه : «فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين» ٤١ من سورة الشعراء .

أو للتقليل ، كقوله تعالى : « وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ورِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ (١) » أي وشيء مَا من رضوانه أكبرُ من ذلك كله ؛ لأن رضاه سببُ كلِّ سعادةٍ وفلاحٍ ؛ ولأن العبد إذا علم أن مولاه راضٍ عنه ؛ فهو أكبرُ في نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تَهَنّأ له برضاه ، كما إذا علم بِسَخَطه تنغَّصتْ عليه ، ولم يَجِدْ لها لذةً وإن عظمت .

وقد جاء التعظيمُ ، والتكثيرُ جميعاً ، كقوله تعالى : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ (٢) » أي رسلٌ ذَوُو عَدَدٍ كثيرٍ ، وآياتٍ عظامٍ ، وأعمارٍ طويلةٍ ، ونحو ذلك .

والسكَّاكيُّ لم يفرق بين التعظيم والتكثير ، ولا بين التحقير والتقليل؛ ثم جعل التنكير في قولهم : « شَرٌّ أهَرَّ ذا ناب » (٣) للتعظيم ، وفي قوله تعالى : « ولَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ (٤) » لخلافه ، وفي كِلَيْهِمَا نظر ، أما الأول فلما سيأتي ، وأما الثاني فلأن خلافَ التعظيم مُستفاد من البناء للمرة ومن نفس الكلمة ؛ لأنها إما من قولهم : نَفَحَتِ الريحُ ، إذا هبَّتْ ، أي هبةً ، أو من قولهم : نفحَ الطِّيبُ ، إذا فاح ، أي فوحةً ، كما يقال : شمة ، واستعماله بهذ المعنى في الشر استعارة ؛ إذ أصله أن يستعمل في الخير ، يقال : له نفحة طيبة ، أي هبَّةٌ من الخير .

---

(١) بعض الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٢) بعض الآية ٤ من سورة فاطر .

(٣) مثل يضرب عند توقع الشر المستطير من ظهور أمارته ، والهرير : صوت الكلب ونحوه من البرد أو الخوف ونحوهما ، وأهره : جعله يهر .

(٤) بعض الآية ٤٦ من سورة الأنبياء .

وذهب أيضاً إلى أن قوله تعالى : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ (١) » بالتنكير — دون « عذاب الرحمن » بالإضافة — إما للتهويل ، أو لخلافه ، والظاهر أنه لخلافه ، واليه ميلُ الزَّمَخْشَرِيِّ ؛ فإنه ذكر أن إبراهيم — صلى الله عليه وسلم — لم يُخْلِ هذا الكلام مِنَ حسن الادب مع أبيه ، حيث لم يُصَرِّح فيه أن العذابَ لا حِقٌ له لاصق به ، ولكنه قال : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ » فَذَكَرَ الخوف ، والمس ، ونكَّر العذاب .

وأما التنكير في قوله تعالى: « وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ (٢) » فيحتمل النوعيَّةَ والتعظيمَ ، أي لكم في هذا الجنس من الحكم — الذي هو القصاص — حياةٌ عظيمة ؛ لمنْعِه عما كانوا عليه من قَتْلِ جماعة بواحد متى اقتدروا ، أو نوعٌ من الحياة ، وهو الحاصلُ للمقتول والقاتل بالارتداع عن القتل للعلم بالاقتصاص ، فإن الإنسان إذا همَّ بالقتل تذكَّر الاقتصاص فارتدع ، فسلم صاحبه من القتل وهو من القَوَدِ ؛ فتسبب لحياة نفسين .

ومن تنكير غير المسند إليه للنوعية « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً (٣)» أي وأرسلنا عليهم نَوعاً من المطر عجيباً ، يعني الحجارة ، ألا ترى إلى قوله تعالى « فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ (٤) » ؟ وللتحقير « إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً (٥) » .

---

(١) بعض الآية ٤٥ من سورة مريم .

(٢) بعض الآية ١٧٩ من سورة البقرة .

(٣) صدر الآية ٥٨ من سورة النمل .

(٤) بقية الآية ٥٨ من سورة النمل .

(٥) بعض الآية ٣٢ من سورة الجاثية .

وصف المسند إليه

٣٨ – وأما وصفُه فَلِكوْنِ الوصفِ تفسيراً له كاشفا عن معناه ، كقولك : الجِسمُ الطويلُ العريضُ العميقُ محتاجٌ إلى فراغ يشغله ، ونحوُه في الكشفِ قولُ أوْسٍ :

٦٠ – الألْمَعِيُّ الذي يَظُنُّ بكَ الظنَّ كأنْ قَد رأى ، وَقَد سمِعا (١)

حُكِيَ أن الأصْمَعِيَّ سُئِلَ عن الألْمَعِيِّ ، فأنشده ، ولم يَزِد ، وكذا قولُه تعالى : « إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً (٢) » قال الزَّمَخْشَرِي : الهَلَعُ ، سرعةُ الجَزَعِ عند مسِّ المكروه ، وسرعةُ المنع عند مسِّ الخيرِ ، ومن قولهم : ناقةٌ هلوعٌ ، سريعة السير ، وعن أحمدَ بنِ يحيي (٣) : قالي لي محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ طاهرٍ (٤) : ما الهَلَع ؟ قلت : قد فسَّره الله تعالى . انتهى كلام الزمخشري ؛ أو لكونه مخصصاً له نحو : زيد التاجر عندنا . أو لكونه مخصِّصا له ، نحو : زيد التاجر عندنا . أو لكونه مَدْحاً له ، كقولنا : جاء زيدٌ العالِم ، حيث يتعين فيه « زيد » قبل ذكر « العالم » ونحوهُ من غيره قولُه تعالى : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ » (٥) وقولُه تعالى : « هُوَ اللهُ الخالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ (٦) » .

---

(١) الألمعي : المتوقد الذكاء الذي يغنيه ظنه عن السماع والرؤية ، وأوس بن حجر – بالتحريك – شاعر جاهلي ، والبيت من قصيدة له في رثاء فضالة بن كلدة .

(٢) الآيات ١٩ – ٢١ من سورة المعارج .

(٣) هو ثعلب ، النحوي ، المتوفى سنة ٢٩١ هـ.

(٤) أحد قواد العباسيين ، توفي سنة ٢٧٥ هـ.

(٥) الآية ١ من سورة الفاتحة ، وفي كونها آية من كل سورة أو بعض آيـة خلاف بين العلماء معروف مذكور في كتب التفسير وكتب الأحكام .

(٦) صدر الآية ٢٤ من سورة الحشر .

أو لكونه ذماً له . كقولنا : ذهب زيد الفاسق ؛ حيث يتعين فيه « زيدٌ » قبل ذكر « الفاسق » ، ونحوُه من غيره قولُه تعالى : « فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم (١) » .

أو لكونه تأكيداً له . كقولك : أمسِ الدابرُ كان يوماً عظيماً .

أو لكونه بياناً له ، كقوله تعالى : « لا تَتَّخِذُوا إلهَيْنِ اثنَيْنِ ، إنَّمَا هُوَ إلهٌ وَاحِدٌ » (٢) .

قال الزَّمَخْشرِيُّ : الاسمُ الحاملُ لمعنى الإفرادِ والتثنيةِ دالٌّ على شيئين : على الجِنْسيَّة . والعدَدِ المخصوصِ . فإذا أُريدَ الدلالة على أن المعنِيَّ به منهما . والذي يُسَاقُ له الحديثُ ؛ هو العددُ ؛ شُفِعَ بما يؤكِّده . فدُلَّ به على القصد إليه ، والعنايةِ به ، ألا ترى أنك لو قلت : « إنما هو اله » ولم تؤكِّدْهُ بواحدٍ . لم يحسنْ ؛ ويُخيَّلَ أنك تُثبِت الإلهيَّةَ لا الوحدانيَّة ؟ .

وأما قولُه تعالى : « وَمَا مِنْ دَابةٍ في الأرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » (٣) فقال السَّكَّاكِيُّ : شفع دابة بـ « في الأرض » وطائراً بـ « يطير بجناحيه » لبيان أن القصد بهما إلى الجنسين ، وقال الزمخشري : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطةِ . كأنه قيلِ : وما من دَّابة قَطُّ في جميع الأرَضين السبع . وما من طائر قطٌّ في جوِّ السماء من جميع ما يطير بجناحيه .

الجملة تقع صفة للنكرة

واعلم أن الجملة قد تقع صفة للنكرة . وشرْطُها أن تكون خبرية ؛

---

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل .

(٢) بعض الآية ٥١ من سورة النحل .

(٣) بعض الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

لأنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر ، فلم يستقم أن تكون إنشائيةً مثلَه ، وقال السكاكي : لأنه يجب أن يكون المتكلم يعلمُ تحقُّقَ الوصف للموصوف ؛ لأن الوصف إنما يُؤتَى به ليُمَيِّزَ الموصوفَ مما عداه ، وتميز المتكلم شيئاً من شيء بما لا يَعْرِفُهُ له محالٌ ، فما لا يكون عنده مُحَقَّقاً للموصوف يمتنع أن يجعله وصفاً له ، بحكم عكس النقيض ، ومضمونُ الجُمَلِ الطلبية كذلك ؛ لأن الطلب يقتضي مطلوباً غير متحقق لامتناع طلب الحاصل ؛ فلا يقع شيء منها صفة لشيء .

والتعليلُ الأول أعمُّ ؛ لأن الجملة الإنشائية قد لا تكون طلبية ، كقولنا : نِعْمَ الرجل زيد ، وبئس الصاحب عمرو ، وربما يقوم بكر ، وكم غلام ملكت ؟ وعسى أن يجيء بشر ، وما أحْسَنَ خالداً ، وصيغ العقود ، نحو : بعت واشتريت ، فإن هذه كلّها إنشائية وليس شيء منها بطلبي .

ولامتناع وقوع الإنشائية صفةً أو خبراً قِيلَ في قوله :

٥٧ — جاؤا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطّ (١)

تقديرُه : جاؤا بمذْقٍ مَقُولٍ عنده هذا القولُ ، أي بمذق يحمل رائيَهُ أن يقول لمن يريد وصفه له : هلْ رأيتَ الذئبَ قطُّ ؟ فهو مثله في اللون ؛ لإيراده في خيال الرائي لونَ الذئب لزُرْقته ، وفي مثل قولنا : زيدٌ اضربه ، أو لا تضربه ، تقديرُه : مقولٌ في حقّه : اضربه ، أو لا تضربه .

---

(١) قبله * حتى إذا جن الظلام واختلط *

جن الليل : أظلم ، وجن الظلام : ستر ، واختلط الظلام : اعتكر ، والمذق : اللبن المخلوط بالماء ، والرجز للعجاج بن رؤبة ، الراجز الأموي .

٣٩ ــ وأما توكيده: فللتقرير، كما سيأتي في باب تقديم الفعل وتأخيره. توكيد المسند إليه

أو لدفع تَوَهُّم التجوُّز، أو السهو، كقولك: عرفتَ، أنا، وعرفتَ أنتَ، وعرف زيد زيدٌ، أو عَدَمِ الشمول، كقولك: عرفني الرجُلانِ كلاهُما، أو الرجال كُلُّهُم.

قال السكاكي: ومنه «كلُّ رجلٍ عارفٌ»، و«كلُّ إنسانٍ حيوانٌ».

وفيه نظر؛ لأن كلمة «كلّ» تارةً تقع تأسيساً، وذلك إذا أفادت الشمولَ من أصلِه، حتى لولا مكانُها لَمَا عُقِل، وتارةً تقع تأكيداً، وذلك إذا لم تُفِدْه من أصله، بل تمنع أن يكون اللفظُ المقتضى له مستعملا في غيره.

أما الأول فهو أن تكون مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (١) وقوله: «وكلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً» (٢) وقوله «وَهُمْ مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» (٣).

وأما الثاني فما عدا ذلك، كقوله تعالى: «فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ» (٤).

وهي في قوله: «كل رجلٍ عارفٌ»، و«كل إنسانٍ حيوانٌ» من الأول لا الثاني؛ لأنها لو حُذِفت منهما لم يُفهَم الشمول أصلا.

---

(١) بعض الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.
(٢) بعض الآية ١٢ من سورة الإسراء.
(٣) بعض الآية ٩٦ من سورة الأنبياء.
(٤) بعض الآية ٣٠ من سورة الحجر.

بيان المسند إليه

٤٠ — وأما بيانه وتفسيره فللإيضاح باسم مختص به ، كقولك قَدِمَ صديقُكَ خالدٌ .

الإبدال من المسند اليه

٤١ — وأما الإبدال منه فلزيادة التقرير والإيضاح ، نحو : جاءني زيد أخوك ، وجاء القومُ أكثرُهم ، وسُلِبَ عَمْرٌو ثوبُه ، ومنه في غيره قولُه تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (١) » .

العطف على المسند إليه

٤٢ — وأما العطف فلتفصيل المسْندِ إليه مع اختصار ، نحو : « جاء زيدٌ ، وعمروٌ ، وخالدٌ » أو لتفصيل المسند مع اختصار ، « نحو جاء زيدٌ فعمروٌ ، أو ثمَّ عمروٌ ، أو جاء القوم حتّى خالد » ، ولا بد في « حتّى » من تدريج كما ينبىء عنه قولُه :

٥٨ — وكُنْتُ فتىً مِنْ جُنْدِ إبليس فارتَمَى
بِيَ الحالُ حتى صارَ إبليسُ من جُنْدي (٢)

أو لردِّ السامع عن الخطأ في الحكم إلى الصواب ، كقولك: «جاءني زيد لا عمروٌ » لمن اعتقد أن عمراً جاءك دون زيد ، أو أنهما جاءاك جميعاً ، وقولك : « ما جاءني زيد لكن عمرو » لمن اعتقد أن زيداً جاءك دون عمرو .

أو لِصَرْفِ الحكم عن محكوم له إلى آخر ، نحو « جاءني زيد بل عمرو ، وما جاءني زيد بل عمرو » .

أو للشك فيه ، أو للتشكيك ، نحو : « جاءني زيد أو عمرو » ، أو « إما زيد وإما عمرو » ، أو « إما زيد أو عمرو » .

---

(١) الآية ٦ وبعض الآية ٧ من سورة الفاتحة .
(٢) البيت لأبي نواس الحسن بن هانىء ، ارتمت بي الحال : أخرجتني .

أو للإبهام ، كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (١) .

أو للإباحة أو التخيير ، وهو أن يفيد ثبوت الحكم لأحد الشيئين او الأشياء فحسب ، مثالُهما قولك : لِيَدْخُلَ الدارَ زيدٌ أو عَمْرٌو ، والفرق بينهما واضح ؛ فإن الإباحة لا تمنع من الإتيان بهما ، أو بها جميعاً .

توسط الفصل بين المسند إليه وبين المسند

٤٣ ـ وأما توسط الفَصْلِ بينه وبين المسند فلتخصصه به ، كقولك : زيد هو المنطلق ، أو هو أفضل من عمرو ، أو هو خير منه ، أو هو يذهب .

تقديم المسند إليه

٤٤ ـ وأما تقديمه فلكون ذكره أهَمَّ ، إما لأنه الأصلُ ، ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع ، لأن في المُبْتَدَأ تشويقاً إليه ، كقوله :

٥٩ ـ والذي حارت البَرِيَّةُ فيه
حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جماد (٢)

وهذا أولى من جعله شاهداً لكون المسند إليه موصولاً كما فعل السكاكي .

وإما لتعجيل المسرَّةِ ، أو المساءةِ : لكونه صالحاً للتفاؤل أو التطيُّر ، نحو : سعدٌ في دارك ، والسَفَّاحُ في دار صديقك .

---

(١) بعض الآية ٢٤ من سورة سبأ .

(٢) البرية : الخلق ، والبيت لأبي العلاء المعري .

وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر ، أو أنهُ يُستلذُّ ، فهو إلى الذكر أقرب .

وإما لنحو ذلك .

قال السكاكي : وإما لأن كونَه متصفاً بالخبر يكون هو المطلوب ، لا نفس الخبر ، كما اذا قيل لك : كيف الزاهد ؟ فتقول : الزاهد يشرب ، ويَطْرَب ؛ وإما لأنه يفيد زيادةَ تخصيصٍ ، كقوله :

٦٠ - متى تَهْزُزْ بني قَطَنٍ تَجِدْهُمْ
سيوفاً في عَوَاتِقِهم سيوفُ (١)
جُلوسٌ في مجـالسهم رِزَانٌ
وإن ضيفٌ ألَمَّ فهم خُفُوف

والمراد : هم خفوف .

وفيه نظر ؛ لأن قوله « لا نفس الخبر » يشعر بتجويز أن يكون المطلوب بالجملة الخبرية نفس الخبر ، وهو باطل ؛ لأن نفس الخبر تصور لا تصديق ، والمطلوب بها إنما يكون تصديقاً ، وان أراد بذلك وقوعَ الخبر مطلقاً فغيرُ صحيح أيضاً ؛ لما سيأتي : أن العبارَة عن مثله لا يُتَعَرَّضُ فيها إلى ما هو مُسْنَدٌ إليه ، كقولك : وَقَعَ القيامُ .

ثم في مطابقة الشاهد الذي أنشده للتخصيص نظر ؛ لما سيأتي : أن ذلك

---

(١) تهزز : مجاز في تختبر : بنو قطن : قوم يمدحهم الشاعر ، تجدهم سيوفاً : بجدهم كالسيوف مضاء ، العواتق : جمع عاتق ، وهو من الكتف موضع حمالة السيف ، رزان : حلماء وقورون ، ومفرده رزين ، الخفوف : مصدر خف ، بمعنى أسرع : جعلهم نفس الخفة والإسراع عند حلول الضيفان للمبالغة في تصوير كرمهم ، أو هو جمع خاف بمعنى الخفيف ، ولا مبالغة حينئذ فيه .

مشروطٌ بكون الخبر فعلياً ، وقوله : « والمراد هم خفوف » تفسيرٌ للشيء بإعادة لفظه .

مذهب عبد القاهر في التقديم

قال عبد القاهر : وقد يُقَدَّم المُسْنَدُ إليه ليفيد تخصيصَه بالخبر الفِعْلِيِّ إن وَلِيَ حرفَ النفي ، كقولك : « ما أنا قلتُ هذا » أي لم أقله مع أنه مقولٌ : فأفاد نَفْيَ الفعل عنك وثُبوتَه لغيرك ، فلا تقول ذلك إلا في شيء ثبت أنه مَقُول وأنت تريد نَفْيَ كونِك قائلا له ، ومنه قولُ الشاعر :

٦١ — ومـا أنا أسْقَمْتُ جِسْمِي به
ولا أنا أضْرَمْتُ في القلب ناراً (١)

التقديم للتخصيص

إذ المعنى أن هذا السقم الموجود والضَّرَم الثابتَ ؛ ما أنا جالبٌ لهما ، فالقصد إلى نَفْيِ كونه فاعلاً لهما لا إلى نفيهما ، ولهذا لا يُقال : « ما أنا قلتُ ، ولا أحدٌ غيري » لمناقضة منطوقِ الثاني مفهومَ الأول ، بل يقال : « ما قلتُ أنا ولا أحدٌ غيري » ولا يقال : « ما أنا رأيت أحداً من الناس » ولا « ما أنا ضربت إلا زيداً » بل يقال : « ما رأيت » أو « ما رأيت أنا أحداً من الناس » و « ما ضربت » أو « ما ضربت أنا إلا زيداً » لأن المنفي في الأول الرؤيةُ الواقعةُ على كلٍّ واحد من الناس ، وفي الثاني الضربُ الواقعُ على كل واحد منهم سوى زيد ، وقد سبق أن ما يفيد التقديمُ ثبوتَه لغير المذكور ؛ هو ما نُفِيَ عن المذكور ، فيكون الأولُ مقتضياً لإن إنساناً غيرَ المتكلم قد رأى كلَّ الناس ، والثاني مقتضياً لأن إنساناً غيرَ المتكلم قد ضرب مَنْ عدا زيداً منهم ، وكلاهما محال .

وعَلّل الشيخُ عبدُ القاهر والسكاكِيُّ امتناعَ الثاني بأن نقض النفي

---

(١) البيت للمتنبي

بـ «إلاّ » يقتضي أن يكون القائل له قد ضرب زيداً . وإيلاء الضمير حرفَ النفي يقتضي أن لا يكون ضربه ، وذلك تناقض .

مناقشة المذهب

وفيه نظر : لأنا لا نُسلّم إيلاء الضمير حرفَ النفي يقتضي ذلك .

فإن قيل : الاستثناء الذي فيه مُفرَّغٌ ، وذلك يقتضي أن لا يكونَ ضَرَبَ أحداً من الناس ، وذلك يستلزم أن لا يكون ضَرب زيداً .

قلنا : إنْ لَزِمَ ذلك فليس للتقديم ؛ لجريانه في غير صورة التقديم أيضاً ، كقولنا : ما ضربت إلا زيداً .

التقديم للتخصيص أو للتقوية عنده

هذا إذا وَلِيَ المسندُ إليه حرفَ النفي ، وإلا فإن كان معرفة كقولك : « أنا فعلت » كان القاصد إلى الفاعل ، وينقسم قسمين :

أحدهما : ما يفيد تخصيصه بالمسند ؛ للرد على من زعم انفراد غيره به ، أو مشاركته فيه ، كقولك : أنا كتبتُ في معنى فلان ، وأنا سعيت في حاجته ، ولذلك إذا أردتَ التأكيدَ قلتَ للزاعم في الوجه الأول : أنا كتبتُ في معنى فلان لا غيري ، ونحو ذلك ، وفي الوجه الثاني : أنا كتبتُ في معنى فلان وحدي ، ونحو ذلك .

فإن قلت : « أنا فعلتُ كذا وحدي » في قوة « أنا فعلته لا غيري » فلم اختص كل منهما بوجه من التأكيد دون وجه ؟ .

قلتُ : لأن جَدْوَى التأكيد لما كانت إماطَةَ شبهةٍ خالجتْ قلبَ السامعِ ، وكانت في الأول أن الفعلَ صَدَرَ من غيرك ، وفي الثاني أنه صدر منك ؛ بشَرِكَةِ الغيرِ ؛ أكّدتَ وأمطتَ الشبهة في الأول بقولك : « غيري » وفي الثاني بقولك : « وحدي » لأنه مَحزُّهُ ، ولو عكسْتَ أحلْتَ ، ومِن البيّنِ في ذلك المَثَلُ : « أتُعَلِّمُني بِضَبٍّ أنا

حَرَشْتُهُ ؟ (١) » وعليه قولهُ تعالى : « وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (٢) » أي لا يعلمهم إلا نحن ، ولا يطلع على أسرارهم غيرنا ؛ لإبْطَانهم الكفرَ في سُوَيْداوات (٣) قلوبهم .

الثاني : ما لا يفيد إلا تَقَوِّيَ الحكْمِ وتَقَرُّرَه في ذهن السامع وتمكنَّهُ ، كقولك « هو يُعطي الجزيلَ » لا تريد أن غيره لا يعطي الجزيل ، ولا أن تُعرِّضَ بإنسانٍ ، ولكن تريد أن تقرر في ذهن السامع وتحقّق أنه يفعل إعطاء الجزيل .

وسبب تَقَوِّيه هو أن المبتدأ يستدعي أن يستَنِد إليه شيء ، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صَرَفَه إلى نفسه ، فينعقد بينهما حكم ، سواء كان خالياً عن ضميره نحو « زيد غلامك » أو متضمناً نحو « أنا عرفتُ ، وأنتَ عرفتَ ، وهو عرفَ ، أو زيدٌ عرف » ثم إذا كان متضمناً لضميره صرفه ذلك الضميرُ اليه ثانياً ؛ فيكتسي الحكم قوةً .

ومما يدل على أن التقديم يفيد التأكيد أن هذا الضربَ من الكلام يجيء . فيما سبق فيه إنكار من مُنكِر ، نحو أن يقول الرجل : « ليس لي علم بالذي تقول » فتقول : « أنت تعلم أن الأمر على ما أقول » وعليه قوله تعالى : « وَيَقُولونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٤) » لأن الكاذب — لا سيما في الدين — لَا يعترف بأنه كاذب ، فيمتنع أن يعترف بالعلم بأنه كاذب .

---

(١) الضب : حيوان زحاف كثير عقد الذنب ، وحرشه : اصطاده ، والمثل يضرب لمن يحدثك عن شيء أنت أعلم به منه .

(٢) بعض الآية ١٠١ من سورة التوبة .

(٣) السويداوات : جمع سويداء ، وهي من القلب حبته ، كسودائه .

(٤) بعض الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

وفيما اعترض فيه شكٌّ ، نحو أن تقول للرجل : « كأنك لا تعلم ما صنع فلان » فيقول : « أنا أعلم » .

وفي تكذيب مُدَّعٍ ، كقوله تعالى : « وإذا جاؤكم قالُوا آمَنَّا ، وَقَد دَخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قَدَ خَرَجُوا بِهِ (١) » فإن قولهم « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به .

وفيما يقتضي الدليلُ أن لا يكون ، كقوله تعالى : « والذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً ، وَهُمْ يُخْلَقُون (٢) » فإن مُقْتَضَى الدليل أن لا يكون مَا يُتَّخَذُ إلهاً مخلوقاً .

وفيما يستغرب . كقولك : « ألا تعجب من فلان ؟ يدعى العظيم وهو يَعْيا باليسير » .

وفي الوعد و الضَّمان ، كقولك للرجل : « أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر » لأن من شأن من تَعِدُهُ وتضمن له أن يعترضه الشك في إنجاز الوعد والوفاء بالضمان ؛ فهو من أحوج شيء إلى التأكيد .

وفي المدح والافتخار ؛ لأن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح فيه ، ويبعدهم عن الشبهة ، وكذلك المفتخر .

أما المدح فكقول الحماسي :

---

(١) بعض الآية ٦١ من سورة المائدة .

(٢) الذي في القرآن آيتان هما : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يخلقون » ٢٠ من سورة النحل ، و « الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ١٤ من سورة الرعد .

٦٢ — * هُمُ يفرشون اللّبْدَ كلَّ طِمِرَّةٍ * (١)

وقول الحماسية :

٦٣ — * هما يَلْبَسَان المجدَ أحسن لِبْسَةٍ (٢)

وقول الحماسي :

٦٤ — فهم يضربون الكبْشَ يَبْرُق بَيْضُهُ (٣) *

وأما الافتخار فكقول طَرَفَةَ :

٦٥ — * نحن في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى (٤) *

ومما لا يستقيم المعنى فيه إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسـ

---

(١) عجزه : * وأجرد سباح يبذ المغاليا *

يفرشون : من « فرشه أمرا » بمعنى أوسعه إياه ، أو من « أفرشه بساطا » أي بسط له كفرشه ، واللبد : ما يجعل على ظهر الفرس تحت السرج ، والطمرة : الفرس الكريمة ، والأجرد : السباق من الخيل ، والسباح : الحسن العدو ، ويبذ : يفوق ويسبق ، والمغالي : السهم ، والبيت للمعذل الليثي الشاعر الأموي .

(٢) بقيته : * شحيحان — ما اسطاعا — عليه كلا هما *

اللبسة : هيأة اللبس ، ولبس المجد : كناية عن المجادة ، واسطاعا : استطاعا بحذف تاء الاستفعال ، وقائله عمرة الخثعمية .

(٣) تتمته : * على وجهه من الدماء سبائب *

الكبش . سيد القوم،البيض: واحدته بيضة ، وهي الخوذة الواقية للرأس في القتال وبيضه : أدوات قتاله ، على التغليب ، أو خوذ جيشه على المجاز المرسل والسبائب : الطرائق ، واحدته سبية ، وقائله الأخنس بن شهاب التغلبي .

(٤) باقيه : * لا ترى الآدب فينا ينتقر *

المشتاة : وقت الشتاء ، الجفلى : الدعوة العامة ، الآدب : الداعي إلى المأدبة ينتقر : يدعو النقرى ، وهي الدعوة الخاصة ، طرفه : هو ابن العبد الشاعر الجاهلي صاحب المعلقة .

قوله تعالى : « إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذي نَزَّلَ الكتابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالحينَ (١) » وقوله تعالى : « وَقالُوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأصيلاً (٢) » وقولُه تعالى : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإنْسِ وَالطَّيْرِ ، فَهُمْ يُوزَعُونَ (٣) » فإنه لا يخفى على مَنْ له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غيرَ مَبْنِيٍّ على الاسم؛ لَوُجِدَ اللفظُ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن الحال التي ينبغي أن يكون عليها .

وكذا إذا كان الفعل منفياً ، كقولك « أنت لا تكذب » فإنه أشدُّ لنفي الكذب عنه من قولك « لا تكذب » وكذا من قولك : « لا تكذب أنت » لأنه لتأكيد المحكوم عليه ، لا الحكم ، وعليه قوله تعالى : « والَّذينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُون (٤) » فإنه يفيد من التأكيد في نفي الإشراك عنهم ما لا يفيده قولنا : والذين لا يشركون بربهم ، ولا قولنا : والذين بربهم لا يشركون ، وكذا قوله تعالى : « لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ على أكْثَرِهِمْ ؛ فَهُمْ لا يؤْمِنُونَ (٥) » وقوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنْباءُ يَوْمَئِذ ؛ فَهُمْ لاَ يَتَساءَلُونَ (٦) » وقوله تعالى: « إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذينَ كَفَرُوا؛ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ (٧) »

---

(١) الآية ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٧ من سورة النمل .

(٤) الآية ٥٩ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية ٨ من سورة يس .

(٦) الآية ٦٦ من سورة القصص .

(٧) الآية ٥٥ من سورة الأنفال .

بناء الفعل على منكر

هذا كله إذا بُنِيَ الفعل على معرف ، فإن بني على منكر أفاد ذلك تخصيصَ الجنسِ أو الواحدِ بالفعل ، كقولك : « رجل جاءني » أي لا امرأة ، أو لا رجلان .

وذلك لأن أصل النكرة أن تكون للواحد من الجنس ، فيقع القصد بها تارة إلى الجنس فقط ، كما إذا كان المخاطب بهذا الكلام قد عرف أنْ قد أتاك آتٍ ، ولم يدر جنسه : أرجلٌ هو أو امرأة ؟ أو اعتقد أنه امرأة ، وتارة إلى الوحدة فقط ، كما إذا عرف أن قد أتاكَ مَنْ هو مِنْ جنس الرجال ، ولم يدر : أرجل هو أم رجلان ، أو اعتقد أنه رجلان .

مذهب السكاكي في إفادة التقديم التخصيص

واشترط السكاكي في إفادةِ التقديمِ الاختصاصَ أمرين :

أحدهما : أن يجوز تقديرُ كونه في الأصل مؤخراً ، بأن يكون فاعلا في المعنى فقط ، كقولك « أنا قمت » فإنه يجوز أن تقدر أصله . « قمت أنا » على أن « أنا » تأكيد للفعل الذي هو التاء في «قمت» فقُدِّم « أنا » وجُعِلَ مبتدأ .

وثانيهما : أن يُقدَّر كونُه كذلك .

فإن انتفى الثاني دون الأول ، كالمثال المذكور إذا أجرى على الظاهر— وهو أن يُقَدَّر الكلامُ من الأصل مبنياً على المبتدأ والخبر ، ولم يقدَّر تقديمٌ وتأخير — أو انتفى الأول ، بان يكون المبتدأ اسماً ظاهراً ؛ فإنه لا يفيد إلا تقوِّيَ الحكم .

واستثنى المُنَكَّرَ ، كما في نحو « رجل جاءني » بأن قدَّر أصلَه « جاءني رجل » لا على أن « رجل » فاعل « جاءني » بل على أنه بدل : الفاعل الذي هو الضمير المستتر في « جاءني » ، كما قيل في قوله تعالى :

« وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (١) » : إن « الذين ظلموا » بدل من الواو في « أسروا » وفرق بينه وبين المعرفِ بأنه لو لم يقدر ذلك فيه انتفى تخصيصُه ؛ إذ لا سبب لتخصيصه « سواه » ولو انتفى تخصيصه لم يقع مبتدأ ، بخلاف المعرَّف ؛ لوجود شرط الابتداء فيه ، وهو التعريف .

ثم قال : وشرطه أن لا يمنع من التخصيص مانع : كقولنا : « رجل جاءني » أي لا امرأة ، أو لا رجلان ، دون قولهم : « شر أهر ذا ناب» أما على التقدير الأول فلامتناع أن يراد المُهِرُّ شر لا خير ، وأما على الثاني فلكونه نابياً عن مكان استعماله ؛ وإذ قد صرح الأئمةُ بتخصيصه ، حيث تأولوه بـ « ما أهَرَّ ذا نابٍ إلا شر » ، فالوجهُ تفظيعُ شأنِ الشر بتنكيره كما سبق .

الخلاف بين مذهب عبد القاهر ومذهب السكاكي

هذا كلامه ، وهو مخالف لما ذكره الشيخ عبد القاهر ؛ لأن ظاهر كلام الشيخ فيما يليه حرفُ النفي ، القطعُ بأنه يفيد التخصيص مُضْمَرًا كان أو مُظْهَرًا . مُعرفا أو مُنْكَّرا ، من غير شرط ، لكنه لم يمثل إلا بالمضمر .

وكلام السكاكي صريح في أنه لا يفيده إلا إذا كان مضمراً ، أو منكراً بشرط تقدير التأخير في الأصل .

فنحو « ما زيد قام » يفيد التخصيص على اطلاق قول الشيخ ، ولا يفيده على قول السكاكي .

ونحو « ما أنا قمت» يفيده على قول الشيخ مطلقاً : وعلى قول السكاكي بشرط .

---

(١) بعض الآية ٣ من سورة الأنبياء .

وظاهر كلام الشيخ أن المعرَّف إذا لم يقع بعد النفي وخبره مثبت او منفي ؛ قد يفيد الاختصاص ، مضمراً كان أو مظهراً ، لكنه لم يمثل إلا بالمضمر.

وكلام السكاكي صريح في أنه لا يفيده إلا المضمر .

فنحو « زيد قام » قد يفيد الاختصاص على إطلاق قول الشيخ ، ولا يفيده عند السكاكيّ .

مناقشة رأي السكاكي

ثم فيما احتج به لما ذهب اليه نظر ؛ إذ الفاعل وتأكيده سواء في امتناع التقديم ، ما دام الفاعل فاعلا والتأكيد تأكيداً ، فتجويز تقديم التأكيد دون الفاعل تَحَكُّم ظاهر .

ثم لا نسلم إنتفاء التخصيص في صورة المنكَّر لولا تقدير أنه كان في الأصل مؤخَّراً فقدم ؛ لجواز حصول التخصيص فيها بالتهويل — كما ذكر — وغير التهويل .

ثم لا نسلم امتناع أن يراد : المهِرُّ شرٌّ لا خير ؛ قال الشيخ عبد القاهر : إنما قُدم « شَرٌّ » لأن المراد أن يُعْلَمَ أن الذي أهرَّ ذا ناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير ، فجرى مجرى أن تقول : رجل جاءني ، تريد أنه رجل لا امرأة ، وقولُ العلماء : إنه إنما صلح لأنه بمعنى « ما أهر ذا ناب إلا شرٌّ » بيانٌ لذلك ، وهذا صريح في خلاف ما ذكره .

ثم قال السكاكي : ويقرب من قبيل « هو عَرَفَ » في اعتبار تقوِّي الحكم « زيد عارف » وإنما قلت : « يقرب » دون أن أقول : نظيره ؛ لأنه لما لم يتفاوت في التكلم والخطاب والغيبة في « أنا عارف » و « أنت عارف » و « هو عارف » أشبهَ الخاليَ عن الضمير ، ولذلك لم يحكم على « عارف » بأنه جملة ، ولا عُومِل معاملتها في البناء ، حيث أعرِب

في نحو : « رجلٌ عارفٌ ، ورَجُلاً عارفاً ، ورجلٍ عارفٍ » وَأتبِعَهُ في حكم الإفراد نحوَ : « زيد عارف أبوه » يعني أُتبع « عارف » «عَرَفَ » في الإفراد إذا أسند إلى الظاهر ، مفرداً كان ، أو مثنى ، أو مجموعاً .

ثمقال[السكاكيّ]:ومما يفيد التخصيصما يحكيهعَلَتْ كلمتُهعن قوم شُعَيْبٍ عليه السلام : «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (١) أي العزيز علينا يا شُعَيْب رهطُك لا أنت لكونهم من أهل ديننا ، ولذلك قال عليه السلام في جوابهم : « أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ؟ » (٢) أي من نبي الله ، ولو كان معناه معنى « ما عززت علينا » لم يكن مطابقاً .

وفيه نظر ، لأن قوله « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » من باب « أنا عارف » لا من باب « أنا عرفت » والتَّمسُّك بالجواب ليس بشيء ، لجواز أن يكون عليه السلام فَهِمَ كونَ رهطِه أعزَّ عليهم من قولهم « ولَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ » (٣) .

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : دلَّ إيلاءُ ضميره حرفَ النفي على أن الكلام في الفاعل لا في الفعل ، كأنه قيل : « وَمَا أنت علينا بعزيز ، بل رهطك هم الأعزة علينا » .

وفيه نظر ، لأنا لا نسلم أن ايلاء الضميرِ حرفَ النفي إذا لم يكن الخبر فعلياً يفيد الحصر .

---

(١) بعض الآية ٩١ من سورة هود .

(٢) بعض الآية ٩٢ من سورة هود . ورهط الرجل : قومه وقبيلته .

(٣) بعض الآية ٩١ من سورة هود .

فإن قيل : الكلام واقع فيه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صحَّ قوله « أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ » ؟ .

قلنا : قال السكاكي : معناه من نبي الله ، فهو على حذف المضاف ، وأجود منه ما قال الزمخشري ، وهو أن تهاونهم به وهو نبي الله تهاونٌ بالله ، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » (١) ؟ ويجوز أن يُقال : لا شك أن همزة الاستفهام هنا ليست على بابها ، بل هي للإنكار، للتوبيخ، فيكون معنى قوله : « أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ » إنكارَ أن يكون ما نُعهم من رجمه رهطَه ، لانتسابه اليهم دون الله تعالى مع انتسابه إليه أيضاً، أي أرهطي أعز عليكم من الله حتى كان امتناعكم من رجمي بسبب انتسابي إليهم بأنهم رهطي ولم يكن بسبب انتسابي إلى الله تعالى بأني رسوله ، والله أعلم .

تقديم لفظ مثل اذا استعمل كناية من غير تعريض

ومما يُرَى تقديمه كاللازم لَفْظُ « مثل » إذا استُعمِل كنايةً من غير تعريض كما في قولنا : « مِثْلُكَ لا يبخل » ونحوه مما لا يراد بلفظ « مثل » غيرُ ما أضيف إليه ولكن أُرِيدَ أنَّ مَنْ كان على الصفة التي هو عليها كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر ، أو أن لا يفعل ، ولكون المعنى هذا قال الشاعر :

٦٦ — ولم أقل « مِثلك » أعني به
سِواك يا فَرْداً بلا مُشْبِهِ (٢)

---

(١) بعض الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٢) البيت للمتنبي .

وعليه قوله :

٦٧ – مثلُكَ يَثْني المُزْنَ عن صَوْبِهِ
ويسترد الدمْعَ عن غَرْبه (١)

وكذا قول القَبَعْثَرَى (٢) للحجّاج (٣) لما توعّده بقوله : «لأحملنّك على الأدهم» : «مثلُ الأمير حَمل على الأدهم والأشهب»(٤) أي من كان على هذه الصفة من السلطان وبَسْطة اليد ، ولم يقصد أن يجعل أحداً مثلَه .

وكذلك حكم « غير » إذا سُلِكَ به هذا المسلكُ : فقيل : غيري يفعل ذاك ، على معنى أني لا أفعله فقط ، من غير إرادة التعريض بإنسان ، وعليه قوله :

٦٨ – غَيْرِي بأكثرِ هذا الناسِ يَنْخَدِعُ (٥)

---

(١) يثني : يلف ويصرف ، المزن : السحاب ، واحدته مزنة ، صوبه : انصبابه وهطوله ، غرب الدمع : سيله ، أو مجراه من العين ، والبيت مع الشاهد السابق من قصيدة للمتنبي .

(٢) القبعثري : من فصحاء العرب ، وممن خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب .

(٣) هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، أحد الدهاة من ولاة الدولة الأموية .

(٤) مالونه الدهمة وهي السواد ، وغلب استعماله في القيد ، وبذلك أطلقه الحجاج ، وفي الفرس ، وبذلك استعمله القبعثرى ، على طريق أسلوب الحكيم ، وليوضح مراده عطف عليه الأشهب ، قاصداً منه الفرس الأبيض بياضاً يتخلله سواد

(٥) تتمته : « إن قاتلوا جبنوا ، أو حدثوا شجعوا »
وهذا الشطر تعليل للحكم الذي في الشطر الأول ، والبيت للمتنبي

فإنه معلوم أنه لم يُرِدْ أن يُعَرِّض بواحد هناك ، فيصفه بأنه ينخدع ، بل أراد أنه ليس ممَّن ينخدع ، وكذا قول أبي تمام :

٦٩ – وغيري يأكل المعروفَ سُحتاً
ويَشْحُبُ عنده بِيضُ الأيادي (١)

فإنه لم يرد أن يعرِّض بشاعر سواه ، فيزعم أن الذي قُرِفَ به عند الممدوح من أنه هجاء ، كان من ذلك الشاعر لا منه ، بل أراد أن ينفي عن نفسه أن يكون ممن يكْفُرُ النعمةَ ويَلْؤُم لا غير .

واستعمالُ « مثل » و « غير » هكذا مَرْكُوزٌ في الطباع ، وإذا تصفَّحْتَ الكلام وجدتهما يقدَّمان أبداً على الفعل إذا نُحِيَ بهما نحوَ ما ذكرناه ، ولا يستقيم المعنى فيهما إذا لم يقدما .

والسر في ذلك أن تقديمهما يفيد تَقَوِّيَ الحكم كما سبق تقريره ، وسيأتي أن المطلوب بالكناية في مثل قولنا : « مثلك لا يبخل » و « غيرك لا يجود » هو الحكم ، وأن الكناية أبلغ من التصريح فيما قُصِدَ بها ، فكان تقديمُهما أعونَ للمعنى الذي جُلبا لأجله .

إفادة التقديم للعموم

قيل : وقد يُقَدَّم لأنه دال على العموم ، كما تقول : « كل إنسان لم يقم » فيقَدَّم ليُفيدَ في نفيَ القيامِ عن كل واحد من الناس ؛ لأن الموجبةَ المعدولةَ المهملة في قوة السالبة الجزئية المستلزمة نفي الحكم عن جملة الأفراد ، دون كل واحد منها ؛ فإذا سُوِّرَتْ بـ « كل » وَجَبَ ان تكون لإفادة العموم ، لا لتأكيد نفي الحكم عن جملة الأفراد ،

---

(١) المعروف هنا : الإحسان ، وأكله : جحده ، والسحت : الحرام ، ويشحب : يتغير لونه ، والأيادي : النعم مجازا ، وبيضها : واضحاتها ، وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

لأن التأسيسَ خير من التأكيد ، ولو لم تقدم فقلت : « لم يقم كل إنسان » كان نفياً للقيام عن جملة الأفراد ، دون كل واحد منها ؛ لأن السالبة المهملة في قوة السالبةِ الكليةِ المقتضيةِ سلبَ الحكم عن كل فرد ؛ لورود موضوعها في سياق النفي ، فإذا سُوِّرَتْ بـ « كل » وجب أن تكون لإفادة نَفْيِ الحكمِ عن جملة الأفراد ؛ لئلا يلزمَ ترجيحُ التأكيد على التأسيس .

وفيه نظر ؛ لأن النفي عن جملة الأفراد في الصورة الأولى ، أعني الموجبة المعدولة : المهملَة ، كقولنا : « إنسانٌ لم يقم » وعن كل فرد في الصورة الثانية ، أعني السالبة المهملة ، كقولنا : « لم يقمِ إنسان » إنما أفادهُ الإسناد إلى «إنسان » فإذا أضيف « كل » إلى « إنسان » وحُوِّل الإسناد اليه ، فأفاد في الصورة الأولى نفيَ الحكم عن جملة الأفراد ، وفي الثانية نفيَه عن كل فرد منها ؛ كان « كل » تأسيساً لا تأكيداً ؛ لأن التأكيد لفظٌ يفيد تقويةَ ما يفيده لفظ آخر ، وما نحن فيه ليس كذلك .

ولئن سلمنا أنه يُسمَّى تأكيداً كقولنا : « لم يقم إنسان » إذا كان مفيداً للنفي عن كل فرد ؛ كان مفيداً للنفي عن جملة الأفراد لا مَحَالَةَ ، فيكون « كل » في « لم يقم كل إنسان » إذا جعل مفيداً للنفي عن جملة الأفراد تأكيداً لا تأسيساً كما قال في « كل إنسان لم يقم » ؛ فلا يلزم من جعله للنفي عن كل فرد ترجيحُ التأكيدِ على التأسيس .

ثم جَعْلُه قولنا : « لم يقم إنسان » سالبةً مهملةً في قوة سالبة كلية — مع القول بعموم موضوعها لورودها نكرة في سياق النفي — خطأ ؛ لأن النكرة في سياق النفي إذا كانت للعموم كانت للقضية التي جُعِلَتْ هي موضوعاً لها سالبةً كليةً ، فكيف تكون سالبة مهملة ؟ .

ولو قال : « لم يكن الكلام المشتمل على كلمة « كل » مفيداً لخلاف ما يفيده الخالي عنها ؛ لم يكن في الإتيان بها فائدة » لثبت مطلوبه في

الصورة الثانية دون الأولى ؟ لجواز أن يقال : إن فائدته فيها الدلالةُ على نفي الحكم عن جملة الأفراد بالمطابقة .

واعلم أن ما ذكره هذا القائل من كون « كل » في النفي مفيدةً للعموم تارة وغير مفيدة أخرى ؛ مشهور ، وقد تعرض له الشيخ عبد القاهر وغيره .

قال الشيخ : كلمة « كل » في النفي إن أُدْخِلَتْ في حيِّزه بأن قدم عليها لفظاً ، كقول أبي الطيب :

٧٠ — * ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يُدركُه (١) *

وقول الآخر :

٧١ — * ما كلُّ رأيِ الفتى يدعو إلى رَشَدِ (٢) *

وقولنا : « ما جاء القوم كلهم» و « ما جاء كل القوم » و « لم آخذ الدراهم كلها » و « لم آخذ كلَّ الدراهم » أو تقديراً ، بأن قُدِّمَت على الفعل المنفي وأُعْمِل فيها ؛ لأن العامل رتبته التقدم على المعمول ، كقولك « كل الدراهم لم آخذ » ؛ تَوَجَّه النفيُ إلى الشمول خاصَّةً دونَ أصل الفعلِ ، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ، أو تعلقه ببعض ، وان أخرجت من حيِّزه ،بأن قدمت عليه لفظاً،ولم تكن معمولة لفعل المنفي ؛ تَوَجَّهَ النفيُ إلى أصل الفعل ، وعمَّ ما أضيف اليه « كل » كقول النبي

---

(١) تمامه : * تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن * وهو للمتنبي .

(٢) عجزه : * فإن بدا لك رأى مشكل فقف *

الرشد : الهدى كالرشاد ، والشاعر أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ، العنزي ، الشاعر ، المتوفي سنة ٢١١ هـ .

صلى الله عليه وسلم – لما قال له ذو اليدين (١) : « أقَصُرت الصلاةُ أم نَسِيتَ يا رسولَ الله » – : « كل ذلك لم يكن » أي لم يكن واحد منهما ، لا القصر ، ولا النسيان ، وقول أبي النَّجم :

٧٢ – قَدْ أصبحتْ أمُّ الخيار تَدَّعِي
عَلَيَّ ذنبــا كُلُّهُ لم أصنع (٢)

ثم قال : وعِلَّة ذلك أنك إذا بدأتَ بـ « كل » كنتَ قد بنيتَ النفيَ عليه وسلَّطتَ الكلية على النفي ، وأعملتها فيه ، وإعمالُ معنى الكلية في النفي يقتضي أن لا يَشِذَّ شيء عن النفي ، فاعرفه .

هذا لفظه ، وفيه نظر .

وقيل : إنما كان التقديم مفيداً للعموم دون التأخير لأن صورة التقديم تُفْهم سلب لحوق المحمول للموضوع ، وصورة التأخير تفهم سلب الحكم من غير تعرض للمحمول بسلب أو إثبات .

وفيه نظر أيضاً ؛ لاقتضائه أن لا تكون « ليس » في نحو قولنا « ليس كل إنسان كاتبا » مفيدة لنفي كاتب .

هذا إن حُمِل كلامُه على ظاهره ، وإن تُؤُوِّل بأن مراده أن التقديم يفيد سلب لحوق المحمول عن كل فرد والتأخير يفيد سلب لحوقه لكل فرد اندفع هذا الاعتراض ، لكن كان مُصادَرَةً على المطلوب .

وأعم أن المعتمد في المطلوب الحديثُ وشعرُ أبي النجم ، وما نقلناه

---

(١) هو الخرباق أو العرباض بن عمرو الصحابي ، وسمي ذا اليدين ، قيل : لطول كان في يديه ، وقيل : لأنه كان أضبط ، أعني يعمل بكلتا يديه ، فهو أعسر يسر

(٢) سبق من بقية هذا الرجز شاهد في المجاز العقلي . وأم الخيار : زوج أبي النجم . أو عروس شعره التي يتغزل فيها .

عن الشيخ عبد القاهر وغيره لبيان السبب ، وثُبوتُ المطلوب لا يتوقف عليه .

والاحتجاج بالخبر من وجهين : أحدهما أن السؤال بـ « أم » عن أحد الأمرين لطلب التعيين بعد ثبوت أحدهما عند المتكلم على الإبهام ؛ فجوابه إما بالتعيين ، أو بنفي كل واحد منهما ، وثانيهما ما روي بأنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ ذلك لم يكن » قال له ذو اليدين : « بعض ذلك قد كان » والإيجاب الجزئي نقيضه السلب الكلي .

وبقول (١) أبي النجم ما أشار اليه الشيخ عبد القاهر ، وهو ان الشاعر فصيح والفصيح الشائع في مثل قوله نصبُ « كل » وليس فيه ما يكسر له وزنا ، وسياق كلامه أنه لم يأت بشيء مما ادعت عليه هذه المرأة ؛ فلو كان النصب مفيداً لذلك والرفع غير مفيد لم يعدل عن النصب إلى الرفع من غير ضرورة .

التقديم على الشيء على ضربين

ومما يجب التنبيه له في فصل التقديم أصل ، وهو أن تقديم الشيء على الشيء ضربان :

١ — تقديم على نية التأخير ، وذلك في شيء أقِرَّ مع التقديم على حكمه الذي كان عليه ، كتقديم الخبر ، على المبتدأ ، والمفعول على الفاعل كقولك : « قائم زيد » و « ضرب عمرا زيد » ؛ فان « قائم » و « عمرا » لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه ، من كون هذا مسنداً ومرفوعاً بذلك ، وكون هذا مفعولا ومنصوباً من أجله .

---

(١) متعلقه كلمة « الاحتجاج » في مطلع الفقرة السابقة ، أي : والاحتجاج بقوله — إلخ .

٢ ــ وتقديم لا على نية التأخير ، ولكن أن يُنْقَل الشيء عن حكم إلى حكم ، ويجعلَ له إعرابٌ غيرُ إعرابه ، كما في اسمين يَحْتَمِل كل منهما أن يجعل مبتدأ والآخر خبرا له ، فيُقَدَّم تارة هذا على هذا ، وأخرى ذاك على هذا ، كقولنا : « زيد المنطلق » و « المنطلق زيد » فإن « المنطلق » لم يقدم على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير ، فيكونَ خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن ينقل عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ ، وهكذا القول في تأخير « زيد » .

تأخير المسند إليه

٤٥ ــ وأما تأخيره فلاقتضاء المقامِ تقديم المسند .

خروج المسند إليه علــى خلاف مقتضى الظاهر

٤٦ ــ هذا كله مقتضى الظاهر ، وقد يخرج المسند إليه على خلافه :

وضع المضمر موضع المظهر

فيوضع المضمرُ موضعَ المظهر ، كقولهم ابتداءً من غير جَرْيِ ذكرٍ لفظاً أو قرينةِ حــال « نِعْم رجلا زيدٌ ، وبئْسَ رجلا عمروٌ » مكان : « نعم الرجلُ ، وبئْسَ الرجلُ » على قول من لا يرى الأصل « زيد نعم رجلا ، وعمرو بئس رجلا » وقولهم : « هو زيد عالم ، وهي عمرو شجاع » مكان الشأنُ زيدٌ عالمٌ ، والقصة عمرو شجاع ؛ ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه ؛ فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظراً لِعُقْبى الكلام كيف تكون ، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فَضْلَ تمكن ، وهو السر في التزام تقديم ضمير الشأن أو القصة ، قال الله تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ (١) » وقال : « إنَّه لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ (٢) » وقال : « فإنَّهَا لا تَعْمى الأبْصار (٣) » .

---

(١) الآية ١ من سورة الإخلاص .

(٢) بعض الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(٣) بعض الآية ٤٦ من سورة الحج .

٤٧ – وقد يُعكس فيوضَع المظهرُ موضع المضمر ؛ فإن كان المظهر اسم إشارة ؛ فذلك إما لكمال العناية بتمييزه ؛ لاختصاصه بحكم بديع ، كقوله : وضع المظهر موضع المضمر

٧٣ – كَمْ عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مذاهبُه
وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مَرْزوقا (١)
هذا الذي ترك الأوهام حائرةً
وصير العالم النحريرَ زِنْديقا

وإما للتهكُّم بالسامع ، كما إذا كان فاقد البصر ، أو لم يكن ثمّ مُشارٌ إليه أصلا .

وإما للنداء على كمال بلادته بأنه لا يُدْرِك غيرَ المحسوس بالبصر . أو على كمال فطانته ، بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره .

وإما لادعاء أنه كمل ظهوره ، حتى كأنه محسوس بالبصر ، ومنه في غير باب المسند إليه قوله :

٧٤ – تَعالَلْتِ كي أشْجى ، وما بكِ عِلَّةٌ
تريدين قَتْلي ، قد ظَفِرْتِ بذلكِ (٢)

---

(١) عاقل الثانية وصف للأولى . والمعنى كم عاقل كامل العقل ، وأعيت مذاهبه : بمعنى عجزت وكلت وضاقت طرق معايشه ، أو أعوزته هذه الطرق . والنحرير : الفطن الحاذق المجرب ، والزنديق من معانيه : من لا يؤمن بالإله ولا بالآخرة . والبيتان لابن الراوندي أبي الحسين أحمد بن يحيى ، كان متكلما على مذهب المعتزلة ثم ألحد وتزندق ، وتوفي سنة ٢٥٠ هـ .

(٢) تعاللت : تظاهرت بالاعتلال والمرض ، أشجى : أحزن ، قائله ابن الدمينة أبو السري عبد الله الشاعر الغزل .

وإما لنحو ذلك .

وضع غير الاشارة موضع المضمر

٤٨ — وإن كان المظهر غير إسم إشارة ، فالعدول إليه عن المضمر إما لزيادة التمكين كقوله تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ (١) » ونظيره من غيره قوله: « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (٢) » وقوله « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (٣) » وقول الشاعر :

٧٥ — إن تسألوا الحقَّ نُعْطِ الحقَّ سائلَهُ (٤) بدل نعطكم إياه ،

وإما لإدخال الرَّوْع في ضمير السامع ، وتربية المهابة .

وإما لتقوية داعي المأمور ، مثالهما قول الخلفاء : أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، وعليه من غيره « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ (٥) ».

وإما للاستعطاف ، كقوله :

٧٦ — * إلهي عبدُكَ العاصِي أتاكا *

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الإخلاص ، ومن معاني الصمد : السيد الذي يقصد .

(٢) بعض الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٣) بعض الآية ٥٩ من سورة البقرة .

(٤) بقيته : * والدرع محقبة ، والسيف مقروب * الدرع : قميص من زرد الحديد يلبس وقت الحرب للوقاية من إصابة السلاح ، محقبة : موضوعة خلفنا على الركاب ، مقروب : موضوع في قرابه . والبيت لعبد الله بن عنمة الضبي الشاعر المخضرم .

(٥) بعض الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

وإما لنحو ذلك .

٤٩ ــ قال السكاكي : هذا غير مختص بالمسند إليه ، ولا بهذا القدر ، بل التكلم والخطاب والغيبة مطلقاً ينْقَل كلٌ واحد منها إلى الآخر ، ويُسَمَّى هذا النقل إلتفاتاً عند علماء المعاني ، كقول رَبِيعَةَ بْنِ مَقْرُومٍ :

الالتفات في رأي السكاكي

٧٧ ــ بَانَتْ سُعادُ فأمسَى القلبُ مَعْمودا
وأخْلَفَتْكَ ابنةُ الحُرِّ المواعيدا (١)

فالتفت كما ترى حيث لم يقل : وأخلفتني ، وقوله :

٧٨ ــ تذكَّرْتَ والذكرى تَهيجُكَ زَيْنَبَا
وأصبح باقي وَصْلِها قد تَقَضَّبَا (٢)
وحَلَّ بِفَلْجٍ فالأبَـاتِرِ أهْلُنا
وشطَّتْ فحلَّتْ غَمْرَةً فَمُثَقَّبَا

فالتفت في البيتين .

والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها .

الالتفات في رأي الجمهور

وهذا أخصُّ من تفسير السكاكي ؛ لأنه أراد بالنقل أن يُعَبَّر بطريق من هذه الطرق عما عُبِّر عنه بغيره ، أو كان مُقْتَضَى الظاهر أن يُعبَّر عنه بغيره منها .

فكل التفات عندهم التفات عنده ، من غير عكس .

---

(١) المعمود : الموجع ، وابن مقروم : شاعر إسلامي شهد القادسية .

(٢) تهيجك : تثيرك ، تقضب : تقطع ، حل : نزل وأقام ، شطت : بعدت ، فلج ، والأباتر ، وغمرة ، ومثقب : أسماء أمكنة ، وقائلهما ربيعة بن مقروم السابق

مثال الالتفات من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى: « وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١) » ومن التكلم إلى الغيبة ، قوله تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) » . ومن الخطاب إلى التكلم قولُ عَلْقَمَةَ بنِ عَبَدَةَ :

٧٩ — طَحَا بكَ قلبٌ في الحسان طَرُوب
بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حان مَشِيب (٣)
يُكلِّفُنِي لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُهَا
وعادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وخُطُوبُ

ومن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى « حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ » (٤) .

ومن الغيبة إلى التكلم قولُه تعالى : « واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ (٥) » ومن الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : « مالِكِ يَوْمِ الدِّين إِيَّاكَ نَعْبُدُ (٦) » وقولُ عبد الله بن عَنَمَةَ :

---

(١) الآية ٢٢ من سورة يس . فطرني أنشأني .

(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الكوثر . والكوثر من معانيه : الكثير من كل شيء، والإسلام والنبوة .

(٣) طحا بك : ذهب بك كل مذهب ، طروب : كثير الطرب ، وهوَ الاضطراب فرحاً أو حزناً ، بعيد الشباب : عقيبه ، حان المشيب : حل وآن ، شطٍ وليها : بعد قربها ، العوادي . جمع عادية ، وعوادي الدهر : بوائقه ونوازله وخطوبه ، وعلقمة بن عبدة — بالتحريك — هو علقمة الفحل الشاعر الجاهلي المعاصر لامرىء القيس ، والحالف بعده على امرأته .

(٤) بعض الآية ٢٢ من سورة يونس .

(٥) بعض الآية ٤٨ من سورة الروم .

(٦) الآية ٤ من سورة الفاتحة .

٨٠ ــ ما إن ترى السيِّدُ زيداً في نُفوسِهِمُ
كما يراه بَنُو كُوزٍ ومَرْهوبُ (١)
إنْ تسألوا الحقَّ نُعْطِ الحقَّ سائلَهُ
والدِّرعُ مُحْقَبَةٌ ، والسَّيْفُ مَقْرُوبُ

وأما قول أمرىء القيس :

٨١ ــ تطـاولَ ليلُكَ بالأثمـد
ونام الخَلِيُّ ولم تَرْقُدِ (٢)
وَباتَ ، وباتَتْ له لَيْلَـةٌ
كليلة ذي العائرِ الأرْمَدِ
وذلك من نَبَإٍ جاءني
وخُبِّرْتُهُ عَنْ أبي الأسْوَدِ

فقال الزَّمَخْشَرِيُّ : فيه ثلاثُ التفاتات ، وهذا ظاهر على تفسير السكاكي ؛ لأن على تفسيره في كل بيت التفاتةً .

لا يقال : الالتفات عنده من خلاف مُقْتَضَى الظاهر ؛ فلا يكون في البيت الثالث التفاتٌ ، لوروده على مقتضى الظاهر ، لأنا نمنع انحصار الالتفات عنده في خلاف المقتضى لما تقدم .

---

(١) السيد ، وزيد ، وبنو كوز ، ومرهوب : أحياء من ضبة ، والبيت الثاني هو الشاهد ٧٧ وقد سبق شرحه .

(٢) تطاول : طال وامتد ، الأثمد بفتح الهمزة وفتح الميم أو ضمها : اسم موضع ، العائر القذى يقع في العين ، وقيل : هو نفس الرمد ، والأبيات من قصيدة ينسبها بعض الرواة لامرىء القيس بن حجر الجاهلي ، وينسبها بعضهم لامرىء القيس ابن عابس الصحابي ، وهما كنديان .

وأما على المشهور فلا التفات في البيت الأول ، وفي الثاني التفاتة واحدة ، فيتعين أن يكون في الثالث التفاتتان فَقِيل : هما في قوله : « جاءني » إحداهما باعتبار الانتقـــال من الخطاب في البيت الأول، والأخرى باعتبار الانتقال من الغيبة في الثاني ، وفيه نظر ؛ لأن الانتقال إنما يكون من شيء حاصل مُلْتَبِسٍ به ، وإذ قد حصل الانتقال من الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في الثاني لم يبق الخطاب حاصلا مُلْتَبَساً به ، فيكون الانتقال إلى التكلم في الثالث من الغيبة وحدها ، لا منها ومن الخطاب جميعاً ، فلم يكن في البيت الثالث الا التفاتة واحدة وقيل : إحداهما في قوله « وذلك » لأنه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والثانية في قوله « جاءني » لأنه التفات من الخطاب إلى التكلم ، وهذا أقربُ .

بلاغة الالتفات

واعلم ان الالتفات من محاسن الكلام ، وَوَجْهُ حسنِه — على ما ذكر الزمَخْشَرِي — هو أن الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب؛ كان ذلك أحسنَ تَطْرِيَةً (١) لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظاً للاصغاء اليه من إجرائه على أسلوب واحد .

وقد تختص مواقعه بلطائف كما في سورة الفاتحة ؛ فان العبد إذا افْتَتَحَ حَمْدَ مَوْلاه الحقيقِ بالحمد عن قلب حاضر ، ونفس ذاكرة لما هو فيه ، بقوله « الحَمْدُ للهِ » (٢) الدالُّ على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به ؛ وجد من نفسه لا مَحَالَةَ مُحَرِّكا للاقبال عليه ، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : « رَبِّ العَالَمِينَ (٣) » الدالُّ على أنه مالِكٌ للعالمين ، لا يخرج منهم شيء عن مَلَكُوتِه ورُبُوبِيَّتِهِ ؛

---

(١) التطرية : التجديد ، من « طريت الثوب » إذا أعدت إليه طراوته .

(٢) بعض الآية ٢ من سورة الفاتحة .

(٣) بعض الآية ٢ من سورة الفاتحة .

قوى ذلك المُحَرِّك ، ثم إذا انتقل إلى قوله : « الرَّحْمَنِ الرَّحِيم » (١) الدالّ على أنه مُنْعِم بأنواع النعم جلائِلِها ودَقائِقِها ؛ تضاعفت قوة ذلك المحرك . ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العِظام ، وهي قوله : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّين » (٢) الدال على أنه مالكٌ للامر كله يومَ الجزاء ؛ تناهتْ قوتُه . وأَوْجَبَ الإقبالَ عليه . وخطا به بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المُهِمَّات .

وكما في قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُم إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُول » (٣) لم يقل واستغفرتَ لهم . وَعَدَلَ عنه إلى طريق الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعظيما لاستغفاره . وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان .

وذكر السَّكَّاكِيُّ لالتفات امرىء القَيْسِ في الأبيات الثلاثة على تفسيره وجوهاً :

أحدها : أن يكون قصد تهويل الخطب واستفظاعه ، فنبَّه في التفاته الأول على ان نفسه وقتَ ورود ذلك النبإ عليها وَلِهَتْ وَلَه الثَّكْلى (٤) ، فأقامها مُقامَ المُصاب الذي لا يتسلَّى بعض التَّسَلِّي إلا بتفجُّع الملوك له . وتحزُّنهم (٥) عليه ، وخاطبها بـ « تطاول لَيْلُك » تسليةً أو على أنها لفظاعة شأن النبأ أبدت قلقاً شديداً ، ولم تتصبَّر — فِعْلَ الملوكِ —

---

(١) الآية ٣ من سورة الفاتحة .

(٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة .

(٣) بعض الآية ٦٤ من سورة النساء .

(٤) الوله : حزن شديد يكاد يذهب العقل . والثكلى : من فقدت ولدها .

(٥) يتسلى : يتناسى ويحمل نفسه على السلو ، التفجع : التوجع : ومثله التحزن .

فشكَّ في أنها نفسُه، فأقامها مُقام مَكروب(١) وخاطبها بذلك تسليةً، وفي الثاني على أنه صادق في التحزُّن ـ خَاطَبَ أوْلاً ـ وفي الثالث على أنه يريد نفسه .

أو نبَّه في الأول على أن النبأ لشدَّته تركه حائراً ، فما فطن معه لمقْتَضَى الحال فجرى على لسانه ما كان ألِفَه من الخطاب الدائر في مجارِي أمورِ الكبار أمراً ونَهْياً ، وفي الثاني على أنه بَعْدَ الصدمة الأولى أفاق شيئاً ، فلم يجد النفسَ معه ، فبنى الكلام على الغيبة ، وفي الثالث على ما سبق (٢) .

أو نبه في الأول على أنها حين لم تثبت ، ولم تتبصَّر غاظه ذلك فأقامها مُقام المستحِقِّ للعتاب ، فخاطبها على سبيل التوبيخ والتعيير بذلك ، وفي الثاني على أن الحامل على الخطابِ والعتاب لما كان هو الغيظ والغضب ، وسكت عنه الغضبُ بالعتاب الأوَّل ، وَلّى عنها الوجهَ وهو يُدَمْدِم قائلاً : « وبات وباتت له » وفي الثالث على ما سبق .

هذا كلامه ، ولا يخفى على المنصف ما فيه من التعسف .

الأسلوب الحكيم

٥٠ ـ ومن خلاف المقتضى ما سماه السكاكي الأسلوبَ الحكيم : وهو تَلَقِّي المخاطب بغير ما يترقَّب ، بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ، أو السائلِ بغير ما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً على أنه الأوْلَى بحاله أو المهمُّ له .

أما الأول فكقول القَبَعْثَرَى للحَجَّاج ـ لما قال له مُتوعِّداً بالقيد « لأحْمِلَنَّكَ على الأدهم » ـ : « مثل الأمير يحملُ على الأدهم

(١) المكروب : من اشتد عليه الغم .

(٢) يعنى ما سبق في الوجه الأول .

والأشهب » فإنه ابرز وعيده في معرض الوعد وأراه بألطف وجه أن مَنْ كان على صفته في السلطان وبَسْطة اليد فجديرٌ بأن يُصْفِدَ . لا أن يَصْفِدَ (١) . وكذا قوله له في الثانية : « إنه حديدٌ » — : « لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً » (٢) .

وعن سلوك هذه الطريقة في جواب المخاطب عبَّر مَنْ قال مفتخراً

٨٢ — أتَتْ تشتكي عندي مُزَاوَلَةَ القِرَى
وقد رَأَتِ الضِّيفانَ يَنْحُون مَنْزِلي (٣)

فقلتُ كأنِّي ما سمعتُ كلامَها :
هُمُ الضيفُ جِدِّي في قِراهُمْ وعَجِّلي

وسماه الشيخ عبد القاهر مغالطة .

وأما الثاني فكقوله تعالى : « يَسْألونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ . قُلْ هِيَ مواقيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ (٤) » . قالوا : ما بالُ الهلالِ يَبْدُو دقيقا مثلَ الخَيْطِ ثم يتزايد قليلاً قليلا حتَّى يَمْتَلِىءَ وَيَسْتَوِيَ . ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا . وكقوله تعالى : « يَسْألونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ

(١) « يصفد » الأولى من المزيد بالهمزة بمعنى يعطي . والثانية من الثلاثي — من بابي ضرب وجلس — أو من المضعف . ومعناها حينئذ يوثق ويقيد بالحديد . والأدهم والأشهب في القصة سبق شرحهما .

(٢) كلمة « حديد » في عبارة الحجاج مقصود منها المعدن الذي تصنع منه القيود وغيرها . وهي في عبارة القبعثرى مصروفة إلى معنى النشاط والحدة في الحركة . وليتم له ما أراد من الأسلوب الحكيم قابل الحديد بالبليد .

(٣) ينحون : يتجهون ويقصدون . جدّي : اجتهدي . قراهم : إضافتهم . والشعر لحاتم الطائي .

(٤) بعض الآية ١٨٩ من سورة البقرة . والأهلة · جمع الهلال

قُلْ ما أنفقتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ ، وَالأقْرَبِينَ ، واليتامَى . والمساكينِ . وابنِ السَّبِيلِ (١) » . سألوا عن بيان ما ينفقون . فأجيبوا ببيان الصرف .

التعبير بالماضي عن المستقبل

٥١ — ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ المُضِيّ تنبيهاً على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع ، كقوله تعالى : « ويَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّماواتِ وَمَنْ في الأرضِ ، إلاّ مَنْ شاء الله (٢) » وقوله : « ويَومَ تُسَيَّرُ الجِبالُ وتَرَى الأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُم أَحَداً (٣) » وقوله تعالى : « وَنادَى أَصْحابُ النَّارِ (٤) » وقوله تعالى : « ونادَى أَصْحابُ الأعْرافِ (٥) » جَعَلَ المتوقَّعَ الذي لا بُدَّ من وقوعه بمنزلة الواقع ، وعن حسَّان (٦) أن ابنه عبد الرحمن لَسَعَهُ زَنْبور ، وهو طفل ، فجاء إليه يبكي ، فقال له : يا بُنَيَّ مالَكَ ؟ قالَ : لسعني طُوَيِّرٌ كأنه ملتف في بُرْدَيْ حِبَرَةٍ (٧) ، فضمَّه إلى صدره ، وقال : يا بُنَيَّ قد قلت الشِّعر .

---

(١) بعض الآية ٢١٥ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٧٨ من سورة النمل ، ومن معاني الصور : البوق ، وفي أكثر طبعات الكتاب ، وفي تلخيص المفتاح بشرح السعد من مجموعة شروح التلخيص تلفيق من هذه الآية ومن الآية ٦٨ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٤) بعض الآية ٥٠ من سورة الأعراف .

(٥) بعض الآية ٤٨ من سورة الأعراف .

(٦) هو حسان بن ثابت . شاعر الرسول والإسلام ، وابنه عبد الرحمن كان شاعراً مثله .

(٧) طوير : تصغير طائر ، والبرد : الثوب المخطط . والحبرة بفتح الحاء وكسرها : ضرب من البرود اليمنية .

٥٢ ــ ومثله التعبير عنه باسم الفاعل كقوله تعالى : « وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (١) » ، وكذا اسم المفعول ، كقوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (٢) » .

التعبير عن المستقبل باسمي الفاعل والمفعول

٥٣ ــ ومنه القلب ، كقول العرب : عرضْتُ الناقةَ على الحوضِ ، وردَّه مطلقاً قومٌ ، وقبله مطلقاً قومٌ منهم السكاكي ، والحق أنه إن تضمَّن اعتباراً لطيفاً قُبل ، وإلاّ رُدَّ .

القلب

أما الأول فكقول رُؤْبَةَ :

٨٣ ــ ومَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ
كأنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ (٣)

أي كأن لونَ سمائه لغُبْرَتِهَا لونُ أرضه ، فعكس التشبيه للمبالغة ، ونحوه قولُ أبي تَمَّام يصف قلم الممدوح :

لُعَابُ الأفاعِي القاتلات لُعابُهُ
وأَرْيُ الجَنَى اشْتَارَتْه أَيْدٍ عواسِلُ (٤)

---

(١) الآية ٧ من سورة الذاريات .

(٢) بعض الآية ١٠٣ من سورة هود .

(٣) المهمه : المفازة البعيدة ، أو الأرض المقفرة ، ومغبرة : لونها لون الغبار ، وأرجاؤه : نواحيه وجوانبه ، ومفرده : رجاً بالقصر ، ورؤبة بن العجاج راجز كأبيه .

(٤) لعاب : ريق ، الأفاعي : الحيات الخبيثة السامة ، أري . عسل ، الجنى : ما يجنى من تمر أو ذهب أو عسل أو نحوها ، والإضافة للمبالغة في إفادة معنى الكمال ، اشتارته : جمعته وجنته ، عواسل . جمع عاسلة ، والعاسل والعسّال : من يشتار العسل ويجنيه ، وقصده من وصف اليد بعد إسنادها إلى فعل من معنى الصفة أن يكسبها معنى الخبرة والبراعة في الفعل .

وأما الثاني فكقول القطاميّ

٨٤ — * كما طيَّنْتَ بالفَدَنِ السيَّاعا (١) *

وقول حَسَّان .

٨٥ — * يكون مِزَاجَها عسلٌ وماء (٢) *

وقول عُرْوَةَ بنِ الوَرْدِ :

٨٦ — فَدَيْتُ بنفسِه نفسي ومالي (٣) *

وقول الآخر :

٨٧ — * ولا يكُ موقف منك الوداعا (٤) *

وقد ظهر من هذا أن قوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَها بأْسُنا (٥) » ليس وارداً على القلب ؛ إذ ليس في تقدير القلب

---

(١) أوله : * فلما أنْ جرى سمن عليها *
« أن » زائدة ، والسمن والسمانة : كثرة الشحم وامتلاء الجسم ، وطينت : طليت بالطين ، والفدن : القصر المشيد ، والسياع : الطين بالتبن ، والقطامي بفتح القاف وضمها : لقب لعمير بن شييم — بالتصغير فيهما : — شاعر أموي مقل .

(٢) صدره : * كأن سبيئة من بيت رأس *
السبيئة : الخمر تشترى وتعد للضيفان ، وبيت رأس : بلد بالشام ، ومزاجها : ما يمزج ويخلط بها .

(٣) بقيته : * وما آلوك إلا ما أطيق *
ما آلوك : ما أقصر عنك ، أطيق : أستطيع بمشقة ، وعروة من الشعراء الصعاليك في الجاهلية .

(٤) صدره : * قفي قبل التفرق يا ضباعا *
ضباع : اسم امرأة ، والبيت مطلع قصيدة للقطامى السابق ، ومنها الشاهد ٨٤ .

(٥) بعض الآية ٤ من سورة الأعراف .

فيه اعتبار لطيف . وكذا قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (١) » وكذا قوله تعالى : « اذْهَبْ بِكِتَابِي هذا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ (٢) » فأصل الأول : أردنا إهلاكها ، فجاءها بأسنا . أي إهلاكنا ، وأصل الثاني : ثُمَّ أراد الدُّنُوَّ من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلّى فتعلق عليه في الهواء ، ومعنى الثالث : تنحَّ عنهم إلى مكان قريب تَتَوَارَى فيه ؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك فانظر ماذا يرجعون فيقال : إنه دخل عليها من كُوَّةٍ . فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكُوَّة .

وأما قول خِداشٍ :

٨٨ « وتَشْقَى الرِّماحُ بالضَّياطِرَةِ الحُمْرِ (٣) »

فقد ذُكر له سِوَى القلبِ وجهان ؛ أحدهما : أن يُجْعَلَ شقاءُ الرماح بهم استعارة عن كسرها بطعنهم بها ، والثاني أن يجْعَلَ نفسُ طعْنِهم شقاء لها ؛ تحقيراً لشأنهم ، وأنهم ليسوا أهلا لأن يُطْعَنوا بها . كما يقال : شَقِيَ الخزُّ بجسم فلان ، إذا لم يكن أهلاً لِلبسه . وقيل في قول قَطَرِيٍّ بْنِ الفُجَاءة :

٨٩ — ثم انصرفْتُ وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ
جَذَعَ البَصيرة قَارِحَ الإقدام (٤)

---

(١) الآية ٨ من سورة النجم .
(٢) الآية ٢٨ من سورة النمل .
(٣) أوله : « وتركب خيلا لا هوادة بينها »
الضياطرة جمع ضيطر — بوزن جعفر — وهو الضخم اللئيم العظيم الاست .
(٤) الجذع : الحدث . ومن شأنه الاندفاع ، والبصيرة : الرأي ، والقارح : العالي السن . ومن طبعه الروية والتمهل ، وقطري الشاعر خارجي توفي سنة ٧٩ هـ.

إنه من باب القلب على أن « لم أصَبْ » بمعنى لم أجْرَح أي قارح البصيرة جذع الإقدام ، كما يقال : إقدام غر ورَأيُ مُجرَّب ، وأجيب عنه بأن « لم أصَبْ » بمعنى لم ألْفَ ، أي ألْفَ بهذه الصفة ، بل وُجِدْتُ بخلافها جذعَ الإقدام قارحَ البصيرة ، على أن قوله : « جذع البصيرة قارح الإقدام » حال من الضمير المستتر في « لم أصب » فيكون متعلقاً بأقرب مذكور ، ويؤيد هذا الوجه قولُه قبلَه :

٩٠ — لاَ يَرْكَنَنْ أحَدٌ إلى الإحجام
يومَ الوغَى مُتَخَوِّفاً لِحمَامِ (١)

فلقد أراني للرِّماح دَرِيئَةً
مِنْ عَنْ يميني مرةً وأمامِي

حتى خَضَبْتُ بما تحدَّرَ مِنْ دَمِي
أكْنافَ سَرْجِي أو عِنَانَ لجامِي

فإن الخضاب بما تحدر من دمه دليل على أنه جُرِح ، وأيضاً فَحَوَى كلامه أن مراده أن يدل على أنه جُرِحَ ولم يَمُتْ إعلاماً أن الإقدام غيرُ عِلَّةٍ للحِمام ، وحَثّاً على الشجاعة وبُغْض الفرار .

---

(١) ركن إليه : مال ، الإحجام : النكوص والتهيُّب ، الوغى : الحرب . الحمام : الموت ، الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن ، أكناف : جوانب ، واحده كنف ، عنان اللجام : سيره .

القول في أحوال المسند

٥ ـ أما تركُه فَلِنحو ما سبق في باب المُسْنَدِ إليه ، من تَخْييل العدول إلى أقوى الدليلين ، ومِن اختبارِ تَنَبّهِ السامع عند قيام القرينة ، أو مقدار تَنَبُّهِهِ . ومن الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ، إما مَعَ ضِيقِ المقام كقوله : حذف المسند

٩١ ــ * فإني وقَيّارٌ بها لَغريبٌ (١) *

أي وقَيّارٌ كذلك . وقوله :

٩٢ ــ نَحْنُ بما عِندنا ، وأنت بما
عندك راضٍ ، والرَّأيُ مُخْتَلِفُ (٢)

أي نحن بما عندنا راضون ، وكقول أبي الطَّيِّب :

٩٣ ــ قالَت وقدرَأتِ اصْفِراري:مَنْ بِهِ ؟
وتنهَّدَتْ ، فأجَبْتُها : المُتَنَهِّدُ

أي المتنهد هو المُطالبُ به ، دون المطالب به هو المُتنهد ، إن فُسِّرَ بمن المطالبُ به ؛ لأن مطلوب السائلة ــ على هذا ــ الحكم على شخص مُعَيَّن بأنه المطالب به ؟ ليتعين عندها ، لا الحكم على المطالب به بالتعيين ، وقيلَ : معناه مَنْ فَعَلَ بِهِ ؟ فيكونُ التقديرُ « فَعَلَ به المتنهدُ » .

---

(١) صدره : * ومن يك أمسى بالمدينة رحله *
« قيار » اسم فرس الشاعر أو جمله ، وهو ضابيء بن الحارث البرجمي .
(٢) قائله قيس بن الخطيم ، الشاعر الجاهلي .

وإما بدون الضيِّق ، كقوله تعالى : « واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أن يرضوهُ » (١) عَلى وَجْه ، أي والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك؛ ويجوز أن يكون جملةً واحدةً وتوحيدُ الضمير لأنه لا تَفاوُتَ بَيْنَ رضَا اللهِ وَرِضَا رَسُوله ، فكانا في حُكْمِ مَرضيٍّ واحد ، كقولنا : « إحْسانَ زَيْدٍ وإجْمالُه نَعَشَني وَجَبَرَ مني » . وكقولِك : « زيدٌ منطلق ، وعمرو » أي « عمرو كذلك » وعليه قوله تعالى : « واللّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهن ثَلاثَةُ أشْهرٍ واللّائي لَمْ يَحِضْنَ » (٢) أي واللائي لم يَحِضْنَ مثلُهن ، وقولُك : خرجتُ فإذا زيدٌ ، وقولُك لمن قال « هل لك أحد ؟ إن الناس إلْبٌ عليكَ » : إنّ زيداً وإنّ عمراً ، أي إنّ لي زيداً ، وإن لي عمراً ، وعليه قوله :

٩٤ — « إنّ محلاً ، وإنّ مُرْتَحَلاً (٣) »

أي إنّ لنا مَحَلاً في الدنيا ، وإن لنا مُرْتَحَلاً عنها إلى الآخرة ، وقوله تعالى : « قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّي » (٤) تقديره : لو تَمْلكونَ تَمْلِكونَ مكرراً لفائدة التأكيد . فأضْمِر تَمْلكُ الأوَّلُ إضْماراً على شَرِيطَةِ التفسير ، وأبْدِل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضميرٌ مُنْفصلٌ وهو أنتم ؛ لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فـ « أنتم » فاعلُ الفعلِ المُضْمَرِ ، وتملكون

---

(١) بعض الآية ٦٢ من سورة التوبة .

(٢) بعض الآية ٤ من سورة الطلاق .

(٣) عجزه : « وإن في السفر إذ مضوا مهلا »

« محل » و « مرتحل » مصدران ميميان ، بمعنى حلول وارتحال ، وقائله الأعشى الأكبر ميمون بن قيس ، الشاعر الجاهلي .

(٤) بعض الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

تفسيرُه . قال الزمَخْشَرِيُّ : هذا ما يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن « أنتم تملكون » فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشحِّ المتبالغ ، ونحوه قولُ حاتِمٍ :

• لَوْ ذاتُ سِوارٍ لَطَمَتْني (١) •

وَقَوْلُ المُتَلَمِّسِ :

٩٥ — • ولَو غَيْرُ إخْواني أرادوا نَقيصَتي (٢) •

وذلك لأن الفعلَ الأولَ لمّا سقط لأجل المُفَسِّر بَرَزَ الكلام في صورةِ المبتَدَأ والخبَرِ . وكقوله تعالى : « أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً » (٣) أي كمن لم يُزَيَّنْ له سوء عملِه . والمعنى : أفمن زين له سوء عمله من الفريقين اللَّذَيْنِ تقدَّم ذكرهما : الذينَ كفروا ، والذينَ آمنوا ، كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له سوءُ عمله ؛ ثم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له ذلك ؛ قال : لا ، فقيل « إن اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ » وقيل : « المعنى : أفَمَنْ زُيِّنَ له سوء عمله ذهبت نفسُكَ عليهم حَسَرات ؛ فَحُذِفَ الجوابُ ، لدلالة « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ » أو : أفمن زين له سوء عمله

---

(١) السوار : حلية تلبس في اليد ، ويضرب المثل عند تمني أن لو كان الأمر على وجه أفضل مما وقع عليه . وقد قاله حاتم عندما لطمته أمة وهو أسير في بني عنزة بدلا من أسيرهم الذي فداه بنفسه .

(٢) بقيته : • جعلت لهم فوق العرانين ميسما • العرانين : الأنوف ، أو ما صلب منها ، واحدها عرنين ، والميسم : العلامة ، والمتلمس : لقب جرير بن عبد المسيح ، الشاعر الجاهلي .

(٣) بعض الآية ٨ من سورة فاطر .

كمن هداه الله ؛ فحُذِفَ لدلالة « فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاء ويَهْدِي مَنْ يَشاء » .

وأما قوله تعالى : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنْفُسُكُمْ أمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (١) وقوله تعالى : « سُورَةٌ أنْزَلْنَاهَا » (٢) وقوله : « وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانِهِمْ لَئِنْ أمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ : لا تُقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » (٣) فكل منها يَحْتَمِل الأمْرَين : حذفَ المسند إليه . وحذفَ المسند ، أي : فأمْرِي صبرٌ جميل ، أو فصبرٌ جميل أجملُ ، وهذه سورة أنزلناها ، أو فيما أوحَيْنا إليك سورةٌ أنزلناها ، وأمرُكم أو الذي يُطْلَبُ منكم طاعةٌ معروفة معلومة ، لا يُشَكُّ فيها ، ولا يُرْتاب كطاعة الخلَّصِ من المؤمنين الذين طابَقَ باطِنُ أمرهم ظاهِرَهُ ، لا أيمانٌ تُقْسِمون بها بأفْواهِكم ، وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعةٌ معروفة ، أي بأنها بالقولِ دون الفعل ، أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم مِنْ هذه الإيمانِ الكاذِبَةِ .

ومما يَحْتَمِلُ الوجهين قولُه سبحانه وتعالى : « وَلاَ تَقُولوا : ثَلاثَة » قيل : التقديرُ ولا تقولوا : آلهتُنا ثلاثة ، ورُدَّ بأنه تقريرٌ لثبوتِ آلهةٍ ؛ لأن النَّفيَ إنما يكون للمعنى المُسْتَفاد من الخبر دونَ معنى المبتدإ ، كما تقول : ليس أمراؤنا ثلاثةً فإنك تنفي به أن تكون عدة الأمراء ثلاثة دون أن تكون لكم أمَرَاء ، وذلك إشراك ؛ مع أن قوله تعالى بعده : « إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ » (٤) يناقِضُه .

---

(١) بعض الآية ١٨ من سورة يوسف .

(٢) بعض الآية ١ من سورة النور .

(٣) بعض الآية ٥٤ من سورة النور .

(٤) بعض الآية ١٧١ من سورة النساء .

والوجه أن « ثلاثة » صفة مبتدإ محذوف ، أي يكون مبتدأ محذوفاً مُميِّزه لاخبر مبتدأ ، والتقدير « ولا تقولوا : لنا — أو في الوجود — آلهة ثلاثة أو ثلاثة آلهة » ثم حذفَ الخبرُ كما حذف من « لا إله إلا الله » و « ما من إله إلا الله » ثم حذف الموصوف أو المُمَيِّز كما يحذفان في غير هذا الموضع ؛ فيكون النهْيُ عن إثبات الوجود لآلهة ، وهذا ليس فيه تقرير لثبوت إلهين ، مع أن ما بعده — أعني قوله : « إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ » — ينفي ذلك ، فيحصل النهي عن الإشراك ، والتوحيدُ من غير تناقُضٍ ، ولهذا يصح أن يُتْبَعَ نَفْيَ الاثنين فيقالَ : « ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان » لأنه كقولنا : ليس لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان ، وهذا صحيح . ولا يصلح أن يقال عن التقدير الأول : ولا تقولوا آلهتُنا ثلاثةٌ ولا اثنان ؛ لأنه كقولنا : ليستْ آلهتُنا ثلاثة ولا اثنين ، وهذا فاسد .

ويجوز أن يقدر : ولا تقولوا : اللهُ والمَسِيحُ وأُمُّهُ ثلاثةٌ ، أي لا تعبدوهما كما تعبدونه لقوله تعالى : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ » (١) فيكون : المعنى ثلاثةٌ مُستَوُونَ في الصفة والرتبة ، فإنه قدّ استقر في العُرْف أنه إذا أُرِيدَ الحاقُ اثنين بواحد في وَصْف وأنهما شبيهان له ؛ أن يُقال : هم ثلاثةٌ ، كما يقال — إذا أريد إلحاق واحد بآخر وجَعْله في معناه — ، هما اثنان .

الحذف لا بدّ له من قرينة

واعلم أن الحذف لا بدّ له من قرينة ، كوقوع الكلام جواباً عن سؤال : إما محقق . كقوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والأرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ الله » (٢) وقوله « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ الله » (٣) وإما مُقَدَّرٍ نحو

(١) بعض الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٢) بعض الآية ٢٥ من سورة لقمان . أو بعض الآية ٢٨ من سورة الزمر .

(٣) بعض الآية ٦٣ من سورة العنكبوت .

٩٦ — « لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ (١) »

وقراءة مَنْ قَرَأَ « يُسَبَّحُ لَهُ فيها بِالغُدُوِّ والآصال رِجَالٌ (٢) وقوله : « كَذَلِكَ يُوحي إليكَ وإلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيم » (٣) ببناء الفعل للمفعول .

وفضلُ هذا التركيب على خلافه — أعني نحو « لِيَبْكِ يزيد ضارعٌ » ببناء الفعل للفاعل ، ونصب « يزيد » — من وجوه :

أحدها : أن هذا التركيب يفيد اسناد الفعل إلى الفاعل مرتين : إجمالاً ، ثم تفصيلا .

الثاني : أن نحو « يزيد » فيه ركن الجملة لا فَضْله .

الثالث : أن أوله غيرُ مُطْمع للسامع في ذكر الفاعل ، فيكون عند ورود ذكره كمن تيسَّرتْ له غنيمةٌ من حيث لا يَحْتَسِب ، وخلافه بخلاف ذلك .

ومن هذا الباب — أعني الحذف الذي قرينته وُقوعُ الكلام جوابا عن سؤالٍ مقدرٍ — قوله تعالى : « وَجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ (٤) » على

---

(١) عجزه : « ومختبط مما تطيح الطوائح »

الضارع : الذليل ، والمختبط : من يأتيك للمعروف من غير وسيلة ، وتطيح : تذهب وتهلك ، والطوائح : المهلكات : مفردها طائحة ، من طاحه بمعنى أهلكه وذهب به كأطاحه ، وطوَّحه ، وطوَّح به . والبيت من أبيات تنسب إلى ضرار بن نهشل . والحارث بن نهيك ، ولبيد بن ربيعة ، ومزود بن ضرار . والحارث بن ضرار . ونهشل بن حرى .

(٢) بعض الآيتين ٣٦ و ٣٧ من سورة النور .

(٣) الآية ٣ من سورة الشورى .

(٤) بعض الآية ١٠٠ من سورة الأنعام .

وَجْه ؛ فإن « لله شركاء » إن جُعِلا مفعولين لـ « جعلوا » فـ « الجنّ » يَحْتَمِلُ وجهين :

أحدهما : ما ذكره الشيخ عبد القاهر من أن يكون منصوباً بمحذوف دل عليه سؤالٌ مقدر ، كأنه قيل : مَنْ جعلوا لله شركاء ؟ فقيل : الجنّ ، فيفيد الكلام إنكارَ الشِّرْك مطلقاً ، فيدخل اتخاذُ الشَّرِيكِ من غير الجنّ في الإنكار ، دُخول اتِّخَاذِه من الجن .

والثاني : ما ذكره الزَمَخْشَرِيُّ ، وهو أن ينتصب « الجِنّ » بدلا من « شُرَكاء » فيُفِيدُ إنكارَ الشريك مطلقاً أيضاً كما مر ، وإن جُعِل « لله » لَغْواً كان « شُركاء الجِنّ » مفعولين قُدِّم ثانيهما على الأوّل ، وفائدة التقديم استعظام أن يُتَّخَذَ لله شريكٌ — ملكا كان ، أو جِنّياً ، أو غيرهما — ولذلك قُدِّم اسمُ الله على الشركاء ، ولو لم يُبْنَ الكلامُ على التقديم ، وقيل : وجعلوا الجنّ شركاء لله ، لم يُفِدْ إلا إنكارَ جعلِ الجنّ شركاء ، والله أعلم .

ومنه ارتفاع المخصوص في باب « نعم وبئس » على أحد القولين .

٥٥ — وأما ذكره ؛ فإما لنحو ما مرَّ في باب المسند إليه ، من زيادةِ التقرير ، والتعريضِ بغباوة السامع ، والاستلذاذِ ، والتعظيم ، والإهانةِ وبَسْطِ الكلام ، وإما ليتعين كونُه اسما ؛ فيستفادَ منه الثبوت ، أو كونه فعلا ، فيستفادَ منه التجدُّد أو كونه ظرفاً ، فيُورِثَ احتمالَ الثبوت والتجدد ، وإما لنحو ذلك . ذكر المسند

قال السكاكي : وإما للتعجب من المسند إليه بذِكْرِه ، كما إذا قلت « زيد يقلوم الأسد » مع دلالة قرائن الأحوال ، وفيه نظر ؛ لحصول التعجب بدون الذكر إذا قامت القرينة .

٥٦ — وأما إفراده فلكونه غيرَ سَبَبِيٍّ ، مع عدم إفادة تَقَوِّي إفراد المسند.

الحكم ، كقولك : زيدٌ مُنطلق ، وقام عمرو ، والمرادُ بالسبي نحوُ زيد أبوه منطلق .

قال السكاكي : وأما الحالة المقتضية لإفراده فهي إذا كان فعلياً ولم يكن المقصودُ من نفسِ التركيبِ تَقَوِّيَ الحكم ، وأعني بالمسند الفعلي ما يكون مفهومُه محكوماً به بالثبوت للمُسنَد إليه أو بالانتفاء عنه ، كقولك : أبو زيد منطلق والكُرُّ من البُرِّ بِستِّين ، وضُرِبَ أخو عَمْرٍو ، ويشكرك بكر إن تعطه ، وفي الدار خالدٌ ، إذ تقديرُه : استقرَّ أو حَصَلَ في الدار على أقوى الاحتمالين ؛ لتمام الصلة بالظَّرف ، كقولك : الذي في الدار أخوك .

وفيه نظر من وجهين :

أحدهما : أن ما ذكره في تفسير المسندِ الفعلي يجب أن يكون تفسيراً للمسند مطلقاً ، والظاهر أنه إنما قصد به الاحترازَ عن المسند السبي ؛ إذ فسَّر المسندَ السببيَّ بعد هذا بما يُقابِل تفسيرَ المسندِ الفعليِّ ومَثَّلَهُ بقولنا : « زيدٌ أبوه مُنْطَلِقٌ أو انْطَلَقَ ، والبرُّ الكُرُّ منه بستِّين » فجعل — كما ترى — أمثلة السبيِّ مقابلةً لأمثلة الفِعْليِّ مع الاشتراك في أصل المعنى .

والثاني : أن الظرف الواقعَ خبراً ، إذا كان مُقَدَّراً بجملة كما اختاره ؛ كان قولنا « الكرُّ من البرِّ بستين » تقديره : الكر من البر استقر بستين ، فيكون المسندُ جملة ، ويحصل تقوِّى الحكم كما مرّ ، وكذا إذا كان « في الدار خالد » تقديره : « استقر في الدار خالد » كان المسند جملةً أيضاً ، لكون « استقر » مسنداً إلى ضمير « خالدٍ » لا إلى « خالد» على الأصح ؛ لعدم اعتماد الظرف على شيء .

٥٧ ـ وأما كونه فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصرِ ما يمكن مع إفادة التجدد . فعلية المسند

٥٨ ـ وأما كونه اسماً فللإفادة عدم التقييد والتجدد ، ومن البيِّن فيهما قول الشاعر : اسمية المسند

٩٧ ـ لا يأنف الدِّرْهَمُ المضروبُ صُرَّتَنَا
لكِنْ يمُرُّ عَلَيها وَهُوَ مُنْطَلِقُ (١)

وقولُه :

٩٨ ـ أوْ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكاظَ قَبيلَةٌ
بَعَثوا إليَّ عَرِيفَهُم يتوَسَّمُ ؟ !(٢)

إذ معنى الأول على انطلاق ثابت للدرهم مطلقاً من غير اعتبار تجدده وحدوثه ، ومعنى الثاني على توَسُّمٍ وتأمُّلٍ ونظرٍ يتجدَّد من العريف هناك .

٥٩ ـ وأما تقييدُ الفعل بمفعول ونحوه ، فلتربيَةِ الفائدة ، كقولك : ضَربْتُ ضرباً شديداً ، وضَربْتُ زيداً ، وضربْتُ يومَ الجمعة ، وضربْتُ أمامَك ، وضربتُ تأديباً ، وضربت بالسوط ، وجلستُ والسَّاريةَ ، وجاء زيدٌ راكبا ، وطاب زيدٌ نفْساً ، وما ضَرَبَ إلا زيدٌ ، وما ضَرَبْتُ إلا زيداً . تقييد الفعل بمفعول .

والمقَيَّدُ في نحو « كان زيد قائماً » هو « قائماً » لا كانَ .

---

(١) المضروب : المطبوع المعد للتعامل . الصرة : ما تصر فيه الدراهم وتجمع ، والبيت للنصر بن جؤية .

(٢) « عكاظ » : أكبر أسواق العرب في الجاهلية . والعريف : القيم بأمر القوم ، ويتوسم : يتفرس ، ويتأمل والشاعر طريف بن تميم .

٦٠ — وأما ترك تقييده فلمانع من تربية الفائدة .

تقييد الفعل بالشرط

٦١ — وأما تقييدهُ بالشرط فلاعتبارات لا تُعْرَف إلا بمعرفة ما بين أدواته من التفصيل . وقد بين ذلك في علم النحو . ولكنْ لا بُدَّ من النظر ههنا في « إنْ » و « إذا » و « لو » .

«إن» و«إذا»

أما « إن » و « إذا » فهما للشرط في الاستقبال ، لكنَّهما يفترقان في شيء . وهو أن الأصل في «إن » أن لا يكونَ الشرطُ فيها مقطوعاً بوقوعه . كما تقول لصاحبك : « إنْ تُكْرِمْني أكْرِمْكَ » وأنت لا تقطع بأنه يكرمُك . والأصل في « إذا » أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه . كما تقول : « إذا زالت الشمسُ آتيكَ » .

ولذلك كان الحكم النادرُ مَوْقِعاً لـ « إنْ » لأنَّ النادرَ غيرُ مقطوع به في غالب الأمر . وغَلَبَ لفظ الماضي مع « إذا » لكونه أقربَ إلى القطع بالوقوع : نظراً إلى اللفظ .

قال الله تعالى : فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قالوا : « لَنَا هَذِهِ . وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ » (١) أتى في جانب الحسنة بلفظ « إذا » لأنَّ المرادَ بالحسنةِ الحسنةُ المطلقةُ التي حصولُها مقطوعٌ به . ولذلك عُرِّفَتْ تعريفَ الجنس . وجَوَّزَ السكاكيُّ أنْ يكونَ تعريفُها للعهد . وقال : وهذا أقْضَى لحقِّ البلاغة . وفيه نظر . وأتى في جانب السيئة بلفظ « إنْ » لأنَّ السيئةَ نادرةٌ بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ؛ ولذلك نُكِّرَتْ .

ومنه قولهُ تعالى : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .

(١) بعض الآية ١٣١ من سورة الأعراف . يطيروا : أصله يتطيروا . من التطير وهو التشاؤم .

وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بما قَدَّمَتْ أيْدِيهمْ إذا هُمْ يَقْنَطُونَ » (١) أتى بـ « إذا » في جانب الرحمة ، وأما تنكيرها فجعلَهُ السكاكي للنوعية ؛ نظراً إلى لفظ الإذاقة ، وجَعْلُهُ للتقليل – نظراً إلى لفظ الإذاقة كما قال – أقربُ .

وأما قولُه تعالى : « وَإذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » (٢) بلفظ « إذا » مع الضُّرِّ ؛ فللنظر إلى لفظ المسِّ ، وإلى تنكير الضُّر المفيد في المقام التَّوْبيخيِّ القصدَ إلى اليسير من الضُّرِّ . وإلى الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضرٍّ . وللتنبيه على أنّ مساسَ قدرٍ يسير من الضُّر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون في حكم المقطوع به .

وأما قوله تعالى : « وَإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عرِيضٍ » (٣) بعدَ قولِه عزَّ وجلَّ : « وَإذا أنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِه » (٤) أي أعرَضَ عن شكْرِ اللهِ ، وذهب بنفسه ، وتكبَّر وتعظَّمَ ؛ فالذي تقتضيه البلاغة أن يكونَ الضميرُ في مسَّه للمُعْرِض المُتكبِّر . ويكونَ لفظُ « إذا » للتنبيه على أن مثله يَحِقُّ أن يكونَ ابتلاؤه بالشر مقطوعاً به .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : وللجهل بموقع « إن » و « إذا » يَزِيغُ كثيرٌ من الخاصَّة عن الصواب ، فيغلطون ، ألا ترى إلى عَبْدِ الرَّحْمنِ بن حَسَّان كيف أخطأ بهما الموقعَ في قوله يُخاطبُ بعضَ الوُلاةِ ، وقد سألَه حاجةً فلمْ يَقْضِها . ثم شُفِّعَ له فيها فقضاها :

---

(٢) الآية ٣٦ من سورة الروم . يقنطون : ييأسون .

(٣) بعض الآية ٣٣ من سورة الروم .

(٤) بعض الآية ٥١ من سورة فصلت .

٩٩ ــ ذُممْتَ ولم تُحْمَدْ ، وأدركتُ حاجتي
تولّى سواكُم أجرَها واصطناعَها (١)

أبَى لكَ كَسْبَ الحمدِ رأيٌ مُقصِّرٌ
ونَفْسٌ أضاقَ اللهُ بالخيرِ باعَها

إذا هي حثَّتْه على الخير مَرَّةً
عَصاها ، وإنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أطاعَها

فلو عَكَسَ لأصابَ .

استعمال « إن » مكان « إذا »

وقد تستعمل « إن » في مقام القطع بوقوع الشرطِ لِنُكتَة .

كالتجاهُل : لاستدعاء المقام إيَّاه .

وكعدم جزْمِ المخاطَب ، كقولك لمن يكذبك فيما تُخْبِر : إن صدقتُ فقل لي ماذا تفعل ؟

وكتنزيله مَنْزِلَةَ الجاهل ؛ لعدم جريه على مُوجَب العلم ، كما تقول لمن يؤذي أباه : إن كان أباك فلا تُؤْذِه .

وكالتوبيخ على الشرط ، وتصوير أن المقام ــ لاشتماله على ما يَقْلَعُه عن أصله ــ لا يصحُّ إلا لفرضه كما يفرض الحال لغرض ، كقوله تعالى : « أفَنَضْرِبُ عَنْكُم الذِّكرَ صَفْحاً أنْ كُنْتُمْ قَوماً مُسْرِفينَ » (٢) فيمن قرأ « إنْ » بالكسر ؛ لقصد التوبيخ ، والتجهيلِ في ارتكاب الإسراف ، وتصوير أن الإسراف مــن العاقل في

---

(١) اصطناعها : اتخاذها صنيعة ومعروفاً بقضائها ، والباع : قدر مد اليدين . ويكنى بضيق الباع وبقصره عن البخل أو العجز ، وبطوله ورحابته عن الكرم والاقتدار ، والشعر نسبه القالي في أماليه ٢-٢٢١ لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت . ولكن الجاحظ ينسبه في الحيوان لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان .

(٢) الآية ٧ من سورة الزخرف .

هذا المقام واجبُ الانتفاء ؛ حقيقٌ أن لا يكون ثبوته له إلا على مجرد الفرض .

وكتغليب غير المتَّصف بالشرط على المتَّصف به ، ومجيءُ قولـه تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا » (١) بـ « إن » يَحْتَمِلُ أن يكون للتوبيخ على الريبة لاشتمال المقام على ما يَقْلَعُها عن أصلها ، ويَحْتَمِلُ أن يكون لتغليب غيرِ المرْتابين منهم ؛ فإنه كان فيهم مَنْ يَعْرِفُ الحق ، وإنما ينكر عناداً ، وكذلك قوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ » (٢) .

التغليب

٦٢ – والتغليب بابٌ واسعٌ يجري في فُنون كثيرة ، كقوله تعالى « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » (٣) أُدْخِلَ شُعَيْبٌ عليه السلامُ في « لتعودن في ملتنا » بحكم التغليب ؛ إذ لم يكن شُعَيْبٌ في ملتهم أصلا . ومثلُه قولُه تعالى : « إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم » (٤) . وكقوله تعالى : « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » (٥) عُدَّتْ الأنثى من الذكور بحكم التغليب وكقوله تعالى : « فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ » (٦) عُدَّ إبليسُ من الملائكة بحكم التغليب ، وكقوله تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » (٧) بتاء الخطابِ ، غلَّبَ جانِبُ « أنتم » على جانب « قوم»

---

(١) بعض الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٥ من سورة الحج .
(٣) بعض الآية ٨٨ من سورة الأعراف .
(٤) بعض الآية ٨٩ من سورة الأعراف .
(٥) بعض الآية ١٢ من سورة التحريم . القانتين : المطيعين ، المتواضعين لله . المقيمين الصلاة .
(٦) بعض الآية ٣٤ من سورة البقرة
(٧) بعض الآية ٥٥ من سورة النمل .

ومثله : « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١) فيمن قرأ بالتاء . وكذا قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٢) غُلِّبَ المخاطَبون في قوله : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٢) على الغائبين في اللفظ ، والمعنى على إرادتهما جميعاً ؛ لأن « لعل » مُتَعَلِّقَة بـ « خلقكم » لا بـ « اعبدوا » وهذا من غوامض التغليب ، وكقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ، وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُم فِيهِ » (٣) فإن الخطابَ فيه شاملٌ للعُقَلاء والأنعام ، فغُلِّبَ فيه المخاطبون على الغُيَّب ، والعُقَلاءُ على الأنعام ، وقوله تعالى : « يَذْرَؤُكُمْ فيه » (٣) أي يَبُثُّكم ، ويُكَثِّرُكمْ في هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً ، حتى كان بَيْنَ ذُكورِهم وإناثِهم التَّوالُدُ والتَّناسُلُ . فجعل هذا التدبير كالمنبع والمعْدنِ للبثّ والتكثير ، ولذلك قيل : « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » (٣) ولم يقل « به » كما في قوله تعالى : « ولَكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ » (٤) .

٦٣ — واعلم أنه لَمَّا كانت هاتان الكلمتان لتعليق أمر بغيره — أعني الجزاء بالشرطِ — في الاستقبال ؛ امتنع في كل واحدة من جملتيهما الثبوت ، وفي أفعالهما المُضِيُّ ، أعني أن يكون كلتا الجملتين أو إحداهما اسميَّة أو كلا الفعلين أو أحدُهما ماضيا .

ولا يُخَالف ذلك لفظا — نحو إن أكرمْتَني أكرمتُك ، وإن أكرمْتَني أكرمك ، وإن تكرمني أكرمتك ، وإن تكرمني فأنتَ

---

(١) بعض الآية ٩٣ من سورة النمل .
(٢) الآية ٢١ من سورة البقرة .
(٣) بعض الآية ١١ من سورة الشورى .
(٤) بعض الآية ١٧٩ من سورة البقرة .

مُكْرَمٌ ، وإن أكرمْتَني الآن فقد أكرمْتُك أمْسِ – إلاّ لنُكْتَةٍ مَا ، مثل إبراز غير الحاصل في صورة الحاصل ، إما لقوة الأسبابِ المتآخذةِ في وقوعه ، كقولك « إن اشترينا كذا » حالَ إنعقاد الأسبابِ في ذلك ، وإما لأن ما هو للواقع كالواقع ، كقولك « إنْ مُتَّ كان كذا وكذا » كما سبق ، وإما للتفاؤل ، وإما لأظهار الرغبة في وقوعه ، نحو : إن ظفرت بحسن العاقبة فهو المرامُ ؛ فإن الطالبَ إذا تبالغت رغبتُه في حصول أمر ، يَكْثُر تَصَوُّرُه إيَّاه ، فرُبَّما يُخيَّلُ إليه حاصلاً ، وعليه قولُه تعالى : « وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » (١) . وقد يَقوَى هذا التخيُّلُ عندَ الطالب، حتَّى إذا وجَد حكم الحِسِّ بخلاف حكمه غلَّطه تارةً ، واستخرج له مَحْمَلاً أخرى ، وعليه قولُ أبي العَلاء المَعَرِّيِّ :

١٠٠ – ما سِرْتُ إلاّ وطَيْفٌ منك يَصْحَبُني
سُرىً أمَامي ، وتَأويباً على أثَري (٢)

يقول : لكثرة ما ناجَيْتُ نفسي بكِ انتَقَشْتِ في خيالي ، فأعُدُّكِ بَيْنَ يَدَيَّ مُغلِّطاً للبصر بعلَّة الظلام إذا لم يدركْكِ ليلا أمامي وأعُدُّكِ خَلْفي إذا لم يتيسَّرْ لي تغليطُه حينَ لا يدركُكِ بين يَدَيَّ نهاراً ، وإما لنحو ذلك .

قال السكاكي : أو للتعريض كما في قوله تعالى : « لَئِنْ اشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » (٣) وقوله تعالى : « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهْواءَهُمْ

---

(١) بعض الآية ٢٣ من سورة النور .

(٢) الطيف : الخيال الطائف بالبال لمن يشغله ، وأصله أن يكون في النوم . السرى : سير الليل ، والتأويب : سير النهار كله والنزول في الليل .

(٣) بعض الآية ٦٥ من سورة الزمر . ليحبطن : ليفسدن ويذهبن سدى .

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ » (١) وقوله تعالى : « فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُم البَيِّنَاتُ » (٢) ونظيره في التعريض بقوله : « ومَا لي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٣) المراد : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ؟ والمنبه عليه « ترجعون » وقوله تعالى : « أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ ؟ ! إني إذاً لفي ضَلاَلٍ مُبِينٍ » (٤) إذ المراد أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوكم ؟ ! إنكم إذاً لفي ضلال مبين ، ولذلك قيل : « آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » (٥) دون « بربي » وأتبعه « فاسمَعُوني » (٥) ووجه حسنه تطلب إسماع المخاطَبين الذين هم أعداءُ المُسْمع الحقَّ على وجه لا يورثُهُم مَزِيدَ غضَب ، وهو ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل ومواجهتهم بذلك ، ويُعين على قبوله ؛ لكونه أدخلَ في إمحاض النصح لهم ، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا . وَلاَ نُسأَلُ عَمَّا تَعْمَلُون » (٦) فإن حقَّ النَّسَقِ من حيثُ الظاهر : « قل لا تُسألون عما عملنا ولا نُسأل عما تجرمون » وكذا ما قبله : «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ في ضَلاَلٍ مُبِينٍ » (٧) .

---

(١) بعض الآية ١٤٥ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٢٠٩ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٢ من سورة يس.
(٤) الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة يس .
(٥) بعض الآية ٢٥ من سورة يس .
(٦) الآية ٢٥ من سورة سبأ .
(٧) بعض الآية ٢ من سورة سبأ .

قال السَّكَّاكِيُّ رحمه الله : وهذا النوع من الكلام يُسمَّى المُنْصِفَ .

ومما يتصل بما ذكرناه أن الزَّمَخْشَرِيَّ قدَّر قوله تعالى « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (١) » عطفاً على جواب الشرط في قوله تعالى : « إنْ يَثْقَفُوكُم يَكُونوا لَكُمْ أعْداءً ويَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ وألسِنَتَهُمْ بالسُّوء ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (١) » وقال : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مَجْرَى المضارع في علم الإعراب فإن فإن فيه نكتةً ، كأنه قيل : وودوا قبلَ كلِّ شيءٍ كفرَكم وارتدادَكم ، يعني أنهم يريدون أن يُلحِقوا بكم مَضارَّ الدنيا والدين جميعاً : من قتْل الأنفسِ ، وتمزيقِ الأعراض ، وردِّكم كفارا ، وردُّكم كفارا أسبقُ المضارِّ عندَهم وأولها ؛ لعلمهم أن الدين أعزُّ عليكم من أرواحكم ؛ لأنكم بَذَّالون لها دونَه ، والعدوُّ أهمُّ شيءٍ عندَه أن يَقْصِدَ أعزَّ شيء عند صاحبه .

هذا كلامه ، وهو حسنٌ دقيقٌ ، لكن في جعل « وودوا لو تكفُرون (٢) » عطفا على جواب الشرط نظرٌ ، لأن وَدادَتَهم أن يرتدوا كفارا حاصلةٌ وإنْ لم يظفروا بهم ، فلا يكون في تقييدها بالشرط فائدةٌ . فالأولى أن يُجْعَلَ قولُه : « ووَدُّوا لَوْ تَكْفُرُون (٢) » عطفا على الجملة الشرطية : كقوله تعالى : « وَإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبَارَ ، ثُمَّ لا يُنْصَرُون (٣) » .

٦٤ ــ وأما « لَوْ » فهي للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط ، استعمالات « لو » الشرطية

---

(١) الآية ٢ من سورة الممتحنة .

(٢) بعض الآية ٢ من سورة الممتحنة .

(٣) بعض الآية ١١١ من سورة آل عمران .

فيلزم انتفاء الجزاء ، كانتفاء الإكرام في قولك : « لو جئتني لأكرمتُك» ولذلك قيل : هي لامتناع الشيء لامتناع غيره .

ويلزم كونُ جُملتيها فعليتين ، وكون الفعل ماضيا ؛ فدخولها على المضارع في نحو قوله تعالى : « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ (١) » لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتاً فوقتاً ، كما في قوله تعالى«اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (٢) »بعد قوله: «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (٣) وفي قوله تعالى : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٤) » ودخولها عليه في نحو قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٥) » وقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٦) » لتنزيله منزلة الماضي ؛ لصدوره عمّن لا خلاف في إخباره ، كما نزل « يَوَدُّ » منزلةَ «وَدَّ» في قوله تعالى: « رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (٧)» ويجوز أن يُرَدَّ الغَرَضُ من لفظ « تَرَى » و « يَودّ » إلى استحضار صورة رؤيةِ المجرمين ناكسي الرءوس قائلين لما يقولون ، وصورة رؤية الظالمين موقوفين عند ربهم متقاولين بتلك المقالات ، وصورة ودادة الكافرين لو أسلموا ، كما في قوله تعالى « واللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها (٨) » إذ قال « فَتُثيرُ سَحَاباً (٨) » استحضارا

(١) بعض الآية ٧ من سورة الحجرات . عنتّم : وقعتم في العنت ، ولقيتم الشدائد وهلكتم .

(٢) بعض الآية ١٥ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٤ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) بعض الآية ١٢ من سورة السجدة . ناكسو رءوسهم : مطأطئوها من الذل .

(٦) بعض الآية ٣١ من سورة سبأ .

(٧) بعض الآية ٢ من سورة الحجر .

(٨) بعض الآية ٩ من سورة فاطر.

لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب مُسخّرا بين السماء والارض ، تبدو في الأول كأنها قطعُ قطن مَنْدُوف . ثم تتَضامُّ مُتَقَلِّبَةً بين أطوار حتّى يَعُدْنَ رُكاما ، وكقول تأبَّطَ شرّاً :

١٠١ - ألا مَنْ مُبْلِغٌ فِتيان فَهْمٍ
بما لاقَيْتُ عندَ رَحا بِطانِ (١)
بأنّي قد لَقيتُ الغُولَ تَهْوي
بِسَهْبٍ كالصحيفة صَحْصَحانِ
فقلتُ لها : كلانا نِضْوُ أرض
أخو سفر ، فَخَلّي لي مَكاني
فشدَّتْ شدَّةً نحوي ، فأهْوتْ
لها كَفّي بِمَصْقُولٍ يَماني
فأضْرِبُها بلا دَهَشٍ ، فَخَرَّتْ
صَريعاً لِلْيَدَيْنِ ولِلْجِرانِ

إذ قال : « فأضربها » ليصور لقومه الحالةَ التي تَشَجَّعَ فيها على ضرب الغُول ، كأنه يُبصِّرُهم إيّاها ، ويتطلّبُ منهم مشاهدتَها؛ تعجيباً من جراءته على كل هَوْلٍ ، وثَباتِه عند كل شِدَّةٍ ، ومنه

---

(١) فهم : حي من العرب ، رحابطان : موضع ، الغول : من أقوالهم فيها أنها : ساحرة الجن ، شيطان يأكل الناس ، دابة رآها العرب وقتلها تأبط شرا ، من يتلون من السحرة أو الجن ، تهوي : تسرع ، السهب والصحصحان : ما استوى من الأرض في سهولة ، النضو : المزيل ، أهوت : أراد ارتفعت ثم سقطت عليها ، مصقول : سيف مجلو ، يماني : سيف يمني ، خرت : سقطت ، صريعاً : مصروعة ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث ، الجران : مقدم العنق من المذبح الى المنحر ، وتأبط شرا : لقب ثابت بن جابر ، الشاعر الصعلوك الجاهلي .

قولهُ تعالى « إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ . خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُم قَالَ له : كُنْ فَيَكونُ (١) » إذ قال « كن فيكون » دون « كن فكان» وكذا قولهُ تعالى « وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّماء ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الريحُ في مَكَانٍ سَحيقٍ (٢) » .

تنكير المسند

٦٥ — وأما تنكيره فإما لارادة عدم الحصر والعهد ، كقولك : زيدٌ كاتبٌ ، وعمروٌ شاعرٌ . وإما للتنبيه على ارتفاع شأنه أو انحطاطه على ما مر في المسند إليه ، كقوله تعالى : « هُدًى لِلْمُتَقِينَ » (٣) أي هُدًى لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ .

تخصيص المسند

٦٦ — وأما تخصيصه بالإضافة أو الوصف فلتكون الفائدة أتمَّ . كما مر .

ترك تخصيصه

٦٧ — وأما ترك تخصيصه بهما فظاهر مما سبق .

تعريف المسند

٦٨ — وأما تعريفه فلإفادَةِ السامع إما حكما على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر آخر له كذلك ، وإما لازمَ حكم بين بين أمرين كذلك .

تفسير هذا أنه قد يكون للشيء صفتان من صفات التعريف ، ويكون السامع عالماً باتصافه بإحداهما دونَ الأخرى ، فإذا أردت أن تخبره بأنه متصف بالأخرى ؛ تَعْمِدِ إلى اللفظ الدَّالِّ على الأول ، وتجعله مبتدأ ، وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية ، وتجعله خبراً ، فتفيد السامعَ

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران

(٢) بعض الآية ٣١ من سورة الحج .

(٣) بعض الآية ٢ من سورة البقرة .

ما كان يجهله من اتصافه للثانية ، كما إذا كان للسامع أخٌ يسمَّى زيداً ، وهو يعرف بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، وأردت أن تُعَرِّفَه أنه أخوه ، فتقول له : « زيد أخوك » سواء عرف أن له أخا ولم يعرف أن زيداً أخوه ، أو لم يعرف أن له أخاً أصلاً .

وإن عرف أن له أخاً في الجملة ، وأردت أن تُعيِّنَه عنده ؛ قلت : « أخوك زيد » .

أما إذا لم يعرف أن له اخاً أصلاً ؛ فلا يقال ذلك ؛ لامتناع الحكم بالتعيين على مَنْ لا يعرفه المخاطب أصلاً ؛ فظهر الفرق بين قولنا : « زيد أخوك » . وقولنا : « أخوك زيد » .

وكذا إذا عرف السامع إنساناً يسمَّى زيداً بعينِهِ واسمِهِ ، وعرف أنه كان من إنسانٍ انطلاقٌ ، ولم يعرف أنه كان من زيد أو غيره ، فأردت أن تعرفه أن زيداً هو ذلك المنطلق ، فتقول : « زيد المنطلق » وإن أردت أن تعرفه أن ذلك المنطلقَ هو زيدٌ قلتَ : « المنطلق زيد » .

وكذا اذا عرف السامع إنساناً يسمَّى زيداً بعينه واسمه ، وهو يعرف معنى جنسِ المُنْطَلِقِ ، وأردتَ أن تُعرِّفَه أن زيداً متصف به ؛ فتقول : « زيدٌ المنطلق » وإن أردت أن تعين عنده جنس المنطلق قلت « المنطلق زيد » .

لا يُقال : زيد دالٌّ على الذات ؛ فهو مُتَعَيِّنٌ للابتداء تَقَدَّمَ أو تَأَخَّرَ . والمنطلق دال على أمر نِسْبِيٍّ ؛ فهو مُتعيِّنٌ للخبرية تَقَدَّمَ أو تأخَّرَ .

لأنا نقول : « المنطلق » لا يُجْعَل مُبتدأ إلا بمعنى الشخص الذي له الانطلاق وإنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبراً ، و « زيد » لا يُجعَل

خبراً إلا بمعنى صاحب اسم « زيد » وإنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتدأ .

تعريف المسند بلام الجنس

٦٩ – ثم التعريف بلام الجنس قد لا يفيد قَصْرَ المُعَرَّفِ على ما حُكِمَ عليه به ، كقول الخَنْساء (١) :

١٠٢ – إذا قَبُحَ البُكاءُ عَلى قَتيلٍ
رَأَيْتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَميلا

وقد يفيد قَصْرَه ؛ إما تحقيقاً ، كقولك . « زيد الأميرُ » إذا لم يكن أميرٌ سواه . وإما مبالغةً لكمال مَعناه في المحكوم عليه، كقولك : « عمرٌو الشجاعُ » أي الكاملُ في الشجاعة، فتُخرِج الكلامَ في صورةٍ تُوهِمُ أن الشجاعةَ لم توجَدْ إلاّ فيه ؛ لعدم الاعتداد بشجاعة غيرِه ؛ لقصورها عن رُتْبة الكمال .

المقصور في المسند المعرف باللام

ثم المقصورُ قد يكون نفسَ الجنس مطلقاً أي من غير اعتبار تقييدِه بشيء كما مر ، وقد يكون الجنسَ باعتبار تقييده بظرفٍ أو غيرِه كقولك: هو الوَفيُّ حين لا تظن نفس بنفس خيراً ؛ فإن المقصورَ هو الوفاء في هذا الوقتِ ، لا الوفاءُ مطلقاً ، وكقول الأعْشَى :

١٠٣ – هوَ الواهبُ المائةَ المُصْطَفا
ةَ : إمّا مَخاضاً ، وإمّا عِشارا (٢)

---

(١) الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الشريد الصحابية الشاعرة البكاءة على أخيها صخر .

(٢) المخاض : الحوامل من النوق ، واحدتها خلفة – بفتح فكسر ففتح – من غير لفظ الجمع ، والعشار : المناسب من معانيها لما في البيت من تفصيل أنها الوالدات من الإبل ، واحدتها عشراء كنفساء زنة ومعنى ، الأول في الإبل ، والثاني في النساء، والأعشى قائله ، هو أعشى قيس بن قيس ، الشاعر الجاهلي الوصاف للخمر .

فإنه قَصَرَ هبةَ المائةِ من الإبل في إحدى الحالتين ، لاهبتَهَا مطلقاً . ولا الهبةَ مطلقاً .

وهذه الوجوهُ الثلاثة – أعني العهدَ ، والجنسَ للقصر تحقيقاً ، والجنسَ للقصر مبالغةً – تمنع جوازَ العطفِ بالفاء ونحوها على ما حُكِم عليه بالمُعَرَّف . بخلاف المنكّر ؛ فلا يقال : « زيدٌ المنطلقُ وعمروٌ » ، ولا « زيدُ الأميرُ وعمروٌ » ولا « زيدٌ الشجاعُ وعمروٌ » .

جملية المسند

٧٠ – وأما كونُه جملةً فإما لإرادة تَقَوِّي الحكم بنفس التركيب كما سبق ، وإما لكونه سبباً ، وقد تقدم بيان ذلك .

فعلية الجملة واسميتها

وفعليتها لإفادة التَّجَدُّدِ . واسميتها لإفادة الثبوت ؛ فإن من شأن الفعلية أن تدل على التجدد ، ومن شأن الاسمية أن تدل على الثبوت .

وعليهما قولُ ربِّ العزَّةِ : « وإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالوا : آمَنَّا ، وَإذَا خَلَوا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إنَّا مَعَكُمْ (١) » .

وقوله تعالى : « قالُوا سَلاَماً ، قَالَ سَلاَمٌ (٢) » إذ أصلُ الأول : نسلم عليك سلاماً ، وتقدير الثاني سلامٌ عليكم ، كأن ابراهيمَ عليه السلام قصدَ أن يُحيِّيَهم بأحسن ما حَيَّوْهُ به ؛ أخذاً بأدب الله تعالى في قوله تعالى : « وَإذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ مِنْهَا (٣) » .

وقد ذُكِرَ له وجهٌ آخرُ فيه دِقة ، غيرَ أنه بأصول الفلاسفة أشبهُ ، وهو أن التسليمَ دعاءٌ للمُسَلَّم عليه بالسلامة من كل نقص ، ولهذا

---

(١) بعض الآية ١٤ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٦٩ من سورة هود .

(٣) بعض الآية ٨٦ من سورة النساء .

أطلِق ، وكمالُ الملائكة لا يُتصوَّر فيه التجدد ؛ لأن حصوله بالفعل مقارنٌ لوجودهم ، فناسب أن يُحيَّوْا بما يدل على الثبوت دون التجدد وكمال الإنسان مُتَجدِّدٌ ؛ لأنه بالقوة ، وخروجُه إلى الفعل بالتدريج ، فناسبَ أن يُحيَّا بما يدل على التجدُّد دون الثبوت ، وفيه نظر .

وقولُه تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » (١) أي أحدثتم دعاءهم ، أم استمر صمتكم عنه ؛ فإنه كانت حالهم المستمرَّةُ أن يكونوا صامتين عن دعائهم ، فقيل : لم يفترق الحالُ بين إحداثكم دعاءهُم وما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم .

وقولُه تعالى : « قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ »(٢) أي أحدثت عندنا تعاطي الحقِّ فيما نسمعه منك أم اللعِبَ أي أحوالُ الصِّبا بعدُ مستمرة عليك .

وأما قولُه تعالى : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » (٣) في جواب « آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ » (٣) فلإخراج ذواتهم من جنس المؤمنين ؛ مبالغةً في تكذيبهم ؛ ولهذا أطلقَ قولَه « مؤمنين » وأكّدَ نفيَه بالباء . ونحوُه : « يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا » (٤) .

شرطية جملة المسند

وشرطيتها لما مر .

ظرفيتها

وظرفيتها لاختصار الفعليَّة ؛ إذ هي مُقدَّرَة بالفعل على الأصَحّ .

---

(١) بعض الآية ١٩٣ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الأنبياء .

(٣) بعض الآية ٨ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ٣٧ من سورة المائدة .

٧١ ــ وأما تأخيره فلأن ذكر المسند أهم كما سبق . تأخير المسند

٧٢ ــ وأما تقديمه فإما لتخصيصه بالمسند إليه ، كقوله تعالى: « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » (١) وقولك « قائم هو » لمن يقول : زيد إما قائم أو قاعد؛ فيردده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما ، ومنه قولهم : تَمِيمِيٌّ أنا . وعليه قوله تعالى : « لا فِيهَا غَوْلٌ ، وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » (٢)أي بخلاف خمور الدنيا فإنها تغتال العقولَ ؛ ولهذا لم يقدَّم الظرفُ في قوله تعالى : « لا رَيْبَ فيه (٣) لئلا يفيدَ ثبوتَ الرَّيْبِ في سائر كتب الله تعالى . تقديم المسند

وإما للتنبيه من أول الأمر على أنه خبرٌ لا نعتٌ كقوله :

١٠٤ ــ لَهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهى لِكبارِها
وهِمَّتُهُ الصُّغْرى أجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ (٤)

وقوله تعالى : « وَلَكُمْ في الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ(٥) »
وإما للتفاؤل ، وإما للتشويق إلى ذكر المسنَد إليه كقوله :

١٠٥ ــ ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدنيا بِبَهْجَتِهَا
شمسُ الضُّحَى وأبو إسحَاقَ والقمرُ(٦)

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الصافات ، الغول : ذهاب الخمر بالعقل أو بصحة البدن، نزف بالبناء للمجهول : ذهب عقله أو سكر .
(٣) بعض الآية ٢ من سورة البقرة : الريب : الشك .
(٤) الهمم : جمع همة بالفتح والكسر ، وهي ما يهم به من أمر ليفعل ، أو هي العزم القوي ـ والبيت لحسان بن ثابت في مديح الرسول ، أو لبكر بن النطاح في أبي دلف الجمحي ، أو لبعض الأعراب في أمير من الأمراء .
(٥) بعض الآية ٣٦ من سورة البقرة .
(٦) أبو إسحاق : هو الممدوح الخليفة العباسي محمد المعتصم بن هارون الرشيد، والشاعر محمد بن وهيب الحميري .

وقوله :

١٠٦ ــ وكالنّارِ الحياةُ ، فمِنْ رَمادٍ
أواخِرُها ، وأوّلُها دُخانُ(١)

قال السكاكي رحمه الله : وحقُّ هذا الاعتبار تطويلُ الكلام في المسند ، وإلاّ لَمْ يَحْسُنْ ذلكَ الحسْنُ .

تنبيه

٧٣ ــ كثير مما في هذا الباب والذي قبله غير مختص بالمسند إليه والمسند، كالذكر ، والحذف، وغيرهما مما تقدمت أمثلته ، والفَطِنُ إذا أتقن اعتبارَ ذلك فيهما لا يخفى عليه اعتبارُه في غيرهما .

(١) قائله أبو العلاء المعري .

القول في أحوال مُتعلّقات الفعل

حال الفعل المفعول كحاله مع الفاعل

٧٤ ــ حالُ الفعلِ مَع المفعولِ كحالهِ مَع الفاعِلِ ، فكما أنك إذا أسندْتَ الفعلَ إلى الفاعلِ ؛ كان غرضُك أن تفيد وقوعَه منه ، لا أن تفيد وجودَه في نفسه فقط ؛ كذلك إذا عَدَّيته إلى المفعول ؛ كان غرضُك أن تفيدَ وقوعَه عليه ، لا أن تفيد وجودَه في نفسه فقط ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما إنما كان ليُعْلَمَ التباسُه بهما ، فعَمِلَ الرفعَ في الفاعل ليُعْلَمَ التباسُه به من جهة وقوعه منه والنصب في المفعول ليُعْلَم التباسه به من جهة وقوعه عليه .

أما إذا أُريد الإخبار بوقوعه في نفسه من غير إرادة أن يُعْلَمَ مِمَّنْ وقع في نفسه ، أو على مَنْ وقع ؛ فالعبارة عنه أن يقال : كان ضربٌ ، أو وقع ضربٌ ، أو وُجِدَ ، أو نحو ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد

الفعل المتعدي الذي حذف مفعوله

٧٥ ــ وإذا تقرر هذا فنقول : الفعل المتعدي إذا أسند إلى فاعله ولم يذكر له مفعول فهو على ضربين :

الغرض إثبات المعنى في ذاته للفاعل

الأول : أن يكون الغرضُ إثباتَ المعنى في نفسه للفاعل على الإطلاق أو نفيَه عنه كذلك ، وقولُنا : « على الإطلاق» أي من غير اعتبار عمومه وخصوصه ، ولا اعتبار تعلقه بمن وقع عليه ؛ فيكون المتعدي حينئذ بمنزلة اللازم ، فلا يُذكَر له مفعول ؛ لئلا يَتوهَّم السامعُ أن الغرض الإخبارُ به باعتبار تعلقه بالمفعول ، ولا يُقدَّر أيضاً ؛ لأن المقدَّر في حكم المذكور .

وهذا الضرب قسمان ؛ لأنه إما أن يُجْعَل الفعلُ مطلقاً كنايةً عن الفعل متعلقاً بمفعول مخصوص دلّتْ عليه قرينةٌ ، أوْ لاَ .

الثاني : كقوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » (١) أي مَنْ يحدُث له معنى العِلم ومَنْ لا يحدُث .

قال السكاكي : ثم إذا كان المقامُ خَطابياً لا استدلالياً ؛ أفاد العمومَ في أفراد الفعل ، بعلة إيهام أن القصد إلى فرد دونَ فردٍ آخر مَع تحقق الحقيقة فيهما تحكمٌ ، ثم جعل قولَهم في المبالغة « فلانٌ يعطي ويمنعُ ، ويصلُ ويقطع » مُحْتَمِلا لذلك ولتعميم المفعول كما سيأتي .

وعده الشيخُ عبدُ القاهر مما يفيدُ أصلَ المعنى على الإطلاق من غير إشعارٍ بشيء من ذلك .

والأوّل : كقول البُحْتُرِيِّ يمدح المُعْتَزَّ بالله ، و يُعَرِّض بالمُسْتَعِين بالله :

١٠٧ ــ شَجْوُ حُسّادِهِ وغَيْظُ عِداه
أنْ يَرَى مُبْصِرٌ ، وَيَسْمَعَ وَاعِي(٢)

أي أن يكون ذو رُؤيةٍ وذو سَمْعٍ ، يقول : محاسن الممدوح وآثارُه لم تَخْفَ على مَنْ له بصر ؛ لكثرتها واشتهارها ، ويكفي في معرفة أنها سبب لاستحقاقه الإمامةَ دونَ غيره أن يقع عليها بصر ويَعيها سَمْعٌ ؛ لظهور دلالتها على ذلك لكل أحَدٍ ، فحساده وأعداؤه يتمنّوْن أن لا يكون في الدنيا مَنْ له عينٌ يُبْصِرُ بها وأذُنٌ يسمع بها ، كي يَخْفَى

---

(١) بعض الآية ٩ من سورة الزمر .

(٢) الشجو : الحزن ، والبحتري : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الشاعر العباسي والمعتز بالله بن المتوكل على الله ، والمستعين بالله بن المعتصم بالله ، من بني العباس .

استحقاقُه للإمامةِ ، فيجدوا بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها ، فَجَعَلَ كما ترى مُطلَقَ الرؤيةِ كنايةً عن رؤيةِ محاسنِه وآثارِه ، ومُطْلَقَ السماعِ كنايةً عن سماعِ أخبارِه ، وكقول عَمْرِو بنِ مَعْدِ يكرِبَ:

١٠٨ ــ فلَوَ أن قومي أنطقَتْني رِماحُهم
نطقْتُ ، ولكنَّ الرمّاحَ أجرَّتِ (١)

لأن غرضَه أن يُثْبِتَ أنه كان من الرِّماح إجرارٌ وحبسٌ للألسُن عن النطق بمدحهم والافتخار بهم ، حتى يلزمَ منه بطريق الكنايةِ مطلوبُه وهو أنها أجرَّتْه ، وكقول طُفَيْل الغَنَوِيِّ لبَني جَعْفَرِ بْن كلاب:

١٠٩ ــ جزَى اللهُ عنّا جَعْفَراً حِينَ أُزْلِقَتْ
بنا نَعْلُنا في الواطئين ، فَزَلَّتِ (٢)
أبَوْا أن يَمَلُّونا ، ولَوْ أن أمنّا
تُلاقي الذي لاقَوْهُ مِنّا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطونا بالنفوس ، وألجأوا
إلى حُجراتٍ أدْفأت وأظلّتِ

---

(١) أصل الإجراء : أن يشق لسان الفصيل لكيلا يرضع ، ويستعمل في شق اللسان مطلقاً ؛ لينتقل منه إلى لازمه ، وهو المنع من الكلام ، والرماح لا تنطق ، ولكنها فاعل سببي للنطق بالفخر إذا هي أبلت في المعارك بلاء حسناً . وعمرو بن معديكرب الزبيدي اليمني شاعر مخضرم .

(٢) أزلقت ، بالبناء للمجهول : حملت على الزلق ، وهو الزلل وعدم الثبات ، والمراد من زلل النعل : اختلال الحال وانتياب النوائب ، وفي البيت الثاني جمال ، مأتاه : إيقاع الإباء على الملال ، لتصوير قوة كرمهم التي صارت قوة فيهم تجعلهم يمتنعون على كراهية من تكرهه أمه ، مع أن الكراهية والملال حركة نفسية لا بد للمرء فيها ، وانظر مع ذلك الخلط بالنفوس .

فإن الأصل : لـَمـَلـّتنا ، وأدفأتنا ، وأظلتنا ، إلا أنه حذف المفعولَ من هذه المواضع ليدُلَّ على مطلوبه بطريق الكناية .

فإن قلتَ : لا شك أن قولـَه ألجأوا أصله ألجأونا فلأيٍّ معنىً حذف المفعول منه ؟

قلت : الظاهر أن حذفه لمجرد الاختصار ؛ لأن حكمه حكم ما عطف عليه وهو قوله : « خلطونا » .

الضرب الثاني : أن يكون الغرضُ إفادةَ تعلـّقـِه بمفعولٍ . فيجب تقديرُهُ بحسَبِ القرائنِ ، ثم حذفُه من اللفظ .

أو الغرض إفادة تعلقه بمفعول

إما للبيان بعدَ الإبهام ، كما في فعل المَشـِيئةِ إذا لم يكن في تعلـُّقـِه بمفعولـِهِ غرابةٌ ، كقولك : لو شئتُ جئتُ أو لم أجيء ، أي لو شئت المجيءَ أو عدمَ المجيء ؛ فإنك متى قلتَ : « لو شئتُ » علم السامعُ أنك علقتَ المشيئةَ بشيء ، فيقع في نفسه أن هنا شيئاً تعلـّقـَتْ بـه مشيئتـُك بأن يكونَ أو لا يكونَ ، فإذا قلتَ : « جئتُ » أو « لم أجِيء » عرف ذلك الشيء ، ومنه قولـُه تعالى : «فَلـَوْ شاء لـَهدَاكُمْ أجمَعينَ»(١) وقوله تعالى : « فإن يَشإِ اللهُ يَختـِمْ عَلى قـَلْبِكَ » (٢) وقولـُه تعالى : « مَنْ يَشإِ اللهُ يـُضْلِلْهُ » (٣) .

وقولُ طـَرَفـَةَ :

١١٠ – فإنْ شِئـْتُ لم تـُرْقـِلْ وإن شئتُ أرْقـَلـَتْ
مَخافـَةَ مَلـْوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحْصَدِ(٤)

---

(١) بعض الآية ١٤٩ من سورة الأنعام .
(٢) بعض الآية ٢٤ من سورة الشورى .
(٣) بعض الآية ٣٩ من سورة الأنعام .
(٤) لم ترقل : لم تسرع ، وفاعله الناقة ، ملوي : مفتول ، القد : السير المقدود من الجلد ، أو السوط ، محصد : محكم الفتل مقواه ، وطرفة هو ابن العبد الجاهلي صاحب المعلقة .

وقولُ البُحتُرِيِّ :

١١١ ـ لوشِئتَ عدْتَ بلادَ نَجْد عَوْدَةً
فَحَلَلْتَ بَيْنَ عَقِيقِهِ وَزَرُودِهِ (١)

وقوله :

١١٢ ـ لو شئتَ لم تُفْسِدْ سماحةَ حاتِم
كرَماً ، ولم تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ (٢)

فإن كان في تعليقِ الفعلِ به غرابةٌ ذكرتَ المفعولَ ؛ لتقرِّرَه في نفس السامـــع وتُؤْنِسهُ به ، يقول الرجل يخبر عن عِزِّه : لو شئتُ أن أردَّ على الأمير رَدَدْتُ ، وإن شئتُ أن ألقَى الخليفةَ كلَّ يوم لقيتُه ، وعليه قولُ الشاعر :

١١٣ ـ ولو شئتُ أن أبكِي دَماً لبكيتُهُ
عليه، ولكِن ساحةُ الصبرِ أوسَعُ (٣)

فأما قولُ أبي الحُسَيْنِ عَلِيِّ بنِ أحمدَ الجَوْهَرِيِّ أحدِ شُعراءِ الصاحِبِ بْنِ عَبّادٍ :

١١٤ ـ فلم يُبْقِ منِّي الشوقُ غيرَ تَفَكُّرِي
فلَوْ شئتُ أنْ أبكِي بكيتُ تفكُّرا(٤)

---

(١) العقيق وزرود : موضعان ، والمخاطب في البيت السحاب المحدث عنه في البيت قبله .

(٢) السماحة : الكرم ، حاتم : هو الطائي المشهور ، خالد : هو ابن أصمع النبهاني الذي نزل عليه امرؤ القيس . والبيت للبحتري .

(٣) قائله : الخريمي ، أبو يعقوب إسحاق بن حسان ، شاعر عباسي من الموالي ، والبيت من قصيدة يرثي بها أبا الهيذام عامر بن عمارة بن خريم أمير عرب الشام وقائد المضرية في الفتنة بين القيسية واليمنية أيام الرشيد .

(٤) الجوهري قائل البيت من شعراء اليتيمة .

فليس منه ؛ لأنه لم يُرِد أن يقول : فلو شئتُ أن أبكي تفكُّراً بكيتُ تفكُّراً ، ولكنه أراد أن يقول : أفْناني النُّحول ، فلم يَبْقَ مِنِّي وَفِيَّ غيرُ خواطرَ تَجُولُ ، حتى لو شئتُ البُكا ، فمرَيْتُ جُفوني، وعصرتُ عَيْني ليسيل منها دمعٌ لم أجِدْهُ ، ولخرج منها بدلَ الدمعِ التفكُّرُ ، فالمراد بالبكاء في الأول الحقيقي ، وفي الثاني غيرُ الحقيقيِّ ، فالثاني لايصِحُّ لأن يكونَ تفسيراً للأول .

وإما لدفع أن يتوهّمَ السامعُ في أول الأمرِ إرادة شيءٍ غيرِ المرادِ ، كقول البُحْتُرِيِّ :

١١٥ ــ وَكَمْ ذُدْتَ عَنّي مِنْ تَحامُلِ حادث
وَسَوْرَةِ أيّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ (١)

إذ لو قال : « حزن اللحم » لجاز أن يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده أن الحزَّ كان في بعض اللحم ، ولم يَنْتَهِ إلى العظم ، فترك ذكرَ اللحم ؛ ليبرىء السامع من هذا الوهم ، ويصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يردَّه إلا العظم .

وإما لأنه أريد ذكره ثانياً على وجهٍ يتضمن إيقاعَ الفعل على صريح لفظه ، إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه ، كقول البُحْتُرِيِّ أيضاً :

١١٦ ــ قدْ طَلَبْنَا فلم نجِدْ لكَ في السُّؤ
دَدِ والمجدِ والمكارِمِ مِثْلاً (٢)

أي قد طلبنا لك مِثلاً في السُّؤدَدِ والمجد والمكارِم ، فحذف المثل ؛

---

(١) ذدت : دفعت وطردت ، التحامل : تكليف مالا يطاق . سورة الأيام : شدتها وصولتها ، حززن: قطعن، والمخاطب في البيت أبو الصقر ممدوح البحتري .
(٢) السؤدد : السيادة ، والمخاطب ممدوح البحتري ، وهو الخليفة المعتز .

إذ كان غرضُه أن يوقعَ نفيَ الوجود على صريح لفظِ المِثْلِ ، ولأجْلِ هذا المعنى بعينه عَكَسَ ذو الرُّمّةِ في قوله :

١١٧ ـ ولم أمْدَحْ لأرْضِيَهُ بشِعْرِي
لَئِيماً أنْ يكونَ أصابَ مَالا (١)

فإنه أعمل الفعلَ الأول الذي هو « أمدح » في صريح لفظِ « اللئيم » والثاني الذي هو « أرضي » في ضميره ؛ إذ كان غرضُه إيقاعَ نَفي المدح على اللئيم صريحاً دون الإرضاء ، ويجوز أن يكون سببُ الحذفِ في بيت البحتريّ قَصْدَ المبالغةِ في التّأدّبِ مَع الممدوح ، بتركِ مواجهتِهِ بالتصريح بما يدل على تَجْويز أن يكون له مِثْلٌ ؛ فإن العاقل لا يطلب إلا ما يَجُوز وجوده .

القصد الى التعميم في المفعول

وإما للقصد إلى التعميم في المفعول ، والامتناع عن أن يَقْصِرَهُ السامع على ما يُذْكَرُ معه دونَ غيره ، مع الاختصار ، كما تقول : « قد كان منك ما يُؤلم » أي ما الشرطُ في مثله أن يُؤلم كلَّ أحد وكلَّ إنسان ، وعليه قوله تعالى : « واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السّلامِ » (٢) أي يدعو كلَّ أحد .

وإما للرعاية على الفاصلة ، كقوله سُبْحانَه وتعالى : « والضُّحَى ، والليلِ إذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » (٣) أي وما قَلاك .

وإما لاستهجان ذكرهِ ، كما رُوِيَ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت : « ما رأيتُ مِنْهُ ، ولا رأى مِنّي » تعني العورةَ .

---

(١) ذو الرمة : لقب أبي الحارث غيلان بن عقبة أحد الشعراء العشاق في العهد الأموي .

(٢) بعض الآية ٢٥ من سورة يونس .

(٣) الآيات ١-٣ من سورة الضحى .

وإما لمُجرَّد الاختصار ، كقولك : « أصْغَيْتُ إليه » أي أذُني ، و « أغضبْتُ عليه » أي بصري . ومنه قولُه تعالى : « أرِني أنْظُرْ إليْكَ » (١) أي ذاتَكَ ، وقوله تعالى : : « أهذَا الّذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً » (٢) أي بعثه اللهُ ، وقولُه تعالى : « فَلاَ تَجْعَلُوا لله أنْدَاداً وَأنْتُم تَعْلَمُونَ » (٣) أي أنه لا يُمَاثِل ، أو ما بيْنَه وبينَها من التفاوتُ ، أو أنها لا تفعل كفعله ، كقوله تعالى : « قل هَلْ مِنْ شُرَكائِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيءٍ » (٤) ويحتمل أن يكون المقصودُ نفسَ الفعل من غير تعميم ، أي : وأنتم من أهل العلم والمعرفة ، ثم ما أنتم عليه في أمر ديانتكم – مِنْ جَعْلِ الأصنامِ للهِ أنداداً – غايةُ الجهل .

ومما عدَّ السكاكيُّ الحذفَ فيه لمجرد الاختصار قولُه تعالى : ولَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا » (٥) وَالأوْلَى أن يُجْعَلَ لإثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق كما مر ، وهو ظاهرُ قولِ الزمخشريِّ ؛ فإنه قال : تُرِكَ المفعولُ لأن الغرضَ هو الفعلُ لا المفعولُ ، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذّياد وهم على السّقْي ، ولم يرحمهما لأن مَذُودَهُما غَنَمٌ ومَسْقِيّهُمْ إبلٌ مثلا ؟ وكذلك قولُهما : « لا نسقي حتى يصدر الرعاء » المقصود منه : السّقْيُ لا المسْقِيُّ .

---

(١) بعض الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٢) بعض الآية ٤١ من سورة الفرقان .
(٣) بعض الآية ٢٢ من سورة البقرة .
(٤) بعض الآية ٤٠ من سورة الروم .
(٥) الآية ٢٣ وبعض الآية ٢٤ من سورة القصص .

اشتباه الحال من الحذف وعدمه

٧٦ – واعلم أنه قد يَشْتَبِهُ الحالُ في أمر الحذف وعَدَمِه لعدم تحصيل معنى الفعل . كما في قوله تعالى : « قُلْ ادْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ . أيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى » (١) ؛ فإنه يُظَنّ أن الدعاء فيه بمعنى النداء ؛ فلا يُقَدَّر في الكلام محذُوفٌ .

وليس بمعناه ؛ لأنه لو كان بمعناه لزِمَ : إما الإشراك ، أو عَطْفُ الشيء على نفسه ؛ لأنه إن كان مُسَمّى أحدِهما غيرَ مُسَمّى الآخر لزم الأوَّلُ ، وإن كان مُسَمّاهُما واحد لزِم الثاني ، وكِلاهُما باطل ، تعالى كلامُ الله عز وجل على ذلك .

فالدعاء في الآية بمعنى التسمية التي تتعدى إلى مفعولين أي : سَمُّوه اللهَ ،أو الرحمنَ،أيّاً ما تُسَمُّوه فله الأسماءُ الحُسْنَى ، كما يقال : « فلانٌ يُدْعَى الأمير » أي : يسمّى الأميرَ .

وكما في قراءة مَنْ قرأ : « وقَالَتِ اليَهُودُ : عُزيْرُ بْنُ اللهِ »(٢) بغير تنوين ، على القول بأن سقوطَ التنوين لكَوْنِ الابنِ صفةً واقعة بين علَمَيْنِ ، كما في قولنا : زيد بن عمرو قائم ؛ فإنه قد يُظَنّ أن فعلَ القولِ فيه لحكاية الجملة ، كما هو أصلُه ؛ فقيل : تقديرُ الكلام : عُزَيْرُ بنُ اللهِ معبودُنا . وهذا باطل ؛ لأن التصديق والتكذيب إنما يَنْصَرِفان إلى الإسنـاد ، لا إلى وصف ما يقع في الكلام موصوفاً بصفة ، كما إذا حكيت عن إنسان أنه قال : زيدٌ بنُ عمرٍو سَيِّدٌ ، ثم كذبتَه فيه ؛ لم يكن تكذيبُك أن يكون زيدٌ ابنَ عمرٍو ، لكن أن يكون زيدٌ سيداً ، فلو كان التقديرُ ما ذُكِر لكان الإنكارُ راجعاً إلى أنه معبودُهم ، وفيه تقديرُ أن عزيراً بنُ الله – تعالى اللهُ عن ذلك –

---

(١) بعض الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) بعض الآية ٣٠ من سورة التوبة .

فالقولُ في الآية بمعنى الذِّكْرِ ؛ لأن الغرض الدلالةُ على أن اليهودَ قد بلغوا في الرسوخ في الجهل والشِّرْكِ إلى أنهم كانوا يذكرون عُزَيْراً هذا الذِّكْرَ ، كما تقول في قوم تريد أن تصفهم بالغُلُوِّ في أمر صاحبهم وتعظيمه . إني أراهم قد اعتقدوا أمراً عظيماً ؛ فهم يقولون أبداً : زيدٌ الأميرُ ، تريد أنه كذلك يكون ذكرُهم له إذا ذكروه .

واعلم أن لحذف التنوين من عُزَيْرٍ في الآية وجهين :

أحدهما : أن يكون لِمنْعِهِ من الصَّرْفِ لعُجْمَته وتعريفِه ، كعازَرَ .

والثاني : أن يكون لالتقاء الساكنين ، كقراءة من قرأ : « قُلْ هُوَ اللهُ أحَدُ اللهُ الصَّمَدُ » (١) بحذف التنوين من « أحد » وكما حُكي عن عَمَارَةَ بنِ عَقِيلٍ أنه قرأ : « وَلاَ اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارَ » (٢) بحذفِ التنوين من « سابق » ونصبِ « النهار » فقيل له : وما تريد ؟ فقال : سابقٌ النهارَ .

فالمعنى على هذين الوجهين كالمعنى على إثبات التنوين ؛ فـ « عزير » مبتدأ و « ابن الله » خبرُه ، و « قال » على أصله ، والله أعلم .

تقديم المفعول ونحوه

٧٧ — وأما تقديم مفعولِه ونحوِه عليه فلِرَدِّ الخطأ في التعيين ، كقولك : « زيداً عرفتُ » لمن اعتقد أنك عرفتَ إنساناً وأنه غيرُ زيد ، وأصاب في الأول دون الثاني ، وتقول لتأكيده وتقريره : « زيداً عرفتُ لا غيرَه » ولذلك لا يصح أن يقال : « ما زيداً ضربتُ ولا أحداً من الناس » لتناقُضِ دلالتَي الأول والثاني ، ولا أن تُعْقِبَ

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الإخلاص .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة يس .

الفعلَ المنفيَّ بإثباتِ ضدِّهِ ، كقولك : « ما زيداً ضربت ولكن أكرمته » لأن مبنى الكلام ليس على أن الخطأ في الضرب ، فترده إلى الصواب في الإكرام ، وإنما هو على الخطأ في المضروب حينَ اعتقد أنه زيدٌ ، فردُّه إلى الصواب أن تقول : « ولكنْ عمراً » .

وأما نحوُ قولك : « زيداً عرفتُه » فأن قُدِّرَ المُفَسِّرُ المحذوفُ قبل المنصوبِ أي : عرفتُ زيداً عرفتُه ؛ فهو من باب التوكيد ، أعني تكرير اللفظِ ، وإن قُدِّرَ بعدَه ، أي : زيداً عرفتُ عرفتُه ؛ أفاد التخصيصَ .

وأما نحوُ قولِه تعالى « أمّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ » (١) فيمن قرأ بالنصب فلا يفيد إلا التخصيصَ ؛ لامتناع تقدير : أمّا فهدينا ثمود .

وكذلك إذا قلت : « بزيدٍ مررتُ » أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورَك بغيرِ زيدٍ ، فأزلتَ عنه الخطأ مخصِّصاً مرورَك بزيدٍ دون غيره .

التخصيص لازم للتقديم غالباً

٧٨ ــ والتخصيصُ في غالب الأمر لازمٌ للتقديم ، ولذلك يُقال في قوله تعالى : « إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ » (٢) : معناه نخصُّك بالعبادة ، لا نعبد غيرَك ونخصُّك بالاستعانة ، لا نستعين غيرك .

وفي قوله تعالى : « إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُونَ » (٣) معناه : إن كنتم تخصونه بالعبادة .

وفي قوله تعالى : «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ وَيَكُونَ الرسولُ عَلَيكُمْ شَهِيداً» (٤) أخِّرَتْ صِلَةُ الشهادة في الأول ، وقُدِّمَتْ في

---

(١) بعض الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٥ من سورة الفاتحة .
(٣) بعض الآية ١٧٢ من سورة البقرة .
(٤) بعض الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

الثاني ؛ لأن الغرضَ في الأول إثبـــات شهادتهم على الأمم ، وفي الثاني اختصاصُهم بكون الرسول شهيداً عليهم .

وفي قوله تعالى: «لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ » (١) معناه: إليه لا إلى غيره .

وفي قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولا » (٢) معناه : لجميع الناس من العرب والعجم — على أن التعريف للاستغراق — لا لبعضهم المُعَيَّنِ — على أنه للعهد — أي للعرب ، ولا لمُسَمَّى الناس — على أنه للجنس — لئلاً يلزمَ من الأول اختصاصُه بالعرب دونَ العجم ؛ لانحصار الناس في الصِّنْفَيْن ، ومن الثاني اختصاصُه بالإنس دونَ الجنِّ ؛ لانحصار من يُتَصَوَّرُ الإرسالُ إليهم من أهل الأرض فيهما وعلى تقدير الاستغراق لا يلزم شيءٌ من ذلك ؛ لأن التقديم لما كان مُفيداً لثبوت الحكم للمُقدَّم ، ونَفْيَهُ عما يُقابله ؛ كان تقديمُ « للناس » على « رسولا » مفيداً لِنَفْي كَوْنِه رسولا لبعضهم خاصةً ؛ لأنه هو المقابل لجميع الناس ، لا لبعضهم مطلقاً ، ولا غيرِ جنس الناس .

وكذلك يُذْهَبُ في معنى قولهتعالى: «وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»(٣) إلى أنه تعريضٌ بأن الآخرةَ التي عليها أهلُ الكتاب — فيما يقولون : إنه لا يدخل الجنّةَ إلا من كان هُوداً أو نصارى ، وإنه لا تمسُّهُم النارُ فيها إلا أيّاماً معدودات ، وإن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسيم والأرواح العَبِقَةِ والسماعِ اللذيذ — ليست بالآخرة ، وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرةُ عندَ الله في شيء ، أي : بالآخرة يُوقِنون ، لا بغيرها كأهل الكتاب .

---

(١) بعض الآية ١٥٨ من سورة آل عمران .

(٢) بعض الآية ٧٩ من سورة النساء .

(٣) بعض الآية ٤ من سورة البقرة .

التقديم يفيد مع التخصيص الاهتمام

٧٩ – ويفيد التقديم في جميع ذلك وراء التخصيص اهتماماً بشأن المقدَّم ، ولهذا قُدِّر المحذوفُ في قوله : « بِسْمِ اللهِ » (١) مؤخَّراً وأُورِدَ قولُه تعالى : « اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ » (٢) فإن الفعل فيه مقدَّم ، وأجيب بأن تقديم الفعل هناك أهمُّ ، لأنها أولُ سورةٍ نزلت ، وأجاب السكاكيُّ بأن « باسم ربك » مُتَعَلِّقٌ بـ « اقرأ » الثاني ، ومعنى الأول : افعل القراءةَ وأوجدها ، على نحو ما تقدم في قولهم « فلانٌ يُعْطِي ويمنع » يعني إذا لم يُحْمَلْ على العموم ، وهو بعيد .

تقديم بعض معمولات الفعل على بعض

٨٠ – وأما تقديم بعضِ مَعْمولاته على بعض ، فهو إما لأن أصلَه التقديمُ ولا مُقْتَضِيَ للعدول عنه ، كتقديم الفاعل على المفعول ، نحو : « ضرب زيد عمراً » وتقديم المفعول الأول على الثاني ، نحو « أعطيت زيداً درهماً » .

وإما لأن ذكرَه أهمُّ ، والعناية به أتم ، فيُقدَّم المفعولُ على الفاعل إذا كان الغرضُ معرفةَ وقوعِ الفعلِ على مَنْ وَقَعَ عليه ، لا وقوعِه مِمَّنْ وَقَعَ منه ، كما إذا خرج رجلٌ على السلطان ، وعاث في البلاد ، وكثر منه الأذى ، فقُتِلَ ، وأردتَ أن تُخْبِرَ بقتله ، فتقول : « قَتَلَ الخارجِيَّ فلانٌ » بتقديم « الخارجي » ؛ إذ ليس الناس فائدةٌ في أن يعرفوا قاتلَه ، وإنما الذي يريدون علمَه ؛ هو وقوعُ القتل به ، ليخلُصوا من شرِّه .

تقديم الفاعل على المفعول

٨١ – ويُقدَّم الفاعلُ على المفعول إذا كان الغرضُ معرفة وقوع الفعل مِمَّن وقع منه لا وُقوعِه على مَنْ وَقَع عليه ، كما إذا كان رجلٌ ليس له بأسٌ ، ولا يُقَدَّرُ فيه أنْ يَقْتُلَ ، فَقَتَلَ رجلا ، وأردت

(١) بعض الآية ١ من سورة الفاتحة .
(٢) بعض الآية ١ من سورة العلق .

أن تخبر بذلك ، فتقول « قتل فلانٌ رجلا » بتقديم القاتل ؛ لأنَّ الذي يَعْني الناسَ مِن شأن هذا القتل نُدُورُه وبعده من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً ولا بعيداً من حيث كان واقعاً على مَنْ وقع عليه ، بل من حيث كان واقعاً مِمَّن وقع منه .

وعليه قولُه تعالى : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ »(١) وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ، نحنُ نَرزُقُهم وإياكمْ » (٢) قدَّم المخاطبين في الأولى دون الثانية ؛ لأن الخطاب في الأولى للفقراء ؛ بدليل قوله تعالى : « مِنْ إملاق » فكان رزقُهم أهمَّ عندَهم من رزق أولادهم ؛ فقُدِّم الوعدُ برِزْقهم على الوعد برِزْقِ أولادهم ، والخطاب في الثانية للأغنياء ؛ بدليل قوله : « خَشْيَةَ إمْلاقٍ » فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رِزْقُ أولادِهم هو المطلوب دون رِزْقهم ؛ لأنه حاصل ؛ فكان أهم ؛ فقُدِّم الوعد برِزْق أولادهم على الوعد برِزْقِهِم .

وإما لأن في التأخير إخلالاً ببيان المعنى ، كقوله تعالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَــهُ » (٣) فإنه لو أخَّرَ « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » عن « يَكْتُمُ إيمانَهُ » لَتُوُهِّمَ أن « مِنْ » متعلقَةٌ بـ « يَكْتُمُ » فلم يُفْهَم أن الرجل من آل فِرْعَوْنَ .

أو بالتناسب (٤) ، كرعاية الفاصلة ، نحو « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » (٥) .

وإما لاعتبار آخرَ مناسبٍ

---

(١) بعض الآية ١٥١ من سورة الأنعام . الإملاق : الافتقار .

(٢) بعض الآية ٣١ من سورة الإسراء .

(٣) بعض الآية ٢٨ من سورة غافر .

(٤) متعلق بكلمة « إخلالا » الواقعة اسماً لأن في الفقرة السابقة .

(٥) الآية ٦٧ من سورة طه . أوجس : أحس .

قسم السكاكي التقديم للعناية قسمين

٨٢ – وقسم السكاكي التقديمَ للعناية – مطلقة – قسمين :

أحدهما : أن يكون أصلُ ما قُدِّم في الكلام هو التقديم ولا مُقْتَضى للعدول عنه ، كالمبتدأ المعرَّف ؛ فإن أصلَه التقديمُ على الخبر ، نحو « زَيْدٌ عارفٌ » وكذي الحال المُعَرَّف ، فإن أصلَه التقديمُ على الحال ، نحو « جاء زَيدٌ راكباً » وكالعامل فإن أصلَه التقديمُ على معموله ، نحو « عرف زيدٌ عمراً ، وكانَ زيدٌ عارفا ، وإن زيداً عارفٌ » وكالفاعل ، فإن أصلَه التقديمُ على المفعولات وما يشبهها من من الحال والتمييز ، نحو « ضرَب زيدٌ الجانيَ بالسوط ، يومَ الجمعة ، أمامَ بَكر ضرباً شديداً ، تأديباً له . مُمْتَلِئاً من الغضب » . «وامتلأ الإناء ماءً » وكالذي يكون في حكم المبتدأ من مفعولَيْ باب « عَلِمْتُ » (١) نحو « علمت زيداً مُنْطلقاً » أو في حكم الفاعل من مفعولَيْ باب « أعطَيْتُ » و «كَسَوْتُ » (٢) نحو « أعطيتُ زيداً دِرْهماً ، وكَسَوْتُ عمراً جُبَّةً » وكالمفعول المتعدَّى إليه بغير واسطة فإن أصله التقديم على المتعدَّى إليه بواسطة ، نحو « ضربتُ الجانيَ بالسَّوط » وكالتوابع ، فإن أصلها أن تُذكَر بعد المتبوعات .

وثانيهما : أن تكون العنايةُ بتقديمه ، والاعتناءُ بشأنه ؛ لكونه في نفسه نُصْبَ عينِك ، والتفاتُ خاطرِك إليه في التزايُد ، كما تَجِدُك قد مُنِيتَ بهَجْرِ حبيبك ، وقيل لك : ما تتمنى ؟ تقول : وجه الحبيب أتمنى ، وعليه قولُه تعالى : « وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكاءَ » (٣) أي على القول بأن « لله شركاء » مفعولاَ « جعلوا »

أو لعارض يُورِثه ذلك ، كما إذا توهَّمتَ أن مُخاطَبَك مُلْتَفِت

---

(١) يدخل في باب « علمت » كل فعل ينصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر .
(٢) يدخل في بابهما كل فعل ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر .
(٣) بعض الآية ١٠٠ من سورة الأنعام .

الخاطرِ إليه ، ينتظر أن تذكره ، فيبرز في مَعْرِض أمرٍ يتجدَّدُ في شأنه التقاضي ساعةً فساعةً ، فمتى تَجِــدْ له مجالا للذكر صالحاً أوردْتَهُ ، نحو قوله تعالى : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى » (١) قُدِّم فيه المجرورُ لاشتمال ما قبله على سوء مُعَامَلَةِ أهل القريةِ الرسُلَ من إصرارهم على تكذيبهم ، فكان مَظِنَّةَ أن يلعن السامعُ — على مَجْرَى العادةِ — تلك القريــةَ ، ويبقى مجيلاً في فكره : أكانت كلُّها كذلك أم كان فيها قُطْرٌ — دانٍ أم قاصٍ — منبت خير؟ منتظراً لإلمام الحديث به ، بخلاف ما في سُورة القَصَص .

أو كما إذا وُعِدْتَ ما تُبْعِدُ وُقوعَه من جهتين ، إحداهما أدخلُ في تبعيده من الأخرى ، فإنك — حالَ التفاتِ خاطرِك إلى وقوعِهِ باعتبارهما — تَجِدُ تفاوُتاً في إنكارِك إيّاه قوةً وضعفاً بالنسبة ؛ ولامتناع إنكاره بدون القصد إليه يَسْتَتْبِــعُ تفاوتُه ذلك تفاوتاً في القصد إليه والاعتناء بذكره ، فالبلاغة توجب أنك — إذا أنكرت — تقول في الأول : شيءٌ حاله في البعد عن الوقوع هذه ؛ أنى يكون ؟ ! لقد وُعِدْتُ هذا أنا وأبي وجَدِّي ، فتُقدِّم المُنْكَرَ على المرفوع (٢)، وفي الثاني (٣): لقد وُعِدْتُ أنا وأبي وجدي هذا ، فتؤخِّر .

---

(١) بعض الآية ٢٠ من سورة يس .

(٢) المنكر اسم مفعول من الإنكار ، والمنكر المقدم في الجملة السابقة هو اسم الإشارة « هذا » وهو منصوب مفعولاً ثانياً لـ « وعد » المبني للمجهول ، والمشار إليه باسم الاشارة ؛ هو الشيء الذي وعد به المتحدث مع وجود ما يبعد وقوعه ، فيكون بذلك منكراً ، أما المرفوع فيقصد به الضمير الذي هو « أنا » المؤكد لنائب الفاعل والمسوغ للعطف عليه .

(٣) متعلق الجار والمجرور هو الفعل « تقول » في قوله : فالبلاغة توجب أنك إذا أنكرت تقول ... إلخ .

وعليه قولُه تعالى في سورة النمل : « لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا » (١) . وقوله تعالى في سورة المؤمنين : « لَقَدْ وعِدْنا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا » (٢) فإن ما قبلَ الأولى : « أإذا كُنَّا تُرَاباً وآباؤُنا أئِنّا لَمُخْرَجُونَ ؟ » (٣) وما قبل الثانية : « أإذا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وعِظَاماً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » (٤) فالجهةُ المنظورُ فيها هُناكَ كَوْنُهم أنفُسَهِم وآباؤهم تُراباً ، والجهــةُ المنظورُ فيهــا هنا كونهُمْ تراباً وعِظاماً ، ولا شبهة أن الأولى أدخلُ عندَهم في تبعيد البعث .

أو كما إذا عرفتَ في التأخير مانعاً ، كما في قوله تعالى في سورة المؤمنين : « وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأتْرَفْنَاهُمْ » (٥) بتقديم المجرور على الوصف ؛ لأنه لو أخرَّ عنه — وأنت تعلم أن تمام الوصف بتمام ما يدخل في صلة الموصول ، وتمامُه : « وأترفناهم في الحياة الدنيا » (٦) — لاحتمل أن يكون من صلة « الدنيا » واشتبه الأمرُ في القائلين ؛ أنهم من قومه أم لا ، بخلاف قوله تعالى في موضع آخر منها : فَقَالَ المَلأُ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » (٧) فإنه جاء على الأصل لعدم المانع ، وكما في في قوله تعالى في سورة طه : « آمَنّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسى » (٨)

---

(١) بعض الآية ٦٨ من سورة النمل .

(٢) بعض الآية ٨٣ من سورة المؤمنون .

(٣) بعض الآية ٦٧ من سورة النمل .

(٤) بعض الآية ٨٢ من سورة المؤمنون .

(٥) بعض الآية ٢٣ من سورة المؤمنون ، الملأ : الأشراف ، أترفناهم : نعمناهم

(٦) بعض الآية ٣٣ من سورة المؤمنون .

(٧) بعض الآية ٢٤ من سورة المؤمنون : أو الآية ٢٧ من سورة هود .

(٨) بعض الآية ٧ من سورة طه .

للمحافظة على الفاصلة ، بخلاف قوله تعالى في سورة الشّعَراء : « رَبّ مُوسى وهَرُونَ »(١) .

وفيما ذكره نَظَرٌ من وجوه :

أحدها : أنه جعل تقديم « لله » على « شركاء » للعناية والاهتمام ، وليس كذلك ؛ فإن الآيةَ مسوقةٌ للإنكار التوبيخيّ ؛ فيمتنع أن يكون تعلق « جعلوا » بـ « الله » منكراً من غير اعتبار تعلقه بـ « شركاء » إذ لا يُنْكَرُ أن يكون جعلٌ مَا مُتَعلِّقاً به ، فيتعين أن يكون إنكار تَعَلقه به باعتبار تَعَلُّقِهِ بـ « شركاء » وتَعَلُّقُهُ بـ « شركاء » كذلك مُنْكَرٌ باعتبار تَعَلُّقِهِ بـ « الله » فلم يبق فرقٌ بين التلاوة وعكسها .

وقد عُلِمَ بهذا أن كل فعل مُتَعَدٍّ إلى مفعولين ، لم يكن الاعتناءُ بذكر أحدهما إلا باعتبار تعلُّقه بالآخر ؛ إذا قُدِّم أحدُهما على الآخر ؛ لم يَصِحّ تعليلُ تقديمه بالعناية .

وثانيها : أنه جعل التقديمَ للاحتراز عن الإخلال ببيان المعنى والتقديمَ للرعاية على الفاصلة من القسم الثاني ، وليسا منه .

وثالثها : أن تعلّقَ « من قومه » بـ « الدنيا » على تقدير تأخره غيرُ معقول المعنى إلا على وجهٍ بعيد .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الشعراء .

القول في القصر

انواع القصر

٨٣ – القَصْرُ حَقيقيٌّ وغيرُ حقيقيٍّ ، وكل واحد منهما ضربان : قصر الموصوف على الصِّفَة ، وقصر الصفة على الموصوف ، والمراد الصفة المعنويّةُ لا النعت .

والأول من الحقيقي كقولك : « ما زيدٌ إلا كاتبٌ » إذا أردتَ أنه لا يتصف بصفة غيرِ الكتابة ، وهذا لا يكاد يوجد في الكلام ؛ لأنه ما مِنْ مُتَصَوَّرٍ إلا وتكون له صفات تتعذَّر الإحاطة بها أو تتعسّر .

والثاني منه كثيرٌ ، كقولنا : « ما في الدار إلا زيدٌ » .

والفرق بينهما ظاهر ، فإن الموصوف في الأول لا يمتنع أن يشاركه غيره في الصفة المذكورة ، وفي الثاني يمتنع .

وقد يُقْصَد به المبالغةُ ؛ لعدم الاعتداد بغير المذكور ، فيُنَزَّل منزلةَ المعدوم .

أقسام القصر غير الحقيقي

والأوّلُ من غير الحقيقي : تخصيصُ أمر بصفة دونَ أُخرى ، أو مكانَ أخرى .

والثاني منه : تخصيصُ صفة بأمر دونَ آخرَ أو مكانَ آخر ، فكل واحد منهما ضربان .

حال المخاطب

٨٤ – والمخاطب بالأول من ضَرْبي كُلٍّ – أعني تخصيصَ أمرٍ بصفة دونَ أخرى ، وتخصيص صفة بأمر دون آخر – مَنْ يعتقد الشركة ، أي اتّصافَ ذلكَ الأمرِ بتلك الصفة وغيرِها جميعاً في الأوّل ، واتصافَ ذلكَ الأمرِ وغيرِه جميعاً بتلك الصفة في الثاني .

فالمخاطب بقولنا : « ما زيدٌ إلا كاتب » مَنْ يعتقد أن زيداً كاتبٌ وشاعرٌ ، وبقولنا : « ما شاعرٌ إلا زيد » مَنْ يعتقد أن زيداً شاعرٌ ، لَكِنْ يَدَّعي أن عمراً أيضاً شاعرٌ ، وهذا يُسمّى قصرَ إفراد ؛ لقطعه الشركة بين الصِّفتين في الثبوت للموصوف ، أو بين الموصوف وغيره في الاتّصاف بالصِّفة .

والمخَاطَب بالثاني من ضَرْبَي كُلٍّ – أعني تخصيصَ أمْرٍ بصفةٍ مكانَ أخرى وتخصيصَ صِفَةٍ بأمْرٍ مكانَ آخَرَ – إمّا من يعتقد العكْسَ ، أي اتّصافَ ذلكَ الأمرِ بغير تلك الصفةِ عِوَضاً عنها في الأول ، واتصافَ غيرِ ذلك الأمرِ بتلك الصفة عوضاً عنه في الثاني ، وهذا يُسَمّى قصرَ قَلْبٍ ؛ لقلبه حكمَ السامع :

وإمّا مَنْ تَسَاوَى الأمران عندَه ، أي اتّصافُ ذلك الأمرِ بتلك الصفةِ واتّصافُه بغيرها في الأول ، واتّصافُهُ بها واتّصافُ غيرِه بها في الثاني ، وهذا يُسمّى قصرَ تعيين .

فالمخَاطَب بقولنا : « ما زيدٌ إلا قائمٌ » من يعتقد أن زيداً قاعدٌ لا قائمٌ ، أو يعلم أنه إما قاعدٌ أو قائمٌ ولا يعلم أنه بماذا يتصف منهما بعينه ؟ وبقولنا : « ما قائمٌ إلا زيدٌ » من يعتقد أن عَمْراً قائمٌ لا زيداً ، أو يعلم أن القائمَ أحدُهما دونَ كلٍّ واحد منهما ، لكِن لا يعلم من هو منهما بعينه ؟

شرط قصر الموصوف على الصفة افرادا

٨٥ – وشرط قصر الموصوف على الصفة إفراداً عدمُ تنافي الصفتين ؛ حتى تكون المنفية في قولنا : « ما زيد إلا شاعر » كونَهُ كاتباً ، أو مُنَجِّماً ، أو نحوَ ذلك ، لا كَونَهُ مُفْحَماً لا يقول الشعر ؛ ليُتَصَوَّرَ اعتقادُ المخاطب اجتماعَهما .

شرط قصره قلبا

وشرطُ قَصْرِه قَلْباً تَحقّقُ تنافيهما ؛ حتّى تكونَ المنفية في قولنا : « ما زيد إلا قائم » كَونَهُ قاعداً ، أو جالساً ، أو نحوَ ذلك ، لا كَونَهُ أسْوَدَ ، أو أبْيَضَ ، أو نحو ذلك ؛ ليكون إثباتُها مُشْعِراً بانتفاء غيرها .

وقصر التعيين أعمُّ ؛ لأن اعتقاد كون الشيء موصوفاً بأحد أمرين معينين على الإطلاق ؛ لا يقتضي جوازَ اتّصافِه بهما معاً ، ولا امتناعِه .

هل هناك شرط في قصر التعيين ؟

وبهذا عُلِم أن كل ما يصلح أن يكون مثالا لقصرِ الإفرادِ ، أو قصرِ القلبِ يصلح أن يكون مثالاً لقصر التعيين ، من غير عكس .

وقد أهملَ السّكاكيُّ القصرَ الحقيقيَّ ، وأدخل قصر التعيين في قصر الإفراد ؛ فلم يشترط في قصر الموصوف إفراداً عدمَ تنافِي الصِّفتَينِ ، ولا في قصرِه قَلْباً تحقُّقَ تنافيهما .

طرق القصر

٨٦ — وللقصر طُرُقٌ :

منها : العطف ، كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً : « زيدٌ شاعرٌ لا كاتبٌ » أو « ما زيدٌ كاتباً بل شاعرٌ » وقلباً : « زيدٌ قائمٌ لا قاعدٌ » أو « ما زيد قاعداً بل قائم » وفي قصر الصفة على الموصوف إفراداً أو قلباً بحسب المقام : « زيد قائم لا عَمْرو » أو « ما عمروٌ قائماً بل زيد » .

ومنها : النفيُ والاستثناء ، كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً « ما زيد إلا شاعر » وقلباً : « ما زيد إلا قائم » وتعييناً كقوله تعالى «وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْء ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ » (١) أي لستم في دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدّعي إذا ادّعَى ، بل أنتم عندنا كاذبون فيها ، وفي قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارين : « ما قائم — أو ما من قائم ، أو لا قائم — إلا زيد » .

تحقيق وجه القصر

وتحقيقُ وجهِ القصر في الأول أنه متى قيل : « ما زيدٌ » ، تَوجّه النفيُ إلى صفته لا ذاته ؛ لأن أنفس الذوات يمتنع نفيها ، وإنما تُنْفَى

---

(١) بعض الآية ١٥ من سورة يس .

صفاتُها كما بُيِّنَ ذلك في غير هذا العلم ، وحيث لا نزاع في طوله وقصره وما شاكل ذلك ، وإنما النزاع في كونه شاعراً أو كاتباً ؛ تناولهما النفي ، فإذا قيل : « إلا شاعرٌ » جاء القصرُ .

وفي الثاني أنه متى قيل : « ما شاعرٌ » فأُدْخِلَ النفيُ على الوصف المُسَلَّم ثُبوتُه — أعني الشِّعْرَ — لغيرِ مَن الكلامُ فيهما ، كزَيْدٍ وعَمْرٍو مَثَلاً ؛ تَوَجَّه النفيُ إليهما ، فإذا قيل : « إلا زيدٌ » جاء القصر .

ومنها : « إنما » كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً ؛ « إنما زيدٌ كاتبٌ » وقلباً « إنما زيدٌ قائمٌ » وفي قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارين : « إنما قائمٌ زيدٌ » .

دليل إفادة « إنما » القصر

والدليلُ على أنها تفيد القصر كَوْنُها مُتضمِّنَةً معنى « ما » و « إلاَّ » .

لقول المفسرين في قوله تعالى : « إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ » (١) بالنصب : معناه « ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتة » وهو المطابق لقراءة الرفع ؛ لما مَرَّ في باب « المنطلق زيد » .

ولقول النحاة : « إنَّما » لإثبات ما يُذْكَر بعدها ونفي ما سواه .

ولصحة انفصال الضمير معها ، كقولك : « إنما يَضْرِبُ أنا » كما تقول : « ما يضرب إلا أنا » .

قال الفَرَزْدَقُ :

١١٨ — أنا الذَّائِدُ الحَامي الذِّمَارَ ، وإنَّما
يُدافِعُ عن أَحْسابهم أنا أَوْ مِثْلي (٢)

---

(١) بعض الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

(٢) الذائد : الحامي المدافع ، الذمار : كل ما يجب عليك حمايته وحفظه ، الحسب : الشرف ، وما تعده من مفاخر الآباء .

وقال عَمْرُو بْنُ مَعْدِ يكرِبَ :

١١٩ – قد عَلِمَتْ سَلْمَى وجاراتُها
ما قَطَّرَ الفارسَ إلا أنا (١)

قال السكاكي : ويُذْكر لذلك وجهٌ لطيفٌ يسند إلى عَليٍّ بْن عِيسى الرَّبَعِيِّ (٢) ، وهو أنه لما كانت كلمة « إنَّ » لتأكيد إثباتَ المُسْنَد للمُسْنَد إليه ، ثم اتصلت بها « ما » المؤكِّدَةُ – لا النافية كما يظنُّه مَنْ لا وقوفَ له على علم النحو – ناسب أن يُضَمَّنَ معنى القصر ؛ لأنَّ القصرَ ليس إلاَّ تأكيداً على تأكيد ؛ فإن قولك : « زيدٌ جاء لا عَمْرٌ » – لمن يُرَدِّدُ المَجيءَ الواقع بينهما – يفيد إثباتَه لزيد في الابتداء صريحاً ، وفي الآخر ضِمْناً .

ومنها : التقديمُ ، كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً « شاعرٌ هُوَ » لمن يعتقده شاعراً وكاتباً ، وقلباً « قائمٌ هُوَ » لمن يعتقده قاعداً ، وفي قصر الصفة على الموصوف إفراداً « أنا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ » – بمعنى وحدي – لمن يعتقد أنك وغيرَك كَفَيْتُمَا مُهِمَّه ، وقلباً : « أنا كَفَيْتُ مُهِمَّك » – بمعنى لا غيري – لمن يعتقد أن غيرَك كَفَى مهمَّه دونَك ، كما تقدم .

فروق بين هذه الطرق

٨٧ – وهذه الطرق تختلف من وجوه :

الأول : أن دلالة الثلاثة الأولى بالوضع دون الرابع .

الثاني : أن الأصل في الأوَّل أن يدل على المُثْبَتِ والمَنْفِيِّ جميعاً بالنص ؛ فلا يُتْرَكُ ذلك إلا كراهة الإطنابِ في مقام الاختصار ، كما

---

(١) قطره من باب قتل : صرعه صرعة شديدة ، وقطره بالتضعيف : ألقاه على قطره ، أي جانبه .

(٢) تلمذ للسيرافي والفارسي ، وهو من أئمة النحو ، لولا جنون فيه كان لا يمكن تلاميذه من تمام الإفادة بعلمه .

إذا قيل : « زيد يعلم النحوَ ، والتصريف ، والعروضَ ، والقوافي » أو « زيد يعلم النحوَ ، وعمرٌو ، وبكرٌ ، وخالدٌ » فتقول فيهما « زيد يعلم النحو لا غير » وفي معناه « ليس إلا » أي لا غيرَ النحو ، ولا غيرَ زيدٍ ، وأما الثلاثة الباقية فتدل بالنص على المثبت دونَ المنفِيِّ .

الثالث : أن النفي لا يُجامِع الثاني ؛ لأن شرط المنفي بـ « لا » أن لا يكون منفِيّاً قبلها بغيرها ، ويجامع الآخرين ؛ فيقال : « إنما زيد كاتب لا شاعر » و « هو يأتيني لا عمرٌو » ولأن النفي فيهما غيرُ مُصَرَّحٍ به ، كما يقال : « امتنع زيدٌ عن المجيء لا عمرٌو » .

قال السكاكي : شرط مُجَامَعَتِه للثالث (١) أن لا يكون الوصف مختصاً بالموصوف كقوله تعالى : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ » (٢) فإن كل عاقل يعلم أن الاستجابة لا تكون إلا ممن يسمع ، وكذا قولهم : « إنما يُعَجِّلُ مَنْ يَخْشَى الفَوْتَ » .

قال الشيخ عبد القاهر : لا تحسُن مجامعته له في المختص كما تحسن في غير المختص ، وهذا أقرب .

قيل : ومجامعته له إما مع التقديم ، كقوله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » (٣) ، وإما مع التأخير كقولك : « ما جاءني زيدٌ وإنما جاءني عمرٌو » وفي كون نحو هذين مما نحن فيه نظر .

الرابع : أن أصل الثاني أن يكون ما استُعْمِل له مما يجهله المخاطَب وينكره ، كقولك لصاحبٍ وقد رأيتَ شَبَحاً من بعيد : « ما هو إلا

---

(١) أي شرط مجامعة النفي بلا العاطفة للطريق الثالث من طرق القصر ، وهو ما كان بإنما .

(٢) بعض الآية ٣٦ من سورة الأنعام .

(٣) بعض الآية ٢١ من سورة الغاشية ، والآية ٢٢

زيد » إذا وَجَدْتَهُ يعتقدُهُ غيرَ زيد ، ويصر على الإنكار ، وعليه قوله تعالى : « ومَا مِنْ إله إلاَّ الله » (١) .

تنزيل المعلوم منزلة المجهول

وقد يُنَزَّلُ المعلومُ منزلةَ المجهولِ لاعتبار مناسِب ؛ فيُسْتَعْمَل له الثاني .

إفراداً نحو «وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُل » (٢) أي أنه صلى الله عليه وسلم مَقصورٌ على الرسالة لا يتعدَّاها إلى التبرِّي من الهلاك ، نُزِّلَ استعظامُهم هلاكَه منزلةَ إنكارهم إياه ، ونحوُه « وَمَا أنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ إن أنتَ إلاَّ نَذِيرٌ »(٣) فإنه صلى الله عليه وسلم كان لشدة حرصه على هداية الناس ؛ يكرِّر دعوةَ الممتنعين عن الإيمان ، ولا يرجع عنها ، فكان في مَعْرِض مَنْ ظنَّ أنه يملك مع صفة الإنذار إيجادَ الشيْء فيما يمتنع قبوله إيَّاه .

أو قلباً : كقوله تعالى حكايةً عن بعض الكفار : « إن أَنتُم إلاَّ بشر مِثْلُنا » (٤) أي أنتم بشر لا رسل ، نزَّلوا المخاطبين منزلة من ينكِر أنه بشر ؛ لاعتقاد القائلين أن الرسول لا يكون بشراً مع إصرار المخاطبين على دعوى الرسالة وأما قوله تعالى حكاية عن الرسل : « إنْ نَحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » (٥) فمن مُجاراة الخصم للتبكيت والإلزام والإفحام ؛ فإن من عادة من ادَّعَى عليه خصمُه الخلافَ في أمرٍ هو لا يخالف فيه ؛ أن يُعيد كلامَه على وجهه ، كما إذا قال لك مَنْ يُناظِرُك: « أنت مِن شأنِك كَيْتَ وكَيْتَ » فتقول : « نعم أنا من شأني كيت وكيت ، ولكن لا يلزمني من أجل ذلك ما ظننت أنه يلزم » فالرسل عليهم السلام

---

(١) بعض الآية ٦٢ من سورة آل عمران .

(٢) بعض الآية ١٤٤ من سورة آل عمران .

(٣) بعض الآية ٢٢ وكل الآية ٢٣ من سورة فاطر .

(٤) بعض الآية ١٠ من سورة إبراهيم .

(٥) بعض الآية ١١ من سورة إبراهيم .

كأنهم قالوا : ان ما قلتم من أنّا بشر مثلكم هو كما قلتم لا ننكره ، ولكنّ ذلك لا يمنع أن يكون الله تعالى قد مَنّ علينا بالرسالة .

وأصل الثالث أن يكون ما استُعْمِل له مما يعلمُه المخاطَب ولا ينكره ، على عكس الثاني ، كقولك : « إنما هو أخوك » و « إنما هو صاحِبُك القديمُ » لمَنْ يعلم ذلك ويقرُّ بهِ ، وتريد أن تُرقِّقه عليه ، وتُنبِّهه لما يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب ، وعليه قولُ أبي الطَّيِّبِ :

١٢٠ ــ إنما أنتَ والدٌ ، والأبُ القاطعُ أحْنَى مِن واصِلِ الأولاد(١)

لم يُرِدْ أن يُعْلِم كافُوراً أنه بمنزلة الوالد، ولا ذاك مما يحتاج كافورٌ فيه إلى الإعلام . ولكنه أراد أن يُذكِّره منه بالأمر المعلوم ؛ ليبني عليه استدعاء ما يوجِبه .

تنزيل المجهول منزلة المعلوم

وقد يُنَزَّلُ المجهول منزلةَ المعلوم؛لادعاءالمتكلم ظهورَه ؛ فيُستَعْمَلُ له الثالثُ ، نحو « إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » (٢) ادَّعَوْا أن كَوْنَهم مصلحين ظاهرٌ جَلِيٌّ ،ولذلك جاء: « أَلاَ إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ »(٣) للرد عليهم مُؤكَّداً بما ترى : من جعلِ الجملة اسميةً ، وتعريفِ الخبر باللام ، وتَوْسيط الفصل ، والتصدير بحرف التنبيه ، ثم بـ « إنّ » ومثلُه قولُ الشاعر :

---

(١) أحنى : أعطف وأرحم وأشد حنواً ، والبيت من قصيدة مدح بها المتنبي كافوراً ويذكر فيها الصلح بينه وبين مولاه ابن الأخشيد .

(٢) بعض الآية ١١ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٢ من سورة البقرة .

١٢١- إنّما مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تجلّتْ عن وجهه الظّلماء(١)

ادّعى ان كون مُصْعَبٍ كما ذَكَرَ جَلِيٌّ معلوم لكل أحد، على عادة الشعراء إذا مدحوا أنّ يدّعوا في كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاءَ، وأنهم قد شُهِروا به حتى إنه لا يدفعه أحد، كما قال الآخر:

١٢٢- وتَعْذِلُني أفْناءُ سَعْدٍ عليْهِمُ
وما قلتُ إلاّ بالّتي علمتْ سعدُ (٢)

وكما قال البُحْتُرِيُّ:

١٢٣- لا أدّعي لأبي العَلاءِ فَضيلةً
حتّى يُسلّمَها إليه عِداهُ(٣)

مزية طريق إنما على طريق العطف

واعلم أن لطريق «انما» مَزِيَّةً على طريق العطف، وهي أنه يُعْقَل منها إثباتُ الفعل لشيء ونفيُه عن غيره دَفْعَةً واحدةً، بخلاف العطف، وإذا استقرَيْتَ وجدْتَها أحسنَ ما تكون موقعاً إذا كان الغرضُ بها التعريضَ بأمرٍ هو مُقْتَضَى معنى الكلام بعدها، كما في قوله تعالى: «إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبَابِ» (٤) فإنه تعريض بذمّ الكفار، وأنهم من فَرْطِ العناد وغَلَبَةِ الهوى عليهم في حكم مَنْ ليس

---

(١) مصعب: هو ابن الزبير، وأخو عبد الله، وهما صحابيان، قامت لهما دولة مناوئة للأمويين فترة في مكة. الشهاب: الكواكب الدري، أو الشعلة من نار ساطعة، أو ما يرى كأنه منقض من الكوكب، أو الماضي في الأمر. تجلت: انكشفت وانجلت، والبيت لعبد الله بن قيس الرقيات أحد الشعراء المتصلين بابن الزبير أيام دولته.

(٢) سعد: قبيلة. أفناء: جماعات، مفردها فنء بزنة رهط. والشاعر الحطيئة

(٣) أبو العلاء في البيت: هو السروي ممدوح البحتري وأحد وجوه عصره وليس المعري الشاعر؛ فإنه متأخر على البحتري.

(٤) بعض الآية ١٩ من سورة الرعد.

بذي عقل ، فأنتم في طمعكم منهم أن ينظروا ويتذكروا ، كَمَنْ طَمِع في ذلك من غير أولي الألباب، وكذا قولُه تعالى : « إنَّما أنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا » (١) وقولُه تعالى : « إنَّما تُنْذِرُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » (٢) المعنى على أنَّ مَنْ لم تَكُنْ له هذه الخشية فكأنه ليس له أُذُنٌ ، تسمع ، وقلبٌ يعقِل ، فالإنذار معه كَلاَ إنذار .

قال الشيخ عبد القاهر : ومثال ذلك من الشعر قوله :

١٢٤ ـ أنا لم أُرْزَقْ مَحَبَّتَها إنَّما للعبد ما رزِقا(٣)

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مَطْمَعَ له في وصلها ، فيئس من أن يكون منها إسعاف به ، وقولُه :

١٢٥ ـ * وإنما يعذر العشاقَ مَنْ عَشِقَا *(٤)

يقول : ينبغي للعاشقِ أن لا ينكرِ لَوْمَ من يلومه ؛ فإنه لا يعلم كُنْهَ بَلْوَى العاشق ، ولو كان قد ابتلِيَ بالعشق مثلَه لعرف ما هو فيه ؛ فعذره ، وقولُه :

١٢٦ ـ ما أنتَ بالسبَّبِ الضعيفِ ، وإنما
نُجْحُ الأمورِ بقُوَّةِ الأسباب(٥)
فاليومَ حاجَتُنَا إليك ، وإنما
يُدْعَى الطبيبُ لساعة الأوصاب

---

(١) الآية ٤٥ من سورة النازعات .
(٢) بعض الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٣) قائله العباس بن الأحنف الشاعر العباسي الملقب بصريع الغواني .
(٤) ينسب للعباس ، وليس في ديوانه .
(٥) السبب : ما تتوصل به إلى غايتك ، الأوصاب : الأمراض والأوجاع الدائمة، واحدها وصب . وينسب البيتان لأحمد بن أبي دؤاد ، وللباخرزي ، ولمحمد بن أحمد بن سليمان .

يقول في البيت الأول : إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتُك السببَ إليه ، وفي الثاني : إنّا قد طلبنا الأمر من جهته حينَ استَعَنَّا بك فيما عرَض لنا من الحاجة ، وعوّلنا على فضلك ، كما أن مَنْ عوّل على الطبيب فيما يعرض له من السقم ؛ كان قد أصاب في فعله .

٨٨ — ثم القصر كما يقع بين المبتدأ والخبر كما ذكرنا يقع بين الفعل والفاعل وغيرهما ؛ ففي طريق النفي والاستثناء يُؤَخَّر المقصور عليه مع حرف الاستثناء، كقولك في قصر الفاعل على المفعول إفراداً أو قلباً بحسب المقام: «ما ضرب زيدٌ إلا عمراً» وعلى الثاني لا الأول قولُه تعالى: «مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاّ ما أَمَرْتَنِي به أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»(١) لأنه ليس المعنى « إني لم أزد على ما أمرتني به شيئاً » إذ ليس الكلام في أنه زاد شيئاً على ذلك أو نقص منه ، ولكن المعنى « إني لم أترك ما أمرتني به أن أقوله لهم إلى خلافه » لأنه قال في مقام اشتمل على معنى « إنك يا عيسى تركتَ ما أمرتُك أنْ تقوله إلى ما لم آمرك أن تقوله ؛ فإني أمرتُك أن تدعُوَ الناس إلى أن يعبدوني ، ثم إنك دعوتهم إلى أن يعبدوا غيري ». بدليل قوله تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ » (٢) .

قصر الفاعل على المفعول

وفي قصر المفعول على الفاعل : « ما ضرب عمراً إلا زيد » وفي قصر المفعول الأول على الثاني في نحو « كسوت » و « ظننت » : « ما كسوتُ زيداً إلا جُبَّةً ، وما ظننتُ زيداً إلا مُنْطَلِقاً » وفي قصر الثاني على الأول : « ما كسوتُ جُبَّةً إلا زيداً ، وما ظننتُ مُنْطَلِقاً إلا زيداً » وفي قصر ذي الحال على الحال « ما جاءَ زيدٌ إلا راكباً » وفي قصر الحال على ذي الحال « ما جاء راكباً إلا زيدٌ » .

قصر المفعول على الفاعل

---

(١) بعض الآية ١١٧ من سورة المائدة .

(٢) بعض الآية ١١٦ من سورة المائدة .

والوجهُ في جميع ذلك أن النفْيَ في الكلام الناقص ــ أعني الاستثناء المفَرَّغ ــ يتوجّه إلى مقدَّر هو مُسْتثنىً منه عامٌ مناسبٌ لِلْمُسْتَثْنَى في جنسه وصفته .

أما تَوَجُّهُه إلى مقدَّر هو مُستثنىً منه فَلِكَونِ « إلاَّ » للاخراج ، واستدعاء الإخراج مُخْرَجاً منه .

وأما عمومه فَلِيَتَحَقَّقَ الإخراج منه ، ولذلك قيل : تأنيث المضمر في « كانت » عــلى قراءة أبي جَعْفَر المَــدني : « إن كانَتْ إلاَّ صَيْحَةٌ » (١) بالرفع وفي « تُرَى » مَبْنِياً للمفعول في قراءة الحَسَنِ : « فأصْبَحُوا لا تُرَى إلاَّ مَساكِنُهُمْ » (٢) برفع « مساكنهم » وفي « بَقِيَتْ » في بيت ذي الرُّمَّةِ :

١٢٧ ــ ٭ فما بَقِيَتْ إلاَّ الضُّلوعُ الجَرَاشِــعُ ٭ (٣)

للنظر إلى ظاهر اللفظ ، والأصل التذكير ؛ لاقتضاء المقام معنى شيء من الأشياء .

وأما مناسبته في جنسه وصفته فظاهرة ؛ لأن المراد بجنسه أن يكون في نحو: « ما ضرب زيدٌ إلاَّ عَمْراً » « أحداً » وفي نحو قولنا: «ما كسوتُ زيداً إلا جُبَّة » « لباساً » وفي نحو « ما جاء زيد إلا راكباً »

---

(١) بعض الآية ٢٩ من سورة يس .

(٢) بعض الآية ٢٥ من سورة الأحقاف .

(٣) صدره ٭ طوى النحز والأجراز ما في غروضها ٭

طوى : أخفى ، النحز : النخس ، الأجراز : جمع جرز ــ بضمتين ، وبفتحتين ، وبفتح فسكون ــ وهي الأرض التي لا تنبت ، أو التي أكل نبتها ، والفاعل سبي ، والغروض : جمع غرضة بفتح فسكون ، وهي للرحل كالحزام للسرج ، ويقال لها : التصدير ، والجراشع : جمع جرشع كقنفذ ، وهو هنا الضخم .

« كائناً على حال من الأحوال » وفي نحو « ما اخترتُ رَفيقاً إلا منكم » « من جماعة من الجماعات » ومنه قولُ السَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ :

١٢٨ – لَـوْ خُيِّـرَ المِنْبَـرُ فُرْسانَـه
ما اخْتـارَ إلاّ مِنكُـمُ فارِسا(١)

لما سيأتي إن شاء الله تعالى أن أصله « ما اختار فارساً إلا منكم » .

والمراد بصفته كونُه فاعلا أو مفعولاً ، أو ذا حالٍ ، أو حالاً ، وعلى هذا القياس .

إذا كان النفيُ مُتَوَجِّهاً إلى ما وصفناه فإذا أُوجبَ منه شيءٌ جاء القصر ،

ويجوز تقديم المقصور عليه مع حرف الاستثناء بحالهما على المقصور ، كقولك « ما ضرب إلاّ عَمْراً زيدٌ ، وما ضرب إلاّ زيدٌ عمراً ، وما كسوتُ إلاّ جُبَّةً زيداً ، وما ظننتُ إلاّ زيداً منطلقاً ، وما جاء إلاّ راكباً زيدٌ ، وما جاء إلا زيدٌ راكباً » .

وقولنا : « بحالهما » احتراز من إزالة حرف الاستثناء عن مكانه بتأخيره عن المقصور عليه ، كقولك في الأول « ما ضرب عمراً إلا زيدٌ » فإنه يَخْتَلُّ المعنى ؛ فالضابط أن الاختصاص إنما يقع في الذي يلي « إلا »

ولكنَّ استعمالَ هذا النوع – أعني تقديمها – قليلٌ ؛ لاستلزامه قَصْرَ الصفةِ قبلَ تمامِها ، كالضرب الصادر من زيدٍ في « ما ضربَ زيدٌ إلا عمراً » والضربِ الواقع على عمرو في « ما ضَربَ عَمْراً إلا زيدٌ » .

---

(١) البيت من جملة أبيات قالها الشاعر للسفاح وقد خطب يوماً خطبة فأحسن ، والسيد الحميري هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة ، كان يتشيع ويهجو الأمويين . توفي سنة ١٧٣ هـ.

وقيل ؛ إذا أخّر المقصورُ عليه والمقصورُ عن « إلا » وقُدِّم المرفوع ، كقولنا « ما ضرب إلا عمروٌ زيداً » فهو على كلامين ، و « زيداً » منصوبٌ بفعل مُضْمَرٍ ، فكأنه قيل : « ما ضرب إلا عمروٌ » أي ما وقع ضرب إلا منه ، ثم قيل : «مَنْ ضَرَبَ ؟ » فقيل : « زيداً » أي ضرب زيداً .

وفيه نظر ؛ لاقتضائه الحصرَ في الفاعل والمفعول جميعاً .

المقصور عليه في إنما

وأما في « إنما » فيُؤَخّر المقصور عليه ، تقول : « إنما زيد قائم » و « إنما ضرب زيد » و « إنما ضرب زيدٌ عَمْراً » و « إنما ضرب زيد عمراً يوم الجمعة » و « إنما ضرب زيدٌ عمراً يومَ الجمعةِ في السُّوقِ » أي :ما زيدٌ إلا قائم ، وما ضربَ إلا زيدٌ ، وما ضرب زيدٌ إلا عمراً، وما ضرب زيـــدٌ عمراً إلا يومَ الجمعة ، وما ضرب زيدٌ عمراً يوم الجمعة إلا في السُّوق ، فالواقع أخيراً هو المقصور عليه أبداً ؛ ولذلك تقول : « إنّما هذا لك ، وإنّما لك هذا » أي : ما هذا إلاّ لك ، وما لك إلاّ هذا ، حتّى إذا أردتَ الجمعَ بين «إنما» والعطفِ فقُل « إنّما هذا لك ، لا لغيرك » و « إنّما لك هذا ، لا ذاك » و « إنّما أخذ زيدٌ ، لا عمرٌو » و « إنما زيدٌ يأخذ ، لا يُعطي » ومن هذا تعثر على الفرق بين قوله تعالى « إنّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ » (١) وقولنا : « إنما يخشى العلماءُ مِنْ عبادِ الله الله » فإن الأول يقتضي قصرَ خشيةِ الله على العلماء ، والثاني يقتضي قصرَ خشيةِ العلماء على الله .

حكم « غير » حكم « إلا »

٨٩ — واعلم أن حكم « غَيْر » حكم « إلاّ » في إفادة القصرين — أي قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف — وفي امتناع مجامعة « لا » العاطفة ، تقول في قصر الموصوف إفراداً : « ما زيدٌ غَيْرَ شاعرٍ » وقلباً : « ما زيدٌ غير قائم » وفي قصر الصفة بالاعتبارين بحسب المقام « لا شاعرَ غيرُ زيدٍ » ولا تقول « ما زيد غير شاعر لا كاتب » ولا « لا شاعر غير زيد لا عمرو » .

---

(١) بعض الآية ٢٨ من سورة فاطر .

القول في الإنشاء

أقسام الانشاء

٩٠ ــ الإنشاء ضربان طلبٌ ، وغيرُ طلب .

والطلبُ يستدعي مطلوباً غيرَ حاصل وقتَ الطلب ؛ لامتناع تحصيل الحاصل ، وهو المقصود بالنظر ههنا .

أنواع الإنشاء الطلبي التمني

٩١ ــ وأنواعه كثيرة ، منها التَمَنِّي ، واللفظ الموضوع له «لَيْتَ» ولا يُشْتَرَطُ في التمني الإمكان ، تقول : ليتَ زيداً يَجِيءُ ، وليتَ الشَّبابَ يعود ، قال الشاعر :

١٢٩ ــ • يا لَيتَ أيامَ الصِّبا رَوَاجِعا •(١)

وقد يُتَمَنَّى بـ « هَلْ » كقول القائل : « هلْ لي مِن شَفِيع ؟ » في مكانٍ يعلم أنه لا شَفيعَ له فيه ؛ لإبراز المُتَمَنَّى ــ لكمال العناية به ــ في صورة الممكِن ، وعليه قوله حكايةً عن الكفار : « فَهلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فيَشْفَعُوا لَنَا ؟ » (٢)

وقد يُتَمَنَّى بـ « لَوْ » كقولك : « لو تأتيني فتُحدِّثَني » بالنصب . قال السَّكاكي : وكأن حروف التَّنْديم والتَّحضِيض ــ وهي :

(١) الشاعر العجاج ، و « رواجع » يعربها الفراء وبعض أصحابه خبر « ليت» لأنها قد تنصب اسمها وخبرها جميعاً عندهم ، ويعتبرها غيرهم دليل الخبر معمولة له على الحالية ، والتقدير : يعدن رواجع ، أو ما أشبهه .

(٢) بعض الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

« هَلاَّ » و « أَلاَّ » بقلب الهاء همزةً و « لَوْلا » و « لَوْما » ــ مأخوذةٌ منهما مركبتين مع « لا » و « ما » المزيدتين ؛ لتضمينهما معنى التمني ؛ ليتولَّد منه في الماضي التنديمُ نحو « هَلاَّ أكرمتَ زيداً » وفي المضارع التحضيضُ ، نحو « هلاَّ تقومُ » .

• قد يُتَمَنَّى بـ « لَعَلَّ » فتُعطيَ حكم « ليت » نحو « لعلي أَحُجُّ فأزورَكَ » بالنصب ، لبعد المرجُوِّ عن الحصول ، وعليه قراءةُ عاصِمٍ في رواية حَفْصٍ : « لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فأَطَّلِعَ إلى اله مُوسَى » (١) بالنصب .

الاستفهام

٩٢ ــ ومنها الاستفهامُ ، والألفاظ الموضوعة له : الهمزة ، و «هل» و «ما» ، و «مَنْ» ، و «أيّ» و «كَمْ» ، و « كيْفَ» ، و «أيْنَ» ، و « أنَّى» ، و «متى» ، و «أيَّانَ».

الهمزة

فالهمزة لطلب التصديق ، كقولك : « أقامَ زيدٌ ؟ » و « أزيدٌ قائمٌ » أو التصورِّ ، كقولك : « أدِبْسٌ في الإنا أمْ عَسَلٌ ؟ » و « أفي الخابيةِ دِبْسُكَ أمْ في الزِّقِّ » (٢) ولهذا لم يقبح « أزيدٌ قائم ؟ » و « أعَمْراً عَرَفْتَ ؟ » .

والمسئول عنه بها هو ما يليها ؛ فتقول : « أضربتَ زيْداً ؟ » إذا كان الشَّكُّ في الفعلِ نفسهِ ، وأردتَ بالاستفهام أن تعلمَ وجودَه ، وتقول : « أأنتَ ضربتَ زيْداً ؟ » إذا كان الشكُّ في الفاعل : مَنْ هُوَ ؟ وتقول : « أزيداً ضربتَ ؟ » إذا كان الشكُّ في المفعول : مَنْ هو ؟

---

(١) بعض الآية ٣٦ وبعض الآية ٣٧ من سورة غافر .

(٢) الخابية والخابئة : الجرة الضخمة ، والدبس ، بالكسر : عسل النحل ، أو عسل التمر ونحوه ، والزق : وعاء من جلد يحمل فيه الماء ونحوه من السوائل .

و « هَلْ » لطلب التصديق فَحَسْبُ ، كقولك : « هل قام زيدٌ ؟ » و « هل عمرٌو قاعدٌ ؟ » وهذا امتنع : « هلْ زيدٌ قامَ أمْ عمرٌو؟ » وقُبحَ : هلْ زيداً ضربتَ » ؟ لما سبقَ أنَّ التقديمَ يَستدعِي حُصولَ التصديق بنفس الفعل ، والشكَّ فيما قُدِّمَ عليه ، ولم يقبُحِ : « هل زيداً ضربتَه ؟ » لجواز تقدير المحذوفِ المفسِّرِ مُقَدَّماً كما مَرَّ . هل

وجعل السكاكيُّ قبحَ نحو « هلْ رجلٌ عَرَفَ ؟ » لذلك ، أي لما قبُح له « هل زيداً ضربتَ ؟ » ويلزمه أنْ لا يقبُحَ نحوُ « هل زيدٌ عرفَ ؟ » لامتناع تقدير التقديم والتأخير فيه عِنْدَهُ على ما سبق .

وعَلَّلَ غيرُه القبحَ فيهما بأن أصلَ « هَلْ » أن تكونُ بمعنى « قَدْ » إلاَّ أنهم تركوا الهمزةَ قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام .

و « هل » تُخصِّص المضارعَ بالاستقبال ، فلا يَصِحُّ أن يقال : « هل تَضْربُ زيداً وهو أخوك » كما تقول : « أتضربُ زيداً وهو أخوك ؟ » ولهذين — أعني اختصاصَها بالتصديق ، وتخصيصَها المضارعَ بالاستقبال — كان لها مزيدُ اختصاصٍ بما كونُه زمانياً أظهر ، كالفعل.

أمَّا الثاني فظاهرٌ ، وأما الأول فلأن الفعللا يكون الا صفةً والتصديقُ حُكْمٌ بالثبوت أو الانتفاء ، والنفيُ والإثباتُ إنما يتوجَّهان إلى الصفات لا الذَّوات ؛ ولهذا كان قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ »(١) أدلُّ على طلب الشكْرِ من قولنا : « فهل تشكرون ؟ » وقولنا : « فهل انتم تشكرون ؟» لأن ابراز ماسيتجدَّد في مَعْرض الثابت أدلُّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله ، وكذا من قولنا : « أفأنتم شاكرون؟» وإن كانت صيغتُه للثبوت ؛ لأن « هل » أدْعَى للفعل من الهمزة ، فتركهُ معه أدلُّ على كمال العناية بحصوله ، ولهذا لا يحسُن « هل زيدٌ منطلقٌ ؟ » إلا من البليغ .

---

(١) بعض الآية ٨٠ من سورة الأنبياء .

وهي قسمان : بَسيطةٌ وهي التي يُطلَبُ بها وجودُ الشيء ، كقولنا : « هل الحركةُ موجودةٌ ؟ » ومُرَكَّبَةٌ وهي التي يُطْلَب بها وجودُ شيء لشيء ، كقولنا : « هل الحركةُ دائمةٌ ؟ » .

الألفاظ الباقية

والألفاظُ الباقيةُ لطلب التصور فَقَطْ . . .

ما

أما « ما » فقيل يُطْلَب به إما شرح الاسم ، كقولنا : « ما العَنْقاء؟ » وإما ماهيَّةُ المُسَمَّى ، كقولنا « ما الحركة ؟ » والقسمُ الأول يتقدم على قِسْمَيْ « هل » جميعاً ، والثاني يتقدم على « هل » المركبة دونَ البَسيطةِ ؛ فالبسيطة في الترتيب واقعة بين قسمي « ما » .

وقال السكاكي : يُسأل بـ « ما » عن الجنس ، تقول : « ما عِنْدَكَ » أيْ : أيُّ أجناس الاشياء عندك ؟ وجوابه : إنسانٌ ، أو فرسٌ ، أو كتابٌ ، أو نحوُ ذلك ، وكذلك تقول : « ما الكلمة ؟ وما الكلام ؟ » وفي التنزيل : « فما خَطْبُكُم ؟ » (١) أي أيُّ أجناسِ الخُطوب خطبُكم وفيه : «ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي » (٢) أيْ : أيُّ مَنْ في الوجودِ تؤثرونه للعبادة ؟

أو عن الوصف ، تقول « ما زيدٌ ؟ وما عَمْرٌو ؟ » وجوابه : الكريمُ ، أو الفاضلُ ، ونحوُهما .

وسؤالُ فِرْعَونَ : « وما رَبُّ العَالَمينَ ؟ » (٣) إما عن الجنس ؛ لاعتقاده ــ لجهله بالله تعالى ــ أنْ لا موجود مُستَقِلاً بنفسه سِوَى الأجسام ، كأنه قال : أيُّ أجناسِ الأجسامِ هُوَ ؟ ، وعلى هذا جوابُ موسى عليه السلام بالوصف ؛للتنبيه على النظر المؤدِّي إلى معرفته ، لكنْ لَمَّا لم يطابقْ السؤالَ عندَ فِرْعَوْنَ ؛ عَجَّبَ الجَهَلَةَ الذين حوله

---

(١) بعض الآية ٥٧ من سورة الحجر ، أو الآية ٣١ من سورة الذاريات .

(٢) بعض الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ٢٣ من سورة الشعراء .

من قول موسى بقوله لهم: « أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ؟» (١) ثم لما وجده مُصِراً على الجواب بالوصف إذْ قال في المرَّة الثانية : « رَبُّكُمُ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ » (٢) ؛ استهزأ به وجَنَّنه ، بقوله « إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » (٣) وحين رآهم موسى عليه السلامُ لم يَفْطَنوا لذلك في المرَّتَين غلَّظ عليهم في الثالثة بقوله « إنْ كُنْتُمْ تعْقِلُونَ » (٤) . وإما عن الوصف طَمَعاً في أنْ يَسْلُكَ موسى عليه السلام في الجواب معه مَسْلَكَ الحاضِرين لو كانوا هم المسئولين مكانَه ؛ لشُهرته بينَهم بربِّ العالَمين ، إلى درجة دَعَتِ السَّحَرَةَ إذْ عرفوا الحقَّ أن أعقبوا قولهم « آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ »(٥) قولهم « رَبِّ مُوسى وهَرُونَ » (٦) نَفْياً لاتِّهامِهِم أنْ عَنَوْهُ ، جَهْلِهِ (٧) بحال موسى إذ لم يكن جَمَعهما قبل ذلك مَجْلِسٌ ، بدليل (أنه) قال : « أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبِينٍ ؟ قَالَ : فَأْتِ بِهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٨) فحين سَمِعَ الجوابَ تعدَّاه تعجَّبَ واستهزأ ، وجنَّنَ ، وتَفَيْهَقَ بما تفيهق من قوله : « لئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْرِي لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِين » (٩) .

---

(١) بعض الآية ٢٥ من سورة الشعراء .
(٢) بعض الآية ٢٦ من سورة الشعراء .
(٣) بعض الآية ٢٧ من سورة الشعراء .
(٤) بعض الآية ٢٨ من سورة الشعراء .
(٥) بعض الآية ٤٧ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الشعراء .
(٧) معطوف كلمة شهرته المجرورة بلام التعليل في قوله « لشهرته بينهم رب العالمين »
(٨) الآيتان ٣٠ – ٣١ من سورة الشعراء .
(٩) بعض الآية ٢٩ من سورة الشعراء .

من وأمّا « مَنْ » فقال السكّاكي : هو للسؤال عن الجنس من ذوي العلم ، تقول : مَنْ جبريلُ ؟ بمعنى : أبَشَرٌ هو أمْ مَلَكٌ أمْ جِنّي وكذا : مَنْ إبليسُ ؟ ومَنْ فُلانٌ ؟ ومنه قوله تعالى حكايةً عن فِرعَوْنَ : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يا مُوسَى ؟ » (١) أيْ : أمَلَكٌ هُوَ أمْ بَشَرٌ أمْ جِنّيٌّ ؟ مُنْكِراً لأن يكون لهما ربٌّ سواه ؛ لادّعائه الرُّبُوبِيَّةَ لنفسه ، ذاهباً في سؤاله هذا إلى معنى : ألَكُمَا ربٌّ سوايَ؟ فأجاب موسى عليه السلام بقوله : « رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » (٢) كأنه قال : نَعَمْ لنا ربٌّ سواكَ ، هو الصانع الذي إذا سلكتَ الطريقَ الذي بَيَّنَ بإيجاده لِما أوْجَدَ ، وتقديرِه إيّاه على ما قَدَّرَ ، واتَّبَعْتَ فيه الخِرِّيتَ الماهِرَ ، وهو العقلُ الهادي عن الضلال ؛ لَزِمَكَ الاعترافُ بكَوْنه رَبّاً ، وأنْ لا ربَّ سواهُ ، وأن العبادة له مِنّي ومِنْكَ ومنَ الخلقِ أجْمَعَ حقٌّ لا مَدْفَعَ له .

وقيل : هو للسؤال عن العارض المُشَخِّصِ لذي العلم ، وهذا أظهر ؛ لأنه إذا قيل : مَنْ فُلانٌ ؟ يُجاب بـ « زيدٌ » ونحوه مما يفيد التشخيص ، ولا نُسَلِّم صحّةَ الجواب بنحو «بَشَرٌ » أو« جِنّيٌّ » كما زعم السكّاكيُّ .

أي وأما « أيّ » فللسؤال عمّا يميز أحَدَ المُتَشارِكَيْنِ في أمْرٍ يعمُّهما ، يقول القائل : عندي ثيابٌ ، فتقول : أيُّ الثياب هِيَ ؟ فتطلب منه وصفاً يميزها عندك عما يشاركها في الثوبِيَّة ، وفي التنزيل « أيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ؟ » (٣) أي : أنحنُ أم أصحابُ مُحَمَّدٍ عليه السلام ؟

(١) بعض الآية ٤٩ من سورة طه .
(٢) بعض الآية ٥٠ من سورة طه .
(٣) بعض الآية ٧٣ من سورة مريم .

وفيه : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ؟ » (١) أي : الإنْسيُّ أم الجني ؟.

كم وأما « كَمْ » فللسؤال عن العدد ، وإذا قلت : كم دِرْهماً لك ؟ وكم رجلاً رأيتَ ؟ فكأنك قلت : أعشرون أم ثلاثون أم كذا وتقول : كم درهمك وكم مالُك ؟ أي : كم دانِقاً ؟ أو كم ديناراً ؟ وكم ثوبُك ؟ أي : كم شِبْراً ؟ أو كم ذِراعاً ؟ وكم زيدٌ ماكثٌ ؟ أي : كَم يوماً ؟ أو كم شهراً ؟ وكم رأيتُك ؟ أي : كم مَرَّةً ؟ وكم سِرْتَ ؛ أي : كم فرسخاً ؟ أو كم يوماً ؟ قال الله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » (٢) أي يوماً ، أو كم ساعةً ؟ وقال : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ » (٣) وقال : « سَلْ بَنِي إِسْرَائِيل : كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ » (٤) ومنه قول الفَرَزْدَقِ :

١٣٠ – كَمْ عَمَّةً لَكَ يا جَرِيرُ وخالةً
فَدْعاءَ قَدْ حلَبَتْ عَلَيَّ عِشارِي ؟(٥)

فيمَنْ رَوَى بالنصب ، وعلى رِواية الرفع تَحتمِل الاستفهاميَّةَ والخبريَّةَ .

كيف وأما « كَيْفَ » فللسؤال عن الحال ، إذا قيل : كَيْفَ زيدٌ ؟ فجوابه : صَحِيحٌ أو سَقِيمٌ ، أو مَشْغُولٌ ، أو فارِغٌ ، ونحوُ ذلك .

---

(١) بعض الآية ٣٨ من سورة النمل .
(٢) بعض الآية ١٩ من سورة الكهف .
(٣) الآية ١١٢ من سورة المؤمنون .
(٤) بعض الآية ٢١١ من سورة البقرة .
(٥) فدعاء : معوجة اليدين من العمل . العشار : جمع عشراء ، كنفساء وزنا ومعنى .

أين — وأما « أينَ » فللسؤال عن المكانَ ، إذا قيل : أينَ زيدٌ ؟ فجوابه : في الدار ، أو في المسجد أو في السوق ، ونحوُ ذلك .

أنى — وأما « أنّى » فتُستَعمَلُ تارةً بمعنى « كيف » قال الله تعالى : « فَأتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئتُمْ » (١) أي : كيفَ شئتم ، وأخرى بمعنى « مِنْ أينَ » قال الله تعالى : « أنَّى لَكِ هَذَا ؟ » (٢) أي : مِن أينَ لكِ ؟ .

متى وأيان — وأما « متَى » و « أيَّانَ » فللسؤال عن الزمان ، إذا قيل : متى جئتَ ؟ أو : أيَّانَ جئتَ ؟ قيل : يومَ الجمعةِ ، أو يومَ الخميس ، أو شهرَ كذا ، أو سنةَ كذا ، وعن عليٍّ بن عيسَى الرَّبَعِيِّ : أن « أيَّانَ » تُستَعمَلُ في مواضع التفخيم كقوله تعالى : « يَسْألُ أيَّانَ يومُ القيامة » (٣) « يَسْألُونَ أيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ » (٤) .

استعمال هذه الالفاظ في معان غير الاستفهام — ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تُستَعمَلُ في معانٍ غير الاستفهام بحَسَبَ ما يُناسب المقَامَ .

منها الاستبطاء ، نحو : كَمْ دعوتُك ؟ وعليه قولهُ تعالى : « حتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ » (٥) .

ومنها التعجُّبُ ، نحو قوله : « مَالِيَ لا أرَى الهُدْهُدَ » (٦) .

ومنها التنبيهُ على الضلال ، نحو : « فَأيْنَ تَذْهَبُونَ » (٧) .

---

(١) بعض الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٣٧ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٦ من سورة القيامة .
(٤) الآية ١٢ من سورة الذاريات .
(٥) بعض الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٦) بعض الآية ٢٠ من سورة النمل .
(٧) الآية ٢٦ من سورة التكوير .

ومنها الوعيدُ ، كقولك لِمَنْ يُسِيءُ الأدبَ : أَلَمْ أُؤَدِّبْ فُلاَناً؟ إذا كان عالماً بذلك ، وعليه قولُه تعالى : « أَلَمْ نُهْلِكِ الأوَّلِينَ ؟»(١).

ومنها الأمرُ ، نحو قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » (٢) ونحو : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » (٣) .

للتقرير

ومنها التقريرُ ، ويُشْتَرَطُ في الهمزة أنْ يَلِيَهَا المُقَرَّرُ بِهِ ، كقولك : أفعلتَ ؟ إذا أردتَ أن تُقَرِّرَهُ بأنَّ الفعل كان منه ، وكقولك أأنتَ فعلتَ ؟ إذا أردتَ أن تقرِّرَه بأنه الفاعل .

وذهب الشيخ عبدُ القاهر والسكّاكِيُّ وغيرُهما إلى أن قوله : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بآلِهَتِنَا يَا إبْرَهِيمُ ؟ » (٤) من هذا الضرب ، قال الشيخ : لَمْ يقولوا ذلك له — عليه السلام — وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأن كسرَ الأصنام قد كان ، ولَكِنْ أن يُقِرَّ بأنه منه كان ، وكيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا » (٤) وقال عليه السلام : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » (٥) ولو كان التقرير بالفعل في قولهم : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ » لكان الجواب : « فعلتُ ، أو لم أفعل » .

وفيه نظرٌ ؛ لجواز أن تكون الهمزة فيه على أصلها ؛ إذ ليس في السِّياق ما يَدُلُّ على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلامُ — هو الذي كَسَرَ الأصنام .

وكقولك : « أزيداً ضربتَ » إذا أردت أن تقرِّرَه بأنَّ مَضْروبَه زيدٌ .

---

(١) الآية ١٦ من سورة المرسلات .

(٢) بعض الآية ١٤ من سورة هود ، أو الآية ١٠٨ من سورة الأنبياء .

(٣) بعض الآية ٤٠ من سورة القمر .

(٤) بعض الآية ٦٢ من سورة الأنبياء .

(٥) بعض الآية ٦٣ من سورة الأنبياء .

وللإنكار ومنها الإنكار : إما للتوبيخ ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ، نحو أعصيت ربك ؟ أو بمعنى لا ينبغي أن يكون ، كقولك للرجل يُضَيِّع الحقَّ : أتنسى قديمَ إحسانِ فلانٍ ؟ وكقولك للرجل يركب الخَطر : أتخرج في هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ؟ والغرضُ بذلك تنبيهُ السامعِ حتى يَرْجِعَ إلى نفسه ، فيخْجَلَ أو يَرْتَدِعَ عن فِعل ما هَمَّ به .

وإما للتكذيب(١) بمعنى «لَمْ يَكُنْ» كقوله تعالى : « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ واتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إناثاً ؟ » (٢) ، وقوله : « أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ » (٣) أو بمعنى « لا يكون » نحو : « أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ » (٤) وعليه قولُ امْرِىءِ القَيْسِ :

١٣١ – أَيقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال ؟ !(٥)

فيمن روى : « أيقتلني ؟ » بالاستفهام ، وقولُ الآخَرِ :

---

(١) عطف على قوله « إما للتوبيخ » في قوله ومنها الإنكار إما للتوبيخ .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الصافات .

(٤) بعض الآية ٢٨ من سورة هود .

(٥) المشرفي : السيف : منسوباً إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب ، ومضاجعي : ملازمي ، عن طريق التجوز ، والمسنونة : المشحوذة المحددة ، والزرق : جمع أزرق وزرقاء ، وتوصف النصال ونحوها بالزرقة إذا اشتد صفاء لونها ، وإنما يشتد صفاؤها لشدة صقلها ، والأغوال : جمع الغول ، ومن معانيه : كل ما يتلون ويتشكل من الجن ، وانظر ص ٢٤٠ الآتية .

١٣٢ ـ أأتْرُكُ إنْ قَلَّتْ دراهِمُ خَالِدٍ
زِيارَتَهُ ؟ ! إنّي إذاً لَلَئيمُ (١)

المنكر كالمقرر به يليان الهمزة

والانكار كالتقرير . يُشْتَرط أن يَلِيَ المُنْكَرُ الهمزةَ ، كقوله تعالى : « أغَيْرَ الله تَدْعُونَ ؟ » (٢) « أغَيْرَ الله أتَّخِذُ وَلِيّاً ؟ »(٣) « أبَشَراً مِناً واحداً نَتبِعُهُ » (٤) وكقوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ منَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » (٥) أي ليسوا هم المُتَخَيِّرِين للنبوة مَنْ يصلُح لها ، المتولِّين لقِسْمَةِ رحمةِ الله التي لا يتولاّها إلاّ هُوَ بباهر قدرته وبالغ حكمته .

وعدَّ الزمخشري قوله « أفأنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (٦) وقوله : « أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أوْ تَهْدِي العُمْيَ » (٧) مِنْ هذا الضرب ، على أن المعنى : أفأنت تقْدر على إكراههم على الإيمان ؟ أو أفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء ؟ أي : إنما يقدرُ على ذلك الله ، لا أنتَ .

---

(١) « إن » يجوز أن تكون همزتها مفتوحة . على أنها المصدرية ، ملاحظاً قبلها لام التعليل ، والمصدر المسبوك منها ومن الفعل بعدها علة لترك المنكر بالهمزة . ويجوز أن تكون مكسورة ، على أنها شرطية ، وجوابها فعل الترك المنكر بالهمزة ، وخالد : هو ابن يزيد بن مزيد الشيباني ، يمدحه عمارة بن عقيل بن جرير الشاعر ويذم تميم بن خزيمة النهشلي ، بقصيدة منها هذا البيت .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة الأنعام .

(٣) بعض الآية ١٤ من سورة الأنعام .

(٤) بعض الآية ٢٤ من سورة القمر

(٥) الآية ٣١ وبعض الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٦) بعض الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٧) بعض الآية ٤٠ من سورة الزخرف .

وَحَمَلَ السكاكي تقديمَ الاسم في هذه الآيات الثلاث على البناء على الابتداء دون تقدير التقديم والتأخير ، كما مَرَّ في نحو : أنا ضربتُ ، فلا يفيد إلا تَقَوِّيَ الإنكار .

ومِنْ مَجِيءِ الهمزة للانكار نحوُ قوله تعالى « أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ » (١) وقولُ جَرِيرٍ :

١٣٣ — أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ ركِبَ المطَايا
وأَنْدَى العالَمينَ بُطُونَ راحِ (٢)

أي : الله كافٍ عبدَه ، وأنتم خيرُ من ركبَ المطايا ؛ لأنَّ نَفْيَ النفي إثباتٌ، وهذا مرادُ مَنْ قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أي للتقرير بما دخله النفي ، لا للتقرير بالانتفاء .

انكار الفعل مختص بصورة أخرى

وإنكارُ الفعل مُخْتَصٌّ بصورة أخرى ، وهي نحوُ قولك : أزيداً ضربتَ أم عَمْراً ؟ لمن يدّعي أنه ضرب إمَّا زيدا وإمّا عمراً ، دون غيرهما ؛ لأنه إذا لم يتعلَّق الفعلُ بأحدهما ، والتقدير أنه لم يتعلق بغيرهما ؛ فقد انتفى من أصله لا مَحَالَةَ .

وعليه قوله تعالى: « قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ؟ » (٣) أخرِج اللفظُ مُخْرَجَه

---

(١) بعض الآية ٣٦ من سورة الزمر .

(٢) المطايا : الركائب ، واحدتها مطية على وزن فعيلة ، وأندى . أكرم ، من الندى ، وهو الكرم ، والراح هنا : الأكف ، واحدتها راحة ، والأكف : جمع كف ، وجرير : ابن عطية بن الخطفي التميمي الشاعر الأموي قريع الفرزدق ومهاجيه ومناقضه في النقائض المشهورة .

(٣) بعض الآية ١٤٣ من سورة الأنعام .

إذ كان قد ثبت تحريمٌ في أحد الأشياء ، ثم أُريدُ معرفةُ عَيْنِ المُحَرَّم ، مع أنّ المراد إنكارُ التحريمُ من أصله .

وكذا قوله : « اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ » إذْ معلومٌ أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذْنٌ فيما قالوه ، من غير أن يكون هذا الإذْنُ قد كان من غير الله ، فأضافوه إلى الله ، إلا أن اللفظ أُخرِج مُخْرَجَه إذا كان الأمرُ كذلك ؛ ليكون أشدّ لنفي ذلك وإبطاله ؛ فإنه إذا نُفِيَ الفعلُ عما جُعِلَ فاعلا له في الكلام ولا فاعلَ له غيره ، لزم نفيُه من أصله .

قال السكاكي رحمه الله : وإياكَ أن يزول عن خاطرك التفصيل الذي سبق في نحو : أنا ضربتُ ، وأنتَ ضربتَ ، وهو ضربَ ؛ من احتمال الابتداء ، واحتمال التقديم ، وتفاوُتِ المعنى في الوجهين ؛ فلا تحمل نحو قوله تعالى : « اللهُ أَذِنَ لكُمْ ؟ » على التقديم ؛ فليس المراد أنّ الإذْنَ يُنكَر من الله دون غيره ، ولكنْ احمله على الابتداء ، مراداً منه تَقْوِيَةُ حُكم الإنكار .

وفيهِ نظر ؛ لأنه إن أراد أن نحو هذا التركيب – أعني ما يكون الاسم الذي يلي الهمزةَ فيه مظهراً – لا يفيد توجُّه الانكار إلى كونه فاعلاً للفعل الذي بعده ، فهوممنوع ، وإن أراد أنه يفيد ذلك إن قُدِّر تقديم وتأخير وإلاّ فلا – على ما ذهب إليه فيما سبق – فهذه الصورة مما مَنَعَ هو ذلك فيه على ما تقدم .

---

(١) بعض الآية ٥٩ من سورة يونس .

(٢) انظر شرح الشاهد ١٣١

لا يقال : قد يلي الهمزة غيرُ المُنكر في غير ما ذكرتم، كما في قوله:

• أيقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجعي ؟! • (١)

فإن معناه أنه ليس بالذي يجيء منه أن يقتل مثلي ؛ بدليل قوله :

١٣٤ — يَغِطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُه
لِيَقْتُلَني ، والمرءُ ليس بقتّال (٢)

لأنا نقول : ليس ذلك معناه ، لأنه قال : والمشرفي مضاجعي ، فذكر ما يكون مَنْعاً من الفعل ، والمنع إنما يُحتاج إليه مع من يُتَصَوَّر صدور الفعل منه دون من يكون في نفسه عاجزاً عنه .

ومنها التهكم ، نحو : « أصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أن نَفْعَلَ في أَمْوالِنَا مَا نَشاءُ » (٣) .

ومنها التحقير ، كقولك : من هذا ؟ وما هذا ؟ .

ومنها التهويل ، كقراءة ابن عبَّاس رضي الله عنهما : « وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ مَنْ فِرْعَوْنَ ؟ »(٤) بلفظ الاستفهام ، لـمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى العذاب بأنه مهينٌ لشدته وفظاعة شأنه ؛ أراد أن يصوِّر كُنْهَهُ ، فقال « مَنْ فِرْعَوْنَ » أي : أتعرفون مَنْ هو في فَرْط عُتُوِّه وتَجَبُّره ؟ ما ظنُّكم بعذاب يكون هو المعذَّب به ؟ ثم عرَّف حالَه بقوله « إنَّه كَانَ عالياً مِنَ المُسْرِفِينَ » (٥) .

ومنها الاستبعاد نحو : « أنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وقَالُوا : مُعَلَّمٌ ، مَجْنُونٌ ؟ »(٦) .

---

(١) انظر شرح الشاهد ٢٢٨

(٢) غط النائم : نخر في نومه ، وغط البعير : هدر في شقشقته ، والبكر : الفتى من الإبل : والخناق : ما يخنق به من حبل ونحوه .

(٣) بعض الآية ٨٧ من سورة هود .

(٤) الآية ٣٠ وبعض الآية ٣١ من سورة الدخان .

(٥) بعض الآية ٣٠ من سورة الدخان .

(٦) الآيتان ١٣ — ١٤ من سورة الدخان .

ومنها التوبيخ والتَّعْجِيبُ جميعاً ، كقوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله ، وكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ . ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليَهِ تُرْجَعُونَ » (١) أي : كيف تكفرون ، والحال أنكم عالمون بهذه القصة ؟ .

أما التوبيخُ ؛ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبيء عن الانهماك في الغفلة أو الجهل .

وأما التعجيب ؛ فلأن هذه الحالَ تأبى ان لا يكون للعاقل علمٌ الصانع وعلمُه به يأبى أن يكفر . وصدورُ الفعل مع الصارف القوي مَظِنة تعجُّبٍ .

ونظيره « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وَأَنْتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ » (٢) .

الأمر وصيغته

٩٣ — ومن أنواع الإنشاء الأمرُ ، والأظهر أن صيغته — من المُقْتَرِنَة باللام نحو : ليحضر زيدٌ ، وغَيْرِها نحو : أكرم عمراً ، ورُوَيْدَ (٣) بَكْراً — مَوْضوعةٌ لطلب الفعل استعلاءً ؛ لتبادرُ الذهن عند سماعها إلى ذلك ، وتوقف ما سواه على القرينة .

قال السكَّاكِيُّ : ولإطباق أئمة اللغة على إضافتها إلى الأمر بقولهم : صيغةُ الأمر ، ومثالُ الأمر ، ولام الأمر ، وفيه نظرٌ لا يخفى على المتأمل .

صيغة الأمر قد تستعمل من غير طلب الفعل

ثم انها — أعني صيغةَ الأمر — قد تُستعمَل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام كالإباحة كقولك في مقام الإذْن : جالس الحَسَنَ أو ابنَ سِيرِينَ .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٤٤ من سورة البقرة .

(٣) رويد : اسم فعل بمعنى أمهل .

ومن أحْسَنِ ما جاء فيه قولُ كُثَيِّرٍ :

١٣٥ ـ أسيئي بنا أو أحْسِني ، لا ملومةٌ
لَدَيْنا ، ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ (١)

أي : لا أنتِ مَلُومَةٌ ولا مَقْلِيَّةٌ .

ووجهُ حسنِه إظهارُ الرِّضا بوقوع الداخل تحت لفظِ الأمر حتى كأنه مطلوبٌ أي : مهما اخْتَرْتِ في حقّي من الاساءة والإحسان ؛ فأنا راضٍ به غايةَ الرِّضا ، فعامليني بهما ، وانظري : هل تتفاوت حالي معك في الحالين ؟ .

والتهديد ، كقولك لعبدٍ شتم مولاه وقد أدَّبه : اشتُم مَوْلاك ، وعليه : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » (٢) .

والتعجيز ، كقولك لمن يدَّعي أمراً تعتقد أنه ليس في وُسْعِه : افْعَلْه ، وعليه « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » (٣) .

والتسخير ، نحو : « كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ » (٤) .

والإهانة ، نحو : « كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً » (٥) وقوله تعالى : « ذُقْ إنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ » (٦) .

---

(١) مقلية : بغيضة مكروهة ، تقلت : تكرهت وتبغضت ، وفي البيت التفات عن طريق الخطاب إلى طريق الغيبة ، حسنه ابتعاد الشاعر عن أن يسند إلى حبيبته في خطابها فعلا يبغضه ويكرهه ، وصاحب البيت هو كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة فصلت .

(٣) بعض الآية ٢٣ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ١٦٦ من سورة الأعراف ، خاسئين : مبعدين مطرودين لا يسمح لكم بالقرب من الناس .

(٥) بعض الآية ٥٠ من سورة الإسراء .

(٦) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

والتسوية ، كقوله : « أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرهاً ، لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ » (١) وقوله « اصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا » (٢) .

والتمنّي ، كقول امرىء القَيْسِ :

١٣٦ — ألا أيُّها الليْلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِي (٣) .

والدعاء ، إذا استُعْمِلَتْ (٤) في طلب الفعل على سبيل التضرُّع ، نحو « رَبِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ » (٥) .

والالتماس ، إذا استُعْمِلَتْ فيه (٦) على سبيل التلطُّف ، كقولك لمن يُساوِيك في الرتبة : « افْعَلْ » (٧) بدون الاستعلاء .

والاحتقار ، نحو : « أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » (٨) .

٩٤ — ثم الأمر قال السكاكي : حقُّه الفورُ ؛ لأنه الظاهرُ من الطلب ، ولتبادُرِ الفهمِ عندَ الأمرِ بشيء بعدَ الأمرِ بخلافه إلى تغييرِ الأمرِ الأوّل دونَ الجمع وإرادةِ التّراخِي ، والحقُّ خلافُه ؛ لما تبيَّن في أصولِ الفِقْه .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٦ من سورة الطور .

(٣) [illegible] • بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل •

انجل : [illegible] أيها الصبح ،وقد يوصل باللام ياء في الرسم فتكون حينئذ ياء إشباع للكسرة أما الياء التي هي لام الفعل فمحذوفة لبناء الأمر كما هو معلوم . الإصباح : طلوع الصبح ، أمثل : أفضل .

(٤) نائب الفاعل عن ضمير يعود على « صيغة » السابقة ؛ أي صيغة الأمر .

(٥) بعض الآية ٢٨ من سورة نوح .

(٦) الضمير المجرور يعود إلى طلب « الفعل » .

(٧) ليس المراد ذات « افعل » وإنما المراد كل ما تصوغه على صيغة الأمر مما تشاء من المواد ثلاثية كانت أو مزيدة .

(٨) بعض الآية ٨٠ من سورة يونس ، أو ٤٣ من سورة الشعراء .

النهي وصيغته

٩٥ ــ ومنها النَّهْيُ ، وله حَرْفٌ واحدٌ ، وهو « لا » الجازمةُ في قولك « لا تَفْعَلْ » (١) وهو كالأمر في الاستعلاء .

وقد يُسْتَعْمَل في غير طلب الكَفّ أو التَّرْك ، كالتهديد ، كقولك لعبدٍ لا يَمتثِل أمْرَكَ · لا تَمتثِل أمري .

٩٦ ــ واعلمْ أن هذه الأربعة ــ أعني التمنّي ، والاستفهامَ ، والأمر والنَّهْيَ ــ تشتركُ في كونها قَرِينَةً دالّةً على تقدير الشَّرْطِ بعدَها ، كقولك : ليت لي مالا أنْفِقْهُ ، أي : إن أرزَقْه ، وقولك : أينَ بيتُكَ أزُرْكَ ، أي : إن تُعرِّفْنيه ، وقولك : أكرِمْني أكْرِمْكَ . أي : إن تُكرِمْني .

قال الله تعالى : « فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثْني » (٢) بالجزم . فأما قراءةُ الرفع فقد حملها الزَمَخْشَرِيُّ على الوصف ، وقال السكاكي الأولَى حملُها على الاستئناف دون الوصف ؛ لهَلاكِ يَحْيَى قبل زَكَرِيّا عليهما السلام ، وأراد بالاستئناف أن يكون جوابَ سؤال مُقدَّرٍ تضمنَّه ما قبله ، فكأنه لما قال : فَهَبْ لي ولياً ، قيل : ما تصنع به ؟ فقال . « يرثني » فلم يكن داخلاً في المطلوب بالدعاء وقولك : لا تَشْتُمْ يَكُنْ خيراً لك ، أي . إنْ لا تشتم .

العرض

وأمّا العَرْضُ ، كقولك لمن تراه لا ينزل ألا تَنْزِلُ تُصِبْ خيراً ، أي : إن تَنْزل ؛ فمُوَلَّدٌ من الاستفهام ، وليس به ؛ لأن التقدير أنه لا ينزل ، فالاستفهام عن عدم النزول طلب للحاصل ، وهو محال .

وتقدير الشرط في غير هذه المواضع لقرينةٍ جائزٌ أيضاً ، كقوله

---

(١) ليس القصد إلى لفظ « تفعل » بذاته ، بل إلى كل فعل مضارع وقع بعد « لا » الناهية أياً كانت مادته . وأياً كانت صيغته .

(٢) بعض الآية ٥ من سورة مريم . الولي . من معانيه من يلي المرء من ذريته ويخلفه

تعالى : « فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ » (١) أي : إن أرادوا وليا بالحق فالله هو الوَلِيُّ بالحق لاوَلِيَّ سواه . وقوله : « ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ ، إذَنْ لَذَهَبَ » (٢) . أي : لو كان معه إلهٌ إذن لذهب .

النداء

٩٧ ـ ومنها النداء . وقد تُستَعمَلُ صيغتهُ في غير معناه ، كالإغراء في قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلومُ ، والاختصاصِ في قولهم : أنا أفعلُ كذا أيّها الرجُل . ونحن نفعلُ كذا أيّها القومُ ، واغْفِرِ اللّهُمَّ لنا أيَّتُها العِصابةُ . أي : مُتَخَصِّصاً من بين الرجال ، ومُتَخَصِّصينَ من بين الأقوام والعصائب .

وقوع الخبر موقع الإنشاء .

٩٨ ـ ثم الخبرُ يَقَعُ موْقِعَ الإنشاء ، إما للتفاؤل ، أو لإظهار الحرص في وقوعه كما مرَّ . والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين ، أو للاحترَاز عن صُورة الأمر . كقَوْل العبدِ للمَوْلَى إذا حوَّل عنه وَجْهَه : ينظر المَوْلَى إليَّ ساعةً ، أو لحمل المخاطَب على المطلوب . بأن يكون المخاطب مِمَّن لا يُحِبُّ أن يُكذِّب الطالبُ . أو لنحو ذلك .

تنبيـــه

٩٩ ـ ما ذكرناه في الأبواب الخمسة السابقة ليس كله مُخْتَصّاً بالخبر ، بل كثيرٌ منه حكمُ الإنشاء فيه حكمُ الخبر ، يظهر ذلك بأدنى تأمُّل ؛ فليعتبره الناظر .

---

(١) بعض الآية ٩ من سورة الشورى . الولي . من معانيه النصير .

(٢) بعض الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

القول في الوصل والفصل

تعريفهما

١٠٠ ــ الوصلُ عطفُ بعضِ الجُمَلُ على بعض، والفصل تركُه .

وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغةُ فَنٌّ منها عظيمُ الخطرِ ، صَعْبُ المَسْلَكِ ، دقيقُ المأخَذِ ، لا يعرفه على وجهه ، ولا يحيط علماً بكُنْهِهِ ؛ إلا من أوتِيَ فهم كلام العرب طبعاً سليما ، ورُزِق في ادراك أسراره ذَوْقاً صحيحاً ، ولهذا قَصَرَ بعضُ العلماء البلاغةَ على معرفة الفصل من الوصل ، وما قَصَرَها عليه لأن الأمرَ كذلك ، وإنّما حاول بذلك التنبيهَ على مَزِيد غُموضِه ، وأن أحداً لا يَكْمُل فيه إلاّ كمل في سائر فنونها ؛ فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان ، فنقول والله المُسْتَعَانُ :

حكم الجملة بعد أخرى لها محل إعرابي

١٠١ ــ إذا أتَتْ جُمْلَةٌ بعد جملةٍ ؛ فالأولى منهما ؛ إمّا أن يكون لها مَحَلٌ من الإعراب أوْ لاَ .

وعلى الأوّل إن قُصِد التشريكُ بينهما وبين الثانية في حكم الإعراب عُطفت عليها ، وهذا كعطف المفرد على المفرد ؛ لأن الجملة لا يكون لها محلٌ من الإعراب حتى تكون واقعةً مَوْقِعَ المفرد ، فكما يُشْتَرَطُ في كَوْنِ العطف بالواو ونَحْوِهِ مقبولاً في المفرد أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جِهَةٌ جامعةٌ ، كما في قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماء

وَمَا يَعْرُجُ فِيها » (١) ؛ يُشْتَرَط في كَوْنِ العطف بالواو ونَحْوِه مقبولا في الجملة ذلك ، كقولك : زيد يكتب ويشعر ، أو يعطي ويمنع ، وعليه قوله تعالى : « واللهُ يَقْبِضُ ،ويَبْسِطُ ، وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٢) ولهذا عِيبَ على أبي تَمَّامٍ قولُه :

١٣٧ - لا وَالَّذِي هو عالم أنَّ النَّوَى
صَبِرٌ ، وأنَّ أبا الحُسَيْنِ كَرِيمُ(٣)

إذ لا مناسبة بين كرم أبي الحُسَيْنِ ومرارَةِ النَّوَى ، ولا تعلُّقَ لأحدهما بالآخر .

وإن لم يُقْصَد ذلك (٣) تُرِكَ عطفُها عليها ، كقوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينِهِمْ قالُوا إنَّا مَعَكُم، إنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » (٤) . لم يُعْطَفْ « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » على « إنَّا مَعَكُمْ » لأنه لو عُطِفَ عليه لكان من مَقُولِ المنافقين ،

---

(١) بعض الآية ٢ من سورة سبأ ، أو ٤ من سورة الحديد . يلج : يدخل ، يعرج . يصعد ويرتقي .

(٢) بعض الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ، يقبض : يضيق ، يبسط . يوسع ومعمول الفعلين معروف ، وهو الرزق .

(٣) قبله : زعمت هواك عفا الغداة كما عفا منها طلال باللوى ورسوم

وبعده : ما حلت عن سنن الوفاء ، ولا غدت نفسي على إلف سواك تحوم

عفا : امحى ودرس ، الغداة : ظرف زمان لـ « عفا » طلال : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار اللوى : ما التوى وانعطف من الرمل ، أو مستدقه . الرسوم . جمع رسم ، وهو ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الديار ، لا : نفي ورد لمضمون البيت قبله ، النوى : الفراق والبعد ، الصبر : عصارة شجر شديد المرارة أبو الحسين : محمد بن الهيثم ممدوح الشاعر . حلت : تغيرت وتحولت ، السنن : الطريقة ، تحوم : تدور . والبيت كله جواب القسم في بيت الشاهد .

(٤) ذلك إشارة إلى التشريك بين الجملتين في الحكم الإعرابي .

(٥) من الآيتين ١٤ ـ ١٥ من سورة البقرة .

وليس منه ، وكذا قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لا تُفْسِدُوا في الأرْضِ ، قَالُوا : إنَّما نَحنُ مُصْلِحُونَ ، ألاَ إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ »(١) وكذا قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ؛ قَالوا : أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ ألاَ إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ » (٢) .

حكم الجملة بعد أخرى ليس لها محل إعرابي

١٠٢ — وعلى الثاني إن قُصِد بيانُ ارتباطِ الثانيةِ بالأولى على مَعْنَى بعض حروفِ العطف سِوَى الواوِ ؛ عُطِفَتْ عليها بذلك الحرفِ : فتقول : « دخل زيدٌ فخرج عمرٌو » إذا أردتَ أن تُخبِر أنَّ خروجَ عمرٍو كان بعدَ دُخولِ زيدٍ من غير مُهْلَةٍ ، وتقول : « خرجتُ ثُمَّ خرج زيدٌ » إذا أردتَ أن تُخبِر أن خروجَ زيدٍ كان بعدَ خُروجِك بِمُهْلَةٍ ، وتقول : « يعطيك زيدٌ ديناراً ، أو يكسُوك جُبَّةً » إذا أردتَ أن تخبر أنه يفعل واحداً منهما لا بِعينه ، وعليه قوله تعالى : « سَنَنْظُرُ أصَدَقْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ » (٣) .

من مواطن الفصل

وإن لم يُقْصَد ذلك ؛ فإن كان للأولى حكمٌ لم يُقْصد إعطاؤه للثانية ؛ تَعَيَّنَ الفصلُ ، كقوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إنَّا مَعَكُمْ ، إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » لم يُعْطَف « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » على « قَالُوا » لئلا يشاركهُ في الاختصاص بالظرف المقدَّم ، وهو قوله : « وَإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِم فإن استهزاءَ الله تعالى بهم — وهو أنْ خَذَلَهُمْ ؛ فخلاَّهم وما سوَّلَتْ لهم أنفُسهم ، مُسْتَدرِجاً إيّاهم من حيث لا يشعرون — مُتَّصلٌ لا ينقطع بكل حال : خَلَوْا إلى شياطينهم ، أمْ لَمْ يَخْلُوا إليهم ،

---

(١) الآية ١١ وبعض الآية ١٢ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٣ من سورة البقرة . السفهاء ، الجهال ، وغير الراشدين .
(٣) بعض الآية ٢٠ من سورة النمل .

وكذلك في الآيتين الأخيرتين فإنهم مُفْسِدون في جميع الأحيان : قِيل لهم : لا تُفْسِدوا ، أوْ لاَ ، وسُفَهاءُ في جميع الأوقات : قِيل لهم : آمنوا ، أوْ لاَ .

مواطن أخرى للفصل

١٠٣ – وإن لم يكن للأولى حكم كما سبق ، فإن كان بين الجملتين كمالُ الانقطاعِ ، وليس في الفصل إبهامُ خِلافِ المقصودِ كما سيأتي ، أو كمالُ الاتِّصالِ ، أو كانت الثانيةُ بمنزلة المُنْقطِعَة عن الأولى ، أو بمنزلة المتَّصِلة بها ، فكذلك يتعين الفصل .

أما في الصورة الأولى ؛ فلأن الواوَ للجمع ، والجمعُ بين الشيئين يَقتضي مناسبةً بينهما كما مرَّ .

أما في الثانية ؛ فلأن العطفَ فيها بمنزلة عطفِ الشيء على نفسه ، مع أن العطفَ يَقتضي المُغايَرَةَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه .

وأما في الثالثة والرابعة ؛ فظاهرٌ مما مرَّ .

كمال الانقطاع

١٠٤ – وأما كمال الانقطاع ؛ فيكون لِأمْرٍ يرجع إلى الإسناد ، أو إلى طرفيه .

الأول : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً ، لفظاً ومعنىً ، كقولهم : لا تَدْنُ من الأسد يأكُلُك ، وهل تُصلح لي كذا أدفعُ إليك الأجرة ؟ بالرفع فيهما ، وقول الشاعر :

١٣٨ – وقال رائِدُهُــم : أَرْسوا نُزَاوِلُها
فكلُّ حَتْفِ امْرِىءٍ يَجْري بمقدار (١)

---

(١) الرائد : الدليل الذي يتقدم القوم باحثاً لهم عن الكلأ والماء . أرسوا : أمر من « أرسيت السفينة » أي حبستها ووقفتها بالمرساة على الحقيقة ، والمفعول محذوف ، أو على التجوز بمعنى أقيموا ، أو أرسوا بمعنى ثبتوا أقدامكم ، يقال : رست قدمه في

أو معنىً لا لفظاً ، كقولك : مات فلانٌ رحِمَه الله .

وأما قول اليَزِيدِيِّ :

١٣٩ – مَلَّكْتُهُ حَبْلي ، ولكنّه
ألقاه من زُهدٍ على غاربي(١)
وقال : إنّي في الهوى كاذبٌ
انتقم اللّهُ من الكاذب

فعدَّه السكاكيُّ رحمه الله من هذا الضرب ، وحمله الشيخُ عبدُ القاهر رحمه الله على الاستئناف بتقدير « قلت » .

الثاني : أن لا يكون بين الجملتين جامعٌ كما سيأتي :

كمال الاتصال

١٠٥ – وأما كمال الاتصال فيكون لأمورٍ ثلاثة :

الأول : أن تكون الثانية مؤكِّدةً للأولى ، والمُقْتَضِي للتأكيد دفعُ تَوَهُّم التجوُّزِ والغَلَطِ ، وهو قسمان :

أحدُهما : أن تنزَّل الثانيةُ من الأولى منزلةَ التأكيد المعنويِّ من متبوعه في إفادة التقرير مع الاختلاف في المعنى ، كقوله تعالى : « الم ، ذَلِكَ

الحرب ، أي ثبتت فيها ، نزاولها : نحاولها ونعالجها ، والضمير : قيل للحرب ، وقيل للحمر ، حتف : موت ، مقدار : قدر ، وينسب البيت للأخطل ، وهذا أبو مالك غياث بن غوث التغلبي النصراني شاعر بني أمية .

(١) ملكته حبلي : تخصصت له وتذللت تجوزاً ، الغارب : الكاهل ، أو ما بين الظهر والعنق ، أو ما بين السنام والعنق ، أو الأعلى من كل شيء ، وإلقاء الحبل على الغارب : كناية عن الإهمال . واليزيدي عالم شاعر راوية توفي سنة ٢٩٢ هـ . ونسب البيتين له عبد القاهر الجرجاني ، وهما منسوبان في الأغاني لإبراهيم بن المدبر الشاعر الكاتب العباسي .

الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ » (١) فإنَّ وزَانَ « لا رَيْبَ فِيهِ » في الآية وزَانُ « نفسُه » في قولك : « جاءني الخليفةُ نفسُه » فإنه لما بولغ في وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القُصْوَى من الكمال ، بِجَعْلِ المبتدإ « ذلِكَ » وتعريفِ الخبر باللام ؛ كان عند السامع قبل أن يتأمَّله مَظِنَّةُ أنه مما يُرْمَى به جُزافاً من غير تحقُّق ؛ فأُتْبِـعَ(٢) « لا رَيْبَ فِيهِ » نفياً لذلك ، إتباعَ « الخليفةُ » « نفسُه » إزالةً لما عسى أن يتَوَهَّمَ السامعُ أنك في قولك : « جاءني الخليفة » متجوزٌ أو ساهٍ .

وكذا قوله : « كأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، كأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً »(٣) الثاني مُقَرِّرٌ لما أفاده الأول .

وكذا قوله : « إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » (٤) لأن قوله « إنَّا مَعَكُم » معناه الثباتُ على اليهوديَّةِ ، وقوله : « إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » رَدٌّ للاسلام ، ودفعٌ له منهم ؛ لأن المُستهزِىءَ بالشيءِ المُستخِفَّ به منكرٌ له ، ودافعٌ له : لكونه غيرَ مُعْتَدٍّ به ، ودفعُ نَقيضِ الشيء تأكيدٌ لثباته ، ويحتمِلُ الاستئنافَ ، أي : فما بالُكم — إن صحَّ أنكم معنا — توافقون أصحابَ مُحَمَّدٍ ؟

وثانيهما : أن تُنَزَّل الثانية من الأولى منزلةَ التأكيد اللفظيِّ من متبوعه في اتحاد المعنى ، كقوله تعالى : « ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً

(١) الآية ١ وبعض الآية ٢ من سورة البقرة .

(٢) نائب الفاعل ضمير يعود على وصف الكتاب المبالغ فيه المدلول عليه بجملة اسمية مبتدؤها اسم الإشارة وخبرها المعرف باللام، وجملة « لاريب فيه» بين الأقواس واقعة موقع المفعول الثاني لـ « أتبع » .

(٣) بعض الآية ٧ من سورة لقمان ، الوقر : الثقل في الأذن ، أو ذهاب السمع كله .

(٤) بعض الآية ١٤ من سورة البقرة .

لِلْمُتَّقِينَ » (١) فإن « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » معناه : أنه في الهداية بالغٌ درجةً لا يُدْرَكُ كُنهُها ، حتى كأنه هداية مَحْضَةٌ ، وهذا معنى قوله : « ذَلِكَ الكِتَابُ » لأن معناه كما مرَّ : الكتابُ الكاملُ ، والمرادُ بكماله كَمالُهُ في الهدَاية ؛ لأن الكتبَ السَّماويةَ بحسبها تتَفَاوَتُ في درجات الكمالِ وكذا قوله تعالى « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » (٢) فإن معنى قولِه « لاَ يُؤْمِنُونَ » معنى ما قبله ، وكذا ما بعدَه تأكيدٌ ثانٍ ؛ لأن عدم التفاوت بين الإنذار وعدمه ؛ لا يَصحُّ إلا في حَقِّ من ليسَ له قلبٌ يخلُص إليه حقٌّ ، وسَمْعٌ تُدْرَكُ به حُجَّةٌ ، وبَصَرٌ تَثبُتُ به عِبْرَةٌ ، ويجوز أن يكون «لاَ يُؤْمِنُونَ» خبراً لإن ، فالجملةُ قبلَها اعتراضٌ .

الثاني : أن تكون الثانية بدلاً من الأولى ، والمقتضى للإبدال كَوْنُ الأولى غيرَ وافيةٍ بتمام المُراد بخلاف الثانية ، والمقامُ يقتضي إعتناءً بشأنه لنُكْتَةٍ ، ككونه مطلوباً في نفسه ، أو فظيعاً ، أو عجيباً ، أو لطيفاً ، وهو ضربان :

أحدهما : أن تُنَزَّل الثانيةُ من الأولى منزلةَ بدلِ البعْضِ من متبوعه ، كقوله تعالى : « أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ، وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ ، وَعُيُونٍ » (٣) فإنه مَسُوقٌ للتنبيه على نِعَمِ الله تعالى عند المخاطبين ، وقولُه : « أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ ، وَعُيُونٍ » أَوْفَى بتأديته مما قبله ؛ لدلالته عليها بالتفصيل ، من غير إحالة على علمهم مع كونهم معانِدِين ، والإمدادُ بما ذُكِرَ من الأنعامِ وغيرها بعض الإمداد بما يعلمون ، ويحتمل الاستئناف .

---

(١) الآية ٢ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٦ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٣٢ والآيتان ١٣٣ — ١٣٤ من سورة الشعراء .

وثانيهما : أن تُنَزَّل الثانيةُ من الأولى منزلةَ بَدَل الاشتمال ، من متبوعه ، كقوله تعالى « اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (١) فإن المراد به حملُ المخاطبين على اتّباع قوله تعالى : « اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أَوْفَى بتأدية ذلك ؟ لأن معناه : لا تخسرون معهم شيئاً من دُنياكم ، وتربحون صِحَّةَ دينكم ، فينتظم لكم خيرُ الدنيا ، وخيرُ الآخرة .
وقول الشاعر :

١٤٠ – أقُــول له : ارْحَــلْ ، لا تقيمَنَّ عندنا
وإلاَّ فكُنْ في السِّرِّ والجهْرِ مُسْلِمــــــاً

فإن المراد به كمالُ الكراهة لإقامته بسبب خِلافِ سِرِّه العَلَنَ ، وقوله « لا تُقيمنَّ » عندنا أَوْفَى بتأديته ؛ لدلالته عليه بالمطابَقَة مع التأكيد ، بخلاف « ارحل » وَوِزَانُ الثانية – مِن كل واحد مِن الآية والبيتِ » وزانُ « حسنُها » في قولك : أعجبتني الدارُ حُسْنُهَا ؛ لأن معناها مغايرٌ لمعنى ما قبلها ، وغيرُ داخلٍ فيه ، مع ما بينهما من المُلابَسَةِ .

الثالث : أن تكون الثانيةُ بياناً للأولى ، وذلك بأن تنزَّل منها منزلةَ عطفِ البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح ، والمُقْتَضِي للتبيين أن يكون في الأولى نوعُ خفاءٍ ، مع اقتضاء إزالتَه ، كقوله تعالى : « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى » (٢) فصل جملة « قال » عما قبلها ؛ لكونها تفسيراً وتبييناً ، ووِزانُه وِزانُ عُمَرَ في قوله :

---

(١) بعض الآية ٢٠ والآية ٢١ من سورة يس .
(٢) الآية ١٢٠ من سورة طه . وسوس إليه : حدثه بشر ، أو بما لا نفع فيه .
الخلد : الدوام والبقاء ، لا يبلى : لا يرث ولا يخلق .

١٤١ — • أقسم بالله أبو حَفْصٍ عُمَرْ •(١)

وأما قوله تعالى : « مَا هَذَا بَشَراً ، إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ »(٢) فيَحتمِل التبيينَ والتأكيدَ .

أما التبيينُ فلأنه يمتنع أن يخرج من جنس البشر ولا يدخلَ في جنس آخرَ فإثبات المَلَكيَّة له تبيين لذلك الجنس وتعيين .

وأما التأكيد فلأنه إذا كان مَلَكاً لم يكن بَشَراً ، ولأنه إذا قيل في العرف لإنسان : « ما هذا بشراً » حالَ تعظيمٍ له ، وتَعَجُّب مما يُشَاهد منه ، من حُسْنِ خَلْقٍ ، أو خُلُقٍ كان الغرضُ أنه مَلَكٌ بطريق الكناية .

فإن قيل : هلاَّ نَزَّلْتُم الثانيةَ منزِلَة بدَلِ الكُلِّ من متبوعه في بعض الصُوَّر ومنزلة النعتِ من متبوعه في بعضٍ .

قلنا : لإن بدل الكل لا ينفصل عن التأكيد إلا بأن لفظَه غيرُ لفظِ متبوعه ، وأنه مقصودٌ بالنسبة دونَ متبوعه ، بخلاف التأكيد ، والنعتَ لا ينفصل عن عطف البيان إلا بأنه يدُلُّ على بعض أحوال متبوعه لا عليه ، عطفُ البيان بالعكس ، وهذه كلها اعتباراتٌ لا يتحقَّق شيٌّ منها فيما نحن بِصَدَدِهِ .

شبه كمال الانقطاع

١٠٦ — وأما كون الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى ؛ فلكون عطفها عليها مُوهِماً لعطفها على غيرها ، ويُسَمَّى الفصلُ لذلك قَطْعاً ، مثاله قول الشاعر :

---

(١) بعده وهو المقسم عليه : • ما مسها من نقب ولا دبر •
أبو حفص : كنية عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني ، وهو المقصود بالرجز ، النقب : مصدر نقبت الناقة — بكسر القاف — أي رقت أخفافها ، والدبر : تقرح ظهر الدابة من عقر الرجل .

(٢) بعض الآية ٣١ من سورة يوسف .

١٤٢ — وتَظُنُّ سَلْمى أنَّني أبْغِي بها
بَدَلاً ، أراها في الضَّلال تَهِيمُ(١)

لم يعطف « أراها » على « تظن » لئلا يتوهَّم السامعُ أنه معطوف على « أبغي » لقربه منه ، مع أنه ليس بمراد ، ويَحْتَمِل الاستئنافَ .

وقسَّمَ السكَّاكيُّ القَطْعَ إلى قسمين :

أحدهما : القَطْعُ للاحتياط ، وهو ما لم يكن لمانع من العطف ، كما في هذا البيت .

والثاني : القطعُ للوجوب ، وهو ما كان لمانع ، ومَثَّلَه بقوله تعالى : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » (٢) قال ؛ لأنه لو عُطِفَ لعُطِفَ إما على جملة « قالوا » وإما على جملة « إنا معكم » وكلاهما لا يصح لما مر ، وكذا قوله : « أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ » (٣) وقوله : « أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ » (٤) .

وفيه نظرٌ ؛ لجواز أن يكون المقطوع في المواضع الثلاثة معطوفاً على الجملة المصدَّرة بالظرف ، وهذا القسم لم يبين امتناعه .

شبه كمال الاتصال أو الاستئناف

١٠٧ — وأما كونها بمنزلة المتصلة بها ؛ فلكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى ؛ فتُنَزَّلُ مَنْزِلَتَه ؛ فتُفصَلُ الثانيةُ عنها كما يفصل الجواب عن السؤال .

وقال السكَّاكي : فيُنَزَّل ذلك منزلةَ الواقع ، ثم قال : وتنزيلُ السؤال بالفَحْوَى منزلَةَ الواقع لا يُصار إليه إلا لجهات لطيفة : إما

---

(١) أراها : أظنها ، تهيم : تتخبط ولا تدري أين تتجه .
(٢) بعض الآية ١٥ من سورة البقرة .
(٣) بعض الآية ١٢ من سورة البقرة .
(٤) بعض الآية ١٣ من سورة البقرة .

لتنبيه السامع على موقعه ، أو لإغنائه أن يسأل ، أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف ، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السِّلْك .

أضرب الاستئناف

ويُسَمَّى الفصلُ لذلك استئنافاً ، وكذا الجملةُ الثانيةُ أيضاً تُسَمَّى استئنافاً .

والاستئناف ثلاثة أضرب :

لأن السؤال الذي تَضمَّنته الجملةُ الأولى إما عن سبب الحكم فيها مطلقاً ، كقوله :

١٤٣ – قال لي : كَيْفَ أنتَ ؟ قلتُ عَليلُ
سَهَرٌ دائمٌ ، وَحُزنٌ طويلُ

أي : ما بالُك عليلا ؟ أو ما سببُ علتك ؟ وكقوله :

١٤٤ – وقد غَرِضْتُ من الدنيا ، فهل زمني
مُعْطٍ حياتي لغِرٍّ بَعْدَما غَرِضا ؟ (١)
جرَّبتُ دَهْرِي وأهلِيه ، فما تركَتْ
لِيَ التجاربُ في ودِّ امرِئٍ غَرَضا

أي : لِمَ تقول هذا وَيْحَكَ ؟ ! وما الذي اقتضاك أنتَطْوِيَ عن الحياة إلى هذا الحدِّ كَشحَكَ ؟ ! (٢)

---

(١) غرض من الدنيا : ضجر ومل ، الغر : من لا تجربة له ولا خبرة ، بعد : ظرف متعلق بالفعل « غرض » الواقع بعد « ما » النافية ، غرضاً : مأرباً وحاجة . البيتان لأبي العلاء المعري .

(٢) ويح : كلمة ترحم وتوجع ، وقد تستعمل في التعجب والمدح ، وقيل : هي بمعنى ويب ، وترفع على الابتداء وتنصب على إضمار فعل ، نحو ألزمك ، أو ألزمه

وإما عن سبب خاص له ، كقوله تعالى : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ » (١) كأنه قيل : هل النفس أمَّارَةٌ بالسوء ؟ فقيل : إن النفس لأمارة بالسوء .

وهذا الضرب يَقْتَضِي تأكيدَ الحكم ، كما مرَّ في باب أحوال الإسناد .

وإمّا عن غيرهما ، كقوله تعالى : « قَالُوا : سَلاَماً ، قَالَ : سَلاَمٌ » (٢) كأنه قيل : فماذا قال ابراهيم عليه السلام ؟ فقيل : قال : سلامٌ ، ومنه قول الشاعر :

١٤٥ — زَعَمَ العواذِلُ أنَّني في غَمْرَةٍ
صدقوا ، ولَكِنْ غَمْرَتي لا تَنْجَلي(٣)

فإنه لمّا أبْدَى الشّكايةَ من جماعات العُذّال؛ كان ذلك مما يُحرِّك السامع ليسأل : أصدقوا في ذلك ، أم كذبوا ؟ فأُخرِجَ الكلامُ مُخْرَجَهُ إذا كان ذلك قد قيل له ؛ ففُصِل ، ومثلُه قولُ جُنْدُبِ بْنِ عَمَّارٍ :

١٤٦ — زعم العواذل أن ناقة جُنْدُبٍ
بجنوب خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأُجِمَّتِ(٤)

الله . والكشح : ما بين السرة ووسط الظهر ، وطوى عنه كشحه : أعرض عنه ، بخلاف طوى عليه كشحه ، أي لازمه واستمر عليه .

(١) بعض الآية ٥٣ من سورة يوسف .

(٢) بعض الآية ٦٩ من سورة هود .

(٣) العواذل : جمع عاذلة صفة لموصوف تقديره جماعة مثلا وليس وصفاً للمفردة مراعاة للضمير المذكر في « صدقوا » أو هو جمع شاذ لعاذل وصف مذكر ، كفوارس جمع فارس . الغمرة : الشدة ، ولا تنجلي : لا تنكشف :

(٤) جندب : هو الشاعر وهو ممن شهدوا واقعة القادسية في فتح بلاد الفرس ، خبت . موضع ، أو المتسع المطمئن من الأرض . أجمت : تركت للراحة

كذبَ العواذلُ ، لو رأينَ مُناخَنا
بالقادِسيَّةِ ؛ قُلْنَ : لَجَّ وذلت

وقد زاد هنا أمْرَ الاستئناف تأكيداً بأن وضع الظاهرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ ، من حَيْثُ وضعه وضْعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله ، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام ، ومن الأمثلة قولُ الوَليدِ :

١٤٧ — عرفتُ المنزلَ الخالي عَفَا من بعد أحْوالِ (١)
عَفَاهُ كلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الوَبْلِ هَطَّالِ

فإنه لما قال « عفا » وكان العَفاءُ مما لا يحصل للمنزل بنفسه ؛ كان مَظِنَّةَ أن يُسْأَل عن الفاعل ، ومثله قول أبي الطيِّب :

١٤٨ — وما عَفَتِ الرِّياحُ له مَحَلاًّ
عفاه مَنْ حَدَا بِهِمُ وساقا (٢)

فإنه لمَّا نَفَى الفعلَ الموجودَ عن الرياح ؛ كان مَظِنَّةَ أن يسأَلَ عن الفاعل .

وأيضاً من الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استُؤْنِفَ عنه ، كقولك : أحسنتَ إلى زيدٍ ، زيدٌ حقيقٌ بالإحسان .

والاستحمام ، وهو والفعل قبله كناية عن تبطله وإقامته دون غاية . مناخنا : مبرك إبلنا. القادسية : مدينة فارسية ، وموقعة فتح المسلمين لها مشهورة في التاريخ ، ولج في الأمر : لازمه وأبى أن ينصرف عنه ، ذلت . انقادت . والبيتان في ديوان الحماسة وفي دلائل الإعجاز من غير نسب .

(١) عفا : درس وامحى ، عفاه : محاه كعفاه بالتشديد ، حنان : مصوت ، والمقصود منه الرعد المصاحب للمطر ، عسوف . شديد العسف ، ومن معانيه العمل من غير تدبر ، وأخذ الشيء بالقوة ، الوبل : المطر الشديد ، المطال : الشديد التتابع في النزول . والبيتان للوليد بن مسلم كما في معاهد التنصيص ، أو للبيد كما في شرح شواهد الإيضاح .

(٢) حدا الإبل : غنى لها لتجد في السير .

ومنه ما يُبْنَى على صفته ، كقولك : أحسنتَ إلى زيدٍ ، صديقُك القديمُ أهلٌ لذلك ، وهذا أبلغ ؛ لانطوائه على بيان السبب .

١٠٨ – وقد يُحذَف صَدْرُ الاستئناف ؛ لقيام قرينة ، كقوله تعالى : « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . رِجَالٌ » (١) فيمن قرأ « يُسَبَّحُ » مبنياً للمفعول . وعليه نحو قولهم : نِعْمَ الرجلُ أو رجلاً زيدٌ . وبِئْسَ الرجلُ أو رجلا عمرو ، على القول بأن المخصوصَ خبرُ مبتدأ محذوف . أي : هو زيد . كأنه لمَّا قيل ذلك . فأبهم الفاعلُ بجعله معهوداً ذهنياً ، مُظْهَراً أو مُضْمَراً ، سُئِلَ عن تفسيره ؛ فقيل : هو زيدٌ ، ثم حذف المبتدأ .

١٠٩ – وقد يُحذَفُ الاستئناف كلُّه ، ويقام ما يدل عليه مُقامَه . كقول الحماسِيِّ :

١٤٩ – زَعمتُمْ أن إخوتَكُمْ قُرَيْشٌ
لَهُمْ إلْفٌ . وليسَ لكُم إلافُ (٢)

حَذف الجوابَ الذي هو : كذبتم في زعمكم ، وأقام قوله « لهم إلْفٌ ، وليس لكم إلافٌ » مُقامَهُ لدلالته عليه ، ويجوز أن يُقَدَّر قوله : « لهم إلفٌ وليس لكم إلاف » جواباً لسؤال اقتضاه الجوابُ

---

(١) بعض الآية ٣٦ من سورة النور ، الغدو : جمع غدوة وهي أول النهار ، أو ما بين الفجر وطلوع الشمس ، أو البكرة وقبلها الغداة ، والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار ما بين العصر والمغرب .

(٢) في البيت إشارة إلى ما امتّن الله به على قريش في سورة قريش ، والإلف والإيلاف : العهد وشبه الإجازة ، وأول من أخذها هاشم جد النبي من ملك الشام ، ثم تتابعت بين قريش وجهات أخرى ، فكان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، والبيت لمساور بن هند بن قيس بن زهير ، يهجو بني أسد ، وكان شاعراً إسلامياً .

المحذوفُ ، كأنه لما قال المتكلم : كذبتم ؛ قالوا : لِمَ كذبنا ؟ فقال : لهم إلفٌ ، وليس لكم إلاف ؛ فيكون في البيت استئنافان .

وقد يُحْذَف ولا يُقَام شيءٌ مُقامه ، كقوله تعالى : « نِعْمَ العَبْدُ » (١) أي : أيُّوبُ ، أو هُوَ ؛ لدلالة ما قبل الآية وما بعدها عليه ، ونحوه قوله : « فَنِعْمَ المَاهِدُونَ » (٢) أي : نحن .

تعين الوصل

١١٠ — وإن لم يكن بين الجملتين شيءٌ من الأحوال الأربع تعين الوصلُ .

الوصل لدفع توهم غير المراد

إما لدفع إيهام خلاف المقصود كقول البلغاء : لا ، وأيَّدَكَ اللهُ ، وهذا عكسُ الفصل للقطع .

الوصل للتوسط بين الكمالين

وإما للتوسط بين حالَتَيْ كمال الانقطاع وكمال الاتِّصَالِ ، وهو ضربان :

أحدهما : أن يتَّفقا خبراً أو إنشاءً ، لفظاً ومعنىً ، كقوله تعالى « إنَّ الأبْرَارَ لَفِي نَعِيم ، وإنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (٣) وقوله : « يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، ويُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ » (٤) وقوله : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » (٥) وقوله تعالى « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا » (٦) .

---

(١) بعض الآية ٣٠ من سورة ص ، أو ٤٤ منها ، والممدوح في الأولى سليمان وفي الثانية أيوب ، أواب ، شديد التوبة والرجوع .

(٢) بعض الآية ٤٨ من سورة الذاريات . الماهدون : الباسطون الموطئون .

(٣) الآيتان ١٣ — ١٤ من سورة الانفطار .

(٤) بعض الآية ١٩ من سورة الروم .

(٥) بعض الآية ٩ من سورة البقرة .

(٦) بعض الآية ٣١ من سورة الأعراف .

والثاني : أن يتفقا كذلك معنىً لا لفظاً ، كقوله تعالى : « وإذْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ ، لا تَعْبُدُونَ إلا اللهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ، وَذِي القُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالمسَاكِينِ ، وَقُولُوا »(١) عُطِفَ قولُه : « قُولُوا » على قوله : « لا تَعْبُدُونَ » لأنه بمعنى : لا تعبدوا ، وأما قوله : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً » فتقديره : إما « وتحسنون » بمعنى « وأحسنوا » وإما « وأحسنوا » وهذا أبلغُ من صريح الأمرِ والنَّهْيِ ؛ لأنه كأنه سُورِع إلى الامتثال والانتهاء فهو يُخبر عنه .

وأما قولُه في سورة البقرة : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فقال الزَمَخْشَرِيُّ فيه : فإن قلتَ : علامَ عُطِفَ هذا الأمرُ ، ولم يَسْبِق أمرٌ ولا نَهيٌ يصِحُّ عطفهُ عليه ؟ قلتُ : ليس الذي اعتَمَدَ بالعطف هو الأمرُ ، حتى يُطْلَبُ له مُشاكِلٌ من أمرٍ أو نَهْيٍ يُعْطَف عليه ، إنما المُعْتَمِدُ بالعطف هو جملةُ وَصْفِ ثوابِ المؤمنين؛ فهي معطوفةٌ على جملة وصف عقابِ الكافرين ، كما تقولَ : زيدٌ يعاقب بالقيْد والإرهاق ، وبَشِّرْ عَمْراً بالعفو والإطلاق ، ولك أن تقول : هو معطوفٌ على « فاتَّقُوا » (٣) كما تقول : يا بَنِي تَمِيمٍ احـذروا عقوبةَ ما جَنَيْتُم ، وبَشِّرْ يا فلانُ بني أسَدٍ بإحساني إليهم ، هذا كلامُه ، وفيه نظرٌ لا يخفى على المُتَأمِّل .

وقال أيضاً في قوله تعالى في سورة الصَّفِّ : « وَبَشِّرِ المؤمِنِينَ »(٤) : إنه معطوف على « تُؤْمِنُونَ » (٥) لأنه بمعنى : آمنوا ، وفيه أيضاً

---

(١) بعض الآية ٧٣ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٢٥ من سورة البقرة .
(٣) بعض الآية ٢٤ من سورة البقرة .
(٤) بعض الآية ١٣ من سورة الصف .
(٥) بعض الآية ١١ من سورة الصف .

نظرٌ ، لأن المخاطَبين في « تُؤْمِنونَ » (١) هم المؤمنون ، وفي « بَشِّرْ » (٢) هو النبي عليه السلام ، ثم قوله : « تُؤْمِنُونَ » (١) بيانٌ لما قبله على سبيل الاستئناف ، فكيف يصح عطف «بَشِّر المُؤْمِنينَ»(٢) عليه؟

وذهب السكاكي إلى أنهما معطوفان على « قل » مُراداً قبلَ : « يا أيُّها النَّاسُ » (٣) « يا أيُّها الذينَ آمَنُوا » (٤) ؛ لأن إرادة القول بواسطة انْصِبابِ الكلام الى معناه غيرُ عزيزة في القرآن ، وذكر صُوَراً كثيرةً ، منها قوله تعالى « وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا » (٥) وقوله : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا » (٦) وقوله وإذ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْناً ، وَاتَّخِذُوا » (٧) أي : وقلنا ، أو قائلين .

والأقرب أن يكون الأمرُ في الآيتَيْنِ معطوفاً على مقدَّر يدُل عليه ما قبله ، وهو في الآية الأولى : « فأنذِر » أو نحوُه ، أي : فأنْذِرْهم ، وَبَشِّر الذين آمنوا ، وفي الآية الثانية : « فأبشر » أو نحوه ، أي : فأبْشِرْ يا مُحَمَّدُ ، وبَشِّر المؤمنين ، وهذا كما قدَّر الزَّمَخْشَريُّ قوله تعالى : « واهْجُرْنِي مَلِيّاً » (٨) معطوفاً على محذوف يدل عليه قوله « لأَرْجُمَنَّكَ » (٩) أي : فاحْذَرْني ، واهْجُرْني ؛ لأنَّ « لأَرْجُمَنَّكَ » تهديدٌ وتقريعٌ .

---

(١) بعض الاية ١١ من سورة الصف .

(٢) بعض الاية ١٣ من سورة الصف .

(٣) بعض الآية ٢١ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ١٠ من سورة الصف .

(٥) بعض الآية ٥٧ من سورة البقرة . المن : طل ينزل على الشجر ونحوه ويحلو وينعقد عسلا ويجف كالصمغ ، والسلوى : طائر ، واحدته سلواة .

(٦) بعض الآية ٦٣ أو الآية ٩٣ من سورة البقرة . الميثاق : العهد . الطور : الجبل .

(٧) بعض الآية ٤٦ من سورة البقرة . المثابة : المجتمع ، والمرجع .

(٨) و(٩) بعض الآية ٤٦ من سورة مريم . ملياً : زمناً طويلاً ، والرجم : من معانيه : اللعن : والشتم ، والهجر ، والطرد .

الجامع في الوصل

١١١ – والجامع بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المُسْنَد إليه في هذه ، والمُسْنَد إليه في هذه . وباعتبار المسند في هذه والمسند في هذه جميعاً ، كقولك : يشعر زيدٌ ويكتب ، ويعطي ويمنع ، وقولك : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو كاتبٌ ، وزيدٌ طويلٌ وعمرٌو قصيرٌ . إذا كان بينهما مُناسبَة . كأن يكونا أخوين . أو نظيرين ، بخلاف قولنا : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو كاتبٌ ، إذا لم يكن بينهما مناسبة ، وقولنا : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو طويلٌ . كان بينهما مناسبةٌ أَوْ لاَ .

وعليه قوله تعالى : « إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » (١) قُطِعَ عَمَّا قبلَه ؛ لأنه كلامٌ في شأن الذين كفروا . وما قبلَه كلامٌ في شأن القرآن .

وأما ما يُشْعِرُ به ظاهر كلام السكاكيِّ في مَوْضع من كتابه : أنه يكفي أن يكون الجامع باعتبار المُخْبَرِ عنه ، أو الخبرِ ، أو قيد من قيودهما ؛ فإنه منقوضٌ بما مَرَّ . وبنحو قولك : هزم الأميرُ الجندَ يومَ الجمعة ، وخاط زيدٌ ثوبي فيه ، ولعله سهوٌ ؛ فإنه صرَّح في موضعٍ آخرَ منه بامتناع عطفِ قولِ القائل « خُفِّي ضَيِّقٌ » على قوله : « خاتمي ضيِّق » مع اتحادهما في الخبر .

أنواع الجامع

ثم قال : الجامع بين الشيئين : عقليٌّ ، وَوَهْمِيٌّ ، وخياليٌّ .

الجامع العقلي

أما العقليُّ فهو أن يكون بينهما اتّحاد في التصوُّر .

أو تَماثُلٌ ؛ فإن العقل بتجريده المِثْلَيْن عن التشخُّص في الخارج يرفع التعدُّد .

أو تَضايُفٌ . كما بين العلَّةِ والمعلولِ ، والسَّبَبِ ، والمُسَبَّبِ ، والسُّفْلِ والعُلُوِ . والأقلِّ والأكثرِ ؛ فإن العقل يأبَى أن لا يجتمعا في الذِّهْن .

(١) الآية ٦ من سورة البقرة .

الجامع الوهمي

وأما الوهميّ فهو أن يكون بين تصوُّرَيْهِما شبهُ تماثُلٍ ، كلَوْنِ بياضٍ ولَوْنِ صُفْرَةٍ ؛ فإن الوهمَ يُبْرِزهُما في مَعْرِضِ المِثْلَيْنِ ، ولذلك حَسُنَ الجمعُ بينَ الثلاثةِ التي في قوله :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدُّنيا ببهجتها
شمسُ الضُّحَى ، وأبو إسْحَاقَ ، والقَمَرِ(١)

أو تَضَادٌ ، كالسَّوادِ والبَيَاضِ ، والهَمْسِ والجَهَارَةِ ، والطِّيبِ والنَّتْنِ ، والحلاوة والحُموضة ، والمَلاَسةِ والخُشونة ، وكالتَّحرُّكِ والسكونِ ، والقيامِ والقُعودِ ،والذَّهابِ والمَجِيءِ ، والإقرارِ والإنكارِ ، والايمانِ والكُفْرِ ،وكالمتَّصِفاتِ بذلك كالأسودِ والأبيضِ ، والمؤمنِ والكافرِ .

أو شبهُ تَضادٍ ، كالسماء والأرض ، والسَّهْلِ والجبَلِ ، والأوَّلَ والثاني ؛ فإن الوهم يُنْزِل المتضادَّيْنِ والشبيهين بهما مَنْزِلَةَ المُتضايفَيْنِ ؛ فيجمع بينهما في الذِّهْنِ ؛ ولذلك نجد الضِّدَّ أقربَ خُطوراً بالبال مع الضِّدِّ .

الجامع الخيالي

والخياليُّ أن يكون بين تَصَوُّرَيْهِما تَقارُنٌ في الخيال سابقٌ ، وأسبابُه مختلفةٌ ولذلك اختلفت الصُّوَرُ الثابتةُ في الخيالاتِ ترتباً ووُضوحاً ؛ فكَمْ صُوَرٍ تتعانَقُ في خيالٍ ، وهي في آخرَ لا تَتَراءى ، وكم صُورَةٍ لا تكاد تَلُوح في خيالٍ ، وهي في غيره نارٌ على عَلَمٍ (٢) .

كما يُحْكَى أن صاحبَ سِلاحِ مَلِكٍ ، وصائغاً ، وصاحبَ بَقَرٍ ، ومُعلِّم صِبْيَةٍ ؛ سافروا ذاتَ يوم ، وواصلوا سيرَ النهار بسَيْرِ

---

(١) انظر الشاهد ١٠٨

(٢) لا تتراءى : لا تتقابل . تلوح : تظهر . علم : جبل .

الليل ، فبينما هم في وَحْشَةِ الظلام، ومُقاساة خوفِ التخبُّط والضلال، طلع عليهم البدر بنوره ، فأفاض كلٌّ منهم في الثناء عليه ، وشبَّهَهُ بأفضل ما في خِزانة صُوَرِهِ ، فشبَّهه السِّلاحِيُّ بالتُّرْسِ المُذَهَّب يُرْفَع عندَ المَلِكِ ، والصائغُ بالسبيكة من الإبريز تَفْتَرُّ عن وجهها البَوتَقَةُ ، والبَقَّارُ بالجُبْنِ الأبيضِ يخرجُ من قالبه طرِيّاً ، والمُعَلِّم برغيفٍ أحمرَ يصل إليه من بَيْتٍ ذي مروءة (١) .

وكما يُحْكَى عن وَرّاقٍ يصف حاله : عَيْشِي أضيَقُ من مِحْبَرَةٍ ، وجسمي أدقُّ من مِسْطَرَةٍ ، وجاهِي أرقُّ من الزجاج ، وحَظِّي أخفَى من شَقِّ القَلَم ، وبَدَني أضعفُ من قَصَبَةٍ ، وطعامي أمرُّ من العَفْصِ ، وشرابي أشدّ سواداً من الحِبْر، وسوءُ الحالِ لي ألزم من الصَّمْغ (٢) .

حاجة البلاغي لمعرفة أنواع الجامع

ولصاحب علم المعاني فضلُ إحتياج إلى التنبُّه لأنواعِ الجامع ، لا سيَّما الخيالي ؛ فإن جَمْعَهُ على مجرَى الإلْفِ والعادةِ بحسَبِ ما تَنْعَقِدُ الأسبابُ في ذلك كالجمع بين الإبل ، والسماء ، والجبالِ ،

---

(١) التخبط : السير على غير هدى . السلاحي : متولى أمر السلاح . الترس : صفحة من حديد تتقي بها ضربات السيف ونحوه . المذهب : المموه بالذهب . السبيكة : القطعة من معدن تذاب وتفرغ في قالب . الإبريز : الذهب الخالص . تفتّر : أصله تضحك ضحكاً حسناً ، والمراد هنا لازمه ، وهو تكشفها وانفراجها عما في باطنها . البوتقة ، ومثلها البودقة : هي الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ المعادن ، البقار : راعي البقر .

(٢) الوراق : المشتغل في الأوراق نسخاً وبيعاً . أوهما معاً . المحبرة : الدواة ، والمسطرة : معروفة ، ويجوز في ميمها الفتح والكسر . الجاه : القدر والشرف . حظي : نصيبي . القصبة : ما تتخذ للقلم ، وتتكون سيقان نبتها من أنابيب وكعوب . العفص : نتوء ينكون على شجر البلوط ، ويدخل في صناعة المداد .

والأرض ، في قوله تعالى: « أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلىَ الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟ وإلىَ السمــاء كَيْفَ رُفِعَــتْ ؟ وإلىَ الجِبَــالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وإلىَ الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » (١) بالنسبة إلى أَهْلِ الوَبَرِ (٢) فإن جلّ انتفاعِهم في معاشهم من الإبل ؛ فتكون عنايتُهم مَصروفةً إليها ، وانتفاعهُم منها لا يحصل إلا بأن تَرْعَى وتَشْرَب وذلك بنزول المطَر ؛ فيكثر تقلُّبُ وُجوههم في السماء . ثم لا بُدَّ لهم من مَأْوَى يُؤْوِيهم ، وحِصْنٍ يتحصَّنون به ، ولا شيء لهم في ذلك كالجبال . ثم لا غِنى لهم لتعذُّرِ طولِ مُكْثِهم في مَنْزِل عن التنقُّل من أرضٍ إلى سواها ؛ فإذا فتش البدَوِيُّ في خياله وجد صُوَرَ هذه الأشياء حاضرةً فيه على الترتيب المذكور ، بخلاف الحضَرِيِّ ، فإذا تَلاَ قبل الوقوف على ما ذكرنا ظنَّ النَّسْقَ لجهله مَعِيباً .

محسنات الوصل

ومن مُحَسِّنَات الوصل تَنَاسُبُ الجملتين ، في الاسْميَّةِ والفِعْليَّةِ وفي المُضِيِّ والمُضارَعةِ ، إلاَّ لمانع ، كما اذا أُريدَ بإحداهما التجدُّدُ وبالأخرى الثبوتُ ، كما إذا كان زيدٌ وعمرٌو قاعِدَيْن ، ثم قام زيدٌ دون عَمْرو ، وقلت : «قام زيدٌ ، وعمرٌو قاعدٌ» كما سبق .

الجملة الحالية وحكم الواو معها

١١٢ — ومما يتَّصل بهذا الباب القولُ في الجملة إذا وقعت حالاً منتقلةً ، فإنها تجيء تارةً بالواو ، وتارةً بغير الواو ؛ فنقول :

أصلُ الحالِ المُنْتَقِلة أن تكون بغير واوٍ ، لوُجوهٍ :

- الأول : أنّ إعرابها ليس بتَبَعٍ ، وما ليس إعرابه بتبعٍ لا يدخله الواو ، وهذه الواوُ ، وإن كانت تُسَمَّى واوَ الحال : فإن أصلها العطفُ .

---

(١) الآيات ١٧ — ١٩ من سورة الغاشية .

(٢) أهل الوبر : البدو ؛ لأنهم يعتمدون على وبر الجمال في كثير من شؤونهم ، ولا سيما الخيام .

الثاني : أن الحال في المعنى حُكم على ذي الحال ، كالخبر بالنسبة إلى المبتدأ ، إلاّ أن الفرق بينه وبينها أن الحكم به يحصل بالأصالة ، لا في ضمْن شيء آخرَ ، والحكم بها إنما يحصل في ضمن غيرها ؛ فإن الركوب مثلاً في قولنا : « جاء زيدٌ راكباً » محكومٌ به على زيد لكن لا بالأصالة ، بل بالتبعية ، بأن وُصِل بالمجيء وجُعِل قيداً له ، بخلافه في قولنا : زيدٌ راكبٌ .

الثالث : أنها في الحقيقة وصفٌ لذي الحال ؛ فلا يدخلها الواوُ كالنَّعْتِ .

فثبت أن أصلها أن تكون بغير واو ،لكن خُولِف الأصلُ فيها إذا كانت جملةً ؛ لأنها – بالنظر إليها من حيث هي جملةٌ – مستقِلَّة بالإفادة ؛ فتحتاج إلى ما يربطها بما جُعِلَت حالاً عنه .

وكلٌ واحدٍ من الضمير والواوِ صالحٌ للرَّبط . والأصلُ الضميرُ ؛ بدليل الاقتصار عليه في الحالِ المفردةِ ، والخبرِ ، والنعتِ .

وإذا تمهَّد هذا فنقول :

الجملة التي تقع حالا ضربان : خالية عن ضمير ما تقع حالا عنه . وغيرُ خالية .

أما الأولى فيجب أن تكون بالواو ؛ لئلا تصيرَ منقطعةً عنه ، غيرَ مرتبطة به .

وكل جملةٍ خاليةٍ عن ضمير ما يجوز أن ينتصب عنه حالٌ ؛ يصح أن تقع حالا عنه إذا كانت مع الواو ، الا المصدَّرةَ بالمضارع المُثْبَت ، كقولك : « جاء زيدٌ ويتكلم عمرٌو » على أن يكون « ويتكلم عمرٌو » حالاً عن « زيد » لما سيأتي ان ارتباط مثلها يجب أن يكون بالضمير وحدَه .

وأما الثانية ؛ فتارةً يجب أن تكون بالواو ، وتارةً يمتنع ذلك ، وتارةً يترجّح أحدُهما ، وتارةً يستوي الأمران .

والواو غير مناف للضمير في إفادة الربط ؛ فتعيَّن التنبيهُ على أسباب الاختلاف ؛ فنقول :

الجملة إن كانت فعليةً والفعلُ مضارعٌ مثبتٌ ، امتنع الواوُ ، كقوله تعالى : « وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (١) وقوله : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ » (٢) ، وقوله : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » (٣) لأن أصل الحال المفردةِ أن تدل على حصول صفةٍ غيرِ ثابتةٍ مقارنٍ (٤) لما جُعِلَت قيداً له ، والمضارعُ المُثْبَتُ كذلك .

أما دلالته على حصول صفة غير ثابتة ، فلأنه فعل مُثْبَت والفعل المثبت يدل على التجدد وعدم الثبوت كما مرّ .

وأما دلالته على المقارنة ؛ فلكونه مضارعاً .

فوجب أن يكون بالضمير وحده كالحال المفردة ، ولهذا امتنع نحوُ : جاء زيدٌ ويتكلم عمرٌو ، كما مر .

وأما ما جاء من نحو قول بعض العرب : « قمت وأصُكُّ عينه ، أو وجهه » (٥) وقول عبد الله بن هَمَّامٍ السَّلُولِيّ :

---

(١) بعض الآية ١١٠ من سورة الأنعام . يعمهون : يتحيرون ويترددون في ضلالهم .

(٢) الآية ٦ من سورة المدثر . لا تمنن : لا تكدر معروفك بتعداده على من فعلته له .

(٣) الآيتان ١٧ ــ ١٨ من سورة الليل .

(٤) مقارن : صفة لـ« حصول » وفي نسخة « لأن أصل الحال المتنقلة ــ الخ »

(٥) صكه : لطمه ، أو ضربه ضرباً شديداً .

١٥٣ ـ فلمّا خَشِيتُ أظافيرَهم
نَجَوْتُ ، وأرهَنُهُمْ مالكا(١)

فقيل : على حذف المبتدأ ، أيْ : وأنا أصُكُّ عينه ، وأنا أرهَنُهم .

وقيل : الأول شاذّ ، والثاني ضرورة .

وقال الشيخ عبدُ القاهرِ : ليست الواوُ فيهما للحال ، بل هي للعطف و « أصك » و « أرهن » بمعنى « صَكَكْتُ » و « رهَنْتُ » ولكن الغرضَ من إخراجهما على لفظ الحال أن يَحْكِيا الحالَ في أحد الخبرين ، ويَدَعَا الآخرَ على أصله ، كما في قوله :

ولقد أمرُّ على اللئيم يَسُبُّني
فمضيتُ ، ثُمَّتَ قلتُ : لا يَعْنِيني(٢)

يبين ذلك أن الفاء قد تجيء مكان الواو في مثله ، كما في خبر عبد الله بن عَتِيكٍ ؛ فإنه ذكر دخولَه على أبي رافِعٍ اليهوديِّ حصنَه ، ثم قال : « فانتهيتُ إليه ؛ فإذا هو في بيتٍ مُظْلِمٍ ، لا أدري أيْنَ هو من البيت ؟ قلت : أبا رافع ، قال : مَنْ هذا ؟ فأهْوَيْتُ نحوَ الصوتِ ، فأضربُه بالسيف ، وأنا داهشٌ » فإن قوله : « فأضربه » مضارعٌ عَطَفَهُ بالفاء على ماضٍ ؛ لأنه في المعنى ماض .

وإن كان الفعل مضارعاً مَنْفِيّاً ؛ فيجوز فيه الأمران من غير ترجيح ؛ لدلالته على المقارنة لكونه مضارعاً ، وعدم دلالته على الحصول لكونه منفياً .

---

(١) أظافيرهم : أظفارهم ، والمراد إيلامهم وإيذاؤهم إياه ، فنشوب الأظفار سبب فيه ، أرهنهم مالكاً : أتركه عندهم كالرهن ، ومالك : رجل كان مع الشاعر ، وهو فار من عبد الله بن زياد ورجاله من جند الأمويين .

(٢) انظر الشاهد ٥٥

أما مجيئُه بالواو فكقراءة ابن ذَكْوان : « فاسْتَقِيما ، ولاَ تَتَّبِعَانِ » (١) بتخفيف النون ، وقولِ بعضِ العرب : « كنتُ ولا أخْشَى بالذيب » (٢) وقولِ مِسكينٍ الدارميّ :

١٥٤ ـ أكْسَبَتْه الوَرِقُ البيضُ أباً
ولقد كان ولا يُدْعَى لأبْ (٣)

وقول مالِكِ بنَ رَفيع وكان قد جَنَى جِنايةً ؛ فطلبه مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْرِ :

١٥٥ ـ بَغَاني مُصْعَبٌ وبنُو أبيه
فأيْنَ أحيدُ عنهم ؟ لا أحِيدُ (٤)

أقَادُوا مِنْ دَمِي ، وتوعَّدوني
وكنت وما يُنَهْنِهُني الوعيدُ

وأما مجيئُه بغير واو ؟ فكقوله تعالى : « وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ »(٥) وقولِ عِكْرِمَةَ العَبْسيِّ :

١٥٦ ـ مَضَوْا لا يريدون الرَّوَاحَ وغالَهُمْ
من الدهر أسبابٌ جَرَيْنَ عَلَى قَدَرْ (٦)

---

(١) بعض الآية ٨٩ من سورة يونس .
(٢) أخشى : أخوف .
(٣) الورق : الدراهم المضروبة ، يريد شهره المال وعرفه ، بعد أن كان مجهولا خاملا .
(٤) بغاني : طلبني ، أحيد عنهم : أبتعد عن طريقهم . أقادوا : ثأروا وأخذوا القود ، ينهنهني : يكفني ويزجرني ويخيفني .
(٥) بعض الآية ٨٤ من سورة المائدة .
(٦) الرواح : الرجوع ، غالهم : أهلكهم ، والشاعر من شعراء الحماسة .

وقولِ خالدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعاوِيَةَ :

١٥٧ ـ لوْ أنَّ قوماً لارتفاع قبيلةٍ
دخلوا السماءَ ، دخلتُها ، لا أُحْجَبُ(١)

وقولِ الأعشى :

١٥٨ ـ أتينا أصْبِهانَ ، فَهَزَّلَتْنا
وكنّا قبلَ ذلك في نَعِيمِ(٢)
وكان سَفاهةً مِنّي وجهلاً
مَسِيري ، لا أسيرُ إلى حَمِيمِ

كأنه قال : وكان سفاهةً مني وجهلاً إن سِرْتُ غيرَ سائر إلى حميم .

وإن كان ماضياً لفظاً أو معنىً فكذلك يجوز الأمران من غير ترجيح.

أما مجيئه بالواو ، فكقوله تعالى : « أنَّى يَكُونُ لي غُلامٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ » (٣) وقولِهِ تعالى : « أنَّى يَكُونُ لي غُلامٌ ، وكَانَتِ امْرَأتِي عَاقِراً » (٤) .

وقولِ امْرِىءِ القَيْسِ :

١٥٩ ـ أيقتُلُنِي وقد شَعَفْتُ فُؤادَها
كما شعف المَهْنُوءَةَ الرجلُ الطّالي ؟ ! (٥)

---

(١) البيت كناية عن عظم الجاه وجلالة القدر ، وخالد هذا حفيد معاوية بن أبي سفيان . ويعد في طليعة المشتغلين بالعلوم الكيمائية والفلسفية من المسلمين .

(٢) أصبهان : مدينة فارسية ، هزلتنا : ألحقت بنا الهزال ، السفاهة : عدم الرشد ، الحميم : الصديق ، أو القريب الشديد القرابة ، والماء الحار من معانيه أيضاً وتصح إرادته على معنى أنه كان أرحم للشاعر من أصبهان وجوها .

(٣) بعض الآية ٤٠ من سورة آل عمران .

(٤) بعض الآية ٨ من سورة مريم .

(٥) شعفت فؤادها : غشى حي قلبها وغلبه ، والمهنوءة : المطلية بالقطران وشعفها بالقطران : طلاها به ودهنها ، والطالي : هو من يدهنها به للعلاج .

وقوله :

١٦٠ ـ فجِئْتُ ، وقد نَضَّتْ لنومٍ ثيابَها
لدى السِّتْر إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ (١)

وقوله تعالى : « أوْ قَالَ : أُوحِيَ إليَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيْءٌ »(٢) وقوله : أنَّى يَكُونُ لي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » (٣) وقول كَعْبٍ :

١٦١ ـ لا تَأْخُذَنِّي بأقوال الوُشَاةِ ، ولم
أذْنِبْ ، وإن كثرَتْ فيَّ الأقاويلُ (٤)

وقوله تعالى : « أم حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخلُوا الجنَّةَ ، ولَمَّا يأتِكُمْ مَثَلُ الَّذينِ خلَوْا مِن قَبْلِكُم » (٥) وقولِ الشاعر :

١٦٢ ـ بانت قَطَامِ ، ولَمَّا يَحْظَ ذو مِقَةٍ
منها بوصْلٍ ولا إنْجَازِ مِيعاد (٦)

---

(١) نضت ثيابها : نزعتها قطعة إثر قطعة ، اللبسة بكسر اللام : النوع من الثياب ، أو الحالة من حالات اللبس وهيئاته ، والإضافة هي التي تخصص النوع أو الحالة ، ولبسة المتفضل ، وهو الثوب الذي يبتذل في الشغل ، أو يتخذ للنوم ، أو يتوشح به في البيت ، والشاعر : امرؤ القيس أيضاً .

(٢) بعض الآية ٩٣ من سورة الأنعام .

(٣) بعض الآية ٢٠ من سورة مريم .

(٤) الوشاة : جمع واش ، وهو من ينم على الناس ، ويسعى بهم . أو من يكذب في كلامه ، والأقاويل : جمع المصدر من أقاله إقالة بمعنى قوله ما لم يقل ، وكعب : بن زهير بن أبي سلمى ، والبيت من قصيدته المشهورة : « بانت سعاد » التي مدح بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعتذر إليه فيها ، فكافأه عليها ببردته .

(٥) بعض الآية ١١٤ من سورة البقرة .

(٦) قطام : اسم امرأة ، يحظى : يظفر ، المقة : الحب ، وفعله ومق ، وقائله الشرقي بن القطامي الشاعر الأموي .

وأما مَجيئُه بلا واو فكقوله تعالى « أَوْ جاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » (١) .

وقولِ الشاعر :

١٦٣ — وإنّي لَتَعْرُوني لذِكْرَاكِ هِزّةٌ
كما انتفض العُصْفور بَلَّلَهُ القَطْرُ(٢)

وقوله :

١٦٤ — أتيناكُمُ قد عَمَّكُمْ حَذَرُ العدا
فنلتم بنا أَمْناً ، ولم تَعْدَموا نَصْرا

وقوله :

١٦٥ — مَتَى أرى الصُّبحَ قد لاحت مخايِلُهُ
والليلَ قد مُزِّقَتْ عنه السَّرَابِيلُ(٣)

وكقوله تعالى : « فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » (٤) وقوله : « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لم يَنَالُوا خَيْراً » (٥) وقولِ امْرِءِ القَيْسِ :

---

(١) بعض الآية ٩٠ من سورة النساء .

(٢) تعروني : تلم بي وتنتابني ، هزة : نشاط وارتياح ، والبيت لأبي صخر الهذلي الشاعر الإسلامي .

(٣) المخايل : جمع مخيلة ، وهي المظنة ، فمخايل الصبح : الأمارات التي يظن أنها تتقدمه ، والسرابيل : جمع سربال ، وهو القميص ، أو هو كل ما يلبس . وليس لليل سرابيل ، وإنما له ظلمات تحجب ما خلفها كما تحجب السرابيل ، والبيت من أبيات في وصف ليل « صول » الفارسية ، لحندج بن حندج المري الشاعر الأموي

(٤) بعض الآية ١٧٤ من سورة آل عمران .

(٥) بعض الآية ٢٥ من سورة الأحزاب .

وقولِ الآخر :

١٧٠ — « ما بال عَيْنِكَ دَمْعُها لا يَرْقأُ ؟ ! »(١)

وقولِ الآخر :

١٧١ — « ثُمَّ راحوا ، عَبَقُ المِسْكِ بهم »(٢)

وأما الثاني فلعدم دلالة الاسمية على عدم الثبوت، مع ظهور الاستئناف فيها ؛ لاستقلالها بالفائدة ، فتحسُنُ زيادةُ رابطٍ ، ليتأكَّد الربْطُ .

وقال الشيخ عبد القاهر : إن كان المُبْتَدأُ ضميرَ ذي الحال ؛ وجب الواوُ ، كقولك : جاء زيدٌ وهو يُسْرع ، أو وهو مُسرِعٌ ، ولعل السبب فيه أن أصل الفائدة كان يصل بدون هذا الضمير ، بأن يقال : جاءني زيدٌ يُسْرِعُ ، أو مسرعاً ؛ فالإتيان به يُشْعِرُ بقصد الاستئناف المنافي للاتصال ؛ فلا يصلح لأن يستقل بإفادة الربط ؛ فتجب الواو .

وقال أيضاً : إن جُعِل نحو « على كَتِفِه سَيفٌ » — بتقديم الظرف — حالاً عن شيء ، كما في قولنا : « جاء زيدٌ على كَتِفِه سيْفٌ » كثُر فيها أن تجيء بغير واو ، كقول بَشَّارٍ :

١٧٢ — إذا أنكرتْني بلدةٌ ، أو نَكِرْتُها
خرجتُ مع البازِي عَلَيَّ سَوادُ(٣)

---

(١) لا يرقأ : لا ينقطع ويجف .

(٢) بقيته : « يلحفون الأرض هداب الأزر »

عبق المسك : رائحته التي تفوح منه ، الأزر : جمع إزار ، وهو كل ما ستَرك ، أو هو الملحفة ، وهدابه : الخيوط التي تتدلى من طرفه ، ويلحفون الأرض إياه : بمعنى يجرونه على وجهها فكأنه ملحفة لها ، وواضح أن المعاني تتوافر على وصف القوم بصفات الشرف والمجادة كما يفهمها الجاهليون ، والشاعر طرفة بن العبد الجاهلي .

(٣) أنكرتني : لم تعرف قدري ، نكرتها : كرهتها ، البازي . ضرب من الصقور ، ويجوز ترك يائه ، واختاره لأنه أشد الطيور تبكيراً ، وخروجه معه ، ثم خروجه يلفه سواد الليل . كنايتان عن مبادرته فراق هذه البلدة .

يعني عَلَيَّ بقيةٌ من الليلِ ،وقولِ أبي الصَّلْتِ عبدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ يمدحُ ابنَ ذي يَزَنَ :

١٧٣ – فَاشْرَبْ هَنِيئاً عليكَ التاجُ مُرْتَفِقاً
في رأس غُمْدَانَ داراً مِنْكَ مِحْلاَلاَ(١)

وقول الآخر :

١٧٤ – لقد صَبَرَتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنْبَرٍ
تقومُ عليها في يَدَيْكَ قَضِيب(٢)

ثم قال: والوجهُ أن يُقدَّر الاسمُ في الأمثلة مُرْتَفِعا بالظرف ؛ فإنه جائز باتفاقٍ من صاحب الكتاب وأبي الحَسَنِ (٣) ؛ لاعتماده على ما قبله ، ثم اختار أن يكون الظرف ههنا خاصَّةً في تقدير اسم فاعل ، وجوَّز أيضا أن يكون في تقدير فعلٍ ماضٍ مع « قَدْ » ومنَعَ أن يكون في تقدير فعل مضارع .

ولعله إنما اختار تقديره باسمِ فاعلٍ لرجوع الحال حينئذ إلى أصلها في الإفراض ولهذا كثُر مَجِيئُها بلا واو ، وإنما جوَّز التقديرَ بفعل

---

(١) مرتفقاً : متكئاً على مرفقك ، وبذلك يكون قد وصفه على الحالة التي يصادف عليها الممدوحون أو بعضهم وقت الإنشاد ، أو مستفيداً مستغلا ، من قولهم « ارتفق بالشيء » إذا انتفع به ، وغمدان بضم أوله : قصر كان من مصانع اليمن الكبرى في القديم ، ومحلالا : كثيرة إحلال الناس للضيافة ، وينسب البيت لأمية بن أبي الصلت ، ولأبيه ، وسيف بن ذي يزن . مخلص اليمن من محتليها الحبش ، والقصة الشعبية المنسوجة حوله تقوم على أساس هذه البطولة .

(٢) أعواد المنبر : أخشابه التي صنع منها ، القضيب : السيف ، أو ما يتخذه الخطيب من الأغصان كالمخصرة ونحوها ، والبيت لوائلة السدوسي يهجو عبد الملك بن المهلب .

(٣) صاحب الكتاب . سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين ، وأبو الحسن . الكسائي علي بن حمزة إمام الكوفيين .

القول في الإيجاز والإطناب والمُسَاواة

رأي للسكاكي ١١٣ ــ قال السكاكي :

أما الإيجاز والإطناب ، فلكونهما نِسْبِيَّيْنِ ، لا يتيسَّر الكلام فيهما إلاَّ بتَرْك التحقيق ، والبناء على شيء عُرْفيّ ، مثل جَعْلِ كلام الأوْساط على مَجْرَى مُتَعَارَفِهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ــ ولا بُدَّ من الاعتراف بذلك ــ مَقِيساً عليه ، ولنُسَمِّهِ متَعَارَفَ الأوساط وأنه في باب البلاغة لا يُحْمَد منهم ولا يُذَمّ .

فالإيجاز هو أداءُ المقصودِ من الكلام بأقلَّ من عبارات متَعارَف الأوساط ، والإطناب هو أداؤه بأكثرَ من عبارته ، سَواءٌ كانت القِلَّةُ أو الكثرةُ راجِعةً إلى الجُمَلِ ، أوإلى غير الجمل .

ثم قال : الاختصار لكَوْنِه من الأمور النسبِيَّةِ ؛ يُرْجَعُ في بيان دَعْوَاه إلى ما سبق تارةً ، وإلى كون المقام خليقاً بأبسطَ ممَّا ذُكِرَ أخرى .

مناقشته وفيه نظر ؛ لأن كونَ الشيء نسبياً لا يقتضِي أن لا يتيسَّر الكلام فيه إلا بترك التحقيق ، والبناء على شيء عُرْفيّ .

ثم البناء على مُتعارفَ الأوساط . والبَسْطُ الذي يكون المقصودُ جديراً به ، رَدٌّ إلى جهالةٍ ؛ فكيف يصلُح للتعريف ؟

رأينا ١١٤ ــ والأقربُ أن يُقال :

المقبول من طُرُق التعبير عن المعنى : هو تَأْدِيَةُ أصل المُرَاد بلفظٍ مُساوٍ له ، أو ناقصٍ عنه وافٍ ، أو زائدٍ عليه لفائدة .

المساواة

والمراد بالمساواة : أن يكـن اللفظ بمقدار أصل المراد ؛ لا ناقصاً عنه بحـذف أو غـيره ، كما سيأتي ، ولا زائداً عليه بنحو تَكْرير ، أو تَتْميم ، أو اعتراض ، كما سيأتي .

وقولنا : « وافٍ » احتّراز عن الإخلال ، وهو أن يكون اللفظ قاصراً عن أداء المعنىّ ، كقول عُرْوَةَ بنِ الوَرْدِ :

١٧٧ — عَجِبْتُ لهم إذ يقتلون نفوسَهم
وَمَقْتَلُهُمْ عند الوَغَى كان أعْذَرا(١)

فإنه أراد : إذ يقتلون نفوسهم في السّلْم ، وقول الحَارِث بْنِ حِلِّزَةَ :

١٧٨ — والعيشُ خَيْرٌ في ظلا
ل النَّوْكِ مِمَّن عاش كَدّاً(٢)

فإنه أراد : العيشُ الناعمُ في ظلال النَّوْكِ : خيرٌ من العيش الشّاقّ في ظلال العقل ؛ فأخلّ كما ترى .

وقولنا : « لفائدة » احتّرازٌ من شيئين :

التطويل

أحدهما : التطويل ، وهو أن يتعيَّن الزائد في الكلام ، كقوله :

---

(١) الوغى : الحرب .
(٢) النوك ، بفتح النون وضمها : الحمق ، والكد : التعب ، والمشقة .

وقولِ زُهَيْرٍ :

١٨٥ – وأعلـم عـلمَ اليومِ والأمسِ قبلَه
ولكنَّني عن علم ما في غَدٍ عَمِ(١)

فإن قوله « قبله » مُسْتغْنىً عنه غيرُ مفسدٍ .

وقولِ أبي عَدِيٍّ :

١٨٦ – نحنُ الرؤُوس ، وما الرؤُوسُ إذا سَمَتْ
في المجْدِ للأقوام كالأذْناب (٢)

فإن قوله « للأقوام » حشوٌ لا فائدة فيه ؛ مع أنه غيرُ مُفْسد .

اشتباه الحال على الناقد

١١٥ – واعلم أنه قد تشتبه الحالُ على الناظر ؛ لعدم تحصيل معنى الكلام وحقيقته ؛ فَيَعُدُّ من الزائد على أصل المراد ما ليس منه ، كما مثَّله بعضُ الناس بقول القائل :

١٨٧ – ولمّا قَضَيْنَا من مِنىً كلَّ حاجَةٍ
ومسَّح بالأركان مَنْ هُوَ ماسِحُ(٣)

(١) عم : أعمى ، والكلام على التشبيه ، أي جاهل كالأعمى لا يدرك . والبيت من معلقة زهير بن أبي سلمى .

(٢) التشبيه ملاحظ فيه القيد المستفاد من جملة الشرط ؛ فهو لم يرتض لقومه في الرفعة بوضع الرؤوس الطبعي . وهو في حقيقته وضع ممتاز بالنسبة لغيره من الأعضاء ، بل جعلها رؤوساً سامية متعالية بالمجد وللمجد ، واختياره الأذناب ، دون سائر الأعضاء عند المقارنة : يشعر برغبته في التعريض . وصاحب معاهد التنصيص منسب البيت لعدي بن زيد ، لا لأبيه .

(٣) منى : منسك من مناسك الحج ، الأركان : هي هنا أركان الكعبة وجوانبها يمسها الناس بأيديهم وقت الطواف ، تخشعاً لله ، وتعبيراً بالحركة الظاهرة – وغالباً ما تكون بلا وعي ولا عمد – عن التعلق القلبي بهذا المشعر الحرام ، وتضعيف

وشُدَّتْ على دُهْمِ المهارَى رِحالنا
ولم يَنْظُرِ الغادِي الَّذي هُوَ رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالتْ بأعناق المَطِيِّ الأباطِحُ

يُبَيِّنُ أنه ليس منه : ما ذكره الشيخ عبد القاهر في شرحه .

قال : أوّلُ ما يتلقَّاكَ من محاسِنِ هذا الشعر ؛ أنه قال : « ولما قضَيْنا من مِنىً كل حاجة » فعبَّر عن قَضاء المناسك — فرائِضِها وسُنَنِها — بطريقِ العموم الذي هو أحدُ طُرُقِ الاختصار .

ثم نبَّه بقوله : « ومسح بالأركان من هو ماسح » على طواف الوَداع الذي هو آخرُ الأمر ، ودليلُ المسير الذي هو مقصوده من الشعر .

ثم قال : « وشُدَّت — البيتَ » فوصل بذكر مسح الأركان ماوَلِيهُ من زَمِّ الركاب وركوب الرُّكبان .

ثم دَلَّ بلفظ « الأطراف » على الصفة التي تختصُّ بها الرِّفاقُ في

الفعل « مسح » للمبالغة في أصل الفعل ، وشدت الرحال : ربطت وأوثقت على الركائب ، يكنى بشد الرحال عن السفر . الدهم : السود ، واحدها أدهم أو دهماء ، المهارى : جمع مهرية نسبة إلى مهرة بن حيدان من اليمن ، وتوصف بها الإبل السريعة القوية ، الغادي : السائر وقت الغدوة ، الرائح : السائر وقت الروحة ، هذا أصلهما . وقد يستعملان في مجرد الذاهب والآيب ، كما في البيت . أطراف الأحاديث تمثيلية ، مقتضاها تشبيه الحديث بين السامرين ، بثوب يلقى بين جماعة ، يتناوله كل منهم من جانب . المطي : جمع مطية ، وهي الركوبة ، والأباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل واسع ، فيه رمل ودقاق الحصى ، وسيله بأعناق المطي : تصوير بديع لامتلائه بإبل تسير في رفق وموالاة حثيثة شبهها في حركة أعناقها التي توقظ في الذهن عند رؤيتها برؤية الماء يسيل وتتلاحق موجاته . وتنسب الأبيات لكثير بن عبد الرحمن صاحب عزة ، وتنسب كذلك ليزيد بن الطثرية ، وكلاهما شاعر أموي .

وثالثها : ما يفيد تنكير « حياة » من التعظيم ، أو النَّوْعِيَّةِ ، كما سبق .

ورابعُها : اطّراده ، بخلاف قولهم . فإن القتل الذى يَنفِي القتلَ : هو ما كان على وجه القصاص ، لا غيرُه .

وخامسُها : سلامتُه من التكرار الذي هو من عيوب الكلام ، بخلاف قولهم .

وسادسُها : استغناؤه عن تقدير محذوفٍ ، بخلاف قولهم . فإن تقديره : القتلُ أنفَى للقتلِ من تركه .

وسابعُها : أن القِصاصَ ضِدُّ الحياةِ . فالجمعُ بينهما طِبَاقٌ ، كما سيأتي .

وثامنها : جعلُ القصاص كالمنبع والمعدن للحياة ، بإدخال « في » عليه ، على ما تقدم .

مثل لإيجاز القصر غير ما تقدم

ومنه قوله تعالى : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » (١) أي هُدًى للضَّالِّينَ الصائرينَ إلى الهدى بعد الضلال . وحَسَّنه التوصُّلُ إلى تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، وإلى تَصدير السُّورةِ بذكر أولياء اللهِ تعالى .

وقولُه : « أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ » (٢) أي : بما لا ثبوت له ؛ ولا علمُ الله متعلقٌ بثبوته ؛ نفياً للملزوم بنَفْيِ اللازم . وكذا قولُه تعالى « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ حمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ » (٣) أي : لا شفاعة ولا طاعة ، على أسلوب قوله :

---

(١) بعض الآية ٢ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ١٨ من سورة يونس .

(٣) بعض الآية ١٨ من سورة غافر ، الحميم من معانيه : القريب الذي يهمك وتهمه ، والصديق .

١٨٩ — على لاَحِبٍ لا يُهتَدى بمنارِهِ(١)

أي : لا مَنارَ ، ولا اهتداء ، وقولـه :

١٩٠ — ولا ترى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرُ (٢)

أي لا ضَبَّ ، ولا انْجِحار .

ومن أمثلة الإيجاز أيضاً : قولُه تعالى فيما يُخاطِب به النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام : « خُذِ العَفْوَ ، وأمرْ بِالْعُرْفِ ، وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » (٣) فإنه جمع فيه مكارِمَ الأخلاق لأن قوله : « خُذِ العَفْوَ » أمْرٌ بإصلاح قُوَّةِ الشَّهْوة . فإن العفو ضِدُّ الجهل ، قال الشاعر :

١٩١ — خُذِي العَفْوَ مِنّي تستديمي مَوَدَّتي(٤)

أي خُذِي ما تيسَّر أخذُهُ وتَسَهَّل ، وقوله : « وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » أمرٌ بإصلاح قُوَّة الغضب ، أي أعرِضْ عن السُّفَهاء واحْلُم عنهم ، ولا تُكافِئْهم على أفعالهم . هذا ما يرجع إليه منها . وأمّا ما يرجع إلى أمّتِه : « فدلَّ عليه بقوله وأمُرْ بالعرف » أي :

---

(١) بقيته « إذا سافه العود النباطي جرجرا » .

اللاحب : الطريق الواضح ، المنار : العلامة ، سافه : شمه ، العود : الجمل المسن ، النباطي : الضخم ، جرجر : رغا وضج ، والبيت لامرىء القيس .

(٢) صدره : « لا يفزع الأرنب أهوالها » .

والضمير للصحراء ، وينجحر : يدخل جحره ، وهو لأوس بن حجر — بالتحريك — وهو شاعر جاهلي وصاف .

(٣) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف ، العفو : الفضل ، العرف : المعروف .

(٤) عجزه « ولا تنطقي في سورتي حين أغضب » .

سورتي : شدة غضبي ، والشاعر : أسماء بن خارجة الفزازي .

بالمعروف والجميل من الأفعال . ولهذا قال جَعْفَرٌ الصادق (١) — رضي الله عنه — فيما رُوي عنه : أمَرَ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بمكارمِ الأخلاق ، وليس في القرآن آيةٌ أجمَعُ لها من هذه الآيةِ .

ومنها قولُ الشريف الرضى :

١٩٢— مالوا إلى شُعَبِ الرِّحَالِ وأسندوا
أَيْدِي الطِّعَانِ إلى قُلُوبٍ تَخْفِقُ (٢)

فإنه لما أراد أن يصفَ هؤلاء القومَ بالشجاعةِ في أثناء وَصْفِهم بالغرام : عبَّر عن ذلك بقوله « أيدي الطعان » .

ومنه ما كتب عَمْرُو بن مَسْعَدَةَ عن المأمون ، لرجل يُعْنَى به ، إلى بعض العمال ، حيث أمره أن يختصر كتابه ما أمكن : « كتابي إليكَ كتابُ واثقٍ ممَّن كتبَ إليه ، مَعْنِيٍّ بمن كُتِبَ له ، ولن يضيع بين الثِّقة والعناية حامله » (٣) .

إيجاز الحذف وأنواعه

الضرب الثاني : إيجاز الحذف ، وهو ما يكون بحَذْفٍ .

---

(١) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وهو أحد الأئمة الاثني عشر لمذهب الشيعة الإمامية ، توفي سنة ١٤٨ هـ .

(٢) الشعب : واحدتها شعبة ، وهي غصن الشجرة ، فشعب الرحال : خشبها المتخذ من فروع الشجر ، ومالوا إليها : انحنوا مطرقين مما بهم من الفراق ، الطعان : التضارب في القتال ، وإضافته إلى الأيدي تفيد شجاعةَ أصحابها ، وتخفق : تضطرب ، قصده : أن التأثر جاوز المدى ، حتى خافوا على قلوبهم أن تنخلع من شدة الخفقان — وهم أهل الشجاعة والجلد — فأسندوها بأيديهم تثبيتاً لها وتمكيناً في أماكنها . والشريف الرضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم ، شاعر كاتب توفي سنة ٤٠٦ .

(٣) عمرو بن مسعدة الصولي : من أساطين الكتابة والوزارة أيام الخليفة العباسي عبد الله المأمون بن هارون الرشيد .

والمحذوفُ : إما جزءُ جملة أو جملةٌ ، أو أكثرُ من جملة .

الإيجاز بحذف المضاف

والأول : إمَّا مُضافٌ ، كقوله تعالى : « واسْأَلِ القَرْيَةَ » (١) أي : أهلَها ، وكقوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُم المَيْتَةُ » (٢) أي : تناوُلها . لأن الحكم الشرعيَّ إنما يتعلق بالأفعال ، دون الاجرام ، وقوله: « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » (٣) أي : تناوُلَ طيِّباتٍ أُحِلَّ لهم تناوُلها ، وتقديرُ التناوُل أَوْلَى من تقدير الأكل ؛ ليدخل فيه شربُ ألبان الإبل . فإنها من جملة ما حُرِّمَتْ عليهم ، وقوله : « وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » (٤) أيْ : منافعُ ظهورِها . وتقديرُ المنافع أَوْلَى من تقدير الركوب . لأنهم حرموا ركوبَها وتحميلَها ، وكقوله تعالى : « لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ » (٥) أي : رَحمة الله ، وقوله : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ » (٦) أيْ : عذابَ ربِّهم . وقد ظهر هذان المضافانِ في قوله : « يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه » (٧) .

الإيجاز بحذف الموصوف

وإمَّا مَوصوفٌ . كقوله :

١٩٣ — أنَا ابْنُ جَلاَ وطَلاَّعُ الثَّنَايا (٨)

(١) بعض الآية ٧٢ من سورة يوسف .

(٢) بعض الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) بعض الآية ١٦ من سورة النساء .

(٤) بعض الآية ١٣٨ من سورة الأنعام .

(٥) بعض الآية ٢١ من سورة الأحزاب . أو الآية ٦ من سورة الممتحنة .

(٦) بعض الآية ٥٠ من سورة النمل .

(٧) بعض الآية ٥٧ من سورة الإسراء .

(٨) عجزه : متى أضع العمامة تعرفوني .

الثنايا : جمع ثنية . ومن معانيها : العقبة والطريق في الجبل . وطلوع الثنايا : ضرب مثلا لتحمل المشاق وركوب الأمور الصعبة ، والعمامة : هي المعروفة عند

=

أي : أنا ابنُ رجلٍ جَلاَ .

الإيجاز بحذف الصفة

وإما صفةٌ ، نحو : « وكَانَ وَرَاءهُمْ مَلِكٌ يَأخُذُ كلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً » (١) . أي : كلَّ سفينة صحيحة ، أو صالحةٍ ، أو نحو ذلك ، بدليل ما قبله . وقد جاء ذاك مذكوراً في بعض القراءات ، قال سعيدُ بْنُ جُبَيْر (٢) : كان ابنُ عبَّاسٍ (٣) — رضي الله عنهما — يقرأ : « وكَانَ أمامَهم مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً » .

الإيجاز بحذف جواب الشرط للاختصار

وإما شرطٌ ، كما سبق . وإما جواب شرطٍ ، وهو ضَرْبان . أحدُهما : أن يُحْذَف لمجرَّد الاختصارِ ، كقوله تعالى : « وَإذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون » (٤) أيْ : أعرِضُوا ، بدليل قَوْله بعدَه: « إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥) وكقوله تعالى : « وَلَوْ أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ ، أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرْضُ ، أو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى » (٦) أيْ لكان هذا القرآنَ ، وكقوله تعالى « قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ

العرب التي تلف على الرأس ، ومعنى وضعها حينئذ : وضعها على رأسه ورفعها لينكشف وجهه ويعرفه الناس ، ويتضح هذا من قصة الحجاج حيث تمثل بالبيت وحسر العمامة عن وجهه في خطبته مهدداً أهل الكوفة ، أو هي زرد ينسج نسج الدروع على قدر الرأس ، ويلبس تحت القلنسوة وقاية ، من أدوات القتال ، والبيت لسحيم ابن وثيل الرياحي .

(١) بعض الآية ٨٩ من سورة الكهف .

(٢) سعيد بن جبير : تابعي روى عن ابن عباس كثيراً ، ويعتبر من أعلم علماء مكة بالتفسير في القرن الأول .

(٣) هو عبد الله بن عباس ، وعباس بن عبد المطلب أبوه عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو جد خلفاء الدولة العباسية .

(٤) الآية ٤٥ من سورة يس .

(٥) بعض الآية ٤٦ من سورة يس .

(٦) بعض الآية ٣١ من سورة الرعد .

عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بني إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ، فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ ؟ » أي : ألستم ظالمين ، بدليل قوله بعدَهُ « إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ » (١) .

والثاني : أن يُحْذَفَ للدلالة على أنه شيءٌ لا يُحيط به الوصفُ .

الايجاز بحذف جواب الشرط للتهويل فيه

أو لتذهبَ نفسُ السامع فيه كلَّ مَذْهَبٍ ممكن ؛ فلا يَتَصَوَّرُ مَطلوباً أو مكروهاً إلاَّ يُجَوِّزُ أن يكونَ الأمرُ أعظَمَ منه ، ولو عُيِّنَ شيءٌ اقتصر عليه . وربما خَفَّ أمْرُه عِنْدَه . كقوله : « وَسِيقَ الّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إلى الجنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إذَا جَاؤُوهَا وَفُتِّحَتْ أبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ، فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » (٢) وكقوله « وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ » (٣) « وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ » (٤) « وَلَوْ تَرَى إذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (٥) .

الإيجاز بحذف جزء من أجزاء الجملة غير ما ذكر من أمثلة الإيجاز بالحذف

وقال السكاكي رحمه الله : ولهذا المعنى حُذِفت الصلةُ من قولهم : جاء بعد اللَّتَيَّا(٦) والتي ، أيْ المشارِ إليه بهما ، وهي المِحنَةُ والشدائدُ قد بلغَتْ شِدَّتُها وفظاعةُ شأنها مبلغاً يُبْهَتُ الواصفُ معه حتى لا يُحِير بِبِنْتِ شَفَةٍ (٧) .

---

(١) بعض الآية ١٠ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر . زمراً : أفواجاً وجماعات

(٣) بعض الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٤) بعض الآية ٣٠ من سورة الأنعام .

(٥) بعض الآية ١٢ من سورة السجدة . ناكسو رؤوسهم : خافضوها مطأطئوها .

(٦) اللتيا وتضم لامه : تصغير التي ، واللتيا والتي : كناية عن أشياء متنوعة يدعى أنها تحدث من حقيرها إلى خطيرها قبل حصول فعل معين تهويلا من شأنه .

(٧) يبهت : يدهش ، وبابه « سمع » و « كرم » ومبني للمجهول ، لا يحير : لا يرد ولا يجيب ، وبنت الشفة : الكلمة واللفظة .

وَإمَّا غيرُ ذلك ، كقوله تعالى : « لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ (١) أي : وَمَنْ أنفق من بعده وقاتل ، بدليل ما بعده .

ومن هذا الضرب قوله : « رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي ،واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً » (٢) لأن أصله : يا ربِّ إني وَهَنَ العظمُ مِنِّي ، واشتعل الرأسُ مني شَيْباً .

وعدَّه السكاكي من القسم الثاني من الإيجاز على ما فسره ، ذاهباً إلى أنه وإن اشتمل على بسط ؛ فان إنقراض الشَّبَابِ وإلْمَامَ المَشِيبِ ؛ جديران بابْسطَ منه . ثم ذكر أن فيه لطائف يتوقف بيانها عن النظر في في أصل المعنى ومَرْتَبَتِهِ الأولى .

ثم أفاد أن مَرْتَبَتَه الأولَى : يا رَبِّي ، قد شِخْتُ . فإن الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن ، وشيب الرأس .

ثم تُرِكَتْ هذه المرتبةُ ، لِتَوخِّي مَزِيدِ التقرير إلى تفصيلها في « ضَعُفَ بَدَنِي ، وشاب رأسي » .

ثم تُرِكَ التصريحُ بِ « ضَعُفَ بدني » إلى الكناية بِ « وهَنَتْ عظامُ بدني » لما سيأتي أن الكناية أبلغُ من التصريح .

ثم لقَصْدِ مَرتبةٍ رابعةٍ أبلغَ في التقرير بُنِيَت الكنايةُ على المبدأ فحصل : أنا وَهَنَتْ عِظامُ بدني .

ثم لقصْدِ مرتبة خامسة أبلغ أُدْخِلَتْ « إن » على المبتدأ ، فحصل: إني وَهَنَتْ عِظامُ بدني .

---

(١) بعض الآية ١٠ من سورة الحديد .

(٢) بعض الآية ٤ من سورة مريم .

ثم لطلب تقرير أن الواهِنَ عظامُ بدنه قَصِدَ مرتبةٌ سادسة ، وهي سلوك طَرِيقَيْ الإجمال والتفصيل . فحصل : إني وهنت العظام من بدني .

ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به قُصِدَ مَرْتَبَةٌ سابعةٌ . وهي تَرْكُ توسيط البدن . فحصل : إني وَهَنَتْ العظامُ مِني .

ثم لطلب شمول الوَهن العظامَ فَرْداً فَرْداً : قُصِدَتْ مرتبةٌ ثامنةٌ ، وهي ترك الجمع إلى الإفراد ؛ لصحة حُصولِ وَهَنِ المجموع بوهَنِ البعض دون كل فرد فرد ، فحصل ما ترى .

وهكذا تُرِكَتِ الحقيقة في : « شاب رأسي » إلى الاستعارة في اشتعل شيب «رأسي » لما سيأتي أن الاستعارة أبلغُ من الحقيقة .

ثم تُرِكَتْ هذه المرتبةُ إلى تحويل الإسناد إلى الرأس ، وتفسيرهُ بـ « شَيْباً » لأنها أبلغ من جهات :

إحداها : إسناد الاشتعالُ إلى الرأس ؛ لإفادة شمول الشَّيْبِ الرأسَ ؛ إذ وِزانُ « اشتعل شيب رأسي » و « اشتعل رأسي شيباً » وِزانُ « اشتعل النار في بيتي ، واشتعل بيتي ناراً » والفرق بين .

وثانيتها : الإجمال والتفصيل في طريق التمييز .

وثالثتها : تنكير « شيباً » لإفاد المبالغة .

ثم يُتْرِك « اشتعل رأسي شيباً » لتَوَخِّي مَزِيد التقرير إلى « اشتعل الرأس مني شيباً » على نحو « وهن العظم مني » .

ثم تُرِكَ لفظ « مِنِّي » لقرينة عطف « اشتعل الرأس » على « وهن العظم مني » لمزيد التقرير ، وهو إيهام حَوالَةِ تَأدِيَةِ مفهومه على العقل دون اللفظ .

ثم قال عقيبَ هذا الكلام : واعلم أن الذي فتق أكمام هذه الجهات

عن أزاهير القبول في القلوب : هو أن مقدّمة هاتين الجملتين وهي « ربِّ » اختُصِرَت ذلك الاختصارَ ، بأن حُذِفَتْ كلمةُ النداء ، وهي « يا » وحُذِفَتْ كلمةُ المضاف إليه ، وهي ياء المتكلم ، واقتُصِرَ من مجموع الكلمات على كلمة واحدة فحسْبُ ، وهي المنادَى . والمقدمة للكلام – كما لا يخفى على مَنْ له قَدَمُ صِدْقٍ في نهج البلاغة – نازلةٌ منزلةَ الأساس للبناء . فكما أن البنّاء الحاذق ؛ لا يرمي الأساس إلا بقدر ما يُقَدِّ من البناء عليه ، كذا البليغ يصنع بمبدأ كلامه . فمتى رأيتَه قد اختصر المبدأ ؛ فقد آذنَكَ باختصار ما يورد . انتهى كلامُه .

وعليك أن تتنبَّه لشيء ، وهو أن ما جعله سبباً للعدول عن لفظ « العظام » إلى لفظ « العظم » فيه نظر . لأنا لا نُسلِّم صحةَ حصولِ وَهَنِ المجموع بوَهَنِ البعض ، دونَ كلِّ فرد .

فالوجهُ في ذكرِ « العظم » – دونَ سائر ما تركَّب منه البدن – وتوْحيدِه ؛ ما ذكره الزمَخْشَرِيُّ قال : إنما ذُكِرَ « العظمُ » لأنه عمود البدن ، وبه قوامُه ، وهو أصل بنائه ، وإذا وَهَنَ : تَداعَى وتساقطت قوته ، ولأنه أشدُّ ما فيه وأصلبُهُ فإذا وَهَنَ كان ما وراءه أوْهَنَ ، ووحَّدَهُ لأن الواحد هو الدّالُ على معنى الجنسية وقصدُه : إلى هذا الجنسَ – الذي هو العمود ، والقِوام ، وأشد ما تركب منه الجسد – قد أصابه الوهَن ، ولو جُمع لكان قصداً الى معنى آخر . وهو أنه لم يهِنْ منه بعضُ عِظامه ، ولكن كلُّها .

واعلم أن المراد بشمول الشيْبِ الرأسَ أن يَعُمَّ جملتَه حتى لا يبقى من السواد شيءٌ ، أو لا يبقى منه إلا مما لا يُعْتَدّ به .

الإيجاز بحذف جملة مضمونها مسبب بعد ذكر سببه

والثاني – أعني ما يكون جملة – إمَّا مُسَبَّبٌ . ذُكِرَ سببه ، كقوله تعالى : « ليُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ البَاطِلَ » (١) أي : فَعَلَ ما فَعَلَ

(١) بعض الآية ٨ من سورة الأنفال .

وقوله : « ومَا كُنْتَ بجانب الطُّورِ إذْ نَادينا ، ولَكِن رَحمَةً من رَبِّكَ » (١) أي . اخترناك ، وقوله « لِيُدْخِلَ اللهُ في رَحمَته مَنْ يَشَاءُ » (٢) أي : كان الكفُّ ومَنْعُ التعذيب . ومنه قولُ أبي الطَّيِّبِ :

١٩٤ – أَتَى الزَّمانَ بَنُوهُ في شَبيبتِه فسرَّهم، وأتَيناه على الهرم(٣)

أيْ : فساءنا .

أو جملة مضمونها سبب بعد ذكر مسببه

أو بالعكس ، كقوله تعالى : « فتُوبُوا إلى بَارِئكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذلِكُم خيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئكُم ، فتَابَ عَلَيكُمْ (٤) أي : فامتثلتم فتاب عليكم ، وقوله : « فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ » (٥) أي : فضربه بها فانفجرت ، ويجوز أن يقدَّر : فإن ضربْتَ بها فقد انفجرَتْ ، أو غيرَ ذلك ، كقوله تعالى : « فَنِعْمَ الماهدُونَ » (٦) على ما مرَّ .

الإيجاز بحذف أكثر من جملة

والثالث : كقوله تعالى : « فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كذلِكَ يُحْيي اللهُ الموْتى» (٧) أي : فضربوه ببعضها فحيي ، فقلنا : كذلك يحيي الله الموتى ، وقوله : « أنَا أُنبِئُكُمْ بتَأْوِيلِه فَأَرْسِلُونِ يو سُفُ » (٨) أي : فأرسِلوني إلى يوسفَ لاستعبرَه الرُّؤْيا ، فأرسلوه

---

(١) بعض الآية ٤٦ من سورة القصص .

(٢) بعض الآية ٢٥ من سورة الفتح .

(٣) شبيبته : شبابه ونقاؤه ، الهرم : بلوغ أقصى الكبر .

(٤) بعض الآية ٥٤ من سورة البقرة . بارئكم : خالقكم .

(٥) بعض الآية ٦٠ من سورة البقرة .

(٦) بعض الآية ٤٨ من سورة الذاريات .

(٧) بعض الآية ٧٣ من سورة البقرة .

(٨) بعض من الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة يوسف .

إليه فأتاه ، وقال له : يا يوسُفُ وقوله : « فَقُلْنَا اذْهَبَا إلى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا . فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً » (١) أي : فأتياهم فأبلغاهم الرسالة ، فكذّبوهما، فدمّرناهم . وقوله : « فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا : إنّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ: أنْ أرْسِلْ معنا بَنِي إسْرَائِيلَ ، قَالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ ؟ » (٢) أي : فأتياه ، فأبلغاه ذلك ، فلما سمعه قال : ألم نربك ، ويجوز أن يكون التقدير : فأتَيَاه فأبلغاه ذلك : ثم يقدّر : فماذا قال ؟ فيقع قوله : « قال : ألم نربك » استئنافا . ونحوه قوله : « اذْهَبْ بكِتَابِي هذَا ، فَأَلْقِهِ إليْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ؟ قَالَتْ : يَا أَيهَا المَلأُ »(٣) أي : ففعل ذلك ، فأخذَتْ الكتاب فقرأته ، ثم كأن سائلاً سأل قال : فماذا قالت ؟ فقيل : قالت : يا أيها الملأ .

وأما قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحَمْدُ للهِ (٤) فقال الزمَخْشَرِيُّ في تفسيره : هذا موضعُ الفاء ، كما يقال : « أعطيتُه فشكر ، ومنعتُه فصبر » وعطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أحْدَثَ فيهما العلم ، كأنه قال : فعملا بهِ ، وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه ، والفضيلة ، وقالا : الحمد لله .

وقال السكّاكيُّ : يحتمل عندي أنه تعالى أخبرَ عمّا صنع بهما ، وعما قالا ، كأنه قال : نحن فعلنا إيتاء العلم ، وهما فَعَلاَ الحمدَ ، من غير بيانِ تَرتُّبِه عليه ؛ اعتماداً على فهم السامع ، كقولك : قُمْ يدعوك ؛ بدلَ : قُمْ فإنه يدعوك .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الفرقان ، دمرناهم : أهلكناهم .
(٢) الآيتان ١٦ و١٧ وبعض الآية ١٨ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٢٨ وبعض الآية ٢٩ من سورة النمل ، الملأ : جماعة القوم ، أو أشرافهم .
(٤) بعض الآية ١٥ من سورة النمل .

١١٨ ـ واعلم أن الحذف على وجهين : وجود الحذف

أحدهما : أن لا يُقام شيءٌ مُقامَا المحذوف كما سبق .

والثاني : أن يقام مقامُه ما يدُلُّ عليه ، كقوله تعالى : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أبلغتُكُم مَا أُرْسِلْتُ به إِلَيْكُمْ » (١) ليس الإبلاغُ هو الجواب ؛ لتقدمه على تَوَلِّيهم ، والتقدير : فإن تَوَلَّوْا فلا لوم عَلَيَّ ؛ لأني قد أبلغتكم ، أو فلا عذر لكم عند ربكم . لأني قد أبلغتكم ، وقوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ »(٢) أي : فلا تحزن ، واصبر . فإنه قد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك، وقوله : « وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (٣) أي : فيصيبُهم مِثلُ ما أصابَ الأولين .

١١٩ ـ وأدلة الحذف كثيرة . أدلة الحذف

منها : أن يدُلَّ العقل على الحذف، والمقصودُ الأظهرُ على تَعْيين المحذوف ، كقوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ » (٤) الآية ، وقوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُم » الآية . فإن العقل يدل على الحذف لما مر، والمقصود الأظهر يُرشِد إلى أن التقدير حُرِّم عليكم تناول الميتة ، وحُرِّم عليكم نِكاحُ أمَّهاتِكم . لأن الغرضَ الأظهرَ من هذه الأشياء تناوُلها ، ومن النساء نكاحُهُنَّ .

ومنها أن يدل العقل على الحذف والتعيين كقوله تعالى : « وجَاءَ رَبُّكَ » (٥) ، أي أمرُ ربك ، أو عذابُه ، أو بأسُه، وقوله تعالى :

---

(١) بعض الآية ٥٧ من سورة هود .
(٢) بعض الآية ٤ من سورة فاطر .
(٣) بعض الآية ٣٨ من سورة الأنفال .
(٤) بعض الآية ٣ من سورة المائدة .
(٥) بعض الآية ٢٢ من سورة الفجر .

« هَل يَنْظُرُونَ إلا أَنْ يَأتيَهُمُ اللهُ في ظلَلٍ منَ الغَمَامِ؟ »(١) أي : عذابُ الله ، أو أمرُه .

ومنها : أن يدل العقلُ على الحذف ، والعادةَ على التعيين ، كقوله تعالى حكايةً عن امرأة العزيز : « فَذَلكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّنِي فيهِ »(٢) دلّ العقلُ على الحذف فيه ؛ لأن الإنسان إنما يُلاَم على كسبه ؛ فيحتمل أن يكون التقدير : في حبه ؛ لقوله « قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً » (٣) وأن يكون : في مُرَاودَتِه ؛ لقوله « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » وأن يكون في شأنه وأمره ؛ فيشملهما ، والعادةُ دلَّت على تعيين المُرَاوَدَةِ . لأن الحبَّ المفْرِطُ لا يُلاَم الإنسانُ عليه في العادة ؛ لقهره صاحبَه وغلبتِه (إيَّاه) ، وإنما يلام على المراوَدَةِ الداخلة تحت كسبه التي يقْدِر أن يدفعها عن نفسه .

ومنها : أن تدل العادةُ على الحذفِ والتعيينِ ، كقوله تعالى : « لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ » (٤) مع أنهم كانوا أخبرَ الناس بالحرب ، فكيف يقولون : بأنهم لا يعرفونها ؟ ! فلا بد من حذفٍ ، قدَّره مجاهدٌ (٥) رحمه الله : مكانَ قتال ، أيْ : أنكم تقاتلون في موضع لا يصلح للقتال ، ويُخْشَى عليكم منه ، ويدل عليه أنهم أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يَخْرُجَ من المدينة ، وأن الحَزْمَ البقاء فيها .

---

(١) بعض الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٣٢ من سورة يوسف .

(٣) بعض الآية ٣٠ من سورة يوسف ، شغفه : أصل معناه : أصاب شغاف قلبه – بفتح الشين – أى غلافه ، ويستعمل في إفادة معنى شدة التأثير في القلب والتمكن منه ، تراوده عن نفسه : تخادعه وتطلب منه المنكر .

(٤) بعض الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .

(٥) مجاهد بن جبر ، كنيته أبو الحجاج ، تابعي وإمام من أئمة القراء توفي سنة ١٠٤ هـ .

ومنها : الشروع في الفعل ، كقول المؤمن « بسم الله الرحمن الرحيم » كما إذا قلت عند الشروع في القراءة « بسم الله » فإنه يفيد : أن المراد « بسم الله أقرأ » وكذا عند الشروع في القيام ، والقعود ، أو أيِّ فعل كان ؛ فإن المحذوف يقدَّر على حَسَب ما جُعِلَتْ التَّسْمِيَةُ مَبْدَأً له .

ومنها : اقتران الكلام بالفعل . فإنه يفيد تقريرَه ، كقولك لمن أَعْرَسَ : بالرِّفاء والبنين . فإنه يفيد : بالرِّفاء والبنين أعرسْتَ (١).

القسم الثالث الإطناب

الاطناب بالإيضاح بعد الإبهام

١٢٠ – وهو إما بالإيضاح بعد الإبهام ؛ لِيُرَى المعنى في صورتين مختلفتين . أو ليتمكنَ في النفس فضلَ تمكُّنٍ . فإن المعنى إذا أُلْقِيَ على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجه إلى ما يَرِدُ بعد ذلك ، فإذا أُلْقِيَ كذلك تمكَّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ ، وكان شعورها به أتم .

أو لتكمل اللذة بالعلم به . فإن الشيء إذا حصل كمالُ العلم به دفعةً لم يتقدَّمْ حصولَ اللذة به أَلَمٌ ، وإذا حصل الشعورُ به من وجه دون وجه ، تشوَّفت النفسُ إلى العلم بالمجهول ، فيحصُل لها بسبب المعلوم لذَّةٌ ، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم . ثم إذا حصل لها العلم به : حصلت لها لذة أُخرى ، واللذة عِقبَ الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم .

أو لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كقوله تعالى : « قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْرِي ، ويَسِّرْ لي أَمْرِي » (٢) فإن قوله : «اشْرَحْ لي » يفيد طَلَبَ شرح لشيءٍ مَا له ، وقوله : « صدري » يفيد تفسيرَه وبيانه ، وكذلك

(١) أعرس : اتخذ عرسا ، الرفاء – بكسر الراء – الاتفاق والتلاحم .
(٢) الآيتان ٢٥ و ٢٦ من سورة طه .

قوله : « وَيَسِّرْ لي أَمْرِي » والمقام مُقْتَضٍ للتأكيد ، للارسال المُؤْذِنِ بتلقِّي المكاره والشدائد ، وكقوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ : أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ » (١) ففي إبهامه وتفسيره تفخيمٌ للأمر ، وتعظيمٌ له .

ومن الإيضاح بعد الإبهام : باب « نعم وبئس » على أحد القولين(٢) ؛ إذ لو لم يُقْصَد الإطناب لقيل : نعم زيدٌ ، وبئس عمروٌ .

ووجهُ حُسْنِه — سِوَى الإيضاح بعد الإبهام — أمران آخران :

أحدهما : إبراز الكلام في معرض الاعتدال ؟ نظراً إلى إطنابه من وجه ، وإلى إختصاره من آخر . وهو حذف المبتَدَأ في الجواب .

والثاني : إيهام الجمع بين المتنافيين .

التوشيع

١٢١ — ومنه التوشيع (٣) ، وهو أن يُؤْتَى في عَجُزِ الكلام بمثنّىً مفسَّرٍ باسْمَيْنِ أحدُهما معطوفٌ على الآخر ، كما جاء في الخبر : « يَشِيبُ ابنُ آدَمَ ، ويَشِيبُ فيه خصلتان : الحرصُ ، وطولُ الأمل » (٤) وقول الشاعر :

١٩٥ — سَقَتْنِيَ في لَيْلٍ شَبِيهٍ بشَعْرِها
شبيهةَ خدَّيْها بغير رَقِيبِ(٥)

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الحجر ، دابر كل شيء : آخر ما يتبقى منه ، قطع دابرهم : استؤصلوا .

(٢) هو قول من يجعل المخصوص خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ لخبر محذوف ، والجملة مستأنفة للبيان ، أما القول الثاني : فيجعل المخصوص مبتدأ والجملة قبله خبر ؛ فالكلام حينئذ جملة واحدة .

(٣) التوشيع في اللغة : لف القطن بعد ندفه .

(٤) الخصال لا تشيب ، وإنما تقدم فتتمكن من النفس ، والشيب عادة دليل القدم وكبر السن ، وفي نسخة « ويشب » .

(٥) شبيهة خديها : هي الخمر ، والشاعر هو عبد الله بن المعتز .

فما زِلْتُ في لَيْلَيْنِ : شَعْرٍ وظُلْمَةٍ
وَشَمْسَيْنِ : من خَمْرٍ ، ووجْهِ حبيبِ

وقول البُحْتُرِيِّ :

١٩٦ – لما مَشَيْنَ بذي الأراكِ تشابهت
أعطافُ قُضْبَانٍ به ، وقُدُودِ (١)

في حُلَّتَيْ حِبَرٍ وَرَوْضٍ ، فالتَقَى
وَشْيانِ : وَشْيُ رُبىً ، وَوَشْيُ بُرُودِ

وسَفَرْنَ . فامتلأتْ عُيونٌ راقَها
وَرْدَان : وَرْدُ جَنىً ، وَوَرْدُ خُدُودِ

ذكر الخاص بعد العام

١٢٢ – وإما بذكر الخاصِ بعد العامّ ؛ للتنبيه على فضله ، حتّى كأنه ليس من جنسه ؛ تنزيلا للتغايرُ في الوصف منزلة التغايرُ في الذات ، كقوله تعالى : « مَنْ كَانَ عَدُوّاً لله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَرُسُلِه ، وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » (٢) وقوله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ » (٣) وقوله : « حافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى » (٤) .

---

(١) الأراك : شجر ، وذو الأراك : موطن يوجد به ، أعطاف : جوانب ، واحده : عطف بالكسر ، قضبان : أغصان ، مفرده : قضيب ، قدود : قامات ، واحده : قد – بفتح القاف وتشديد الدال ، الحلة : الثوب الجديد ، أو الثوب مطلقاً ، الحبر : ضرب من البرود اليمنية ، واحده حبرة ، والحلة : بالنسبة للروض استعارة لتفويف زهره ونواره ، الوشي · النقش ، الربى : جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الأرض . البرود : الأكسية المخططة ، واحدها : برد بالضم .

(٢) بعض الآية ٩٨ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٤) بعض الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .

١٢٣ - وإما بالتكرير لنُكْتَة ، كتأكيد الإنذار في قوله تعالى : « كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعلَمُونَ » (١) وفي « ثُمَّ » دلالةٌ على أن الإنذار الثاني أبلغُ وأشدُّ .

وكزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ؛ ليكمل تلَقِّي الكلام بالقبول ، (كما) في قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إنَّما هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ » (٢) .

وقد يكرَّر اللفظ لطول في الكلام ، كما في قوله تعالى : « ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ؛ إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣) وفي قوله تعالى : « ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنوا ، ثُمَّ جاهَدُوا وصَبروا ، إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدِها لغفورٌ رحيم(٤) .

وقد يُكرَّر لتعدُّد المُتَعَلَّق ، كما كرره الله تعالى من قوله : « فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبانِ » (٥) لأنه تعالى ذكر نعمةً بعد نِعمةٍ ، وعقَّب كلَّ نعمة بهذا القول . ومعلومٌ أن الغرض من ذكره عَقِيبَ نعمةٍ غيرُ الغرض من ذكره عَقِيبَ نعمةٍ أخرى .

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ من سورة التكاثر .

(٢) الآية ٣٨ وبعض الآية ٣٩ من سورة غافر .

(٣) الآية ١١٩ من سورة النحل .

(٤) الآية ١١٠ من سورة النحل ، فتنوا : ابتلوا واختبروا

(٥) الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، من سورة الرحمن ، الآلاء : النعم، الواحد : إلى ، على موازين : عطر ، وعنب ، وجمل .

فإن قيل : قد عقَّب بهذا القول ما ليس بنعمة ، كما في قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ، وَنُحَاسٌ ، فَلَا تَنْتَصِرَانِ » وقوله: «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بها الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ(١) بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » (٢) .

قلنا : العذابُ وجَهَنَّمُ – وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى – فإن ذِكرَهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصي ، والترغيب في الطاعات ، من آلائه تعالى، ونحوه قوله: « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »(٣) لأنه تعالى ذكر قِصَصاً مُختلِفة ، وأتبع كلَّ قصة بهذا القول . فصار كأنه قال عَقِبَ كلِّ قصة : ويلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكذِّبين بهذه القصة .

الإيغال

١٢٤ – وإمّا بالإيغال ، واختُلِفَ في معناه .

فقيل : هو ختَمُ البيت بما يفيد نكتة يتمُّ المعنى بدونها .

كزيادة المبالغة في قول الخَنْساء :

١٩٧ – وإن صَخْراً لتأتمُّ الهُداة به
كأنَّه عَلَمٌ في رأسه نار(٤)

لم ترض أن تُشبِّهه بالعَلَم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في رأسه نارا ، وقولِ ذي الرُّمَّةِ :

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الرحمن . الشواظ ، بضم الشين وكسرها : اللهب لا دخان فيه .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الرحمن . الحميم : الماء الحار . آن : اسم فاعل من «أني الحميم » أي انتهى حره واشتد .

(٣) الآيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ . ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ من سورة المرسلات .

(٤) صخر بن عمر بن الشريد السلمي وهو اخو الخنساء . تأتم : تقتدي . الهداة : جمع هاد ، وهو من يرشد غيره . واسم الخنساء : تماضر بنت عمرو ، شاعرة مخضرمة .

١٩٨ ـ قِفِ العيسَ في أطلال مَيَّةَ ، واسْأَلِ
رُسوماً كأخْلاق الرِّداء المُسَلْسَلِ(١)

أظُن الذي يجدي عليكَ سؤالُها
دُموعاً كتبذير الجُمانِ المُفَصَّلِ

وكتحقيق التشبيه في قول امرىء القيس :

١٩٩ ـ كأنَّ عُيونَ الوَحش حولَ خِبائنا
وأرْحُلِنا : الجَزْعُ الذي لم يثَقَّبِ(٢)

فإنّه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية ، واحتاج إليها ؛ جاء بزيادة حَسَنةٍ في قوله : « لَمْ يُثَقَّبِ » لأن الجزْع إذا كان غيرَ مثقوب كان أشبهَ بالعيون .

ومثله قول زُهَيْرٍ :

٢٠٠ ـ كأن فُتاتَ العِهْنِ في كل منزل
نَزَلْنَ به : حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ(٣)

---

(١) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف . الواحد أعيس وعيساء ، الأطلال : الآثار الشاخصة من بقايا الديار . مية : اسم من يتحدث عنها الشاعر ، الرسوم : ما لصق بالأرض من آثار . أخلاق : خلقان ، جمع خلق بالتحريك ، وهو البالي ، المسلسل من الثياب : ما كان فيه وشي مخطط ، يجدي يعطي وينفع . تبذير : تفريق . الجمان المفصل : اللؤلؤ المفصول بين كل حبتين منه بأخرى من جوهر آخر . وذو الرمة : اسمه غيلان بن عقبة ، شاعر أموي ، توفي سنة ١١٧ .

(٢) الخباء : ضرب خاص من الخيام . الجزع : الخرز فيه سواد وبياض ، ومراده بالوحش البقر .

(٣) الفتات من كل شيء : كسارته وسقاطته وما تفتت منه ، العهن : الصوف مطلقاً ، أو هو المصبوغ منه ، الفنا : عنب الثعلب ، والبيت من معلقة زهير بن أبي سلمى .

فإن حبّ الفنا أحمرُ الظاهرِ أبيضُ الباطن ؛ فهو لا يُشْبِهُ الصوف الأحمرَ إلا ما لم يُحَطَّمْ .

وكذا قول امْرِىءِ القَيْسِ :

٢٠١ – حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كأن سِنانَه
سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بدُخَان(١)

كما سيأتي .

وقيل : لا يختص بالنظم ، ومثل له بقوله تعالى : « اتَّبِعُوا مَن لاَ يَسْأَلُكُم أجْراً وهُمْ مُهْتَدُونَ » (٢) .

التذييل

١٢٥ – وإما بالتذييل ، وهو تعقيبُ الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد .

وهو ضربان :

ضربٌ لا يَخْرُجُ مَخْرَجَ المَثَلِ ؛ لعدم استقلاله بإفادة المراد ، وتَوَقُّفِه على ما قبله ، كقوله تعالى : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وهَلْ يُجازَى إلاَّ الكفُور ؟ » (٣) إن قلنا : إن المعنى « وهل يُجازَى ذلك الجزاء » .

وقال الزمخشري : وفيه وجهٌ آخر ، وهو أن الجزاء عامٌّ لكل مُكافَأَة ، يُسْتَعْمَلُ تارةً في معنَى المُعَاقَبَةِ ، وأخرَى في معنى الإثابة ، فلما استعمل في معنى المُعاقَبَة في قوله : « جَزَيْنَاهُمْ بما

(١) الرديني : الرمح ، ينسب إلى ردينة ، وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح . سنان الرمح : نصله وحديدته المركبة في عامله ، سنا النار : ضوؤها .

(٢) الآية ٢١ من سورة يس .

(٣) الآية ١٧ من سورة سبأ .

كَفَرُوا » بمعنى عاقبناهم بكفرهم ؛ قيل : « وَهَلْ يُجازَى إلا الكَفُورُ ؟ » بمعنى : « وهل يُعَاقَب » فعلى هذا يكون من الضرب الثاني .

وقول الحَمَاسِيِّ :

٢٠٢ – فدعَوْا : نَزَالِ ، فكنْتُ أَوَّلَ نـازِلٍ
وعَلاَمَ أركبُه إذا لم أَنـزِلِ ؟ (١)

وقول أبي الطَّيِّبِ :

٢٠٣ – وما حاجةُ الأظْعانِ حولَكَ في الدُّجَى
إلى قَمَرٍ ؟ ما وَاجِدٌ لكِ عـادمُهْ (٢)

وقوله أيضاً :

٢٠٤ – تمسي الأمانيُّ صَرْعَى دونَ مَبْلَغِـه
فما يقول لشيءٍ : لَيْتَ ذلك لِي (٣)

وقول ابن نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ (٤) :

٢٠٥ – لم يُبْقِ جودُكَ لي شيئاً أؤملُـهُ
تركْتَنِي أَصْحَبُ الدنيا بلا أَمَـلِ

(١) نزال : اسم فعل أمر بمعنى انزل : والمراد المنازلة في الحرب ، أركبه : الضمير للفرس ، إذا لم أشترك في الحرب ، وأنزل بفرسي إلى الميدان . وقائله ربيعة ابن مفروم الضبي .

(٢) الأظعان : جمع ظعن ، وهم القوم المرتحلون . الدجى : الظلمات ، واحدتها دجية ، قصده أن إشراق وجهها يغني السفر عن القمر ، فما يعدم القمر من يجدها .

(٣) الأماني : الآمال ، واحدتها أمنية ، صرعى : مصروعة ، يقول ، إن الأماني تصرع دون أن تبلغ قدره وغايته ، فقد ارتفع عن أن يحتاج إلى شيء يتمناه .

(٤) هو أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة ، شاعر بغدادي ، من شعراء القرن الرابع الهجري ، وهو من شعراء اليتيمة .

قيل : نَظَرَ فيه إلى قول أبي الطَّيِّب ، وقد أربَى عليه في المدح ، والأدب مع الممدوح ؛ حيث لم يجعلْه في حَيِّزِ من تَمنَّى شيئاً .

وضربٌ يُخْرِجُ مَخْرَجَ المثل ، كقوله تعالى : « وَقُلْ : جَاءَ الحَقُّ ، وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » (١) وقول الذُّبْيَانِيِّ :

٢٠٦ – وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّـهُ
على شَعَثٍ ، أَيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ ؟ (٢)

وقول الحُطَيْئة :

٢٠٧ – تَزور فتىً يُعطِي على الحمدِ مالَـهُ
وَمَنْ يُعْطِ أثمانَ المكارِم يُحْمَـدِ (٣)

وقد اجتمع الضربان في قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ ، أفَئِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ ؟ كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ (٤) . فإن قوله «أفَئِن مِتَّ فهُمُ الخالدون» من الأوَّل ، وما بعده من الثاني ، وكلٌّ منهما تذييلٌ على ما قبلَهُ .

وهو أيضاً : إمّا لتأكيد مَنْطوقِ كلامٍ ، كقوله تعالى : « وَقُل جَاءَ الحَقُّ » (٥) الآية .

وإما لتأكيد مفهومه ، كبيت النابغة (٦) فإن صدره دَلَّ بمفهومه على نَفْي الكامل من الرجال ؛ فحقَّق ذلك وقرّره بعجزه .

---

(١) الآية ٨١ من سورة الإسراء ، زهق الباطل : اضمحل وتلاشى .

لا تلمه : لا تجمعه ولا تضمه إليك . الشعث في الأصل، اغبرار الشعر. وتلبده وقذارته ، استعير للعيوب المعنوية والخلقية لما في كل من الايلام . والاستفهام إنكاري ، والشاعر النابغة الذبياني زياد بن معاوية .

(٣) المكارم : أفعال الكرم ، وإضافته إلى الأثمان بيانية .

(٤) الآية ٣٤ وبعض الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .

(٥) بعض الآية ٨١ من سورة الإسراء .

(٦) الشاهد ٢٠٦

تكميل و الاحتراس

١٢٦ ـ وإما بالتكميل ، ويُسمَّى الاحتراسَ أيضاً ، وهو أن يُؤْتى به في كلام يُوهِم خلافَ المقصود بما يدفعه .

وهو ضربان :

ضرب يتوسط الكلام ، كقول طَرَفَةَ :

٢٠٨ ـ فَسَقَى دِيَارَكِ ـ غَيْرَ مُفْسِدِها ـ
صَوْبُ الرَّبِيعِ ، وَدِيمَةٌ تَهْمِي(١)

وقول الآخر :

٢٠٩ ـ لو أن عزَّةَ خاصَمت شَمْسَ الضُّحَى
في الحُسْنِ عندَ مُوَفَّقٍ ؛ لقضَى لها (٢)

إذ التقدير : عندَ حاكِمٍ مُوَفَّقٍ ؛ فقوله « مُوَفَّقٍ » تكميلٌ .

وقول ِ ابن ِ المُعْتَزّ :

٢١٠ ـ صببْنَا عليها ـ ظالِمينَ ـ سِياطَنَا
فطارَتْ بها أَيْدٍ سِراعٌ وأرجُلُ(٣)

وضربٌ يقع في آخر الكلام ، كقوله تعالى : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الكافِرِينَ » (٤) فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذِّلَّة على المؤمنين ؛

(١) صوب المطر : انصبابه ونزوله . فعله صاب يصوب من باب « عاد » . والربيع : مجاز بالمسبب عن سببه ، وهو المطر . والديمة : المطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق ، وتهمي : تسيل لا يثنيها عن السيلان شيء .

(٢) قائله كثير بن عبد الرحمن .

(٣) صببنا عليها سياطنا : أرسلناها عليها بالضرب من علو . والسياط : جمع سوط ، وهو ما يتخذ للضرب من جلد مضفور ونحوه ، طارت بها أيد وأرجل : عدت بها عدواً شديداً .

(٤) بعض الآية ٥٤ من سورة المائدة .

لتُوُهِّم أن ذِلَّتهم لضعفهم ، فلما قيل : « أعزة على الكافرين » عُلِمَ أنها منهم تواضُعٌ لهم ، ولذا عُدِّيَ الذُّل بـ « على » لتضمينه (١) معنى العطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . ويجوز أن تكون التعدية بـ « على » لأن المعنى : أنهم مع شَرَفِهم ، وعُلُوِّ طبقتهم وفضلِهم على المؤمنين ؛ خافضون لهم أجنحتهم .

ومنه قولُ ابن الرُّوميِّ ، فيما كتب به إلى صديق له : « إني وَلِيُّكَ الذي لا يزال تَنْقادُ إليكَ مَوَدَّتُهُ عن غير طَمَعٍ ولا جَزَعٍ ، وإن كُنتَ لذي الرغبة مَطْلباً ، ولذي الرهْبَة مَهْرَباً » (٢) .

وكذا قول الحماسِيِّ :

٢١١ـ رَهَنْتُ يَدِي بالعجز عن شُكْرِ بِرِّه
وما فوقَ شُكْرِي للشَّكور مَزِيدُ (٣)

وكذا قول كَعْبِ بْنِ سَعْدٍ الغَنَوِيِّ:

٢١٢ـ حليمٌ إذا ما الحِلْمُ زيَّنَ أهلَه
مع الحلم في عين العَدُوِّ مَهيبُ(٤)

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم ؛ لأوهَم أن حِلْمَه عن عجز ؛ فلم يكن صفةَ مدح ؛ فقال : « إذا ما الحلم زين أهله » فأزال هذا الوهم

---

(١) لتضمينه : أي لتضمين الذل :

(٢) وليك : محبك . صديقك . نصيرك . جارك . حليفك . تابعك . تنقاد له مودته : تذعن وتخضع وتساير رغبتك .

(٣) رهنت يدي : جعلتها رهناً أقدمه عند العجز عن الشكر على بره ، ولن يضيع هذا الرهن ، فما يبتغى محسن من الشكر أن يصنع معه فوق ما أصنع من الشكر .

(٤) الحلم : الأناة وعدم الطيش والسفه . مهيب : مخشي مخوف . وكعب : شاعر اسلامي يحسن الرثاء ، والبيت من رثائه لأخيه أبي المغوار .

وأما بقيةُ البيت : فتأكيدٌ لِلازِمِ ما يُفْهَمُ من قوله : « إذا ما الحلم زين أهله » من كونه (١) غيرَ حليم حينَ لا يكون الحلمُ زَيْناً لأهله ؛ فإن مَنْ لا يكون حليما حينَ لا يحسُن الحلم لأهله ؛ يكون مهيباً في عين العدو لا محالة ، فعلم أن بقية البيت ليست تكميلاً ، كما زعم بعض الناس .

ومنه قول الحَمَاسِيِّ :

٢١٣ ــ وما مات مِنَّا سَيِّدٌ في فِراشه
ولَا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قتيل(٢)

فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إيّاهم ؛ لأوهم أن ذلك لضعفهم وقلَّتهم ؛ فأزال هذا الوهم بوصفهم بالانتصار من قاتلهم ، وكذا قول أبي الطَّيِّبِ :

٢١٤ ــ أَشَدُّ من الرِّياح الهُوج بَطْشاً
وأسْرَعُ في النَّدَى منها هُبوبا(٣)

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ؛ لأوهم ذلك أنه عُنْفٌ كله ، ولا لُطْفَ عنده . فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة ، ولم يتجاوز في ذلك كلِّه صفةَ الريح التي شبَّهه بها ، وقوله : إنه أسرع في الندى منها هبوباً ، كأنه من قول ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما

---

(١) كونه غير حليم حين لا يكون الحلم زيناً لأهله ؛ هو لازم ما يفهم من الشطر الأول . ف « من » بيانية .

(٢) يقصد من الشطر الأول : أنهم شجعان أهل حرب ، لا يموت أحدهم موتاً طبيعياً ، وإنما يموتون بجراحات الحروب ، وطل الرجل ، بالبناء للمجهول : أهدر دمه . ومعناه : أنهم لا يفوتهم ثأر قتيل من قتلاهم فهم أقوياء .

(٣) الهوج : جمع هوجاء ، وهي التي لا تستقر على سنن واحد . والبطش : الأخذ بالقوة ، والندى : الكرم . هبوب الريح : ثورانها وهياجها .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس ، وكان أجودَ ما يكون في رَمَضَانَ ، كان كالريح المرسلة » (١) .

التتميم

١٢٧ — وإما بالتتميم ، وهو : أن يُؤتَى في كلام لا يُوهِم خلافَ المقصود بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة في قوله تعالى : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » (٢) أيْ : مع حبِّه ، والضميرُ للطعام ، أيْ : مع اشتهائه ، والحاجةِ إليه ، ونحوه « وآتى المَالَ عَلَى حُبِّهِ » (٣) وكذا « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٤) وعن فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ : « على حب الله » فلا يكون مما نحن فيه .

وفي قول الشاعر :

٢١٥ — إنِّي على ما تَرَيْنَ من كِبَرِي
أعرِفُ من أيْنَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ(٥)

وفي قول زُهير :

٢١٦ — مَنْ يَلْقَ يوماً — على عِلاَّتِهِ — هَرِماً
يَلْقَ السماحة منه والنَّدَى خُلُقَا(٦)

الاعتراض

١٢٨ — وإما بالاعتراض ، وهو : أن يؤتى في أثناء الكلام ، أو بَيْنَ

---

(١) الريح المرسلة : المنطلقة .

(٢) بعض الآية ٨ من سورة الإنسان .

(٣) بعض الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

(٤) بعض الآية ٩٢ من سورة آل عمران .

(٥) أعرف من أين تؤكل الكتف : مثل يضرب للخبير الداهي الذي يأتي الأمور من مأتاها .

(٦) هرم : هو ابن سنان أحد من مدحهم زهير بن أبي سلمى . والعلات : جمع علة ، وهي هنا : الحدث الذي يشغل صاحبه .

بَيْنَ كلامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ معنىً ، بجملة أو أكثرَ لا محلَّ لها من الإعراب لنكتة سوَى ما ذُكِرَ في تعريف التكميل .

كالتنزيه والتعظيم في قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ »(١) .

والدعاء في قول أبي الطَّيِّب :

٢١٧ ـ وتَحْتَقِرُ الدنيا احْتِقارَ مُجَرِّبٍ
يرى كُلَّ ما فيها ـ وحاشَاكَ ـ فانيا (٢)

فإن قوله : « وحاشاك » دعاءٌ حسن في موضعه .

ونحوُه قولُ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمٍ الشَّيباني :

٢١٨ ـ إن الثمانين ـ وبُلِّغْتَهَا ـ
قد أحوجَتْ سمعِي إلى تَرْجُمانْ (٣)

والتنبيهِ في قول الشاعر :

٢١٩ ـ واعْلَمْ ـ فَعِلْمُ الْمَرْءِ ينفعهُ ـ
أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا

وتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر عُلِّقَ بهما ، كقوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ـ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ـ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » (٤)

---

(١) الآية ٥٧ من سورة النحل .

(٢) احتقار مجرب : مفعول مطلق مبين للنوع .

(٣) الترجمان بضم التاء والجيم ، وبفتحهما ، وبفتح فضم : هو من يفسر لغة بلغة أخرى ، والقصد به هنا : من يوصل مضمون الكلام المنطوق به إلى ذهنه حيث عجزت الأذن وكلت عن أداء وظيفتها .

(٤) بعض الآية ١٤ من سورة لقمان . الوهن : الضعف . الفصال : الفطام والمنع من الرضاع .

والمطابقةِ مع الاستعطافِ في قول أبي الطيّبِ :

٢٢٠ – وخُفوقُ قَلْبٍ لو رَأيْتِ لَهيبَـــهُ
– يا جَنَّتِي – لرأيتِ فيه جَهَنَّما (١)

والتنبيهِ على سببِ أمرٍ فيه غرابةٌ ، كما في قول الآخر :

٢٢١ – فلا هَجْرُهُ يَبْدُو – وفي اليَأسِ راحةٌ –
ولا وَصْلُه يَبدُو لنا فَنُكارِمُهْ (٢)

فإن قوله : « فلا هَجْرُهُ يبدو» يشعر بأن هجر الحبيب أحدُ مَطلوبَيْه ، وغريب أن يكون هجر الحبيب مطلوباً للمحب ؛ فقال : « وفي اليأس راحة » لينبه على سببه . وقولُه تعالى : « لَوْ تَعْلَمُونَ » في قوله : « فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إنّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » (٣) اعتراضٌ في اعتراضٍ ؛ لأنه اعتُرِضَ به بين الموصوف والصفة ، واعتُرِضَ بقوله : « وإنّه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » بين القَسَمِ والمُقْسَمِ عليه .

ومما جاء بين كلامين متصلين معنىً قولُه : « فَأتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ ؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويحبُّ المُتَطَهِّرِينَ ، نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأتُوا حَرْثَكُم » (٤) فإن قوله : نساؤكم حرث لكم » بيانٌ لقوله « فَأتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُم الله » يعني : ان المأتَى الذي أمركم به هو مكانُ الحرث ، دلالةً على أن

---

(١) خفوق القلب : خفقانه واضطرابه . اللهيب للنار ، وعبر به هنا عن حرارة الحب والوجد .

(٢) اليأس : قطع الأمل . نكارمه : نبادله كرماً بكرم ، ونقابل وصله بمثله .

(٣) الآيات ٧٥ – ٧٧ من سورة الواقعة .

(٤) بعض من الآيتين ٢٢٢ ، ٢٢٣ من سورة البقرة .

الغرض الأصليّ في الإتيان : هو طلبُ النّسْلِ ، لاقَضَاء الشّهْوَة ، فلا تَأتُوهُنّ إلا من حيث يَتَأتّى فيه الغرضُ ، وهو مما جاء في أكثر من جملة أيضاً .

ونحوُه في كونِه أكثرَ من جملة ، قولُه تعالى : « قَالَتْ : رَبِّ إنّي وَضَعْتُهَا أنْثَى ، واللهُ أعْلَمُ بمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذّكَرُ كالأنْثَى ، وَإنّي سَمّيْتُهَا مَرْيَمَ »(١) فإن قوله : واللهُ أعْلَمُ بمَا وضَعَتْ ، وَلَيسَ الذّكَرُ كالأنثَى» ليس من قول أمِّ مَرْيَمَ .

وكذا قوله : « ألَمْ تَرَ إلى الّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ؟ يَشْتَرُونَ الضّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أنْ تَضِلّوا السّبِيل ، واللهُ أعْلَمُ بأعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى باللهِ وَلِيّا ، وكَفَى باللهِ نَصِيراً ، مِنَ الّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »(٢) إن جُعِلَ « من الذين » بياناً لـ« الّذِين أوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » لأنهم يَهُودٌ وَنَصَارَى أو لـ« أعْدَائِكُمْ » فإنه على الأول يكون قوله « وَاللهُ أعْلَمُ بأعْدَائِكُم ، وَكَفَى باللهِ وَلِيّا وَكَفَى باللهِ نَصِيراً» اعتراضاً ، وعلى الثاني يكون « وَكَفَى باللهِ .. وكَفَى بالله ... » اعتراضاً .

ويجوز أن يكون : « مِنَ الّذِينَ » صلةٌ لـ« نصيراً » أي : ينصركم من الذين هادوا ، كقوله ، « وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا» وأن يكون كلاماً مُبْتَدَأً على أن «يُحَرِّفُونَ » صفة مُبْتَدَإٍ محذوفٍ تقديره : « من الذين هادوا قومٌ يُحَرِّفون » كقوله :

---

(١) بعض الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ ، وبعض الآية ٤٦ من سورة النساء . الضلالة : ضد الهدى ، والذين هادوا : اليهود .

(٣) بعض الآية ٧٧ من سورة الأنبياء .

٢٢٢ ــ وما الدهر إلا تارَتان ؛ فمنهما
أموتُ ، وأُخرَى أبتغِي العَيْشَ أكْدَحُ

وقد عُلِمَ مما ذكرنا : أن الاعتراض ، كما يأتي بغير واو ولا فاءٍ ؛ قد يأتي بأحدهما .

ووَجْهُ حسن الاعتراض على الإطلاق : حسنُ الإفادة مع أن مجيئه مجيءُ مالا مُعَوَّلَ عليه في الإفادة . فيكون مَثَلُهُ مَثَلَ الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها .

ومن الناس من لا يُقَيِّد فائدةَ الاعتراض بما ذكرناه ، بل يُجَوِّز أن تكون دفع توهُّم ما يخالف المقصودَ ، وهؤلاء فرقتان :

فرقة لا تشترط فيه أن يكون واقعاً في أثناء كلام ، أو بين كلامين مُتَّصلين معنىً . بل يُجَوِّز أن يقع في آخر كلام لا يليه كلامٌ ، أو يليه كلام غيرُ مُتَّصلٍ به معنىً ، وبهذا يُشْعِر كلامُ الزمخشري في مواضع من الكشّاف . فالاعتراضُ عندَ هؤلاء يشملُ التذييلَ ، ومن التكميل مالا مَحَلَّ له من الإعراب ، جملةً كان أو أكثر من جملة .

وفرقة تشترط فيه ذلك ، لكن لا تشترط أن يكون جملةً أو أكثر من جملة .

فالاعتراض عند هؤلاء يشمل من التتميم ما كان واقعاً في أحد الموقعين ، ومن التكميل ما كان واقعاً في أحدهما ولا محل له من الإعراب ، جملةً كان أو أقلَّ من جملة أو أكثر .

---

(١) التارة : المرة والحين . منهما : جعله المؤلف خبراً لمبتدأ محذوف على أن تقدره مرفوعاً ، أي فمنهما تارة ، ويجوز أن تقدره منصوباً صفة محذوف ، تقديره « فتارة منهما » وتارة المقدر على هذا معمول للفعل « أموت» . وأكدح : أجهد نفسي في العمل ، والبيت لتميم بن أبي بن مقبل .

الإطناب بغير الأنواع السابقة

١٢٩ – وإما بغير ذلك، كقولهم: «رأيته بعيني».

ومنه قولُه تعالى: «إذْ تَلَقَّوْنَه بِألْسِنَتِكمُ، وتَقُولُونَ بِأفْوَاهِكُمُ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْم» (١) أيْ: هذا الإفْكُ ليس إلاّ قَوْلا يَجْرِي على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمةٍ عن علم في القلب، كما هو شأن المعلوم إذا ترجم عنه اللسان.

وكذا قولُه: «تِلكَ عَشَرَةٌ كامِلةٌ» (٢) لإزالة توهُّم الإباحة، كما في نحو قولنا: «جالِسِ الْحَسَنَ وَابنَ سِيرِينَ» وليُعْلَمَ العددُ جملةً كما عُلِمَ تفصيلاً؛ ليُحاط به من جهتين. فيتأكّدَ العلم، وفي أمثال العرب: «عِلْمَان خَيْرٌ مِنْ عِلْم»

وكذا قوله «كاملة» تأكيدٌ آخرٌ، وقيل: أي كاملة في وقوعها بدلاً من الهَدْي، وقيل: أريدَ به تأكيدُ الكيفيّة لا الكميّة، حتى لو وقع صومُ العشرة على غير الوجه المذكور لم تكن كاملةً.

وكذا قوله: «الّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَه يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُؤمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ للّذِينَ آمَنُوا» فإنه لو لم يُقْصَد الإطنابُ لم يُذْكَرْ «ويؤمنون به» لأن إيمانهم ليس مما ينكره أحد من مُثبتيهم، وحَسَّنَ ذِكْرَه إظهارُ شرف الإيمان ترغيباً فيه.

وكذلك قوله: «إذَا جَاءكَ الْمنافِقُونَ قالُوا: نَشْهَدُ إنّكَ لَرَسُولَ اللهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ إنكَ لَرَسُولُه، وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ

---

(١) بعض الآية ١٥ من سورة النور.
(٢) بعض الآية ١٩٦ من سورة البقرة.
(٣) بعض الآية ٧ من سورة غافر.

المُنافقِينَ لَكَاذِبُونَ(١) فإنه لو اختُصِرَ لَتُرِكَ قولُه « والله يعلم إنك لرسوله » لأن مَساقَ الآية لتكذيبهم في دعوى الإخلاص في الشهادة كما مر . وحسّنَه دفع توهم أن التكذيب للمشهود به في نفس الأمر ، ونحوُ قول البلغاء : « لا ، وأصلحك الله » .

وكذا قولُه تعالى إخْباراً : « هِيَ عَصَايَ ، أتَوَكّأُ عَلَيْهَا ، وَأهُشُّ بها عَلى غَنَمِي ، وَلِيَ فِيها مآرِبُ أخْرَى » (٢) وحسّنه أنه عليه السلام فَهِمَ أن السؤال يَعقُبه أمرٌ عظيم يُحْدِثه الله تعالى في العصا ؛ فينبغي أن يتنبه لصفاتها ؛ حتى يظهرَ له التفاوُتُ بين الحالين .

وكذا قولُه « نَعْبُدُ أصْناماً فَنَظَلُّ لَهَا عاكِفِينَ » (٣) وحسّنه إظهار الابتهاج بعبادتها ، والافتخار بمواظَبتها ؛ ليزداد غيظُ السائل .

* * *

واعلم أنه قد يُوصَف الكلامُ بالإيجاز والإطناب باعتبار كثرة حروفه وقلّتها بالنسبة إلى كلام آخرَ مُساوٍ له في أصل المعنى ، كالشّطرَ الأول من قول أبي تمام :

٢٢٣ ـ يَصُدُّ عَنِ الدُّنيا إذَا عنَّ سُودَدٌ
ولو برزَتْ في زِيِّ عَذْراءَ ناهِدِ (٤)

---

(١) الآية ١ من سورة المنافقون .

(٢) بعض الآية ١٨ من سورة طه . أتوكأ عليها : أعتمد وأتحمل عليها . وهش الورق : خبطه بعصا ليتحات . ومآرب : أغراض وغايات .

(٣) الآية ٧١ من سورة الشعراء .

(٤) يصد عنها : يعرض ، عن : ظهر ، السودد : السيادة ، وكرم المنصب ، والقدر الرفيع ، برزت : ظهرت بعد خفاء ، الزي : الهيئة ، العذراء : البكر ، الناهد : الكاعب الثديين .

وقول الآخر :

٢٢٤ ـ ولَسْتُ بنظّار إلى جانب الْغِنَى
إذا كانَتِ العَلياءُ في جانب الفقر (١)

ومنه قول الشّمّاخ :

٢٢٥ ـ إذ ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
تلقّاها عَرَابَةُ باليَمِينِ (٢)

وقولُ بِشْرِ بن حَازِم :

٢٢٦ ـ إذا ما المَكْرُماتُ رُفِعنَ يَوْماً
وقَصّرَ مُبْتَغوها عن مَداها (٣)

وضاقَتْ أذْرُعُ الْمُثْرِينَ عنها
سَما أوْسٌ إليها ، فاحْتَوَاها

ويقرُب من هذا الباب قولُه تعالى : « لاَ يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (٤)

---

(١) في رواية « ميال » بدل « نظار » وقائله : المعذل بن غيلان ، وينسب أيضاً لأبي سعيد المخزومي .

(٢) الراية : العلامة المنصوبة ليراها الناس ، وعلم الجيش ، والمجد : العز والرفعة وعرابة بن أوس الأنصاري ، وتلقيه راية المجد باليمين إذا ظهرت : تمثيل لتحفزه وإقباله على فعل المكارم كلما لاحت . والشماخ هو ابن ضرار الغطفاني .

(٣) مبتغوها : راغبوها ، مداها : غايتها ، المثرون : أهل الغنى والثروة ، ضاقت أذرعهم بها : عجزوا عنها ، سما إليها : ارتفع إليها . احتواها : أحرزها .

(٤) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

وقولُ الحَمَاسِيِّ :

٢٢٧ ـ ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا على الناس قَوْلَهُمْ
ولا يُنْكِرُون القولَ حينَ نقولُ (١)

وكذا ما ورد في الحديث : « الحَزْمُ سوءُ الظَّنِّ » وقول : العرب : الثِّقَةُ بِكُلِّ أحَدٍ عَجْزٌ .

• • • •

(١) إنكارهم وردهم أقوال الناس ، وعدم إنكار أحد عليهم قولا : كناية عن الرياسة والسيادة ، ونفاذ الكلمة ، والتحكم في الناس . والشاعر : السموأل بن عادياء .

الإيضاح

في علوم البلاغة

للإمام الخطيب القزويني ٦٦٦ - ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الثاني

علم البيـــــان

الفن الثاني في علم البيان

تعريفه

١٣٠ ـ وهو : علم يُعْرَفُ به إيرادُ المعنى الواحدِ بطُرُقٍ مُختَلِفةٍ في وُضوح الدلالة عليه .

دلالة اللفظ

١٣١ ـ ودلالة اللفظ : إمّا على ما وُضِعَ له ، أو على غيره .

والثاني : إمّا داخلٌ في الأول دخولَ السقفِ في مفهوم البيتِ ، أو الحيوانِ في مفهوم الإنسانِ ، أو خارجٌ عنه خروجَ الحائطِ عن مَفهوم السقفِ ، أو الضاحِكِ عن مَفهوم الإنسانِ .

وتُسَمّى الأولى دلالَةً وَضعيّة . وكل واحدة من الأخيرتين دلالةً عقليّةً .

وتختصُّ الأولى بدلالة المُطابَقَةِ . والثانيّةُ بالتضمُّنِ ، والثالثةُ بدلالة الالتزام .

شروط دلالة الالتزام

وشرطُ الثالثةِ : اللُّزومُ الذِّهْنِيُّ ، أعني أن يكونَ حُصولُ ما وُضِعَ اللفظُ له في الذهن ملزوماً لحصول الخارج فيه ؛ لئلا يلزمَ ترجيحُ أحدِ المُتساويَيْنِ على الآخر ؛ لِكَوْنِ نسبةِ الخارج إليه حينئذٍ كنسبة سائر المعاني الخارجة .

ولا يُشْتَرَط في هذا اللزوم أن يكون مما يُثبِتُه العقلُ ، بل يكفي أن يكون مما يثبته اعتقادُ المخاطَب : إمّا لعُرْفٍ ، أو لغيره . لإمكان الانتقال حينئذٍ من المفهوم الأصلي الخارجيِّ .

وقد وقع في كلام بعض العلماء ما يُشْعِر بالخلاف في اشتراط اللزوم

الذهني في دلالة الالتزام ، وهو بعيدٌ جداً . وإنْ صحّ ، فلعلّ السببَ فيه : تَوَهُّمُ أن المرادَ باللزومِ الذِّهْنِيِّ اللُّزُومُ العقليُّ . لإمكان الفهم بدون اللزومِ الذهنيِّ بهذا المعنى حينئذ كما سبق .

١٣٢ – ثم إيرادُ المعنى الواحدِ على الوجه المذكور لا يَتَأتّى بالدلالة الوضعيّةِ . لأن السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ لم يكن بعضُها أوضحَ دلالةً من بعض . وإلاّ لم يكن كلُّ واحد منها دالاً .

وإنما يَتَأتّى بالدلالات العقلية ؛ لجواز أن يكونَ للشيء لوازمِ بعضُها أوضحُ لزوماً من بعض .

١٣٣ – ثمّ اللفظُ الْمُرَادُ به لازمُ ما وُضِعَ له : إن قامَتْ قرينةٌ على عدم إرادة ما وُضِعَ : فهو له مَجازٌ ، وإلا فهو كِنايةٌ .

ثم المجازُ منه الاستِعارةُ ، وهي ما تُبْتَنَى على التشبيه ، فيتعيّن التعرض له . بحوث علم البيان

فانحصر المقصودُ في التّشبيهِ وَالْمَجَازِ ، والْكِنايةِ ، وقُدِّم التشبيهُ على المجاز لما ذكرنا ، من ابتناء الاستعارة التي هي مَجازٌ على التشبيه ، وقُدِّم المجازُ على الكناية ؛ لنزولِ مَعناه مِنْ مَعْنَاها مَنْزِلَةَ الجزء من الكُلِّ .

القول في التشبيه

تعريف التشبيه

١٣٤ ــ التشبيهُ : الدلالةُ على مُشاركة أمرٍ لآخر في معنىً .

والمراد بالتشبيه ههنا : ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقيّة ، ولا الاستعارة بالكناية ، ولا التجريد .

فدخل فيه ما يُسَمّى تشبيهاً بلا خلاف . وهو ما ذُكِرَتْ فيه أداةُ التشبيه ، كقولنا : « زيدٌ كالأسد » أو « كالأسد » بحذف « زيد » لقيام قرينة .

وما يُسَمّى تشبيهاً على المختار كما سيأتي ، وهو ما حُذِفَتْ فيه أداة التشبيه ، وكان اسمُ المشبّه به خبراً للمشبّه ، أو في حكم الخبر ، كقولنا : « زيدٌ أسدٌ » ، وكقوله تعالى : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » (١) أي : هم ، ونحوه قولُ مَنْ يُخاطِب الحَجّاجَ :

٢٢٨ ــ أسَدٌ عَلَيَّ ، وفي الحروب نَعامةٌ
فَتْخاءُ تَنْفِرُ مِنْ صفير الصَّافِرِ(٢)

وكقولنا : « رأيْتُ زيداً بحراً » .

بلاغة التشبيه

١٣٥ ــ وإذ قد عرفْتَ معنى التشبيه في الاصطلاح ؛ فاعْلَمْ أنه مما اتفق العقلاء على شرف قَدْرِه ، وفخامة أمرِه في فنّ البلاغة ، وأن

---

(١) بعض الآية ١٨ من سورة البقرة .

(٢) فتخاء : مسترخية المفاصل لينتها ضعيفتها ، والفعل فتخ ــ كفرح ــ والشاعر عمران بن حطان الخارجي .

تعقيب المعاني به – لا سِيّما قسم التمثيل منه – يُضاعِف قُواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحاً كانت أو ذَمّاً ، أو افتخاراً ، أو غير ذلك .

وإن أردْتَ تحقيق هذا فانظر إلى قول البُحْتُرِيّ :

٢٢٩ – دانٍ عَلَى أيْدِي الْعُفاةِ وشاسِعٌ
عن كل نِدٍّ في النّدَى، وضَرِيبِ(١)
كالبدر أفرَطَ في العُلُوِّ وضَوْءُه
للعصبة السّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

أو قول ابنِ لَنْكَك :

٢٣٠ – إذا أخو الحسن أضحى فِعلُه سَمِجاً
رأيت صورته من أقبح الصُّوَرِ(٢)
وَهَبْهُ كالشمس في حُسْنٍ ، ألم تَرنا
نَفِرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضّرَرِ

أو قولِ ابن الرُّومِيِّ :

٢٣١ – بَذَلَ الوعْدَ لِلأخِلاّءِ سَمْحاً
وأبَى بعدَ ذاكَ بَذْلَ الْعَطَاء (٣)
فغدا كالْخِلافِ يُورِقُ لِلْعَيْنِ ، ويأبى الإثْمَارَ كلَّ الإباء

أو قولِ أبي تَمّامٍ :

---

(١) دان : قريب . العفاة : جمع العافي ، وهو الضعيف ، أو طالب الفضل ، أو طالب الرزق . شاسع : بعيد . الند : النظير والشبيه ، ومثله الضريب . العصبة : الجماعة . السارين : السائرين ليلا .

(٢) سمجا : قبيحاً ممجوجاً . والشاعر هو : أبو الحسن محمد بن محمد ، المعروف بابن لنكك البصري . وهو من شعراء اليتيمة ، والبيتان في ترجمته بها .

(٣) الأخلاء : جمع خليل . وهو الصاحب والصديق . الخلاف : صنف من الصفصاف .

٢٣٢ ـ وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلـة
طُوِيَتْ ؛ أتاح لَها لِسانَ حَسُودِ (١)

لَوْلا اشْتِعالُ النار فيما جاوَرَتْ
ما كان يُعْرَفَ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

أو قوله أيضاً :

٢٣٣ ـ وطُولُ مُقامِ الْمَرْءِ في الْحَيِّ مُخْلِقٌ
لديباجَتَيْهِ . فاغترِبْ تتجـدَّدِ (٢)

فإني رأيْتُ الشمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً
إلى الناس أنْ لَيْسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

وقِسْ حالَك وانت في البيت الأوّل، ولم تَنْتَهِ إلى الثاني، على حالِك وأنتَ قد انتهيْتَ إليه ووقفت عليه : تَعْلَمْ بُعْدَ ما بين حالَتَيْكَ في تمكُّن المعنى لدَيْكَ .

وكذا تَعَهّدِ الفرقَ بين أن تقول : « الدنيا لا تدوم » وتسكت ، وأن تذكر عَقِيبَه ما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ في الدنيا ضَيْفٌ ، وما في يده عارِيَةٌ ، والضيفُ مُرْتَحِلٌ والعارية مُؤَدَّاةٌ » أو تُنْشِدَ قولَ لَبِيدٍ :

٢٣٤ ـ وما المالُ والأهْلُونَ إلا ودائعٌ
ولا بُدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ (٣)

---

(١) أتاح : هيأ . العرف : الرائحة . العود : ضرب من الطيب يتبخر به .

(٢) مخلق : مبل ، من أخلق الثوب : صيره باليا . ديباجتيه : صفحتي وجهه ، والديباجة : الوجه ، و« إخلاق » الوجه و« بلاه » مجاز عن ابتذاله وكراهيته وثقل مطالعته ، والسرمد : الدائم .

(٣) الودائع : جمع وديعة ، وهي ما تدعه عند غيرك أمانة ، ولبيد : ابن ربيعة العامري الشاعر الجاهلي .

وبين (١) أن تقول : « أرى قوماً لهم مَنْظَرٌ وليس لهم مَخْبَرٌ » وتقطعَ الكلام ، وأن تُتْبِعَه نحوَ قولِ ابْنِ لَنْكَك :

٢٣٥ — في شجر السَّرْوِ منهُمُ مَثَلٌ
له رُواءٌ ، وما لَهُ ثَمَرُ(٢)

وانظر في جميع ذلك إلى المعنى في الحالة الثانية : كيف يتزايدُ شرفه عليه في الحالة الأولى ؟!

١٣٦ — ولذلك أسبابٌ :

أسباب بلاغة التشبيه

منها : ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خَفِيٍّ إلى جَلِيٍّ ، كالانتقال مما يَحْصَل لها بالفكرة إلى ما يُعْلَمُ بالفِطرة ، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته . كما قيل :

« ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأوَّلِ » (٣)

أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم ، كانتقال من المعقول إلى المحسوس ، فإنك قد تُعَبِّر عن المعنى بعبارة تُؤَدِّيه وتبالغ ، نحو أن تقول وأنتَ تَصِفُ اليوم بالْقِصَر يومٌ كأقْصَرِ ما يُتَصَوَّرُ . فلا يجد السامع له من الأنس ما يَجِدُه لنحو قولهم : « أيامٌ كأباهيم القَطَا » (٤) وقولِ الشاعر :

---

(١) معطوف على « بين » في قوله السابق « وكذا تعهد الفرق بين أن تقول : الدنيا لا تدوم » .

(٢) السرو : شجر قويم الساق حسن الهيئة والمنظر .

(٣) صدره : « نقل فؤادك حيث شئت من الهوى »
وقائله أبو تمام .

(٤) الأباهيم : جمع إبهام ، وهو أكبر أصابع اليد أو الرجل . القطا : طائر في حجم الحمام ، واحدته قطاة .

٢٣٧ ــ ظَلِلْنَا عندَ بابِ أبي نُعَيْـــــم
بيوم مِثْـــلِ سالِفـــةِ الذُّبابِ (١)

وكذا تقول : فلانٌ إذا همَّ بالشيء لم يزِلْ ذاكَ عن ذِكْرِه ، وقَصَرِ خواطِرَه على إمضاء عزْمِه فيه ، ولم يشغَله عنه شيءٌ . فلا يصادفُ السامع له أرْيَحيّة(٢) ، حتى إذا قلت :

٢٣٨ ــ * إذا همَّ ألقَى بين عينيه عزمَهُ * (٣)

امتلأت نفسه سروراً ، وأدركته هِزَّةٌ لا يمكن دفعُها عنه .

ومن الدليل على أن للإحساس من التحريك للنفس ، وتمكين المعنى ما ليس لغيره : أنك إذا كُنْتَ أنتَ وصاحبٌ لك يسعى في أمر ، على طرف نهر ، وأنت تريد أن تقرِّر له : أنه لا يحصل من سعيه على طائل ، فأدخلْتَ يدك في الماء ، ثم قُلْتَ له « انظر ، هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنتَ في أمرك » كان لذلك ضَرْبٌ من التأثير في النفس ، وتمكين المعنى في القلب ، زائدٌ على القول المجرد .

ومنها : الاستطراف ، كما سيأتي .

ومن فضائل التشبيه : أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشباه عِدَّة ، نحو أن يعطيكَ من الزَّنْدِ بإيرائه ، شِبْهَ الجوادِ ، والذَّكِيِّ ، والنَّجح

---

(١) السالفة : صفحة العنق ناحية معلق القرط ، وسالفة الذباب نهاية في القصر ، شبه بها اليوم ليثبت تناهيه في القصر ، فيفيد أنه يوم سار ، لأن أيام السرور قصار ، وكذلك أيام أبي نعيم هذا .

(٢) الأريحية : الارتياح والقبول .

(٣) بقيته : * ونكّب عن ذكر العواقب جانبا *
هم : عزم . ألقى بين عينيه عزمه . تصوير لعنايته بتنفيذ ما عزم عليه : حيث وضعه وضعاً لا يغيب فيه عن عينيه . نكب عن ذكر العواقب : عدل وتنحى ، وقائله : سعد بن ناشب ، وهو شاعر أموي . من شعراء الحماسة .

في الأمور ، وبإصْلادِهِ شِبْهَ البخيل ، والبليد ، والخيبةِ في السعي(١).
ومن القمر(٢) الكمالَ عن النقصان ، كما قال أبو تمّام :

٢٣٩ – لَهفِي على تلك الشواهد فيهما
لو أُمْهِلَتْ حتى تصيرَ شمائلا (٣)
لغدا سكونُهما حجىً ، وصباهُما
حِلْماً ، وتلك الأرْيَحِيّةُ نائلا
ولأعقب النّجمُ المُرِذُّ بديمة
ولعاد ذاكَ الطّلُّ جَوْداً وابلا
إن الهلال إذا رأيْتَ نُموّه
أيقنتَ أن سيصيرُ بدراً كاملا

والنقصانَ (٤) عن الكمال ، كقول أبي العَلاءِ المَعَرّيّ :

٢٤٠ – وإن كنتَ تبغي العيشَ فابْغ توسُّطا
فعند التّناهِي يَقْصُرُ المُتَطَاوِلُ (٥)
تُوَقّى البدورُ النقصَ وَهْيَ أهِلّةٌ
ويدركُها النقصانُ وَهْيَ كوَامِلُ

---

(١) الزند : العود الأعلى من عمودين ، تقتدح باحتكاكهما النار ، أورى الزند : أخرج ناره . أصلد : صوت ولم يور .

(٢) الجار والمجرور معطوف على « من الزند » المتعلق بالفعل « يعطيك » .

(٣) لهفي : حزني وحسرتي ، الشواهد : الدوال والأمارات المنبئة ، الشمائل : الطباع . الحجى : العقل . الحلم : الأناة وعدم الطيش ، الأريحية : صفة يرتاح معها المرء إلى فعل المكارم . المرذ : المسقط للرذاذ . وهو المطر الخفيف . الديمة : المطر ينزل في سكون دون رعد أو برق ، الطل : المطر الضعيف . الجود – بفتح الجيم وسكون الواو . المطر الغزير . الوابل : المطر الشديد .

(٤) معطوف على « الكمال » في الفقرة السابقة .

(٥) توقى النقص : تسلم منه وتنجو : أهلة : جمع هلال .

وتتفرع من حالَـتَيْ كمالِه ونقصه فروعٌ لطيفةٌ ، كقول ابنَ بابَك في الأستاذ أبي عَلِيٍّ – وقد استَوْزَره ، وأبا العبَّاسِ الضَّبِّي – فخرُ الدولة بعدَ وَفاة ابن عَبَّادٍ :

١٤١ – وأُعِرْتَ شَطْرَ المُلْكِ شَطْرَ كمالِه
والبدر في شَطْرِ المسافة يَكْمُلُ (١)

وقول أبي بكرٍ الخُوَارَزْمِيِّ :

٢٤٢ – أراك إذا أيسرتَ خيمتَ عندنا
مُقيماً ، وإن أعسرْتَ زُرْتَ لماما(٢)
فما أنت إلا البدرُ ، إن قلَّ ضوءُه
أغَبَّ ، وإن زاد الضياءُ أقاما

المعنى لطيفٌ وإن لم تساعده العبارةُ على ما يَجِبُ . لأن الإغباب أن يتخلّل بين وقتَي الحضور وقتٌ يخلو منه . فإنما يصلح لأن يُرادَ أن القمر إذا نقص نورُه لم يُوالِ الطلوعَ في كل ليلة ، بل يظهر في بعض الليالي دون بعض . وليس الأمر كذلك . لأنه – على نُقصانه – يطلُع كلَّ ليلة حتى تكونَ السِّرَارُ (٣) .

وكذا ينظر إلى بُعدِه وارتفاعِه ، وقُربِ ضوئه وشعاعه ، في نحو

(١) أعرت : أعطيت ، شطر الملك : نصفه والقصد تدبير نصف الملك ، أو نصف التدبير . لأنه مشترك مع زميله في الوزارة . شطر كماله : بدل من « شطر الملك » . وابن بابك : من شعراء الصاحب بن عباد ، واسمه عبد الصمد ، وكنيته أبو القاسم .

(٢) خيمت مقيماً : أطلت الإقامة بطريق اللزوم . زار لماما : زار غبا من آن لآخر ، مراوحا بين كل زيارتين ، وأغب : زار غبا ولماما . وأبو بكر الخوارزمي هو محمد بن العباس الكاتب الشاعر .

(٣) السرار ، بالكسر : آخر ليلة في الشهر .

ما مضى من بيتي البحتري ، وإلى ظهوره في كل مكان ، كما في قول أبي الطيِّبِ :

٢٤٣ ــ كالبدرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ وجدْتَه
يُهْدِي إلى عينيكَ نوراً ثاقباً (١)

إلى غير ذلك .

اركان التشبيه

١٣٧ ــ ثم (٢) النظرُ في أركان التشبيه ــ وهي أربعة : طرَفاه ، ووجهُه ، وأداتُه ــ وفي الغرضِ منه . وفي تقسيمه بهذه الاعتبارات .

الطرفان وأقسامهما

١٣٨ ــ أمّا طرَفاه فهما :

١ ــ إمّا حِسِّيّان . كما في تشبيه الخدّ بالورد . والقَدّ بالرُّمح ، والفيل بالجبل ، في المُبْصَرَاتِ . والصَّوْتِ الضعيفِ بالهَمْسِ في المسموعات . والنَّكْهَةِ بالعَنْبَرِ في المشمومات ، والريقِ بالخمر في المذُوقَات : والجِلْدِ الناعم بالحرير في الملموسات .

٢ ــ وإما عقليان . كما في تشبيه العلم بالحياة .

٣ ــ وإما مختلفان . والمعقول هو المشبّه . كما في تشبيه المنيّةِ بالسَّبُع أو بالعكس . كما في تشبيه العطر بخُلُقٍ كريم .

والمرادُ بالحِسّيّ : المُدْرَكُ هو ــ أو مادّتُه ــ بإحدى الحواسّ الظاهرةِ . فدخل فيه الخياليّ ، كما في قوله :

٢٤٤ ــ وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيــــقِ إذا تَصَوَّبَ أو تَصَعَّدْ(٣)

(١) ثاقباً : مضيئاً .

(٢) العطف على قوله في أول الباب : « القول في التشبيه » .

(٣) الشقيق : ورد أحمر مبقع بنقط سود . تصوب : مال إلى أسفل . تصعد اتجه إلى أعلى . والياقوت : حجر كريم صلب رزين شفاف تختلف ألوانه ، والزبرجد : حجر كريم أيضاً يشبه الزمرد ، وأشهره الأخضر ، وينسب البيتان للصنوبري .

أعــــلامُ ياقـــوتٍ نُشِرْ نَ على رماح من زبرْجَدْ

وقوله :

٢٤٥ ـ كلُّنا باســطُ اليَــدِ نحوَ نَيْـلوفرٍ نَدِي(١)
كدبابيس عَسْجَــدٍ قُضُبُها من زَبَرْجَــدِ

معنى بالعقلي

والمراد بالعقلي : ما عدا ذلك . فدخل فيه الوهْمِيُّ ، وهو ما ليس مُدْرَكاً بشيء من الحواسّ الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أُدْرِكَ لم يُدْرَكْ إلاّ بها ، كما في قول امْرِئِ القَيْسِ :

* ومَسنونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوال (٢) *

وعليه قولُه تعالى : « طَلْعُها كأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ »(٣) وكذا ما يُدْرَكُ بالوِجْدانِ ، كاللّذةِ ، والألم ، والشِّبَعِ ، والجوعِ .

وجه الشبه
لراد بالتخييل

١٣٩ ـ وأما وجهه : فهو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان ، تحقيقاً أو تخييلاً .

والمرادُ بالتخييل : أنْ لا يمكنَ وجوده في المشبّه به إلا على تأويل ، كما في قول القاضي التَّنُوخِيِّ :

٢٤٦ ـ وكأنّ النجومَ بين دُجــاها سُنَنٌ لاحَ بينهن ابتِداعُ (٤)

فإن وجهَ الشبه فيه : الهيئةُ الحاصلةُ من حصول أشياء مُشرقةٍ بيضٍ

---

(١) النيلوفر : نبات ينبت في الماء الراكد ويورق ويزهر على سطحه ، وجذره يشبه الجزر وساقه أملس . والدبابيس : جمع دبوس ، وهو عصا في رأسها شبه الكرة ، والعسجد : الذهب .
(٢) أنظر الشاهد ١٣١ .
(٣) الآية ٦٥ من سورة الصافات . طلع الشجر . ما يبدو من ثمرته أول ظهورها .
(٤) دجاها : ظلماتها . واحدتها دجية ، وهي ظلمة الليل .

بيضٍ في جوانب شيءٍ مُظْلِمٍ أسْوَدَ ؛ فهي غيرُ مَوْجودة في المشبَّه به إلا على طريق التخييل .

وذلك : أنه لما كانَتِ البدعةُ والضلالةُ وكلُّ ما هو جهلٌ ؛ يجعل صاحبها في حكم من يمشي في الظلمة ؛ فلا يهتدي إلى الطريق ، ولا يَفْصِل الشيءَ من غيره . فلا يأمن أن يتَرَدَّى في مَهْواة ، أو يَعْثُرَ على عَدُوٍّ قاتل ، أو آفة مُهلكة — شُبِّهَتْ بالظُّلمة . ولَزِم — على عكس ذلك — أن تُشَبَّه السنَّةُ والهُدى ، وكلُّ ما هو علمٌ بالنور . وعليهما قوله تعالى : « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ » (١) .

وشاع ذلك ، حتى وُصِفَ الصِّنفُ الأوّل بالسَّواد ، كما في قول القائل : « شاهدْتُ سوادَ الكفر من جَبين فلان » .

والصِّنْفُ الثاني بالبياض . كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أتيتكم بالحنيفيَّة البيضاء » (٢) وذلك لتخييل أن السُّنَنَ ونحوها من الجنس الذي هو إشراقٌ أو ابْيِضاضٌ في العين ، وأن البِدْعَةَ ونحوَها على خلاف ذلك . فصار تشبيهُ النجوم ما بين الدَّياجي بالسُّنَنِ ما بينَ الابتداع ؛ كتشبيه النجوم في الظلام ببياض الشَّيْب في سواد الشباب ، وبالأنوار مُؤْتَلِقَةَ بين النبات الشديدِ الخضرة . فالتأويل فيه : أنه تُخُيِّل ما ليس بمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّناً .

ويحتمِل وجهاً آخر . وهو : أن يُتَأَوَّل بأنه أراد معنى قولهم : إن سواد الظلام يَزيد النجوم حُسناً . فإنه لمّا كان وقوفُ العاقل على عَوَارِ الباطلِ يَزيد الحقَّ نُبْلاً في نفسه ، وحسناً في مَرآة عقله ؛ جُعِلَ هذا الأصلْ من المعقول مِثالاً للمُشَاهَد المُبْصَر هناك ، غَيْرَ أنه

---

(١) بعض الآية ١٦ من سورة المائدة .

(٢) الحنيفية : نسبة إلى الحنيف ، وهو المستقيم . البيضاء : النقية .

لا يخرج – مع هذا – عن كونه على خلاف الظاهر . لأن الظاهر أن يُمثّل المعقولُ في ذلك بالمحسوس ، كما فعل البُحْتُرِيُّ في قوله :

٢٤٧ – وقد زادها إفراطَ حُسْنٍ : جِوارُهَا
خلائقَ أصفارٍ من المجد خُيَّبِ (١)

وحُسْنُ دَرارِيِّ الكواكبِ أنْ تُرَى
طوالِــعَ في داجٍ من الليل غَيْهَبِ

ومن التشبيه التخييليّ : قولُ أبي طالبٍ الرَّقّيّ :

٢٤٨ – ولقد ذكرْتُكِ والظلامُ كأنه
يومُ النّوَى وفؤادُ مَنْ لم يَعْشَقِ (٢)

فإنه لما كانت أيامُ المَكَارِهِ تُوصَف بالسواد تَوَسُّعاً ، فيقال : اسودَّ النهارُ في عَيْنَيَّ ، وأظلمتِ الدنيا عَلَيَّ ، وكان الغَزَلُ يَدَّعِي القَسْوَةَ على منْ لم يَعْشَقْ ، والقلبُ القاسي يُوصَف بالسواد تَوَسُّعاً – تَخَيَّل يومَ النّوَى وفؤادَ مَنْ لم يعشَقْ شيئين لهما سوادٌ ، وجعلهما أعرفَ به ، وأشهرَ من الظلام ؛ فشبَّهه بهما .

وكذلك قولُ ابنِ بابَك :

---

(١) إفراط حسن : مجاوزة حده ومنتهاه ، و« إفراط » مفعول ثان لـ « زاد » والأول الضمير « ها » العائد على أخلاق الممدوح وهو الفتح بن خاقان . وجوارها : فاعل «زاد». وخلائق : أخلاق. وهو مفعول «جوار». أصفار : خالين ، واحده صفر ، وقد أضيف « خلائق » إليه ، وهو كذلك صفة قامت مقام الموصوف في الإضافة ، وأصله « قوم أصفار » أو ما أشبهه ، خيب : جمع خائب ، وهو الذي انقطع أمله وخاب سعيه ولم ينجح فيه. دراري جمع دری، وهو من الكواكب الثاقب اللامع. داج : مظلم . غيهب : شديد السواد .

(٢) النوى : الفراق والبعد .

٢٤٩ ــ وأرضٍ كأخلاق الكِرام قطعتُهــا
وقد كَحَلَ الليلُ السِّماكَ فأبصرا(١)

فإن الأخلاق لما كانت تُوصَف بالسَّعة والضِّيقِ تشبيهاً لها بالأماكن الواسعة والضيِّقة : تَخَيّل أخلاقَ الكرام شيئاً له سَعَةٌ ، وجُعِلَ أصلا فيها . فشبّه الأرضَ الواسعةَ بها .

وكذا قولُ التّنُوخِيِّ :

٢٥٠ ــ فانهَضْ بنارٍ إلى فحم كأنهمــا
في العين ظُلْمٌ ، وإنصافٌ قد اتّفقا(٢)

فإنه لما كان يقال في الحق : إنه منيرٌ واضحٌ ، فيُستعار له صفةُ الأجسام المنيرةِ ، وفي الظلم خلافُ ذلك ــ تخيّلهما شيئين لهما إنارة وإظلامٌ . فشبّه النارَ والفحمَ مجتمعين بهما مجتمعين .

وكذا ما كتب به الصاحِب إلى القاضي أبي الْحَسَنِ ، وقد أهْدَى له الصاحب عِطرَ القُطْرِ :

٢٥١ ــ يا أيها القاضي الّذي نفسي لــه
مع قُرْبِ عهدِ لقائه مُشْتاقَهْ(٣)
أهْدَيْتُ عطراً مثلَ طِيبِ ثنائه
فكأنّما أهــدِي له أخلاقَــــهْ

(١) السماك : أحد كوكبين ، يقال لأحدهما : السماك الرامح إذ يتقدمه كوكب صغير يسمى راية السماك ورمحه ، ويقال للثاني : السماك الأعزل ؛ إذ ليس له مثل ذلك

(٢) التنوخي قائله هو : أبو القاسم علي بن محمد بن داود أبي الفهم القاضي ، وهو من رجال اليتيمة .

(٣) الصاحب ؛ هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد تلميذ ابن العميد ، ووزير بني بويه ، وله أخبار في اليتيمة . والقاضي أبو الحسن هو القاضي الجرجاني علي بن عبدالعزيز صاحب الوساطة .

فإنه لما كان الثناءُ يُشَبَّهُ بالعطر ويُشْتَقُّ له منه ؛ تخيّله شيئاً له رائحةٌ طيّبةٌ وشبّهَ العِطْرَ به ، ليُوهِمَ أنه أصلٌ في الطّيبِ ، وأحقُّ به منه .

وكذا قولُ الآخر :

٢٥٢ ــ كأنَّ انتضاءَ البدرِ من تحت غَيْمِهِ
نَجاءٌ من البَأْساء بعدَ وُقُوعِ (١)

فإنه لما رأى الخلاصَ من شدّةٍ يُشَبَّهُ بخروج البدر من تحت الغيمِ بانحساره عنه ؛ قَلَبَ التشبيه ليُرِيَ أن صورةَ النجاء من البأساء لكونها مطلوبةً فوق كل مطلوب ــ أعرفُ من صورة انتضاء البدر من تحت غيمه .

١٤٠ ــ وإذا عُلِمَ أن وجه الشبَهِ هو ما يَشْتَرِك فيه الطرفان ؛ عُلِمَ فسادُ جعله في قول القائل : « النحو في الكلام كالملح في الطعام » كونَ القليلِ مُصْلِحاً والكثيرِ مُفْسِداً . لأن القِلّةَ والكثْرةَ إنما يُتَصَوَّر جَرَيانُهما في الملح ، وذلك بأن يُجْعَلَ منه في الطعام القَدْرُ المُصلح أو أكثرُ منه ، دون النحو . فإنه إذا كان من حُكمه رفعُ الفاعلِ ونصبُ المفعولِ ــ مثَلاً ــ فإن وُجِدَ ذلك في الكلام فقد حصَلَ النحوُ فيه ، وانتفى الفسادُ عنه ، وصار مُنْتَفَعاً به في فهم المراد منه ، وإلا لم يحصُل وكان فاسداً لا ينتفع به . فالوجهُ فيه : هو كونُ الاستعمالِ مُصلِحاً ، والإهمال مفسداً ؛ لاشتراكهما في ذلك .

ومما يتّصِل بهذا ، ما حُكِيَ : أن ابنَ شَرَفٍ القَيْرَوَانِيَّ ، أنشد ابن رَشيقٍ قوله :

---

(١) انتضى السيف : استله من غمده وأظهره ؛ فانتضاء البدر انكشافه وخروجه من الغيم . نجاء : نجاة . البأساء : الشدة . والبيت للعلوي الأصفهاني .

٢٥٣ ــ غيري جنَى ، وأنا المُعاقَبُ فيكُمُ
فكأنني سبّابَــــة المُتَنَــــدِّمِ(١)

وقال له : « هل سمعتَ هذا المعنى ؟ » فقال ابن رَشيق : « سمعتُهُ وأخذتَهُ أنت ، وأفسدْتَه » أمّا الأخذُ فمن النّابغة الذبْياني ، حيث يقول :

٢٥٤ ــ حلَفْتُ فلم أترُكْ لنفسكَ رِيبَةً
وهل يأْثَمَنْ ذو إمّةٍ وَهْوَ طائعُ(٢)
لكلّفْتَني ذَنْبَ امْرِئٍ وتركْتَهُ
كذي العُرِّ يُكوَى غيرُه وَهْوَ راتعُ

وأما الإفسادُ : فلأن سبّابة المتندّم أولُ شيءٍ يتألّم منه ؛ فلا يكون المعاقَبُ غيرَ الجاني . وهذا بخلاف بيت النابغة . فإن المَكْوِيَّ من الإبل يألَمُ وما به عُرٌّ البتّةَ وصاحبُ العُرِّ لا يألم جُملةً .

أقسام لوجه الشبه

١٤١ ــ وهو إما غيرُ خارج عن حقيقة الطرفين ، أو خارجٌ .

والأول : إما تمام حقيقتهما ، كما في تشبيه إنسان بإنسان في كونه إنساناً ، أو جزئهما ، كما في تشبيه بعض الحيوانات العُجْم بالإنسان في في كونه حيواناً .

والثاني : صفةٌ ، إما حقيقيةٌ ، أو إضافية .

---

(١) السبابة : الإصبع التي بين الإبهام والوسطى ، يعضها النادم في العادة . وابن شرف ، وابن رشيق ، كلاهما شاعر ناقد ، من القيروان بشمال إفريقية ، ولأولهما « قراضة الذهب » وللثاني « العمدة » وهما كتابا نقد ، وكانا متعاصرين في القرن الخامس .

(٢) الإمة بالكسر ، ويضم : الشرعة والدين . العر : قروح تخرج في أعناق الفصلان وهو ــ بفتح العين وبضمها ــ : الجرب . راتع : مقيم متنعم يأكل ويشرب ماء في خصب وسعة .

والحقيقية : إما حِسِّيَّةٌ . وهي الكَيْفِيَّاتُ الجسمية مما يدرك بالبصر من الألوان ، والأشكال ، والمقادير ، والحركات ، وما يتصل بها من الحسن والقبح وغير ذلك ، أو بالسمع ، من الأصوات القوية ، والضعيفة ، والتي بينَ بينَ ، أو بالذَّوْق من أنواع الطعوم ، أو بالشم من أنواع الروائح ، أو باللمس ، من الحرارة والبُرُودة ، والرُّطوبة واليُبوسة ، والخُشونة والملاسة ، واللين والصلابة ، والخفة ، والثقل ، وما ينضاف إليها .

وإما عقلية ، كالكيفيات النفسية ، من الذكاء ، والتيقُّظ ، والمعرفة ، والعلم ، والقدرة ، والكرم ، والسخاء ، والغضب ، والحلم ، وما جرى مَجْرَاها من الغرائز والأخلاق .

والإضافية : كإزالة الحجاب في تشبيه الحُجَّة بالشمس .

• • • •

تقسيم آخر باعتبار آخر

وجه الشبه واحد أو غير واحد

١٤٢ — وَوَجهُ الشبه : إما واحد ، أو غيرُ واحد .

والواحد : إما حِسّيٌّ ، أو عقليٌّ .

وغيرُ الواحد : إما بمنزلة الواحد — لكونه مُركَّباً من أمرين أو أمور — أو متعدّدٌ غيرُ مركب .

وجه الشبه المركب

والمركب : إما حِسّيٌّ أو عقليٌّ .

وجه الشبه الحسي

والمتعدد : إما حسي ، أو عقلي ، أو مختلف .

والحِسّيُّ لا يكون طرفاه إلا حِسّيَّيْنِ ، لامتناع أن يُدْرَكَ بالحس من غير الحسّ شيءٌ .

والعقليُّ : طرفاه إما عقليان ، أو حسيان ، أو مختلفان ؛ لجواز أن يُدْرَكَ بالعقل من الحس شيء ، ولذلك يقال : التشبيهُ بالوجه العقليّ أعمُّ من التشبيه بالوجه الحِسّي .

رأي للسكاكي

قال الشيخُ صاحبُ المِفتاح : وههنا نكتةٌ لا بُدَّ من التنبُّه لها ، وهي أن التحقيق في وجه الشبه يأبى أن يكون غيرَ عقلي ؛ وذلك أنه متى كان حِسّيّاً — وقد عرفتَ أنه يجب أن يكون موجوداً في الطرفين ، وكل موجود فله تعيُّنٌ — فوجه الشبه مع المشبَّهِ متعيِّنٌ ، فيمتنع أن يكون هو بعينه موجوداً مع المشبَّه به ؛ لامتناع حصول المحسوس المعيَّنِ ههنا ، مع كونه بعينه هناك بحكم الضرورة ، وبحكم التنبيه على امتناعه — إن شئت — وهو استلزامُه إذا عُدِمَتْ حُمْرَةُ الخدّ دون حمرة الورد

أو بالعكس ، كونَ الحمرةِ مَعْدومةً موجودةً معاً ، وهكذا في أخواتها ، بل يكون مِثْلَه مع المشبَّهِ به ، لكنَّ المثلين لا يكونان شيئاً واحداً ، ووجهُ الشبه بين الطرفين — كما عرفتَ — واحدٌ ؛ فيلزم أن يكون أمراً كُلِياً مأخوذاً من المِثْلَيْنِ بتجريدهما عن التعيُّن ، لكن ما هذا شأنه فهو عقلي .

ويمتنع أن يُقال : فالمرادُ بوجه الشبه حصولُ المثلين في الطرفين ؛ فإن المثلين متشابهان ؛ فمعهما وجهُ تشبيه ؛ فإن كان عقلياً كان المرجعُ في وجه الشبه العقل في المآل ، وان كان حِسِّيّاً استلزم أن يكون مع المثلين مثلان آخران ، وكان الكلام فيهما كالكلام فيما سواهما ، ويلزم التسلسل .

هذا لفظه ، ويمكن أن يُقال : المراد بكونه حِسِّيّاً أن تكون أفرادُه مُدْرَكةً بالحسِّ ، كالسواد ؛ فإن أفرادَه مدركةٌ بالبصر ، وإن كان هو في نفسه غيرَ مُدْرَكٍ به ولا بغيره من الحواسِّ .

الواحدُ الحِسِّيُّ : كالحمرة ، والخفاء ، وطِيب الرائحة ، ولذَّة الطعم ، ولين الملمس ؛ في تشبيه الخدِّ بالورد ، والصوتِ الضعيفِ بالهمس ، والنَّكْهةِ بالعنبر ، والريق بالخمر ، والجلدِ الناعم بالحرير ، كما سبق .

أمثلة للوجه الواحد العقلي

والواحدُ العقليُّ : كالعَراء عن الفائدة في تشبيه وجود الشيء العديم النفع بعدمه ؛ وجهةِ الإدراك في تشبيه العلم بالحياة ، فيما طرفاه معقولان .

والجراءة في تشبيه الرجل الشجاع بالأسد ، ومُطْلَقِ الاهتداء في تشبيه أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم — بالنجوم ، فيما طرفاه محسوسان .

والهدايةِ في تشبيه العلم بالنور ، وتحصيلِ ما بين الزيادة والنقصان في تشبيه العدل بالقسطاس ، فيما المشبه فيه معقول والمشبه به محسوس .

واستطابةِ النفْس في تشبيه العطر بخُلُقٍ كريم ، وعدم الخفاء في تشبيه النجوم بالسُّنن ، فيما المشبه فيه محسوس والمشبه به معقول .

قال الشيخ صاحبُ المفتاحِ : وفي أكثر هذه الأمثلة في معنى وحدتها تسامُحٌ .

المركب الحسي والطرفان مفردان

والمركّب الحسي : طرفاه إما مفردان كالهيئة الحاصلة من الحمرة والشكل الكُرِيّ والمقدار المخصوص في قول ذي الرمة :

٢٥٢ — وسقْطٍ كعين الدِّيك عاوَرْتُ صاحبي
أباهـــا ، وهَيّأنا لموقعهـــا وكْرا(١)

وكالهيئة الحاصلة من تقارُن الصورَ البيضِ ، المستديرة ، الصِّغار المقاديرِ في المَرْأى ، على كيفيَّةٍ مخصوصةٍ إلى مقدارٍ مخصوصٍ ، في قول أُحَيْحَةَ بْنِ الجُلاَحِ ، أوْ قَيْسِ بْنِ الأسْلَتَ :

٢٥٦ — وقد لاح في الصبح الثُّريّاَ كمـــا ترى
كعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّـــةٍ حِينَ نَوّرا(٢)

والطرفان مركبان

واما مُرَكّبَان ، كالهيئة الحاصلة من هُوِيِّ أجرامٍ مُشرقةٍ ، مستطيلةٍ ، متناسبةِ المقدارِ ، متفرقةٍ في جوانب شيء مُظْلِمٍ ، في قول بَشّارٍ :

---

(١) السقط مثلث بالسين : ما يسقط بين الزندين قبل استحكام الوري ، يذكر ويؤنث . عاورته كذا : تداولناه وتناوبنا عليه . أباها : الضمير يعود على « سقط » ويريد بالأب الذكر من الزندين . الوكر : يقصد به استقبال الشرر المستخرج من الحشائش الجافة وأطراف الأغصان السريعة الالتهاب .

(٢) الثريا : مجموعة من الكواكب متكاثرة في موضعها من السماء ، وهي الأصل تصغير ثروى وصف للمؤنث من الثراء ، الملاحي — بضم الميم وتشديد اللام ويجوز تخفيفها وبتشديد الياء — : عنب أبيض طويل ، نور : أدرك ونضج . وابن الأسلت وابن الخطيم شاعران جاهليان .

٢٥٧ – كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءوسنــا
وأسيافَنَا ليلٌ تَهاوَى كواكبُهْ (١)

وكالهيئة الحاصلة من تفرُّق أجرامٍ ، مُتَلألِئةٍ ، مستديرةٍ ، صغارِ المقادير في المرأى ، على سطح جسمٍ أزرقَ ، صافي الزُّرقة ، في قول أبي طالبٍ الرَّقّيّ : (٢)

٢٥٨ – وكأن أجرامَ النجوم لَوامعـــاً
دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِساطٍ أزْرَقٍ

والطرفان مختلفان

وإما مختلفان ، كما تشبيه الشّاة الجَبَلِيّ بحمارٍ أبترَ مَشقوقِ الشَّفَةِ والحوافرِ نابتٍ على رأسه شجرتا غَضاً ، وكما مرَّ في تشبيه الشقيق والنيلوفَر (٣) .

التركيب في الحركات

١٤٣ – ومن بديع هذا النوع – أعني المركب الحسي ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة ، ويكون على وجهين :

أحدهما : أن يُقْرَنُ بالحركة غيرُها من أوصاف الجسم ، كالشكل ، واللون ، كما في قوله :

٢٥٩ – • والشمسُ كالمِرآةِ في كَفِّ الأشَلْ (٤) •

---

(١) مثار : مهيج . النقع : الغبار . تهاوى : تتساقط ، خفف بحذف إحدى التاءين .

(٢) هو من شعراء اليتيمة .

(٣) الغضا : نوع من الأثل خشبه شديد الصلابة . وفي تشبيه الشقيق والنيلوفر يراجع الشاهدان ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٤) ترددت نسبته بين الشماخ بن ضرار ، وأبي النجم ، وابن المعتز ، وابن أخي الشماخ واسمه جبار بن جزء بن ضرار ، وهو الأصح ، إذ هو ضمن أرجوزة طويلة له مثبتة في ديوان عمه الشماخ .

من الهيئة الحاصلة من الاستدارة ، مع الإشراف ، والحركة السريعة المتصلة ، •ما يحصل في الإشراف بسبب تلك الحركة ، من التموُّج والاضطراب ، حتّى يُرَى الشعاعُ كأنه يَهُمُّ بأن ينبسط حتى يَفيضَ من جوانب الدائرة ، ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي بدا له إلى الانقباض ، كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط ؛ فإن الشمس إذا أحَدَّ الإنسانُ النظرَ إليها ليتبين جِرْمَها وجدها مُؤَدِّيةً لهذه الهيئة ، وكذا المرآة إذا كانت في يد الأشَلِّ .

ومثله قول المُهَلَّبِيِّ الوزيرِ :

٢٥ – والشمسُ من مشرقهـــا قد بَدَتْ
مُشْرِقَةً ليـــس لهـــا حاجب(١)
كـــأنها بُوتَقَـــةٌ أُحْمِيَـــتْ
يَجول فيهـــا ذهبٌ ذائـــبُ

فإن البُوتَقَة إذا أُحْمِيَتْ ، وذاب فيها الذهب ، تشكَّل بشكلها في الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركَةَ العجيبةَ ، كأنه يهم بأن ينبسط حتّى يفيض من جوانبها ؛ لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض ؛ لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحُم ؛ ولذلك لا يقع فيه غَلَيَانٌ على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء .

---

(١) حاجب : مانع من الظهور . البوتقة : ما يذيب الصائغ المعادن فيه . يجول : يتحرك. والوزير المهلبي هو أبو محمد الحسن بن محمد ، من ذرية المهلب بن أبي صفرة ، كان شاعراً وكاتباً ووزيراً لمعز الدولة البويهي ومدبراً لأموره في العراق ، توفي سنة ٣٦٢

وكما في قول الصَّنَوْبَرِيّ :

٢٦١ — كــأنَّ في غُدرانهـــا
حواجِبـــا ظَلَّتْ تُمَطّ(١)

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال الماء كأنصاف دوائر صِغارٍ ، ثم تمتد امتداداً ينقص من انحنائها ؛ فينقلها من التقوُّس إلى الاستواء ، وذلك أشبَهُ شيءٍ بالحواجب إذا امتدَّتْ ؛ لأن للحاجب، كما لا يخفى تقويساً ، ومَدُّهُ ينقص من تقويسه .

والوجه الثاني : أن تجرَّدَ هيئةُ الحركةِ عن كلّ وصفٍ غيْرِها للجسم ؛ فهناك أيضاً لا بُدَّ من اختلاط حركاتٍ كثيرةٍ للجسم إلى جهاتٍ مختلفة له ، كأن يتحرك بعضُه إلى اليمين ، وبعضُه إلى الشّمال ، وبعضُه إلى العُلو ، وبعضُه إلى السُّفل .

فحركة الرَّحَا والدُّولابِ والسهمِ لا تركيبَ فيها ؛ لاتحاد الحركة . وحركةُ المصحفِ في قول ابن المُعْتَزّ :

٢٦٢ — وكــأن البرق مُصْحَــفُ قــارٍ
فانطبـــاقاً مَرَّةً وانفتاحـــا

فيها تركيب ؛ لأنه يتحرك في الحالتين الى جهتين في كل حالة إلى جهة ، وكلَّما كان التفاوُتُ في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشدَّ كان التركيبُ في هيئة المتحرِّك أكثر .

ومن لطيف ذلك قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتقاذفَ الأمواج بها :

---

(١) الغدران : جمع غدير ، ومعناه المناسب هنا . القطعة من الماء يتركها السيل . وتمط : تمد . والصنوبري هو أحمد بن محمد الحلبي ، من شعراء الشام الوصافين في العصر العباسي .

٢٦٣ – تقِصُ السفينُ بجانِبَيْـــه كمـــا
يَنْزُو الرُّبَاحُ خَلاَ له كَرْعُ(١)

قال الشيخ عبد القاهر : الرُّباحُ : الفصيل (وقيل : القرد) (٢) والكَرْعُ : ماءُ السماء ؛ شبَّه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نَزْوِه ؛ فإنه يكون له حينئذٍ حركاتٌ مُتَفاوتةٌ تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تَسفُّلٌ وتَصعُّدٌ على غير ترتيب ، وبحيثُ (يكاد) يَدخُلُ أحدُهما في الآخر ؛ فلا يَتَبَيَّنُه الطَّرْفُ مرتفعاً حتى يراه مُتَسفّلا ، وذلك أشبهُ شيء بحال السفينة وهيئةِ حركاتها حين تَتَدَافَعُها الأمواجُ .

ومنه قولُ الآخرَ :

٢٦٤ – حفَّتْ بِسَرْوٍ كالقيان ، ولُحِّفَتْ
خُضْرَ الحرير على قوامٍ مُعتَدلْ(٣)
فكأنها والريحُ جاء يُميلُها
تبغي التعانُقَ ، ثم يمنعُها الخجَلْ

فإن فيه تفصيلاً دقيقاً ؛ وذلك أنه راعى الحركتين ؛ حركةَ التهيُّؤِ للدنُوِّ والعِناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الإفتراق ، وأدَّى ما يكون في الثانية من سرعة زائدة تَأديَةً لطيفةً ؛ لأن حركة الشجرة المعتدلة

---

(١) تقص : تثب ، ومثله في المعنى « ينزو » .

(٢) الزيادة عن « أسرار البلاغة » صفحتي ١٥٩ – ١٦٠ .

(٣) حفت : أحيطت ، والحديث عن رياض يصفها. السرو : شجر معتدل القامة وتشبه به القدود الميادة . القيان : الجواري ، ويلاحظ فيهن هنا اتصافهن باعتدال القوام بدليل التشبيه . لحفت : أصله جعل لها ألحفة . والشاعر ابن المعتز او الأخيطل الأهوازي .

حال رجوعها إلى اعتدالها أسرعُ لا مَحَالَةَ من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال ؛ وكذلك حركةُ من يدركه الخجل فيرتدع أسرعُ من حركة من يَهُمُّ بالدنوّ ، لأن إزعاج الخوف أقوى أبداً من إزعاج الرجاء .

ومما مذهبه السهلُ الممتنع من هذا الضرب قولُ امْرِىءِ القَيْسِ :

٢٦٥ ـ مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً
كجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ(١)

يقول : إن هذا الفرس ـ لفَرْطِ ما فيه من لِينِ الرأسِ وسرعةِ الانحرافِ ـ ترى كفَلَه في الحال التي ترى فيها لبَبَه ؛ فهو كجلمود صخر دفعه السيل من مكان عال ؛ فإن الحجر بطبعه يطلب جهة السُّفل؛ لأنها مركزه ، فكيف إذا أعانته قوةُ دَفْعِ السيل من عل ؟! فهو لسرعة تقلُّبِه يُرَى أحدُ وجهيه حين يُرَى الآخرُ .

التركيب في هيئة السكون

١٤٤ ـ وكما يقعَ التركيب في هيئة الحركة قد يقع في هيئة السكون ؛ فمن لطيف ذلك قول أبي الطَّيِّبِ في صفة الكلب :

٢٦٦ ـ • يُقْعِي جُلوسَ البدَوِيِّ الْمُصْطَلِي(٢) •

إنما لَطُفَ من حيث كان لكل عضو من الكلب في إقعائه موقعٌ خاصٌ ، وللمجموع صورةٌ خاصَّةٌ مؤلَّفَةٌ من تلك المواقع .

(١) مكر مفر : صيغتا مبالغة من الكر والفر بمعنى الإقدام والإحجام . ومعنى المعية في هذه الصفات المتناقضة أنها مجتمعة فيه بالقوة يستطيع الإتيان بكل منها عند طلبه ، أو أنه يأتي بها متعاقبة في لطف وسرعة بحيث يخيل لك أنها اجتمعت في وقت واحد له ، الجلمود : الشديد الصلب . حطه : ألقاه من أعلى إلى أسفل عل : علو .

(٢) يقعي : يجلس : يجلس على قعوتيه . والقعوة : أصل الفخذ مما يلي الألية . المصطلي : المستدفىء بالنار .

ومنه البيت الثاني من قول الآخرِ في صفة مَصْلوبٍ :

٢٦٧ – كأنه عاشقٌ قد مَدَّ صفحتَه
يوم الوَداع إلى توديع مُرْتَحِلِ (١)
أو قائمٌ من نُعاسٍ فيه لُوثَتُه
مُواصِلٌ لتمطِّيه من الكَسَلِ

والتفصيلُ فيه أنه شبَّهه بالمتمطِّي إذا واصل تَمَطِّيَهُ مع التعرُّض لسببه وهو اللُّوثَةُ والكسل فيه ؛ فنظر إلى هذه الجهات الثلاث ، ولو اقتصر على أنه كالمتمطي كان قريبَ التناول ؛ لأن هذا القدر يقع في نفس الرائي للمصلوب ابتداءً ؛ لأنه من باب الجملة .

وشبيهٌ بهذا القول قولُ الآخَرِ :

٢٦٨ – لم أرَ صَفّاً مثلَ صَفِّ الزُّطِّ
تِسعينَ منهم صُلِبوا في خَطِّ (٢)
من كل عالٍ جِذعُه بالشَّطِّ
كأنه في جِذعه المُشْتَطِّ
أخو نُعاسٍ جَدَّ في التَّمَطِّي
قد خامرَ النومَ ولم يَغِطِّ

---

(١) صفحة الرجل : عرض صدره ، ومد هذا العرض يتحقق بفتح الذراعين تهيئهما للعناق كالذي يكون عند التوديع : اللوثة : الاسترخاء والفتور .

(٢) الزط : جماعة من الهند ثاروا في بادية البصرة ، منذ فتنة الأمين والمأمون إلى أن جرد لهم المعتصم جيشاً قضى على ثورتهم ، وأسر منهم سبعة وعشرين ألفاً ، وصلب منهم عدداً كثيراً . وهذا الشعر في وصف بعض المصلوبين . من : بيانية ، جذعه : الضمير يعود على «كل عال» ، وجذع : فاعل الوصف «عال» والمراد به الخشبة المتخذة من جذوع الشجر ليصلب عليها . المشتط : المتجاوز الحد في الطول ، خامر : خالط . يغط . يصوت تصويت النائم ، وهو الغطيط .

والفرق بين هذا والأوَّلِ أن الأول صريحٌ في الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها دون بلوغ الصفة غايـَة ما يمكن أن يكون عليها ، والثاني بالعكس .

قال الشيخ عبد القاهر : وشبيهٌ بالأول في الاستقصاء قولُ ابن الرُّومي في المصلوب أيضاً :

٢٦٩ ــ كأن له في الجوِّ حَبْلاً يَبُوعُه
إذا ما انقضَى حَبْلٌ أُتيحَ له حبلُ (١)

فقوله : « إذا ما انقضى حبلٌ أُتيح له حبل » كقوله: «مواصل لتمطيه من الكسل » في التنبيه على استدامة الشَّبه ، لأنه إذا كان لا يزال يبوع حَبْلاً لم يقبض باعَه ، ولم يرسل يده ، وفي ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال .

الوجه المركب العقلي

١٤٥ ــ والمركّبُ العقليُّ كالمنظر الـمُطْـمِـع مع الـمَخْبَرِ الـمُؤيِس الذي هو على عكس ما قدر ، في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ » (٢) شبّه ما يعمله من لا يقرِن الإيمانَ الـمُعتَبَرَ بالأعمال التي يَحْسَبُها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ، ثم يَخيبُ في العاقبة أملُه ، ويَلْقَى خلافَ ما قَدَّر ، بسرابٍ (٣) يراه الكافر بالسّاهِرَة وقد غلبه عطشٌ

(١) يبوعه : يقدره ويقيسه بباعه ، وهو قدر مد يديه . أتيح له : قدر له وتهيأ

(٢) بعض الآية ٣٩ من سورة النور . السراب : ما يشاهد في الأفق البعيد عند اشتداد الحر كأنه ماء . قيعة : قيعان جمع قاع ، وهو الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٣) « بسراب » متعلق بقوله « شبه » .

يومَ القيامة ، فيحسَبه ماءً ؛ فيأتيه ، فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانيةَ الله عنده ؛ فيأخذونه ، فيَعْتِلونه إلى جهنمَ ، فيسقونه الحَميمَ والغَسّاقَ (١) .

فهو كما ترى مُنْتَزَعٌ من أمور مجموعة قُرِنَ بعضُها إلى بعض ؛ وذلك أنه رُوعِيَ من الكافر فعلٌ مخصوصٌ ، وهو حُسبانُ الأعمال نافعةً له ، وأن تكون للأعمال صورةٌ مخصوصةٌ ، وهي صورةُ الأعمالِ الصالحةِ التي وَعَدَ الله تعالى بالثواب عليها بشرط الإيمان به وبرسُلِه عليهم السلام ؛ وأنها لا تفيدهم في العاقبة شيئاً ، وأنهم يَلْقَوْنَ فيها عكسَ ما أمّلوه وهو العذاب الأليم ، وكذا في جانب المشبّه به .

وكحِرمان الانتفاع بأبلغ نافع معَ تَحَمُّلِ التعب في استصحابه ، كما في قوله تعالى: « مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفاراً » (٢) فإنه أيضاً مُنتزَع من أمور مجموعة قُرِنَ بعضُها إلى بعضٍ ، وذلك أنه رُوعِيَ من الحمار فعلٌ مخصوصٌ ، وهو الحمل ، وأن يكون المحمولُ شيئاً مخصوصاً وهي الأسفار التي هي أوْعِيَةُ العلوم ، وأن الحمار جاهل ما فيها ، وكذا في جانب المشبه .

١٤٦ — واعلم أنه قد تقع بعد أداة التشبيه أمور يُظَنُّ أن المقصود أمر مُنْتَزَعٌ من بعضها ؛ فيقع الخطأ ؛ لكونه أمراً مُنتزعاً من جميعها ، كقوله :

(١) الساهرة : الأرض . أو وجهها . الزبانية : الملائكة الموكلون بدفع أهل النار إلى النار . يعتلونه : يجذبونه ويجرونه جراً عنيفاً . الحميم : الماء الحار ، الغساق : الماء المنتن .

(٢) بعض الآية ٥ من سورة الجمعة .

٢٧٠ – كما أبرقَتْ قوماً عِطاشاً غمامةٌ
فلمَّا رَأوْها أقشعَتْ وتجلَّتِ (١)

فإنه ربَّما يُظَنُّ أن الشطرَ الأوَّلَ منه تشبيهٌ مُسْتَقِلٌّ بنفسه لا حاجة به إلى الثاني على أن المقصودَ به ظهورُ أمرٍ مُطْمِع لمن هو شديدُ الحاجة إليه ، ولكن بالتأمُّل يظهر أن مَغْزَى الشاعر في التشبيه أن يثبِتَ ابتداءً مطمعاً مُتَّصلاً بانتهاء مُؤْيِسٍ ، وذلك يتوقَّف على البيت كله .

فإن قيل : هذا يقتضي أن يكون بعضُ التشبيهات المجتمعة كقولنا : « زيد يَصْفُو ويَكْدِرُ » تشبيهاً واحداً ؛ لأن الاقتصار على أحد الخبرين يبطل الغرض من الكلام ؛ لأن الغرض منه وصف المخبَرِ عنه بأنه يجمع بين الصفتين ، وأن إحداهما لا تدوم .

قلنا : الفرق بينهما أن الغرض في البيت أن يَثبُتَ ابتداءُ مُطْمعٌ متصل بانتهاء مُؤْيِسٍ كما مر ، وكونُ الشيء ابتداءً لآخر زائدٌ على الجمع بينهما ، وليس في قولنا « يصفو ويكدر » أكثرُ من الجمع بين الصِّفَتَيْن ، ونظيرُ البيتِ قولُنا « يصفو ثم يكدِرُ » لإفادة « ثُمَّ » الترتيب المقتضي ربطَ أحدِ الوصفين بالآخر .

فرق بين التشبيه المركب والمتعدد

١٤٧ – وقد ظهر مما ذكرنا أن التشبيهاتِ المجتمعةَ تفارق التشبيه المركَّب في مثل ما ذكرنا بأمرين :

أحدهما : أنه لا يجب فيها ترتيب :

الثاني : أنه إذا حُذِفَ بعضُها لا يتغير حال الباقي في إفادة ما كان يفيده قبل الحذف .

فإذا قلنا « زيد كالأسدِ بأساً ، والسيفِ مَضَاءً ، والبحرِ جُوداً »

---

(١) أقشعت : تفرقت . تجلت : انكشفت .

لا يجب أن يكون لهذه التشبيهات نَسَقٌ مخصوص ، بل لو قُدِّم التشبيه بالبحر أو التشبيهُ بالسيف ؛ جاز لو أُسْقِط واحدٌ من الثلاثة لم يتغير حالُ غيره في إفادة معناه . بخلاف المركب ؛ فإن المقصود منه يختلُّ بإسقاط بعض الأمور .

الوجه المتعدد الحسي

١٤٨ — والمتعدِّدُ الْحِسِّيُّ : كاللون ، والطعم ، والرائحة في تشبيه فاكهة بأخرى .

الوجه المتعدد العقلي

١٤٩ — والمتعدد العقلي : كحِدَّةِ النظر ، وكمال الحذر ، وإخفاء السِّفاد . في تشبيه طائر بالغراب .

الوجه المتعدد المختلف

١٥٠ — والمتعدِّد المختلفُ : كحُسْنِ الطلعة ونباهة الشأن ، في تشبيه إنسان بالشمس .

١٥١ — واعلم أن الطريق في اكتساب وجه الشبه أن يُمَيَّز عمَّا عداه . فإذا أردْتَ أن تُشَبِّه حسماً بجسم في هيئة حركة ، وجب أن تطلب الْوِفاق بين الهيئة والهيئة مُجَرَّدتين عن الجسم وسائر أوصافه من اللون وغيره ، كما فعل ابْنُ المُعْتَزِّ في تشبيه البرق (١) ؛ فإنه لم ينظر إلى شيء من أوصافه سوى الهيئة التي تجدها العين ، من انبساط يعقبه انقباض .

أداة التشبيه

١٥٢ — وأما أداته فالكافُ في نحو قولك : « زيدٌ كالأسد » وكأنَّ في نحو قولك « زيدٌ كأنه أسد » و« مثــل » في نحو قولك : « زيدٌ مِثْــلُ الأسد » وما في معنى « مثل » كلفظة « نحو » وما يُشْتَقّ من لفظة « مثل » و« شبه » ونحوهما .

---

(١) الشاهد ٢٦٢ .

والأصلُ في الكاف ونحوها أن يليها المشبَّه به ، وقد يليها مفردٌ لا يتأتّي التشبيهُ به ، وذلك إذا كان المشبَّه به مُركباً كقوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأرضِ ، فأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ »(١) ؛ إذ ليس المرادُ تشبيه حَال الدنيا بالماء ، ولا بمفردٍ آخرَ يُتَمَحَّلُ (٢) لتقديره ، بل المراد تشبيه حالها ، في نضارتها ، وبهجتها ، وما يتعقَّبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضرَ وارفاً (٣) ، ثم يهيج (٤) ، فتُطيره الرياح كأن لم يكن .

وأما قوله عزَّ وجلَّ : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ ، كما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إلى اللهِ (٥)؟ فليس منه ؛ لأن المعنى « كونوا أنصارَ الله ، كما كان الحواريُّون أنصارَ عيسى ، حين قال لهم : من أنصاري إلى الله؟ » .

وقد يذكر فِعْلٌ ينبي عن التشبيه ، كعلمت في قولك « علمت زيداً أسداً » ونحوِه .

هذا إذا قَرُب التشبيه فإن بَعُدَ أدنى تبعيد ؛ قيل : خِلْتُه وَحَسِبْتُه ونحوُهما .

١٥٣ ـ وأما الغرض من التشبيه فيعود في الأغلب إلى المشبه ، وقد يعود إلى المشبه به .

الغرض من التشبيه

أما الأول فيرجع إلى وجوه مختلفة :

أغراض ترجع إلى المشبه

بيان إمكان وجوده

منها : بيانُ أن وجود المشبَّه ممكنٌ ، وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يُخالَفُ فيه ويُدَّعَى امتناعُه ، كما في قول أبي الطَّيِّبِ :

(١) بعض الآية ٥٤ من سورة الكهف . الهشيم : النبت اليابس المتكسر ، تذروه : تطيره وتفرقه .

(٢) يتمحل : يحتال .

(٣) وارفاً : ناضراً شديد الخضرة .

(٤) يهيج : ييبس .

(٥) بعض الآية ١٤ من سورة الصف . الحواريون : صحابة المسيح .

٢٧١ ــ فإن تَفُق الأنامَ وأنت منهم
فإن المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزالِ

أراد أنه فاق الأنام في الأوصاف الفاضلة ، إلى حَدٍّ بَطَلَ معه أن يكون واحداً منهم ، بل صار نوعاً آخر برأسه أشْرَفَ من الإنسان ، وهذا ــ أعني أن يتناهى بعضُ أفراد النوعِ في الفضائل ، إلى أن يصير كأنه ليس منها ــ أمرٌ غريبٌ يفتقر من يَدَّعيه إلى إثبات جواز وجوده على الجملة ، حتى يجيء إلى إثبات وجوده في الممدوح ؛ فقال :

* فإن المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال *

أي : ولا يُعَدُّ في الدِّماء ؛ لما فيه من الأوصاف الشريفة التي لا يُوجَد شيءٌ منها في الدَّم ، وخُلُوِّه من الأوصاف التي كان لها الدَّمُ دماً ؛ فأبان أنَّ لِمَا ادَّعاه أصلا في الوجود على الجملة .

بيان حاله

ومنها : بيانُ حاله ، كما في تشبيه ثوبٍ بثوبٍ آخرَ في السواد ، إذا عُلِم لونُ المشبه به دون المشبه .

بيان مقدار حاله

ومنها : بيانُ مقدار حاله في القوة والضعف والزيادة والنقصان ، كما في قوله :

٢٧٢ ــ * مِدادٌ مِثْلُ خافيةِ الغُرابِ *(١)

وعليه قولُ الآخَرِ :

٢٧٣ ــ فأصبحْتُ من ليلى الغداةَ كقابضٍ
على الماء خانَتْهُ فُرُوجُ الأصابع

---

(١) بقيته * وقرطاس كرقراق السحاب *
الخافية : إحدى الخوافي ، وهي ريشات من الجناح تختفي إذا ضمه الطائر .
القرطاس : الورقة ، رقراق السحاب : : متلألئه ، أو ما يذهب ويجيء منه ، ويكون في العادة رقيقاً أبيض خفيفاً . وينسب البيت لأبي تمام ، وللحسن بن وهب .

أي : بلغتُ في بَوارِ سَعْيي في الوصول إليها وان أُمتَّعَ بها ؛ أقصى (١) الغايات . حتى لم أحظَ منها بما قلّ ولا بما كثُر .

تقرير حاله في النفس

ومنها : تقرير حاله في نفس السامع ، كما في تشبيه من لا يحصل على سعيه على طائل بمن يرْقِمُ على الماء ، وعليه قوله عز وجل : « وإذْ نَتَقْنَا الجبَلَ فَوْقَهُمْ كأنَّهُ ظُلَّةٌ » (٢) فإنه بيَّن ما لم تَجْرِ به العادةُ بما جرَت به العادةُ .

وهذه الوجوه تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتمّ ، وهو به أشهرُ ؛ ولهذا ضعف قول البُحْتُرِيّ :

٢٧٤ – على باب قِنَّسرينَ والليْلُ لاطِخٌ
جوانِبَهُ من ظُلْمَةٍ بمِدادِ (٣)

فإنه ربَّ مدادٍ فاقد اللون ، والليلُ بالسواد وشدَّته أحَقُّ واحْرَى ، ولهذا قال ابنُ الرُّوميّ :

٢٧٥ – حِبْرُ أبي حَفْصٍ لُعابُ الليلِ
يسيلُ لِلإخْوانِ أيَّ سَيْلِ (٤)

فبالغ في وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل ؛ فكأنه نظر إلى قول العامَّة في الشيء الأسود : « هو كالنِّقْسِ » (٥) ثم تركه للقافية إلى المداد .

تزيينه

ومنها : تزيينه للترغيب فيه ، كما في تشبيه وجه أسود ، بمقلة الظَّبي .

---

(١) أقصى الغايات : ارتباطه بالفعل « بلغت » . وهو مفعول به .

(٢) بعض الآية ١٧١ من سورة الأعراف . نتقنا : رفعنا . ظلة . مظلة .

(٣) قنسرين : بلد بالشام ، وبابها : مدخلها .

(٤) أبو حفص : وراق يمدحه ابن الرومي . اللعاب : الريق . وليس لليل لعاب وإنما ادعاه له ليؤكد شدة سواد الحبر اعتماداً على توهم أن لعاب الأسود يكون أسود

(٥) النقس : المداد .

ومنها تشويهه للتنفير عنه ، كما في تشبيه وجهٍ مجدورٍ بِسَلْحَةٍ (١) جامدةٍ قد نقَرتْها الدِّيَكة . تشويهه

وقد أشار إلى هذين الغرضين ابن الرُّوميّ في قوله .

٢٧٦ — تقول : هذا مُجاجُ النَّحْلِ ؛ تمدحهُ
وإن تَعِبْ قلتَ : ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ (٢)

ومنها : استطرافه ، كما في تشبيه فحم فيه جَمْرٌ مُوقَدٌ ببحر من المِسْك مَوْجُهُ الذهب ؛ لإبرازه في صورة الممتنع عادةً . استطرافه

وللاستطراف وجهٌ آخرُ ، وهو أن يكون المشبَّهُ به نادرَ الحضور إما مُطْلَقاً كما مرَّ ، وإما عند حضور المشبَّه كما في قوله :

٢٧٨ — ولا زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهُو بزُرْقَتِها
بَيْنَ الرِّياضِ على حُمْرِ اليَوَاقيتِ(٣)
كأنها فوق قامــاتٍ ضَعُفْنَ بهـا
أوائلُ النار في أطرافِ كبْريتِ

فإن صورة النار بأطراف الكبريت ؛ لا يندُر حضورُها في الذهن. نَدْرَةَ صورةِ بحرٍ من المِسْكِ موجُهُ الذهبُ ، وإنما النادر حضورها عند حضور صورة البَنَفْسَجِ ، فإذا أُحْضِرَ مع صحة الشَّبَهِ استُطْرِفَ

(١) المجدور : من أصابه الجدري ، ومثله المجدر من المضعف — السلحة : العذرة وما يخرأ .

(٢) المجاج : الريق ، ومجاج النحل : العسل . والزبابير : جمع زنبور ، وهو ذباب أليم اللسع حين تريد الذم أن النحل منه ، وأن العسل من قيئها .

(٣) اللازوردية : البنفسجية . نسبة إلى اللازورد ، وهو حجر نفيس يشبه البنفسج في اللون بأجود أنواعه التي تصنع منه الحلى . واليواقيت : جمع ياقوتة ، والشاعر ابن الرومي .

لمشاهدة عِناقٍ بين صورتين لا تَتَراءى نارَاهُما (١) .

ومما يؤيِّد هذا ما يُحْكى أن جَرِيراً قال : أنْشَدَنِي عَدِيٌّ :

٢٧٨ — ◦ عَرَفَ الدِّيارَ تَوَهُّماً فاعْتَادها ◦

فلما بلغ إلى قوله :

◦ تُزْجِي أغَنَّ كأن إبْرَةَ رَوْقِهِ ◦

رحمتُه وقلت : « قد وقع ، ما عَسَاهُ يقول وهو أعرابيٌّ جِلْفٌ جافٍ ؟ » فلما قال :

◦ قَلَمٌ أصاب من الدَّواةِ مِدادَها (٢) ◦

استحالَتْ الرحمةُ حَسَداً ، فهل كانت رحمتُه في الأولى والحسدُ في الثانية ، إلا لأنه رآه حين افتتح التشبيهَ قد ذكر ما لا يحضرُ له في أول الفِكْر شَبَهٌ ، وحين أتَمَّهُ صادفه قد ظَفِر بأقرب صفة من أبعد موصوف ؟

وذكر الشيخ عبد القاهر — رحمه الله — للاستطراف في تشبيه البَنَفْسَج بنار الكِبْرِيتِ وجهاً آخر ، وهو أنه أراك شبها لنباتٍ غَضٍّ يَرِفُّ وأوراقٍ رطبةٍ ، من لَهَبِ نارٍ في جِسمٍ مُسْتَوْلٍ عليه اليبسُ ، ومَبْنَى الطِّباعِ وموضوعُ الجِبِلَّةِ على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم

---

(١) لا تراءى ناراهما : لا يتدانيان ولا يقتربان . من قولهم « دورنا تتراءى » بمعنى تتقابل .

(٢) الشطر الأول مطلع القصيدة ، وعجزه :

◦ من بعد ما شمل البلى أبلادها ◦

عرفها توهما : عرفها عرفان ظن . اعتادها : جعل مجيئه إياها عادة . والأبلاد : جمع بلد ، وهي القطعة من الأرض . وتزجي : تسوق ، وفاعله ضمير يعود على الظبية التي أخذ في وصفها . والأغن : الذي في صوته غنة ، ويقصد به ولد الظبية . والروق : القرن ، وإبرته : طرفه .

يَعْهَدْ ظهورُه منه وخرج من مَوْضِعٍ ليس بمَعْدِنٍ له ، كانت صَبابة النفوس به أكثر ، وكان الشغف به أجدر .

وأما الثاني فيكون في الغالب إيهامَ أن المشبه به أتمُّ من المشبه في وجه الشبه وذلك في التشبيه المقلوب ، وهو أن يكون بالعكس ، كقول محمد بن وهيب :

أغراض ترجع إلى المشبه به

٢٧٩ — وبَدَا الصَّباحُ كأن غُرَّتَهُ
وجهُ الخليفة حينَ يُمْتَدَحُ(١)

فإنه قَصَدَ إيهامَ أن وجهَ الخليفة أتمُّ من الصباح في الوضوح والضياء .

واعلم أن هذا وإن كان في الظاهر يشبه قولهم : « لا أدري أوجهه أنْوَرُ أم الصبحُ ؟ وغُرَّتُه أَضْوَأُ أم البدرُ ؟ » وقولَهم إذ أفرطوا « نورُ الصباح يَخفَى في ضوء وجهه » أو « نورُ الشمسِ مسروقٌ من نورِ جَبِينه » ونحوَ ذلك من وجوه المبالغة ؛ فإن في الأول خلابَةً وشيئاً من السحر ليس في الثاني ، وهو أنه كأنه يَسْتكثر للصباح ان يُشبِّهه بوجه الخليفة ، ويوهم انه احتشد له واجتهد في تشبيه يُفَخِّم به أمرَه ؛ فيُوقِعُ المبالَغَةَ في نفسك من حيث لا تشعُر ، ويُفيدُكَها من غير أن يظهر ادّعاؤه لها ؛ لأنه وَضَعَ كلامَه وضع مَنْ يَقِيسُ على أصلٍ مُتَّفَقٍ عليه ، لا يُشْفِقُ من خِلاف مُخَالِفٍ وتَهكم متهكم ، والمعاني إذا وردت على النفس هذا المَوْرِدَ كان لها نوع من السرور عجيبٌ — فكانت كالنعمة التي لا تكَدِّرُهَا المنَّة ، وكالغنيمة من حيثُ لا تُحْتَسَبُ ، وفي قوله : « حينَ يُمْتَدَح » فائدةٌ شريفة ، وهي الدلالة على اتّصاف الممدوح بما لا يوجَد إلا فيمن هو كامل في الكرم ، من معرفة حقِّ المادح — على ما احتشد له من تزيينه ، وقَصَدَهُ من تفخيم شأنه في عيون الناس — بالإصغاء إليه ، والارتياح له ، والدلالة بالبِشْرِ والطَّلاقة على حسن موقعه عنده .

(١) الغرة : البياض في الجبهة ، وغرة كل شيء : أكرمه وخياره . والخليفة : هو المأمون بن الرشيد العباسي ، يمدحه محمد بن وهيب الحميري .

ومنه قوله تعالى حكايةً عن مستحلّي الربا : « إنّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا » (١) فإن مُقتضَى الظاهر أن يقال : إنما الربا مثل البيع ؛ إذ الكلامُ في الربا لا في البيع . فخالفوا لجعلهم الربا في الحِلِ أقوى حالاً من البيع وأعْرَفَ به .

ومنه قوله عز وجل : « أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ؟ ! »(٢) فإن مُقْتَضى الظاهرِ العكسُ . لأن الخطاب للّذين عبدوا الأوثان ، وسَمُّوها آلهة ؛ تشبيهاً بالله سبحانه وتعالى . فقد جعلوا غيرَ الخالق مثلَ الخالق . فخُولِفَ في خطابهم . لأنهم بالَغُوا في عبادتها ، وغَلَوا حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة والخالقُ سُبْحانَه فَرْعاً فجاء الإنكار على وَفْق ذلك .

وقال السكّاكِيُّ : عندي أن المرادَ بمن لا يخلق : الحيُّ العالمُ القادرُ من الخلق ؛ تعريضاً بإنكار تشبيه الأصنام بالله عز وجل ، وقوله « أفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ » (٣) تنبيهُ تَوْبيخ عليه . ونحوه قوله تعالى : « أرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ » (٣) بدل : أرأيت من اتخذ هواه إلهه ؟ !

وقد يكون الغرضُ العائدُ إلى المشبه به : بيانَ الاهتمام به ، كتشبيه الجائع وَجْهاً كالبدر في الإشراق والاستدارة بالرغيف ؛ إظهاراً للاهتمام بشأن الرغيف لا غير . وهذا يُسمَّى إظهارَ المطلوبِ .

قال السكاكي : ولا يحسُن المصيرُ إليه إلا في مقام الطمع في تَسَنّي المطلوب (٤) كما يُحْكَى عن الصاحب : أن قاضِيَ سِجِسْتَانَ دخل عليه ، فوجده الصاحب مُتَفَنّناً . فأخذ يمدحه ، حتى قال :

---

(١) بعض الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ١٧ من سورة النحل .
(٣) بعض الآية ٤٣ من سورة الفرقان .
(٤) تسنى : تسهل وتيسر .

٢٨٠ — • وعالمٍ يُعْرَفُ بالسِّجْزِي (١) •

وأشار للندماء أن ينظموا على أسلوبه ، ففعلوا واحداً بعد واحد ، إلى أن انتهت النَّوْبَةُ إلى شريفٍ في البَيْنِ (٢) ، فقال :

أَشْهَى إلى النَّفْسِ من الخُبْزِ

فأمر الصاحب أن تُقدَّم له مائدة .

هذا كله إذا أريد إلحاق الناقص في وجه الشبه حقيقةً أو ادّعاءً بالزائد. فإن أُريدَ مُجَرَّدُ الجمع بين شيئين في أمر ؛ فالأحسن ترك التشبيه إلى الحكم بالتشابه ؛ ليكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به ؛ احترازاً من ترجيح أحد المُتَساوِيَيْن على الآخر . كقول أبي إسْحاق الصَّابِىء :

٢٨١ — تَشَابَهَ دَمْعِي — إذْ جرَى — ومُدامَتِي
فمِنْ مِثْلِ مافي الكأس عَيْنِيَ تَسْكُبُ(٣)
فوَاللهِ ما أدري : أبِالخمرِ أسْبَلَتْ
جُفُونِيَ ،أمْ مِنْ عَبْرَتي كنتُ أشربُ ؟

وكقول الآخر (٤) :

٢٨٢ — رَقَّ الزُّجاجُ ، وراقَتِ الخمر
وتشابَها ، فتشاكلَ الأمْرُ
فكأنّما خَمْرٌ ولا قَدَحٌ
وكأنّما قَدَحٌ ولا خمرُ

(١) السجزي : نسبة سماعية إلى سجستان ، وهي من بلاد فارس .
(٢) البين : الوسط .
(٣) المدامة : الخمر . تسكب : تهطل وتصب . أسبلت : هطلت وأرسلت بالدمع عبرتي : دمعي . والصابىء : هو إبراهيم بن هلال بن هارون الحراني ، شاعر كاتب توفى سنة ٣٨٤ هـ . (٤) هو الصاحب بن عباد .

ويجوز التشبيه (١) أيضاً ، كتشبيه غُرَّةِ الفَرَسِ بالصبح ، وتشبيهِ الصبح بغُرَّةِ الفرس ، متى أُرِيدَ ظُهور مُنيرٍ في مُظلِمٍ أكثَرَ منه . وتشبيهِ الشمس بالمرآة المجلُوَّة . أو الدينار الخارج من السِّكَّة . كما قـال :

٢٨٣ — وكأنَّ الشمسَ المُنيرةَ دينا
رٌ جلَتْهُ حدائدُ الضَّرَّابِ(٢)

وتشبيهِ المِرْآةِ المجلوَّةِ أو الدينارِ الخارج من السِّكَّةِ بالشمس . من أُرِيدَ استِدارةُ متلألىء متضمِّنٍ لخصوصٍ في اللون . وإن عَظُمَ التفاوُتُ بين بياض الصبح وبياض الغرة ، و (بين) نور الشمس ونور المرآة والدينار ، وبين الجِرمَيْنِ . فإنه ليس شيء من ذلك بمنظور إليه في التشبيه . وعلى هذا وَرَدَ تشبيه الصبح في الظلام بعَلَمٍ أبيضَ على ديباجٍ أسودَ في قول ابنِ المُعتَزِّ :

٢٨٤ — والليلُ كالحُلَّةِ السَّوْداء ، لاحَ به
مِنَ الصباح طِرازٌ غيرُ مرْقُومِ (٣)

فإنه تشبيهٌ حَسَنٌ مَقبولٌ ، وإن كان التفاوُتُ في المقدار بين الصبح الطِّراز — في الامتداد والانبساط — شديداً .

تقسيم التشبيه باعتبار طرفيه

١٥٤ — وأما تقسيم التشبيه ، فباعتبار طرفيه أربعة أقسام :

---

(١) جواز التشبيه يقابل أحسنية تركه إلى الحكم بالتشابه إذا أريد مجرد الجمع بين شيئين في أمر .

(٢) الحدائد : جمع حديدة ، والمراد بها : آلات سك النقود . والضراب : هو الذي يسكها ويطبعها في قوالبه التي تخرجها من معدن غفل إلى نقد مقوم وقائله : ابن المعتز .

(٣) الحلة : الثوب الجديد ، أو الثوب مطلقاً . لاح : ظهر . طراز الثوب : علمه ورسمه . غير مرقوم : غير مخطط .

مفردان غير مقيدين

الأول : تشبيه المفرد بالمفرد . وهو ما طرفاه مفردان ، إما غيرُ مقيدين كتشبيه الخدّ بالورد ونحوه ، وعليه قوله تعالى : « هُنّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنّ » (٣) فإن قلتَ : ما وجه الشبه في الآية ؟ قلتُ : جعله الزمَخْشَرِيُّ حِسّيّاً ؛ فإنه قال : لمّا كان الرجل والمرأة يعْتَنقان ، ويشتمل كُلٌ واحد منهما على صاحبه في عِناقه ؛ شُبِّهَ باللّباسِ المُشْتَمِلِ عليه ، قال الجَعْدِيُّ :

٢٨٥ – إذا ما الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا
تثنّتْ ، فكانَتْ عليه لباسا(٤)

وقيل : شُبه كل واحد منهما باللباس للآخر ؛ لأنه يَصُونه من الوقوع في فَضيحة الفاحشة ، كاللباس الساتر للعوْرة .

مفردان مقيدان

وإما مُقَيّدان ، كقولهم لمن لا يحصل من سعيه على شيء : هو كالقابض على الماء ، وكالراقم في الماء . فإن المشبه : هو الساعي ، لا مُطْلَقاً ، بل مُقيّداً بكون سعيه كذلك ، والمشبه به : هو القابضْ أو الراقم ، لا مطلقاً ، بل مقيداً بكَوْن قبضِه على الماء ، أو رَقْمِه فيه ؛ لأن وجه الشبه فيهما هو التّسْوِيَةُ بين الفعل وعدمِه في عدم الفائدة ، والقبض على الماء والرقم فيه كذلك . لأن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها . فإذا كان مما لا يتماسك ؛ فقبضُها عليه وعدمُه سواءٌ . وكذلك القصد بالرقم في الشيء : أن يبقى أثره فيه ، فإذا فُعِلَ فيما لا يقبله ؛ كان فعله كعدمه .

فالقيد في هاتين الصورتين هو الجار والمجرور .

---

(١) بعض الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٢) الضجيع : المشارك في الفراش ، عطفها : جانبها . الجعدي : هو قيس بن عبد الله ، أحد الشعراء الملقبين بلقب النابغة .

ونحوُهما قولُهم : هو كمن يجمع سيفين في غِمْد ، وقولُهم : هو كمُبْتَغِي الصَّيْدِ في عِرِّيسَةِ (١) الأسد .

وقد يكون حالاً ، كقولهم : هو كالحادي وليس له بَعِير .

ومما طرفاه مقيدان قولُ الشاعر :

٢٨٦ — إني وتَزْيِينِي بِمَدْحِيَ مَعْشَراً
كَمُعَلِّقٍ دُرّاً عَلَى خِنْزِيرِ

فإن المشبه فيه : هو المتكلم بقَيْدِ اتصافه بتزيينه بمدحه معشراً ، فمُتَعَلِّق التزيين — أعني قوله : بمدحي — داخلٌ في المشبه ، والمشبه به مَنْ يُعلِّق دُرّاً ، بقيد أن يكون تعليقه إيَّاه على خنزير . فالشَّبَه مأخوذ من مجموع المصدر وما في صِلتِه ؛ وهو أن كل واحد منهما يَضَع الزِّينَة حيثُ لا يظهر لها أثر . لأن الشيء غيرُ قابل للتزيين . فالواو في قوله : « وتزييني » بمعنى «مع» إذ لا يمكن أن يقال : إني كذا ، وإن تزييني كذا ؛ لأنه ليس مَعَنا شيئان يكون أحدُهما خَبَراً عن ضمير المتكلم ، والآخرُ عن « تزييني » لا يقال تقديره : إني كمعلق دُرّاً على خِنزير وإن تزييني بمدحي مَعْشراً كتعليق دُرٍّ على خِنزير . لأنه لا يُتَصَوَّر أن يُشبِّه المتكلم نفسَه — من حيث هو — بمُعلق دُرّاً على خنزير ، بل لا بُدَّ أن يكون يُشبِّه نفسَه باعتبار تزيينه بمدحه معشراً .

مفردان أحدهما مقيد

وإمَّا مختلفان والمقيَّدُ هو المشبَّه به ، كقوله :

« والشمسُ كالمِرْآةِ في كَفِّ الأشَلّ » (٢)

(١) عريسة الأسد : مأواه . وقوله : كمبتغي الصيد ... إلخ يشير إلى عجز بيت للطرماح بن حكيم ؛ وصدره « يا ظبية السهل والأجبال موعدكم »

(٢) انظر الشاهد ٢٥٩ .

فإن المشبَّه : هو الشمسُ على الإطلاق ، والمشبه به : هو المرآة لا على الإطلاق بل بقيد كونها في يد الأشل .

أو على عكس ذلك ، كتشبيه المرآة في كفِّ الأشل بالشمس .

١٥٥ – الثاني : تشبيه المركَّب بالمركَّب ، وهو ما طرفاه كثرتان مجتمعتان ، كما في قول البُحتُرِيِّ :

الطرفان مركبان

٢٨٧ – تَرَى أحْجالَه يَصْعَدْنَ فيه
صُعودَ البَرْقِ في الغَيْمِ الجَهَامِ(١)

لا يُرِيدُ به تشبيه بَيَاضِ الحُجولِ على الانفراد بالبرق ، بل مقصودُه الهيئةُ الحاصِلةُ من مُخَالَطة أحد اللونين بالآخر .

وكذلك المقصود في بيت (٢) بَشَّارٍ ، ولذلك وجب الحكم بأن « أسيافنا » في حكم الصِّلة للمصدر ، ونَصْبُ الأسياف لا يمنع من تقدير الاتصال . لأن الواو فيها بمعنى « مع » كقولهم : « لو تُرِكَتِ الناقةُ وفصيلَها لرضعها » ومما ينبِّه على ذلك أن قوله : « تَهاوَى كواكبه » جملةٌ وقعت صفةً لليل . فإن الكواكب مذكورةٌ على سبيل التبع لليل ، ولو كانت مُسْتَبِدَّةً بشأنها لقال : « ليلٌ وكواكب » .

وأما بيت امْرِىء القَيْسِ :

٢٨٨ – كأن قلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً
لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي(٣)

---

(١) الأحجال : جمع حجل – بالكسر – وهو البياض في رجل الفرس . الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٢) هو الشاهد رقم ٢٥٧ .

(٣) وكرها : عشها ، والضمير للعقاب التي يصفها . العناب : ثمر أحمر اللون الحشف : أردأ التمر . البالي : القديم .

فهو على خلاف هذا . لأن أحد الشيئين فيه الطرفين معطوفٌ على الآخر .

أما في طرف المشبه به : فبيِّنٌ :

وأما في طرف المشبه فلأن الجمع في المتَّفِق كالعطف في المختلف ؛ فاجتماع شيئين أو أشياء في لفظ تثنية أو جمع ؛ لا يوجب أن أحدهما أو أحدها في حكم التابع للآخر ، كما يكون ذلك إذا جرى الثاني صفةً للأول ، أو حالاً منه ، أو ما أشبه ذلك . وقد صرح بالعطف فيما أجراه بياناً له من قوله « رطباً ويابساً » .

التشبيه المركب ضربان

وهذا القسم ضربان .

أحدهما : ما لا يصح تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر ، كقوله :

٢٨٩ ــ غدَا والصبحُ تحت الليل بادٍ
كطِرْفٍ أشهَبٍ مُلْقَى الجِلالِ(١)

فإن الجِلالَ فيه في مقابَلة الليل، ولو شبِّهه به لم يكن شيئاً، وكقول الآخر :

٢٩٠ ــ كأنما المِرِّيخُ والمُشْتَري
قُدَّامَهُ في شامخ الرِّفْعَهْ(٢)

مُنْصَرِفٌ بالليل عن دَعْوَةٍ
قد أسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَهْ

---

(١) باد : ظاهر . الطرف : الفرس الكريم . الأشهب : الأبيض . جلال الفرس : غطاؤه ، وهوله كالثوب للانسان . والشاعر : هو ابن المعتز .

(٢) المريخ والمشتري : كوكبان . قدامه : أمامه . شامخ : عال مرتفع . أسرجت : أوقدت . وقائلهما : هو القاضي التنوخي علي بن داود أبي فهم ، الشاعر الكاتب الناقد ، صديق الوزير المهلبي .

فإنَّ المِرِّيخَ في مقابَلة المنصرف عن الدعوة ، ولو قيل : كأن المِرِّيخ منصرف بالليل عن دعوة : كان خَلْفاً (١) من القول .

والثاني : ما يصحُّ تشبيه كلِّ جزء من أجزاء أحد طَرَفَيْه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر ، غير أن الحال تتغير . ومثاله قوله :

وكــأن أجْرام النجوم لَوَامِعــاً
دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِسَاطٍ أزْرَقِ (٢)

فإنه لو قيل : « كأن النجوم درر ، وكأن السماء بساط أزرق » لكان تشبيهاً صحيحاً لكن أين يقَعُ من التشبيه الذي يُريكَ الهيئة التي تملأ القلوب سروراً وعجباً ، من طلوع النجوم مُؤْتَلِقَةً ، متفرقةً في أديم السماء ، وهي زرقاء زرقتها الصافية ؟ !

١٥٦ ــ الثالث : تشبيه المفرد بالمركب ، كما مر من تشبيه الشَّـاةِ الجَبَلِيِّ ، والشَّقِيقِ ، والنَّيْلُوفَرِ . تشبيه المفرد بالمركب

١٥٧ ــ الرابع : تشبيه المركب بالمفرد ، كقول أبي تَمَّامٍ : تشبيه المركب بالمفرد

٢٩١ ــ يا صاحِبَيَّ تَقَصَّيـا نَظَرَيْكُمـا
تَرَيا وجوه الأرض كيف تَصَوَّرُ (٣)
تريــا نهــاراً مُشْمِساً قد شابَــهُ
زَهْرُ الرُّبى ، فكــأنما هو مُقْمِــرُ

---

(١) الخلف من القول ، بفتح فسكون : هو الردىء منه .

(٢) انظر الشاهد ٢٥٨ .

(٣) تقصيا نظريكما : اجتهدا في الرؤية وانظرا أقصى غاية النظر . تصور : تتصور وتتشكل ، خفف بحذف إحدى تاءيه . مشمس : ظاهر الشمس مكشوفها . شابه : خالطه . الربى : جمع ربوة ، وهي المكان العالي البعيد عن مستنقع الماء . مقمر : طالع القمر .

يعني : أن النبات من شِدَّة خُضْرَتِه ـ مع كثرته وتكاثُفِه ـ قد صار لونه إلى الاسْوِداد ، فنَقَصَ من ضوء الشمس ، حتى صار كضوء القمر .

التشبيه المتعدد وضروبه

١٥٨ ـ وأيضاً إن تعدَّد طرفاه فهو إما ملفوف ، أو مفروق .

التشبيه الملفوف

فالملفوف : ما أُتِيَ فيه بالمشبهين ، ثم بالمشبه بهما ، كقول امْرِيء القيس :

كـأن قلوب الطير رَطْبـاً ويابِساً
لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالي(١)

وغير الملفوف : بخلاف ذلك ، كقول المرَقِّشِ الأكبر :

التشبيه المفروق

٢٩٢ ـ النَشْرُ مِسْكٌ ، والوجوهُ دَنَـا
نيرٌ وأطرافُ الأكُفَّ عَنَـمْ(٢)

ومنه قول أبي الطَّيبِ :

٢٩٣ ـ بَدَتْ قمراً ، ومالت خُوطَ بـان
وفاحَتْ عَنْبَراً ، ورَنَتْ غزَالاً(٣)

تشبيه التسوية

وإن تعدَّد طرفُه الأول ـ أعني المشبَّه ـ دون الثاني : سُمِيَ تشبيهَ التَسْوِيَةِ كقول الآخر :

---

(١) انشر الشاهد ٢٨٨ .

(٢) النشر : الرائحة الطيبة ، أو الرائحة مطلقاً ، أو ريح فم المرأة واعطافها بعد النوم . العنم : شجر لين الأغصان يشبه بها البنان في اللين ، وهو شجر له أغصان حمر يشبه بها البنان المخضوب . والمرقش الأكبر : هو عمرو ـ أو عوف ـ بن سعد ابن مالك ، من بكر بن وائل ، من الشعراء العشاق في الجاهلية .

(٣) الخوط ـ بالضم ـ : الغصن الناعم ، أو الغصن مطلقاً . البان : شجر معتدل الساق لدن . رنت : أدامت النظر مع سكون الطرف .

٢٩٤ — صُدْغُ الحبيب وحالي كلاهُما كالليالي(١)
وثَغْرُه في صَفَـــاء وأَدْمُعِي كالــلآلي

تشبيه الجمع

وإن تعدد طرفه الثاني — أعني المشبَّهَ به — دون الأول : سُمِّيَ تشبيه الجمع ، كقول البُحْتُرِيّ :

٢٩٥ — كأنمــا يَبْسِمُ عــن لُؤْلُــؤ
مُنَضَّدٍ ، أو بَرَدٍ ، أو أَقَــاحْ(٢)

ومثله قول امرىء القيس :

٢٩٦ — كــأن المُدَامَ وَصَوْبَ الغمــامِ
وريحَ الخُزَامَى وَنَشْرَ القُطُــرْ(٣)
يُعَــلُّ بـــه بَرْدُ أنيابهــــا
إذا طَرَّبَ الطــائرُ المُسْتَحِــرْ

إلا أن فيه شَوْباً (٤) من القصد إلى هيئة الاجتماع .

تقسيم التشبيه باعتبار وجهه

١٥٩ — وأما باعتبار وجهه ، فله ثلاث تقسيمات : تمثيلٌ ، وغيرُ تمثيل ومُجْمَلٌ ، وَمُفَصَّلٌ ، وقريب ، وبعيد .

تشبيه التمثيل

١٦٠ — التمثيل : ما وجهه وصف منتزع من مُتعدِّدٍ أمرين ، أو أمور .

---

(١) الصدغ : هو هنا الشعر المتدلي ما بين العين والأذن .

(٢) منضد: منظم ومنسق.البرد: حب الغمام،وهو قطع صغيرة من الثلج المنعقد من ماء السحاب إذا برد الجو . الأقاح : جمع أقحوان ، وهو نبات له نور أبيض مدبب الأوراق مفلجها .

(٣) المدام : الخمر . صوب الغمام : ماؤه . الخزامى : نبت طيب رائحة الزهر. القطر — بسكون الطاء ، وحرك بالضم إتباعاً للفاء — : عود يتبخر به . يعل : يسقى مرة بعد مرة . طرب : غرد . المستحر : الصائح وقت السحر .

(٤) الشوب : ما خلطته بغيره . فيه شوب من كذا : فيه خليط منه ، أي شيء مخالط .

وقيده السكاكي بكونه غيرَ حقيقي ، ومثَّلَ بصُوَرٍ ، مَثَّلَ له غيرُه أيضاً .

منها قول ابن المُعْتَز :

٢٩٧ – اصْبِرْ علَى مَضَضِ الحَسُو
د فإنَّ صَبْرَكَ قاتلُهْ(١)
فالنارُ تأكُلُ نَفْسَها
إن لم تَجِدْ ما تأكُلُهْ

فإن تشبيه الحسُود المَتروكِ مُقَاوَلَتُه ، مع تَطَلُّبه إياها ، لينال بها نَفْثَةَ مَصدورٍ ، بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب ؛ في أمر (٢) حقيقي مُنْتَزَعٍ من مُتَعَدِّد ، وهو إسراعُ الفَناء ، لانقطاع ما فيه مَدَدُ البقاء .

ومنها قولُ صالح بن عَبْدِ القُدُّوسِ :

٢٩٨ – وإنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ في الصِّبا
كالعُودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ(٣)
حتى تراه مُونِقاً ناضراً
بعد الذي أبصرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فإن تشبيه المؤدَّب في صباه بالعُود المَسْقِيِّ أوَانَ غَرْسِه ، فيما يلزَم كلَّ واحدٍ مِنْ كونِ المؤدَّبِ في صباه مُهَذَّب الأخلاق ، حميد الفعال ، لتأديبه المصادِفِ وقتَه ، وكَوْنِ العُود المسقِيِّ أوانَ غَرْسِهِ

---

(١) المضض : الألم والوجع . وإضافته في البيت للفاعل .

(٢) الجار والمجرور متعلق بخبر « إن » .

(٣) مونقاً: مؤنقاً ، حسناً ، معجباً . ناضراً: مخضر الورق حسناً جميلاً . وصالح بن عبد القدوس : شاعر عباسي مكثر من الحكم والأمثال في شعره .

مُونِقاً بأوراقه ونَضْرَتِهِ ؛ لسَقْيه المصادِف وَقْتَه ، من تمام الميلِ وكمال الاستحسان ، بعد خلاف ذلك .

ومنها قولُه تعالى : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ، وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ » (١) فإن تشبيه حال المنافقين بحال الموصوف بِصِلَةِ الموصول في الآية ؛ في أمر حَقِيقِيٍّ مُنْتَزَعٍ من مُتَعَدِّدٍ ، وهو الطمع في حصول مطلوب ؛ لمباشَرة أسبابه القريبة ، مع تعقُّب الحِرمان والخيبة ؛ لانقلاب الأسباب .

التشبيه غير التمثيلي

١٦١ ــ وغير التمثيل : ما كان بخلاف ذلك ، كما سبق في الأمثلة المذكورة .

التشبيه المجمل

١٦٢ ــ والمجمل : ما لم يُذْكَرْ وجهه .

فمنه ما هو ظاهر يفهمه كلُّ أحَدٍ ، حتى العامَّةُ ، كقولنا « زيدٌ أسدٌ » إذ لا يخفى على أحد أن المراد به التشبيه في الشجاعة دون غيرها .

ومنه ما هو خَفِيٌّ لا يدركه إلاَّ مَنْ له ذِهْنٌ يرتفع به عن طبقة العامَّةِ ، كقول مَنْ وَصَفَ بني المُهلَّبِ للحَجَّاج ، لمّا سأله عنهم : وأن أيُّهُمْ أنْجَدُ ؟ « : كانوا كالحَلْقَة المُفْرَغَةِ ، لا يُدْرَى أين طرفاها » أي : لتناسب أصولهم وفروعهم في الشرف يمتنع تعيينُ بعضِهم فاضلا وبعضهم أفضلَ منه ، كما أن الحلقة المُفْرَغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضِها طَرَفاً وبعضِها وسَطاً .

هكذا نسبه الشيخ عبد القاهر إلى مَنْ وَصَفَ بني المُهلَّب . ونسبه الشيخ جارُ الله العلاَّمةُ إلى الأنمارية ، قيل : هي فاطِمَةُ بِنْتُ الخُرْشُبِّ ، سُئِلَتْ عن بنيها : أيُّهُم أفضل ؟ فقالت : عمارةُ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة البقرة .

لا ، بل فَلانٌ . لا ، بل فلان ثم قالَتْ : ثَكِلَتْهُمْ إن كُنْتُ أعلم أيُّهم فضل . هم كالحَلْقَةِ المُفرَغَةِ ، لا يُدْرَى أين طرفاها .

وأيضا منه ما لم يُذْكر فيه وصفُ المشبَّه ، ولا وصفُ المشبَّه به ، كالمثال الأول .

ومنه ما ذُكِرَ فيه وصفُ المشبَّه به وَحْدَهُ ، كالمثال الثاني ، ونحوُه قولُ زِيادِ الأعْجَمِ (١) :

٢٩٩ — وإنّا وما تُلْقِي لنا إن هَجَوْتَنا
لكالبحر ، مهما تُلْقِ في البحر يَغْرَقِ

وكذا قولُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانيِّ :

٣٠٠ — فإنَّكَ شَمْسٌ ، والملوكُ كواكبٌ
إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكبُ

ومنه ما ذُكِرَ فيه وصفُ كل واحد منهما ، كقول أبي تَمَّامٍ :

٣٠١ — صَدَفْتُ عنه ، ولم تَصْدِفْ مواهِبُهُ
عنِّي ، وعاوَدَهُ ظنِّي . فلم يَخِبِ(٢)
كالغَيْثِ إن جِئْتَهُ وافاكَ رَيِّقُهُ
وإن ترحَّلْتَ عنه لَجَّ في الطلبِ

التشبيه المفصل

١٦٣ — والمُفَصَّل : ما ذُكِرَ وجهه ، كقول ابنِ الرُّوميِّ :

٣٠٢ — يا شبيهَ البدْرِ في الحسْنِ وفي بُعْدِ المَنَالِ(٣)
جُدْ ؛ فقد تنفجِرُ الصَّخْرَةُ بالماءِ الزُّلالِ

---

(١) من الشعراء الموالي في العهد الأموي .

(٢) صدفت : أعرضت وصدت . مواهبه : هباته وعطاياه . وافاك : أتاك ريقه : أفضله ، أو أوله . لج : بالغ .

(٣) المنال : التناول . الزلال : العذب الصافي السائغ .

وقول أبي بكر الخالدي :

٣٠٣ - يا شبيهَ البدر حسناً وضياءً ومنالا(١)
وشبيهَ الغُصْنِ ليناً وقَوَاماً واعتدالا
أنتَ مثلُ الورد لوناً ونسيماً ومَلالا
زارنا حتى إذا ما سَرَّنا بالقُرْبِ زالا

قد يذكر بدل الوجه ما يستتبعه

وقد يُتسَامَحُ بذكر ما يستتبعه مكانَهُ ، كقولهم في وصف الألفاظ إذا وجدوها لا تَثْقُل على اللسان لتنافر حروفها أو تَكَرُّرِها . ولا تكون غريبة وَحْشِيَّةً تُسْتَكْرَهُ ، لكونها غيرَ مألوفة ، ولا مما تبعد دلالتها على معانيها : هي كالعسل في الحلاوة ، وكالماء في السَّلاسَة ، وكالنسيم في الرِّقَّة .

وقولهم في الحُجَّة – إذا كانت معلومة الأجزاء ، يقينيةِ التأليف ، بَيِّنَةَ الاستلزام للمطلوب – : « هي كالشمس في الظهور » .

والجامعُ في الحقيقة لازمُ الحلاوة . وهو ميلُ الطبع ، ولازم السلاسة والرِّقَّة . وهو إفادة النفسِ نشاطاً ورَوْحاً ، ولازم الظهور ، وهو إزالة الحجاب .

فإن شأن النفس مع الألفاظ الموصوفة بتلك الصفات ؛ كشأنها مع العسل الذي يَلَذُّ طعمه ، فتَهَشُّ النفسُ له ، ويميلُ الطبعُ إليه ، ويُحِبُّ وُرودَه عليه ، أو كشأنها مع الماء الذي يَسُوغ في الحَلْق ، ومع النسيم الذي يسري في البدن ، فيَتَخَلَّل المسالكَ اللطيفَة منه ؛ فيفيدان النفسَ نشاطاً ورَوْحاً .

---

(١) أنت مثل الورد ملالا : أي في قصر مدة الإقامة ، وهو ناشيء عن الملال . وأبو بكر الخالدي : هو محمد بن هاشم ، أحد الأخوين الشاعرين ، كانا قيمي دار كتب سيف الدولة الحمداني ، وهما من شعراء اليتيمة .

وشأنُها مع الشُّبهة الّتي تمنع القلبَ إدراكَ ما هي شُبهةٌ فيه ، كشأنها مع الحجاب الحِسِّيِّ الذي يمنع أن يُرَى ما يكون من ورائه . ولذلك توصف بأنها اعترضت دون الذي يَرُومُ القلبُ إدراكَه .

قال الشيخ صاحب المفتاح : وتسامُحُهم هذا لا يقع إلا حيث يكون التشبيه في وصف اعتباري ، كالذي نحن فيه . وأقول : يُشْبِهُ أن يكون تَرْكهم التحقيقَ في وجه الشبه على ما سبق التنبيه عليه من تسامحهم هذا انتهى كلامه .

التشبيه القريب المبتذل

١٦٤ — والقريب المبتذل ، وهو ما ينتقَل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر ؛ لظهور وجهه في بادىء الرأي، وسببُ ظهوره أمران :

الأول : كون الشبه أمراً جُمْلِيّاً . فإن الجملة أسبقُ أبداً إلى النفس من التفصيل ألا ترى أن الرؤية لا تصل في أول أمرها إلى الوصف على التفصيل ؟ لكن على الجملة ، ثم على التفصيل . ولذلك قيل : النظرةُ الأولى حمقاء ، وفلان لم يُنْعِم النظر .

وكذا سائر الحواس ؛ فإنه يُدْرَك من تفاصيل الصوت والذوق في المرة الثانية ما لم يُدْرَك في المرة الأولى ، فمن يروم التفصيل كمن يبتغي الشيء من بين جملة ، يريد تمييزَه مما اختلط به ، ومَنْ يَرُوم الإجمال كمن يريد أخذ الشيء جُزافاً .

وكذا حكم ما يدرك بالعقل ، ترى الجُمَلَ أبداً تسبق إلى الذهن ، والتفاصيلُ مَغمورةٌ فيها ، لا تحضر إلا بعد إعمالِ الرَّوِيَّةِ .

والثاني : كونه قليلَ التفصيل مع غَلَبَةِ حضور المشبه به في الذهن : إما عند حضور المشبه ؛ لقرب المناسبة بينهما ، كتشبيه العنبة الكبيرة السوداء بالإجَّاصَةِ (١) في الشكل وفي المقدار ، والجرَّةِ الصغيرة بالكُوز

(١) الإجاص : ضرب من الكمثرى ، واللفظ مستعمل في بلاد الشام ، وقد يقولون « إنجاص » .

كذلك ، وإما مطلقاً ؛ لتكَرُّرِه على الحِس ، كما مر من تشبيه الشمس بالمرآة المَجْلُوَّةِ في الاستدارة والاستنارة ؛ فإن قربَ المناسبة والتَّكَرُّرَ كل واحد منهما يعارض التفصيل ؛ لاقتضائه سرعة الانتقال .

التشبيه البعيد الغريب

١٦٥ – والبعيد الغريب ، وهو ما لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فِكْرٍ ، لخفاء وجهه في بادىء الرأي ، وسبب خفائه أمران :

أحدهما : كونه كثير التفصيل ، كما سبق من تشبيه الشمس بالمرآة في كَفّ الأشَل . فإن ما ذكرناه من الهيئة لا يقوم في نفس الرائي للمرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنفَ تَأمُّلاً ، ويكونَ في نَظَرِه مُتَمَهِّلا

والثاني : نُدُورُ حضور المشبه به في الذهنِ : إما عند حضور المشبه ؛ لبعد المناسبة بينهما ، كما تقدَّم من تشبيه البَنَفْسَج بنار الكِبريت ، وإما مطلقاً ؛ لكونه وَهْمِياً ، أو مركباً خيالياً ، أو مركباً عقلياً ، كما مضى من تشبيه نِصال السِّهام بأنياب الأغوال ، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت منشورة على رماح من الزبرجد ، وتشبيه مَثَلِ أحبار اليهود بمَثَلِ الحمار يحمل أسفاراً . فإن كلاًّ سببٌ لنُدْرَةِ حضور المشبه به في الذهن ، أو لقلة تكرُّره على الحِس ، كما مر من تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشل . فإنه ربما يقضي الرجلُ دهرَه ولا يتفق له أن يرى مِرْآةً في يد الأشل . فالغرابة في هذا التشبيه من وجهين .

معنى التفصيل

١٦٦ – والمراد بالتفصيل : أن يُنْظَرَ في أكثرَ من وصف واحد لشيء واحد أو أكثر . وذلك يقع على وجوه كثيرة . والأغلبُ الأعرفُ منها وجهان :

أحدهما : أن تأخذ بعضاً وتَدَعَ بَعْضاً ، كما فعل امْرُؤُ القَيْسِ في قوله :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كأن سِنانَه
سَنَا لَهَبٍ لم يتَّصِلْ بدُخانِ(١)

---

(١) الشاهد ٢٠١ .

فَفَصَلَ السَّنا عن الدُّخَان ، وأثبته مُفْرَداً

والثاني : أن يُعْتَبَر الجميعُ ، كما فعل الآخَرُ في قوله :

وقد لاحَ في الصبح الثُّرَيَّا كَمَا ترى
كعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حينَ نَوَّرا(١)

فإنه اعتبرَ من الأنجم الشكلَ ، والمقدارَ ، واللونَ ، واجتماعها على المسافة المخصوصة في القرب ، ثم اعتبر مثلَ ذلك في العنقود المُنَوِّر من الملاَّحِيَّة .

كلما ازداد التركيب بعد التشبيه

١٦٧ ــ وكلما كان التركيب من أمور أكثر ؛ كان التشبيه أبعد وأبلغ ، كقوله تعالى « إنما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ، مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ ، حتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ، وازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ، كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ » (٢) فإنها عَشْرُ جُمَلٍ إذا فُصِّلَتْ ، وهي وإن دخل بعضُها في بعض ، حتى صارت كلها كأنها جملة واحدة ؛ فإن ذلك لا يمنع من أن تشير إليها واحدةً واحدةً . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، حتى لو حُذِفَ منها جملة أَخَلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه .

ومن تمام القول في هذه الآية ونحوها : أن الجملة إذا وقعت في جانب المشبه به تكون على وجوه :

أحدُها : أن تَلِيَ نكرةً ؛ فتكون صفةً لها ، كما في هذه الآية . وعليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الناسُ كإبِلٍ مائةٌ لا تجد فيها راحلة » (٣) .

---

(١) الشاهد ٢٠٦ .

(٢) بعض الآية ٢٤ من سورة يونس .

(٣) الراحلة : ما يصلح من الإبل للرحال ، ويقوى على حمل الأثقال والسفر

والثاني : أن تَلِيَ معرفةً هي اسمٌ موصولٌ ؛ فتكون صلةً له ، كقوله تعالى : « مَثَلُهُمْ كمثلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ نَاراً » (١) الآية .

والثالث : أن تَلِيَ معرفةً ليست باسم موصول ، فتقع استئنافا ، كقوله عز وعلا « مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً » (٢) .

مثل للتفصيل البليغ

ومن ابلغ الاستقصاء في التفصيل وعجيبه : قولُ ابن المعتز :

٣٠٤ — كأنَّا وَضَوْءُ الصبحِ يستَعْجِلِ الدُّجَى
نُطِيرُ غُراباً ذا قَوَادِمَ جُونِ (٣)

شَبَّه ظلامَ الليلِ حينَ يظهرُ فيه ضَوْءُ الصبح بأشخاص الغِرْبان ، ثم شرط أن تكون قَوَادِمَ رِيشِها بيضاء . لأن تلك الفِرَقَ من الظُّلْمة تقع في حَوَاشيها من حَيْثُ يَلِي مُعْظَمَ الصبح وعَمُوده لُمَعُ نورٍ يتَخَيَّل منها في العين كشكل قَوَادِمَ بيضٍ .

وتمام التدقيق في هذا التشبيه : أن جعل ضوء الصبح — لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل — كأنه يحفزُ الدُّجَى ، ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهَّل في حركتها ثم لما راعى ذلك في التشبيه ابتداءً ، راعاهُ آخِراً ، حيث قال : « نُطِيرُ غُراباً » ولم يقل : « غرابٌ يطير » ونحوَه ؛ لأن الطائر إذا كان واقعاً في مكان ، فأزْعِجَ ، وأُطِيرَ منه ، أو كان قد حُبِسَ في يَدٍ أو قَفَصٍ فأرْسِل ؛ كان ذلك لا مَحَالَة أسرعَ لطَيَرانه ، وأدعَى له أن يستمرَّ على الطيران ، حتى يصير إلى حيث لا تراه العيون . بخلاف ما إذا طار عن اختيار . فإنه حينئذ يجوز أن

---

(١) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٤١ من سورة العنكبوت .

(٣) القوادم : جمع قادمة . والقوادم : عشر ريشات في مقدم جناح الطائر . جون : سود .

لا يُسْرِعَ فِي طيرانه وأن يَصِيرَ إلى مكان قريب مــن مكانه الأول .

وكذا قولُ أبي نُوَاس في صفة مِنْقار البازِي :

٣٠٥ ــ • كعَطْفَةِ الجيم بكَفٍّ أَعْسَرَا •

غيرُ خافٍ أن الجيم خَطّانِ . أولهما : الذي هو مبدؤه (١) وهو الأعلى . والثانِي الذي يذهب إلى اليسار ، وإذا لم يوصل بها فلها تَعْرِيق(٢) والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط . فلهذا قال : « كعطفة الجيم » ولم يقل : « كالجيم » ثم دقَّق بأن جعلها بكفٍّ أَعْسَرَ (٣) . لأن جيم الأعسر يقال : إنه أشبهُ بالمنقار من جيم الأيمن . ثم أراد أن يُؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من الجيم ، فقال :

يقول مَنْ فيهــا بعقــل فَكَّرا
لَوْ زادَها عَيْنــاً إلى فــاءٍ ورا

فاتصلَتْ بالجيم ؛ صارَتْ جَعْفَرَا .

فأبان أنه لم يُدْخِلِ التعريقَ في التشبيه . لأن الوَصْلَ يُسْقِطه أصلاً ، ولا الخطَّ (٤) الأسفلَ وإن كان لا بُدَّ منه مع الوصل . لأنه قال : « فاتصلت بالجيم » أي : بالعطفة المذكورة . ولم يَقْتَصِر على قوله :

• لو زادَها عَيْناً إلى فاءٍ ورَا •

ولأجل هذا التدقيق قال :

• يقول مَنْ فيها بعقل فَكَّرا •

---

(١) الضمير للجيم باعتبارها حرفاً .

(٢) التعريق في الجيم : أن يعطف بخطها الأسفل جهة اليمين على شكل القوس كما هو الشأن في الجيم المفردة .

(٣) الأعسر : من يعمل بشماله بدل يمينه .

(٤) عطف على « التعريق » .

فنبَّه على ان بالمشبَّه حاجةً إلى فَضْلِ فِكْرٍ ، وأن يكون فِكْرُه فكرَ من يُرَاجِــعُ عَقْلَه .

وإذ قد تحقَّقت ما ذكرنا من التفصيل ؛ علمت أن قول امرىء القيس في وصف السِّنانِ (١) أعْلَى طَبَقَةً من قولِ الآخرِ : موازنات

٣٠٦ — يتــابع لا يَبْتَغِــي غــيرَه
بأبيضَ كالْقَبَسِ المُلْتَهِــبْ(٢)

لخُلُوِّ الثاني عن التفصيل الذي تضَّمنه الأول ، وهو قصْرُ التشبيه على مُجَرَّد السَّنا ، وتصويرُه مقطوعاً عن الدُّخان ، ومعلوم أن هذا لا يقع في الخاطرِ أوَّلَ وَهْلَةٍ ، بل لا بُدَّ فيه من أن يَتَثَبَّتَ ، وينظر في حال كلٍّ من الفرع والأصل ، حتى يقع في النفس أن في الاصل شيئاً يَقْدَح في حقيقة التشبيه ، وهو الدخان الذييَعْلو رأسَ الشُّعلة .

وكذا قوله :

وكــأن أجْرامَ النجــوم لوَامِعــاً
دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِسَاطٍ أزْرَقِ(٣)

أفضل من قول ذي الرُّمَّة :

٣٠٧ — كأنها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبٌ (٤)

لأن الأول مما يندُر وجودُه دونَ الثاني ؛ فإن الناس أبداً يرَوْنَ

---

(١) الشاهد ٢٠١ .

(٢) القبس : شعلة النار . والبيت لعنترة بن شداد العبسي الشاعر الجاهلي .

(٣) الشاهد ٢٥٨ .

(٤) صدره حوراء في دعج صفراء في نعج .

الحوراء : من في عينها حور ، وهو شدة سواد السواد مع شدة بياض البياض .
الدعج : اشتداد سواد العين مع سعتها . النعج : خلوص البياض ، أو السمن .

في الصّياغات فضّةٌ قد مُوِّهتْ بذهب ، ولا يكاد يتفق أن يوجَد دُرَرٌ قد نُثِرْنَ على بِساطٍ أزرقَ .

وكذا بيت بشار (١) أعلى طبقةً من قول أبي الطّيِّبِ :

٣٠٨ — يزور الأعادي في سماء عَجاجَةٍ أسِنَّتُه في جانِبَيْها الكواكب(٢)

وكذا من قول الآخر :

٣٠٩ — تَبني سَنَابكُها مِنْ فَوْقِ أرْؤُسِهِمْ سقْفاً كواكِبُهُ البِيضُ المَبَاتِيرُ(٣)

لأن كل واحد منهما ، وإن راعى التفصيل في التشبيه ؛ فإنه اقتصر على أن أراك لَمَعَانَ الأسِنَّةِ والسُّيوف في أثناء العَجَاجَة ، بخلاف بَشَّارٍ ؛ فإنه لم يقتصر على ذلك ، بل عبَّر عن هيئة السيوف وقد سُلَّتْ من أغمادها ، وهي تعلو وترسُب وتجيء وتذهب ، وهذه الزيادة زادت التفصيل تفصيلاً ؛ لأنها لا تقع في النفع إلا بالنظر إلى أكثرَ من جهة واحدة ؛ وذلك أن للسيوف عند احتِدام الحرب واختلافِ الأيدي بها في الضرب ، إضطراباً شديداً ، وحركاتٍ سريعةً ، ثم لتلك الحركات جهاتٌ مختلفةٌ ، تنقسم بين الاعوجاج والاستقامةِ ، والارتفاعِ والانخفاضِ ، ثم هي باختلاف هذه الأمور تتلاقى ، ويَصْدِم بعضُها بعضاً ، ثم أشكالُها مستطيلةٌ ؛ فنبّه على هذه الدقائق بكلمة واحدة ، وهي قوله : « تَهاوى » لأن الكواكب إذا تَهاوَتْ اختلفَتْ جهاتُ حركتها ، ثم كان لها في التهاوي تَوَاقُعٌ وتَدَاخُلٌ ، ثم استطالَتْ أشكالُها .

---

(١) الشاهد ٢٥٧ .

(٢) العجاجة : الغبار ، وهي مشبه والمضاف هو المشبه به .

(٣) سنابكها : أطراف حوافرها ، واحدها سنبك بضم السين والباء . البيض : السيوف ، واحدها أبيض ، المباتير : جمع مبتار ، صيغة مبالغة من البتّر . وقائله عمرو بن كلثوم العتابي .

وكذا قول الآخر في الآذَرْيُونِ :

٣١٠ – مَدَاهِنٌ من ذَهَبٍ فيها بقايا غَالِيَةْ(١)

أعلى وأفضل من قوله فيه :

٣١١ – • ككأسِ عَقِيقٍ في قَرَارَتِهَا مِسْكُ •(٢)

لأن السواد الذي في باطن الآذَرْيُونَةِ ، الموضوع بإزائه الغاليةُ والمسكُ ، فيه أمران : أحدهما : أنه ليس بشامل له ، والثاني أنه لم يَسْتَدِرْ في قعرها ، بل ارتفع منه حتى أخذ شيئاً من سَمْكِها من كل الجهات ، وله في مُنْقَطَعه هَيْئَةٌ تُشْبِه آثار الغالية في جوانب المُدْهُن ، إذا كانَتْ بَقِيَّةٌ بَقِيَتْ عن الأصابع ، وقوله : « في قرارتها مسك » يبين الأمر الأول ، ويؤمن من دخول النقص عليه ، كما كان يدخل لو قال « فيها مسك » ولم يَشْتَرِطْ أن يكونَ في القَرارة . وأما الثاني فلا يدل عليه كما يدل قوله : « بقايا غالية » لأن من شأن المِسْكِ والشيء اليابسِ ، إذا حصل في شيء مستدير له قَعْرٌ ، أن يستديرَ في القعر ، ولا يرتفعَ في الجوانب الارتفاعَ الذي في سواد الآذَرْيُونَة ، بخلاف الغالية ، فإنها رطبة ، ثم تُؤْخَذ بالأصابع ، فلا بد في البقية منها أن يرتفع عن القرارة ذلك الارتفاعَ ثم هي لنُعومتها تَرِقُّ ، فتكون كالصِّبْغ الذي لا يظهر له جِرْمٌ ، وذلك أصد للشبه .

التشبيه البليغ

١٦٨ – والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع ، أعني البعيدَ ،

---

(١) قبله : كأن آذريونها والشمس فيها كاليه

وهما من قول ابن المعتز في وصف روضة . الآذريون ، بفتح الذال : ورد أحمر الورق ، وفي وسطه سواد مرتفع . كالية ، مسهل « كالئة » والقصد أنها في فترة الغروب ، من « كلأ العمر » بمعنى انتهى . مداهن : جمع مدهن . الغالية : أخلاط من الطيب .

(٢) صاحبه ابن المعتز أيضاً ، وصدره :

• وحمل آذريونة فوق أذنه •

لغرابته ، ولأن الشيء إذا نِيلَ بعد الطلب له ، والاشتياقِ إليهِ ؛ كان نَيْلُه أحلى . ومَوْقعُه من النفس ألْطَفَ ، وبالمَسرَّة أَوْلَى ؛ ولهذا ضُرِبَ المثلُ لكل ما لَطُفَ مَوْقِعُه ببَرْدِ الماء على الظمأ ؛ كما قال :

٣١٢ — وَهُنَّ يَنْبُذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ
مَوَاقعَ الماء من ذي الغُلَّةِ الصَّادي (١)

لا يقال : عَدَمُ الظهور ضربٌ من التعقيد ، والتعقيدُ مذمومٌ ؛ لأنا نقول : التعقيدُ كما سبق له سببان : سوءُ ترتيب الألفاظ ، واختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو المراد باللفظ ، والمراد بعدم الظهور في التشبيه ما كان سَبَبُهُ لُطْفَ المعنى ودِقَّتَهُ أو ترتيبَ بعض المعاني على بعض ، كما يُشْعِر بذلك قولنا : « في بادىء الرأي » فإن المعاني الشريفةَ لا بُدَّ فيها — في غالب الأمر — من بناء ثانٍ على أوّلَ وَرَدٌّ تالٍ إلى سابقٍ ، كما في قول البُحْتُرِيّ :

• دانٍ على أيْدِي العُفاةِ • . . . البيتين (٢)

فإنك تحتاج في تعرف معنى البيت الأول الى معرفة وَجْهِ المجاز ، في كونه دانِياً وشاسِعاً ، ثم تعو- إلى ما يعْرِض البيتُ الثاني عليك من حال البدر ، ثم تُقَابِل إحدى الصورتين بالأخرى ، وتنظر : كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله : « شاسِعٌ » ؟ لأن الشُّسوع هو الشديد من البُعْد ، ثم قابله بما يشاكله من مُراعاة التناهي في القرب ، فقال « جِدُّ قريب » فهذا ونحوُه هو المراد بالحاجة إلى الفكر ، وهل شيءٌ أحلى من الفكر إذا صادف نَهْجاً قويماً إلى المراد ؟ .

---

(١) ينبذن : يطرحن ويرمين لقلة اعتدادهن . الغلة : شدة العطش . الصادي ، ومثله الصديان : العطشان ، والبيت للقطامي .

(٢) الشاهد ٢٢٩ .

قال الجاحظ في أثناء فصل يذكر فيه ما في الفكر من الفضيلة : وأين تقع لَذَّة البهيمة بالعَلوفة ، ولَذَّة السَّبُع بلَطْع الدَّم وأكل اللحم ، من سرور الظَّفَر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قَرْعِه ؟.

التصرف في التشبيه

١٦٩ ــ وقد يُتَصَرَّف في القريب المبتذل بما يُخْرِجُه من الابتذال إلى الغرابة ، وهو على وجوه :

منها أن يكون كقوله :

٣١٣ ــ لم تَلْقَ هذا الوَجهَ شمسُ نهارِنا
إلاَّ بوجهٍ ليس فيه حياءُ(١)

وقوله :

٣١٤ ــ فردَّتْ علينا الشمسُ والليلُ راغم
بشمس لهم من جانب الخِدْرِ تَطْلَعُ(٢)
فوالله ما أدري ؟ أأحلامُ نائم
ألَمَّتْ بنا أم كان في الرَّكْبِ يُوشَعُ ؟

فإن تشبيه وجوهِ الحسان بالشمس مُبْتَذَلٌ ، لكن كل واحد من حديث الحياء في الأول ، والتشكيكِ مع ذكر يُوشَعَ عليه السلام في الثاني ؛ أخرجه من الابتذال إلى الغرابة .

التشبيه المشروط

وشبيهٌ بالأول قولُ الآخر :

٣١٥ ــ إن السحاب لتَسْتَحْيِي إذا نَظَرَتْ
إلى نَداكَ فقاسَتْهُ بما فيها(٣)

---

(١) قائله المتنبي . والتشبيه في البيت ضمني .

(٢) راغم : ذليل خاضع . الخدر : الخباء . ألمت : زارت زيارة قصيرة . يوشع : فتى موسى ، وبدعائه رد الله الشمس . والبيتان لأبي تمام .

(٣) قائله أبو نواس .

ومنها أن يكون كقوله :

٣١٦ — عزَمَاتُه مِثْلُ النُّجومِ ثَواقِبـاً
لو لم يكن للثَّاقِباتِ أُفـولُ (١)

وقولِه :

٣١٧ — مَهَا الوَحْشِ ، إلاَّ أنَّ هَاتَا أَوَانِسُ
قَنَا الخَطِّ ، إلاَّ أنَّ تلك ذَوَابِلُ (٢)

وقولِه :

٣١٨ — يكاد يَحكيك صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِباً
لو كان طَلْقَ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا (٣)
والبدرُ لَوْ لم يَغِبْ ،والشمسُ لو نطقَتْ
والأُسْدُ لوْ لم تَصُدْ والبحرُ لو عَذُبَا

وهذا يُسَمَّى التشبيهَ المشروطَ .

ومنها أن يكون كقوله :

٣١٩ — في طَلْعَةِ البَدْرِ شيءٌ من مَحَاسِنِها
وَلِلْقضِيبِ نَصيبٌ من تَثَنِّيهـا (٤)

---

(١) الثواقب : المضيئات اللوامع أو المرتفعات . أقول : غروب وزوال . قائله رشيد الدين الوطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

(٢) مها الوحش : بقر الوحش ، واحدته مهاة . قنا : اسم جنس جمعي واحدته قناة ، وهي عامل الرمح ، الخط : بلد تنسب إليه أجود الرماح . ذوابل : جمع ذابل من الذبول وهو الجفاف . والبيت لأبي تمام .

(٣) صوب الغيث منسكباً : ماء المطر منصباً . طلق المحيا : متهلل باش . وهما لبديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين الشاعر الكاتب ، كان في القرن الرابع الهجري .

(٤) هو للبحتري ، والقضيب : أراد به الغصن الغض .

وقولِ ابنِ بَابَك :

٣٢٠ ــ ألا يا رِياضَ الحَزْنِ مِنْ أبْرقِ الحِمَى
نَسيمُكَ مَسْروقٌ ووَصْفُكَ مُنْتَحَلْ(١)
حكيْتِ أبا سَعْد ؛ فَنَشْرُك نَشْرُهُ
ولَكِنْ لهصِدْقُ الهوَى ولَكِ المَلَلْ

وقد يخرج من الابتذال بالجمع بين عِدَّةِ تشبيهات ، كقوله :

كأنما يَبْسِم عن لؤلؤٍ
مُنَضَّدٍ ، أو بَرَدٍ ، أو أقَاحْ(٢)

كما يزداد بذلك لُطفاً وغرابةً ، كقوله :

٣٢١ ــ له أيْطَلاَ ظَبْيٍ ، وساقا نَعامَةٍ
وإرْخاءُ سِرْحانٍ ، وتَقْرِيب تَتْفُلِ(٣)

تقسيم التشبيه باعتبار الأداة

١٧٠ ــ وأما باعتبار أداته فإما مؤكَّدٌ ، أو مُرْسَل .

التشبيه المؤكد

١٧١ ــ والمؤكد ما حُذِفَتْ أداتُه ، كقوله تعالى : « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » (٤) وقولِه : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، ومُبَشِّراً ، وَنَذِيراً ، ودَاعِياً إلى اللهِ بإذنِهِ ، وَسِرَاجاً مُنِيراً »(٥) وقول الحماسي :

٣٢٢ ــ همُ البحورُ عطاء حين تسألهم
وفي اللقاء إذا تلقى بِهِمْ بُهَمُ (٦)

(١) الحزن والأبرق : الأرض الغليظة . نشرك : ريحك الطيبة .

(٢) الشاهد ٢٩٥ .

(٣) أيطلا الظبي : خاصرتاه . السرحان : الذئب ، وإرخاؤه : جريه في سهولة . التتفل : ولد الثعلب ، وتقريبه : عدوه عدوا دون الإسراع . والبيت لامرىء القيس

(٤) بعض الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٥) بعض الآيتين ٤٥ ــ ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٦) البهم : واحدها بهمة بالضم ، وهو الشجاع لا يدري خصمه كيف يأتيه ، والبيت لزياد بن حمل .

وإلى غير ذلك كما سبق ، ومنه نحو قول الشاعر :

٣٢٣ — والريح تَعْبثُ بالغُصون ، وقد جرَى
ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماء(١)

وقول الآخر يَصِفُ القمرَ لآخرِ الشهر قبلَ السِّرارِ :

٣٢٤ — كأنّما أدْهَمُ الإظلام حينَ نَجا
مِن أشْهبِ الصُّبح ألْقَى نَعْلَ حافِرِه (٢)

وقول الشّريفِ الرَّضيِّ :

٣٢٥ — أرْسَى النَّسيمُ بِوَادِيكُمْ ولا بَرِحَتْ
حَوامِلُ المُزْنِ في أجْدَاثِكُمْ تَضَعُ(٣)

ولا يزال جَنِينُ النَّبْتِ تُرْضِعُهُ
على قُبُورِكُمُ العَرَّاضَةُ الهَمِعُ

التشبيه المرسل

١٧٢ — والمُرْسَلُ ما ذُكِرَت أداتُه ، كقوله تعالى : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي استَوْقَدَ نَاراً » (٤) ، وقوله عز وجل : « عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماء والأرْضِ » (٥) ، وقول امْرِىء القَيْسِ :

---

(١) الأصيل : ما قبل الغروب من آخر النهار . اللجين : الفضة ، وقائله ابن خفاجة الأندلسي إبراهيم بن عبد الله الشاعر الوصاف المتوفى سنة ٥٢٣ .

(٢) صاحبه ابن حمديس الصقلي . الأدهم : الفرس الأسود . الأشهب : الفرس الأبيض .

(٣) أرسى : أقام . المزن : السحب . أجداثكم : قبوركم . تضع : تمطر ، مجازا. العراضة : السحاب ذو الرعد والبرق . الهمع : الماطر .

(٤) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٥) بعض الآية ٢١ من سورة الحديد .

٣٢٦ــ وتَعْطُو برَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأنّهُ
أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إسْحِلِ(١)

وقول البُحتُريّ :

٣٢٧ ــ وإذا الأسِنَّةُ خالَطَتْهَا ، خِلْتَهَا
فيها خيَالَ كواكِبٍ في المـاء(٢)

إلى ذلك كما تقدم .

التشبيه المقبول

١٧٣ ــ وأما باعتبار الغرض فإما مقبولٌ ، أو مَرْدُودٌ .

المقبولُ : الوافي بإفادة الغرضِ ؛ كأن يكون المشبه به أعرفَ شيءٍ بوجه الشبه ، إذا كان الغرضُ بيانَ حالِ المشبه من جهة وَجْهِ الشَّبَهِ ، أَوْ بَيانَ المِقْدار :

ثم الطرفان في الثاني إن تَساويَا في وجه الشبه ؛ فالتشبيه كاملٌ في القبول ، وإلا فكلما كان المشبه به أسلمَ من الزيادة والنقصان ؛ كان أقربَ إلى الكمال .

أو كأنْ يكون المشبه به أتمَّ شيء في وجه الشبه ؛ إذا قُصِد إلحاق الناقِص بالكامل .

أو كأن يكون المشبه به مُسَلَّمَ الحُكم مَعْرُوفَهُ عند المخاطب في وجه الشبه ؛ إذا كان الغرضُ بيانَ إمكان الوجود .

التشبيه المردود

والمَرْدُودُ بخلاف ذلك ، أي : القاصرُ عن إفادة الغرض .

---

(١) تعطو : تتناول . رخص : لين : وموصوفه ملاحظ وهو البنان . شثن : غليظ . الأساريع : ديدان حمر ، واحدها أسروع ، ظبي : اسم واد بتهامة . الإسحل : شجر تتخذ منه أجود المساويك .

(٢) الأسنة : جمع سنان ، وهو مقدم الرمح . خالطتها : الضمير يعود إلى الدروع التي يصفها .

خـاتمة

١٧٤ ــ قد سبق أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجهه .

فالحاصل في مراتب التشبيه في القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلِّها أو بعضِها ثمان .

إحداها : ذكر الأربعة ، كقولك : « زيد كالأسد في الشجاعة » ولا قُوَّةَ لهذه المرتبة .

وثانيتها : تركُ المشبه ، كقولك « كالأسد في الشجاعة » أي : زيدٌ ، وهي كالأولى في عدم القوة .

وثالثتها : ترك كلمة التشبيه ، كقولك : « زيدٌ أسدٌ في الشجاعة » وفيها نوعُ قوة .

ورابعتها : ترك المشبه وكلِمَةِ التشبيه ، كقولك : « أسد في الشجاعة» أي : زيدٌ ، وهي كالثالثة في القوة .

وخامستها : ترك وجه الشبه كقولك : « زيدٌ كالأسد » وفيها نوع قوة ؛ لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر .

وسادستها : ترك المشبه ووجه التشبيه ، كقولك : « كالأسد » أي : زيدٌ ، وهي كالخامسة .

وسابعتها : ترك كلمة التشبيه ووجهه ، كقولك : « زيدٌ أسدٌ » وهي أقوى الجميع .

وثامنتها : إفراد المشبه به بالذكر ، كقولك : « أسد » أيْ : زيدٌ وهي كالسابعة .

واعلم أن الشَّبَهَ قد يُنْتَزَعُ من نفس التضادِّ ؛ لاشتراك الضدين فيه ثم يُنَزَّلُ مَنزِلَةَ التناسُب بوساطة تَمليحٍ أو تَهكُّم؛ فيقال للجبان . « ما أشبهَهُ بالأسَد » وللبخيل : هو حاتمٌ .

* * *

القول في الحقيقة والمجاز

وقد يُقَيَّدان باللُّغويَّيْنِ .

الحقيقة ١٧٥ ـ الحقيقة : الكلمة ، المستعمَلَةُ ، فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح به التخاطب.

فقولُنَا : « المستعملة » احترازٌ عما لم يُسْتَعْمل ؛ فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تُسَمَّى حقيقةً .

وقولنا : « فيما وُضِعَتْ له » احترازٌ عن شيئين :

أحدهما : ما استعمِل في غير ما وُضِعَتْ له غلطاً ، كما إذا أردْتَ أن تقول لصاحبك : « خُذْ هذا الكتابَ » مشيراً إلى كتاب بين يديك ، فغَلِطْتَ ، فقلتَ : « خُذْ هذا الفرسَ » .

والثاني : أحدُ قِسمَيِ المجاز ، وهو ما استُعمِل فيما لم يكن موضوعاً له ، لا في اصطلاح به التخاطُب ، ولا في غيره ، كلفظة « الأسد » في الرجل الشجاع .

وقولنا : « في اصطلاح به التخاطب » احترازٌ عن القسم الآخر من المجاز .

وهو ما استُعْمِل فيما وُضِع له لا في اصطلاح به التخاطب ، كلفظ « الصلاة » يستعمله المخاطِبُ بعُرْفِ الشرع في الدعاء مجازا .

والوضع تعيينُ اللفظ للدلالة على معنى بنفسه .

فقولنا « بنفسه » احترازٌ من تعيين اللفظ للدلالة على مَعْنىً بقرينة ، أعني المجاز ؛ فإن ذلك التعيين لا يُسَمَّى وضعاً .

ودخل المُشْتَرَكُ في الحدِّ ؛ لأن عدم دلالته على أحد مَعْنَيَيْه بلا قرينة لِعارِضٍ — أعني الاشتراك — لا ينافي تعيينه للدلالة عليه بنفسه .

وذهب السكَّاكِيُّ إلى أن المشترَك — كالقَرْء — معناه الحقيقي هو ما لا يَتجاوَز معنَيَيْهِ ، كالطُّهْرِ والحيض ، غَيْرَ مَجْمُوعٍ بينَهُما .

قال : فهذا ما يدُلُّ عليه بنفسه ما دام مُنْتَسِباً إلى الوضعين ، أمّا إذا خصصته بواحد — إما صَريحاً ، مثل أن تقول : « القَرْءُ بمعنى الطهْرِ » وإما استلزاماً ، مثل أن تقول : « القَرْءُ لا بمعنى الحيْضِ » — فإنه حينئذ ينتصب دليلاً دالاً بنفسه على الطهر بالتعيين ، كما كان الواضع عيَّنَهُ بإزائه بنفسه .

ثم قال في موضع آخر : وأما ما يُظَنُّ بالمشترك من الاحتياج إلى القرينة في دلالته على ما هو معناه ؛ فقد عرفْتَ أن مَنْشَأ هذا الظنِّ عدمُ تحصيل معنى المشترك الدائر بين الوضعين .

وفيما ذكره نظر ؛ لإنَّا لا نُسلِّمُ أن معناه الحقيقي ذلك ، وما الدليل على أنه عند الإطلاق يدل عليه ؟ ثم قولُه : « إذا قِيلَ : القَرْءُ بمعنى الطهر أو لا بمعنى الحيض ، فهو دالٌّ بنفسه على الطهر بالتعيين . سَهْوٌ ظاهر ؛ فإن القرينة كما تكون معنويَّةً : تكون لفظيةً ، وكل من قوله : « بمعنى الطهر » وقوله : « لا بمعنى الحيض » قرينةٌ .

١٧٦ — وقيل : دلالة اللفظ على معناه لذاته .

وهو ظاهر الفساد ؛ لاقتضائه أن يُمنَع نقلُه إلى المجاز ، وجَعلُه

علماً . ووضعُه للمتضادَّيْن ، كالجَوْنِ للأسود والأبيض ، فإن ما بالذَّاتِ لا يزول بالغير ، ولاختلاف اللغات باختلاف الأمم .

وتأوَّله السكَّاكِيُّ رحمه الله على أنه تنبيهٌ على ما عليه أئمة علمي الاشتقاق والتصريف ، من أن للحروف في أنفسها خوَاصَّ بها تختلف ، كالجهر والهَمْسِ ، والشِّدَّةِ والرَّخاوَةِ والتوسط بينها ، وغير ذلك ، مُستدعِيَةً أن العالم بها ، إذا أخذ في تعيين شيء منها لِمَعْنًى ؛ لا يُهمِل التناسبَ بينهما ؛ (١) قضاء لحقِّ الحكمة ، كالفصم – بالفاء الذي هو حرف رِخْوٌ – لكسر الشيء من غير أن يَبينَ ، والقصم – بالقاف الذي هو حرف شديد – لكسر الشيء حتى يَبِين ، وأن (٢) للتركيبات – كالفَعَلان والفَعَلَى بالتحريك كالنَّزَوَانِ والحَيَدَى ، وفَعُلَ مثل شَرَفُ وغير ذلك – خواصَّ أيضاً ؛ فيلزم فيها ما يلزم في الحروف . وفي ذلك نوع تأثير لأنْفُسِ الكلمِ في اختصاصها بالمعاني .

المجاز

١٧٧ – والمجاز : مُفْرَدٌ ، ومُرَكَّبٌ (وهما مختلفان) .

١٧٨ – أما المفرد فهو : الكلمة ، المستعملة ، في غير ما وُضِعَتْ له ، في اصطلاح به التخاطُبُ ، على وجه يَصِحُّ ، مع قرينة عدم إرادته . فقولنا : « المستعملة » إحترازٌ عما لم يُسْتَعْمَل ؛ لأن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمَّى مَجازاً ، كما لا تُسمَّى حقيقةً .

وقولنا : « في اصطلاح به التخاطب » ليَدْخُل فيه نحوُ لفظِ « الصلاة » إذا استعمله المخاطِبُ بعُرْفِ الشرع في الدعاء مجازاً ؛ فانه وإن كان مستَعملاً فيما وُضِعَ له في الجملة : فليس بمُستعمَلٍ فيما وُضِعَ له في الاصطلاح الذي به وقع التخاطُب .

---

(١) بينهما : أي بين الألفاظ وخواصها التي بها تختلف .
(٢) العطف على مجرور « من » المبنية لما عليه أئمة علمي الاشتقاق والتصريف .
والمقصود بالتركيبات الصيغ وهيئات الأبنية .

وقولنا : « على وجه يصح » احترازٌ عن الغلط كما سبق .

وقولنا : « مع قرينة عدم إرادته » احترازٌ عن الكناية كما تقدم .

أنواع الحقيقة

١٧٩ — والحقيقة لغويَّةٌ ، وشرعيَّةٌ ، وعرفيَّةٌ : خاصَّةٌ ، أو عامَّةٌ .

لأن واضعَها إن كان واضعَ اللغة فلغويَّةٌ ، وإن كان الشارعَ فشرعيَّةٌ ، وإلا فعرفيّةٌ ، والعرفيةُ إن تعيَّن صاحبُها نسِبَتْ إليه ، كقولنا : كلاميَّةٌ ، ونحويَّةٌ ، وإلا بقِيَتْ مُطْلَقةً .

مثالُ اللغوية لفظ « أسَد » إذا استعمله المخاطِب بعُرْفِ اللغة في السبع المخصوص . ومثالُ الشرعيَّةِ لفظُ « صَلاة » إذا استعمله المخاطِب بعرف الشرع في العبادة المخصوصة ، ومثالُ العرفيَّةِ الخاصَّة لفظ « فِعْل » إذا استعمله المخاطِب بعرف النحو في الكلمة المخصوصة ، ومثال العرفيَّةِ العامَّةِ لفظُ « دابَة » إذا استعمله المخاطِب بالعرف العامِّ في ذي الأربع .

أنواع المجاز

١٨٠ — وكذلك المجازُ المفردُ : لغويٌّ ، وشرعيٌّ ، وعرفيٌّ .

مثالُ اللغويِّ لفظُ « أسَدٍ » إذا استعمله المخاطِب بعُرْف اللغة في الرجل الشجاع ، ومثالُ الشرعيِّ لفظُ « صَلاة » إذا استعمله المخاطِب بعرف الشرع في الدعاء ، ومثالُ العرفيِّ الخاصِّ لفظُ « فِعْل » إذا استعملَهُ المخاطِب بعرف النحو في الحدَث ، ومثالُ العرفيِّ العامِّ لفظُ « دابةٍ » إذا استعمله المخاطِب بالعرفي العام في الإنسان .

اشتقاق كلمة الحقيقة

١٨١ — والحقيقة إمَّا فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، من قولك : حقَقْتُ الشيءَ أحُقُّهُ ، إذا أثبتَّه ، أو فَعِيلٌ بمعنى فاعل من قولك : حَقَّ الشيءُ يَحِقُّ ، إذا ثبَتَ ، أي المُثْبَتَةُ أو الثابتَةُ في موضعها الأصلي.

فأما التاء فقال صاحب المفتاح : هي عندي للتأنيث في الوجهين ؛

لتقدير لفظ « الحقيقة » قبل التَّسْمِيَةِ صِفَةَ مُؤنَّثٍ غيرَ مُجْرَاةٍ على الموصوف وهو الكلمة ، وفيه نظر .

وقيل : هي لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية الصِّرْفَةِ ، كما قيل في « أكِيلَةَ ونَطِيحَةَ » إن التاء فيهما لنقلهما من الوَصْفِيَّةِ إلى الاسمية فلذلك لا يُوصَفُ بهما فلا يقال : شاةٌ أكِيلَةٌ أو نَطِيحَةٌ .

اشتقاق كلمة المجاز

١٨٢ ـ والمجاز قيل : مَفْعَلٌ من جاز المكانَ يَجوزُه ، إذا تعدَّاه، أي : تعدت مَوْضِعَهَا الأصْلِيَّ ، وفيه نظر .

والظاهر أنه من قولهم : جعلْتُ كذا مَجازاً إلى حاجتي ، أي : طريقاً له ، على أن معنى « جاز المكان » سلَكَهُ على ما فسَّرَه الجَوْهَرِيُّ (١) وغيرُه ؛ فإن المجازَ طريقٌ إلى تصوُّر معناه . واعتبارُ التناسب (في التَّسْمِيَةِ) يغاير اعتبارَ المعنى في الوصف ، كتسْمِيَةِ إنسان له حُمْرَةٌ بأحمر ، ووَصْفِهِ بأحمر ؛ فإن الأول لترجيح الاسم على غيره حالَ وَضْعِهِ له ، والثاني لصحة إطلاقه ؛ فلا يَصِحُّ نَقْضُ الأول بوجود المعنى في غير المسمَّى ، كما يلْهَجُ به بعضُ الضعفاء .

أضرب المجاز

١٨٣ ـ والمجازُ ضَرْبان : مُرسَلٌ ، واستِعارةٌ ؛ لأن العلاقة المصحِّحةَ إن كانت تشبيهَ معناه بما هو موضوع له فهو استعارة ، وإلا فهو مُرْسَل .

وكثيراً ما تُطْلَق الاستعارةُ على استعمال اسم المشبه به في المشبه ، فيسمَّى المشبه به مُستعاراً منه،والمشبه مُستعاراً له،واللفظ مستعاراً، وعلى الأول لا يُشْتَقُّ منه ؛ لكونه إسماً لِلَّفْظِ ، لا لِلْحَدَث .

---

(١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري ، صاحب كتاب « تاج اللغة وصحاح العربية » المشهور باسم الصحاح ، توفي سنة ٣٩٨ هـ .

المجاز المرسل

١٨٤ ـ الضرب الاول : المرْسَل ، وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمِل فيه وما وُضِع له ملابَسَةً غير التشبيه ، كاليَدِ إذا استُعْمِلَتْ في النِّعْمة ؛ لأن من شأنها أن تَصْدُرَ عن الجارحة ، ومنها تَصِل إلى المقصود بها ، ويُشْتَرَطُ أن يكون في الكلام إشارة إلى المولي لها ؛ فلا يقال : اتَّسَعَتْ اليَدُ في البلد ، أو اقتنَيْتُ يداً ، كما يقال : اتَّسَعَتِ النعمةُ في البلد ، أو : اقتنَيْتُ نعمةً ، وإنما يقال : جلَّتْ يَدُهُ عندي ، وكثُرَتْ أيادِيه لديَّ ، ونحو ذلك . المجاز المرسل

ونظير هذا قولهم في صفة راعي الإبل : إن له عليها إصبعاً ، أرادوا أن يقولوا : له عليها أثَرُ حِذْقٍ ، فدلُّوا عليه بالإصبع ؛ لأنه ما من حِذْقٍ في عمل يَدٍ إلا وهو مستفاد من حُسْن تصريف الأصابع . واللطْفِ في رَفعها ووَضعها ، كما في الخَطِّ والنَّقْش ، وعلى ذلك قيل في تفسير قوله تعالى : « بَلَى قادِرِينَ عَلَى أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » (١) أي : نجعلها كخُفِّ البعير ؛ فلا يتمكن من الأعمال اللطيفة ، فأرادوا بالإصبع الأثرَ الحسَنَ ، حيث يُقْصد الإشارة إلى حِذْقٍ في الصنعة لا مُطْلَقاً حتى يقالُ : رأيتُ أصابعَ الدار ، وله أصبعٌ حسَنَةٌ وإصبعٌ قبيحةٌ ، على معنى له أثَرٌ حسَنٌ وأثرٌ قَبِيحٌ ، ونحو ذلك .

وينظرُ إلى هذا قولُهم : ضربْتُه سَوْطاً ؛ لإنهم عبَّروا عن الضربة الواقعة بالسَّوْط باسم السَّوْط ؛ فجعلوا أثر السوط سوطاً ، وتفسيرهم له

---

(١) الآية ٤ من سورة القيامة .

بقولهم : المعنى : ضربْتُه ضربةً بالسوط ؛ بيانٌ لما كان الكلام عليه في أصله .

ونظيرُ قولنا « له عَلَيَّ يَدٌ » قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه « أسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً — ويُرْوَى لحاقاً — بي أطْوَلُكُنَّ يَداً » وقوله : « أطولكن » نظيرُ ترشيح الاستعارة ، ولا بأسَ أن يُسَمَّى ترشيحَ المجاز ، والمعنى بسطُ اليَدِ بالعطاء .

وقيل : قوله « أطولكن » من الطَّوْل بمعنى الفَضْل ، يقال ، لفُلانٍ على فُلاَنٍ طَوْلٌ ، أي : فَضْل ؛ فاليد على هذين الوجهين بمعنى النعمة .

ويحتَمِل أن يريد : أطولكن يَداً بالعطاء ، أي : أمدُّكُنَّ . فحذف قوله : « بالعطاء » للعلم به .

وكاليد ايضاً إذا استُعمِلَتْ في القُدْرة ؛ لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطشُ ، والضربُ ، والقطعُ ، والأخذُ ، والدفعُ ، والوضعُ ، والرفعُ ، وغيرُ ذلك من الأفعال الّتي تنبىءُ عن وجود القدرة ومكانها .

وأما اليد في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمَّتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » فهو استعارةٌ » والمعنى أن مَثَلَهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مَثَلُ اليد الواحدة ، فكما لا يُتَصوَّر أن يَخذُل بعضُ أجزاء اليد بعضا ، وأن تختلف بها الجهة في التصرُّف : كذلك سبيلُ المؤمنين في تعاضُدهم على المشركين ؛ لأن كلمة التوحيد جامِعةٌ لهم .

وكالراويَةِ للمزَادَة (١) مع كونها للبعير الحامل لها ؛ لحمله إياها ،

---

(١) المزادة : وعاء من جلد يحمل به الماء .

وكالحَفَض في البعير ، مع كونه لمتاع البيت ؛ لحمله إياه، وكالسماء في الغيث ، كقوله : أصابتنا السماء ؛ لكونه من جِهَة المُظِلَّةِ ، وكالإكاف في قول الشاعر :

٣٢٨ — * يأكُلْنَ كلَّ ليلةٍ إكافا *

أي : علفاً بثمن الإكاف (١) .

علاقات المجاز المرسل

١٨٥ — وهذا الضرب من المجاز يقع على وجوه كثيرة غير ما ذكرنا :

التجوز باسم الجزء عن الكل

منها : تسمية الشيء باسم جُزْئه ، كالعين في الرَّبيئةِ (٢) ؛ لكون الجارحة المخصوصة هي المقصود في كون الرجل رَبِيئةً ؛ إذ ما عداها لا يُغنِي شيئاً مع فَقدها ، فصارت كأنها الشخصُ كلُّه .

وعليه قوله تعالى : « قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً » (٣) أي : صَلِّ ، ونحوه « لا تَقُمْ فِيهِ أبَداً » (٤) أي : لا تُصَلِّ ، وقول النبي عليه السلام : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقدَّم من ذنبه » أي : من صلَّى .

وباسم الكل عن الجزء

ومنها : عكس ذلك نحو : « يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ (٥) » أي : أنامِلَهم وعليه قولهم : قطعْتُ السارقَ ، وإنما قطعتَ يَدَه .

اسم السبب مكان المسبب

ومنها : تسمية المسبب باسم السبب ، كقولهم : رعَيْنا الغيثَ ، أي : النباتَ الذي سببُه الغيثُ .

---

(١) الإكاف : البرذعة . والضمير للأحمرة التي يصفها أبو حزابة الوليد ابن حنيفة في قوله قبله « إن لنا أحمرة عجافا » .

(٢) الربيئة ؛ طليعة الجيش .

(٣) الآية ٢ من سورة المزمل .

(٤) بعض الآية ١٠٨ من سورة التوبة .

(٥) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

وعليه قوله عز وجل : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (١) سُمِّيَ جزاء الاعتداء اعتداءً لأنه مُسَبَّبٌ عن الاعتداء .

وقوله تعالى : « وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » (٢) تُجُوِّزَ بالبلاء عن العِرْفان ؛ لأنه مُسَبَّب عنه ، كأنه قيل : ونعرف أخباركم .

وعليه قولُ عَمْرِو بنِ كُلْثُومٍ :

٣٢٨ـ ألا لا يجهلَـنْ أحدٌ علينـا
فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينـا(٣)

الجهل الأول حقيقة ، والثاني مجازٌ عبَّر به عن مكافأة الجهل .

وكذا قوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » (٤) تُجُوِّزَ بلفظ السيئة عن الاقتصاص ؛ لأنه مُسَبَّبٌ عنها .

قيل : وإن عُبِّر عما ساء ـ أي أحزن ـ لم يكن مجازاً : لأن الاقتصاص مُحْزِنٌ في الحقيقة كالجناية .

وكذا قوله تعالى : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » (٥) تُجُوِّزَ بلفظ المكر عن عقوبته ؛ لأنه سببها .

قيل : ويحتمل أن يكون مكرُ الله حقيقةً ؛ لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم ، وهذا مُحقَّق من الله تعالى ، باستدراجه إياهم بِنعميه مع ما أعدَّ لهم من نِقَمِه .

---

(١) بعض الآية ١٩٤ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٣١ من سورة محمد .

(٣) الجهل في البيت بمعنى السفه والطيش ، لا عدم المعرفة وما يقابل العلم ، وعمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات وإن كان مقلا .

(٤) بعض الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٥) بعض الآية ٥٤ من سورة آل عمران .

المسبب مكان السبب

ومنها : تسمية السبَب باسم المسبَّب ، كقولهم : أمطرَتِ السماء نباتاً .

وعليه قولهم : « كما تَدِين تُدان » أي كما تفعل تُجازَى .

وكذا لفظ الأسنمة في قوله يصف غيثاً :

٣٣٠ — أقبل في المُسْتَنِّ من رَبابه
أسْنِمَةُ الآبالِ في سَحابه(١)

وكذا تفسير إنزال أزواج الأنعام في قوله تعالى : « وأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ » (٢) بإنزال الماء على وَجْه ، لأنها لا تعيش إلا بالنبات ، والنباتُ لا يقوم إلا بالماء ، وقد أنزَلَ الماء ؛ فكأنه أنزلها ، ويُؤيِّده ما ورد : أن كل ما في الأرض من السماء ، يُنْزِله اللهُ تعالى إلى الصخرة ، ثم يقسمه ، قيل : وهذا معنى قوله تعالى : « ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ في الأرْضِ ؟ » (٣) .

وقيل : معناه : وقضى لكم : لأن قضاياه وقِسَمَهُ موصوفة بالنزول من السماء ؛ حيث كُتِبَ في اللَّوح كل كائنٍ يكون . وقيل : خلقها في الجنة ، ثم أنزلها .

وكذا قوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً » (٤)أي : مطراً هو سببُ الرزق .

وقوله تعالى : « إنَّمَا يَأكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً » (٥) .

---

(١) المستن : الواضح . أو المنصب باعتبار ما سيكون . الرباب : السحاب الأبيض . الأسنمة : جمع سنام . الآبال : جمع إبل ، وهي الجمال .

(٢) بعض الآية ٦ من سورة الزمر .

(٣) بعض الآية ٢١ من سورة الزمر .

(٤) بعض الآية ١٣ من سورة غافر .

(٥) بعض الآية ١٠ من سورة النساء .

وقولهم : فلانٌ أكل الدَّمَ ، أي : الدِّيَةَ التي هي مُسبَّبة عن الدم ، قال :

٣٣١ – أكلتُ دماً إن لم أرُعْكِ بضَرَّةٍ
بعيدةِ مَهْوَى القُرْط ، طَيِّبَةِ النَّشْرِ(١)

وقوله تعالى : « فإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ باللهِ » (٢) أي : أردْتَ القراءة بقرينة الفاء مع استفاضة السنّة بتقديم الاستعاذة .

وقولـه تعـالى : « وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ » (٣) أي : أراد ، بقرينة « فقالَ : رَبِّ » (٣) .

وقوله تعالى : « وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » (٤) أي : أردنا إهلاكها ، بقرينة « فجاءها بأسنا » (٤) .

وكذا قوله تعالى : « مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا »(٥) بقرينة « أفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » (٥) وفيه دلالة واضحة على الوعيد بالإهلاك ، إذ لا يقع الإنكار في « أفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » (٥) في المَحزّ إلا بتقدير : « ونحن على أن نهلكهم » .

ما كان عليه الشيء

ومنها : تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، كقوله عز وجل: وَآتُوا

---

(١) أرعك : أفزعك . مهوى القرط : مسقطه ومكان تدليه ، وهو ما يحاذي صفحة العنق من أسفل شحمة الأذن إلى أعلى الكتف ، وإذا كان هذا المهوى بعيداً كان العنق طويلا ، ولذلك كان كناية عن طول العنق . والبيت من مختارات أبي تمام في ديوان الحماسة لبعض الأعراب من غير تعيين .

(٢) بعض الآية ٩٨ من سورة النحل .

(٣) بعض الآية ٤٥ من سورة هود .

(٤) بعض الآية ٤ من سورة الأعراف .

(٥) بعض الآية ٦ من سورة الأنبياء .

اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ » (١) أي : الذين كانوا يتامى ، إذ لا يُتْمَ بعد البلوغ .

وقولِه : « إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّه مُجْرِماً » (٢) سَمَّاه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام .

ومنها : تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، كقوله تعالى : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً » (٣) . ما يؤول اليه

ومنها : تسمية الحالّ باسم مَحَلِّه ، كقوله تعالى « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » (٤) أي : أهلَ ناديه .

ومنها : عكس ذلك ، نحو « أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ » (٥) أي . في الجنة .

ومنها : تسمية الشيء باسم آلته ، كقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ » (٦) أي بلُغَةِ قومه . اسم آلته

وقوله تعالى : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » (٧) أي : ذِكراً جميلاً وثناءً حَسَناً .

وكذا غيرُ ذلك مما بين معنى اللفظ وما هو موضوع تعلُّقٌ سِوَى التشبيه .

---

(١) بعض الآية ٢ من سورة النساء .
(٢) بعض الآية ٧٤ من سورة طه .
(٣) بعض الآية ٣٦ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١٧ من سورة العلق .
(٥) بعض الآية ١٠٧ من سورة آل عمران .
(٦) بعض الآية ٤ من سورة إبراهيم .
(٧) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

قال صاحب المفتاح : وللتَّعَلُّقِ بين الصارف عن فعل الشيء الداعي إلى تركه ؛ يُحْتَمل عندي أن يكون المراد بـ « مَنَعَكَ » في قوله تعالى . « مَا مَنَعَكَ ، أَنْ لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ » (١) « دعاك » و « لا » غيرُ صلة قرينةُ المجازِ ، وكذا « مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ؟ » (٢) .

قال الراغب (٣) رحمه الله : قال بعض المفسرين : إن معنى « ما منعك » ماحَمَاك ، وجعلك في مَنَعَةٍ منِّي في ترك السجود ؟ أي : في مُعاقَبة تركِه .

وقد استبعد ذلك بعضُهم بأنْ قال : لو كان كذا لم يكن يُجيب بأنْ يقول . « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » (٢) فإن ذلك ليس بجواب السؤال على ذلك الوجه ، وإنما هو جواب من قيل له : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ » .

ويمكن أن يُقال في جواب ذلك : إن إبليس لما كان أُلْزِمَ ما لم يَجِدْ سبيلا إلى الجواب عنه ؛ إذ لم يكن من كالىء يحرسه ويحميه ؛ عَدَلَ عمَّا كان جواباً كما يفعــل المأخوذ بكَظَمِـهِ في المناظرة(٤) انتهى كلامه .

تقسيم السكاكي للمجاز المرسل

١٨٦ — وقسم الشيخُ صاحبُ المفتاح المجازَ المرسَل إلى خالٍ عن الفائدة . ومفيدٍ .

---

(١) بعض الآية ١٢ من سورة الأعراف .

(٢) بعض الآية ٩٢ من سورة طه .

(٣) هو الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل صاحب كتاب المفردات في غريب القرآن . توفي سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) كالىء : حارس وحافظ ، الكظم بالتحريك : مخرج النفس ، والمقصود من المأخوذ بكظمه في المناظرة : المغلوب فيها .

١ – وجعل الخاليَ عن الفائدة ما استُعمِل في أعم مما هو موضوع له ، كالمَرْسِنِ في قول العَجَّاج :

• وفاحِما ومَرْسِناً مُسَرَّجا(١) •

فإنه مستعمل في الأنف لا بِقَيد كونِه لِمَرْسون مع كونه موضوعاً له بهذا القيد لا مطلقاً ، وكالمِشْفَرِ في نحو قولنا « فلانٌ غليظُ المشافِر » إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشَّفَةُ لا غير .

وقال : سُمِّيَ هذا الضربُ غير مُفِيدٍ لقيامه مقامَ أحد المترادفين من نحو « ليث ، وأسد » (٢) و « حَبَسَ ، ومَنَعَ » (٣) عند المصير إلى المراد منه .

٢ – وأراد بالمفيد ما عدا الخاليَ عن الفائدة والاستعارة كما مر .

والشيخ عبد القاهر رحمه الله جعل الخالي عن الفائدة ما استُعمِل في شيء بقَيْدٍ ، مع كونه موضوعاً لذلك الشيء بقيد آخر ، من غير قصد التشبيه ، ومَثَّلَهُ ببعض ما مَثَّلَهُ الشيخ صاحبُ المِفتاح ونحوه ، مُصرِّحاً بأن الشَّفَةَ والأنْفَ موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان ؛ فإن قُصِد التشبيهُ صار اللفظ استعارةً ، كقولهم في مواضع الذَّم : « غليظ المِشْفَرِ » فإنه بمنزلة أن يقال : كأن شَفَتَه في الغِلَظ مِشْفَرُ البعير ، وعليه قول الفرزْدَقِ :

٣٣٢ – فلو كُنْتَ ضَبِّيّاً عرفْتَ قَرابَتي
ولكِنَّ زَنْجِيٌّ غليظُ المَشافِرِ(٤)

---

(١) الشاهد ٢٠ .

(٢) تمثيل للترادف في الأسماء .

(٣) تمثيل للترادف في الأفعال .

(٤) كنت : المخاطب أيوب بن عيسي الضبي ، وكان قد حبس الفرزدق فهجاه ، يشكك في نسبه وينفي أنه ضبي ، بل يدعي أنه غير عربي ، وإنما هو زنجي ، بدليل غلظ شفته التي تشبه مشفر الجمل .

أي : ولكنَّك زَنْجِيٌّ كأنه جملٌ لا يَهتَدِي لشَرَفٍ .

وكذا قولُ الحُطَيْئَةِ يُخاطِب الزِّبْرِقَانَ :

٣٣٣ ــ قَرَوْا جارَكَ العَيْمَانَ لمَّا جَفَوْتَهُ
وقَلَّصَ عن بَرْدِ الشرابِ مَشافِرَهْ(١)

فإنه وإن عَنَى نفسَه بالجار ، جاز أن يَقصِد إلى وَصْفِ نفسه بنوع من سوء الحال ؛ ليزيد في التهكُّم بالزِّبْرِقَانِ ، ويؤكِّد ما قصده من رَمْيِه بإضاعة الضَّيْف وإسلامِه للضُّرِّ والبُؤْسِ .

وكذا قول الآخر :

٣٣٤ ــ سأمنعُها ، أو سوفَ أجْعَلُ أمرها
إلى مَلِكٍ أظلافُه لم تَشَقَّقِ(٢)

---

(١) قروا : قدموا القرى وطعام الضيفان . العيمان : العطشان إلى اللبن . قلص عن برد الشراب : انكمش بسبب برودة ما يشربه وهو الماء الذي لا يجد غيره . مشافره : شفاهه

(٢) سأمنعها : سأمنع ناقتي وأحميها من تعب الركوب . أو أترك أمر جزائها إلى الممدوح الذي جعله ملكاً ، وهو غطفان بن قيس بن عاصم . الأظلاف : جمع ظلف بالكسر وهو لذوات الحافر من الحيوان كالظفر للانسان ، وقد تجوز بالظلف عن الرجل كلها ، تشقق : أصله تتشقق خفف بحذف إحدى تائيه . وهو للأخطل ، أو لعقفان القيسي .

الاستعارة

١٨٧ – الضرب الثاني من المجاز : الاستعارة . وهي ما كانت علاقته تشبيهَ معناه بما وضع له .

تعريفها الاستعارة التحقيقية

وقد تقيَّد بالتحقيقية ؛ لتحقق معناها حِسّاً أو عقلاً . أي : التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن يُنَصَّ عليه ويُشَار إليه إشارةً حِسِّيَّةً أو عقلية ، فيقال : إن اللفظ نُقِلَ من مُسَمَّاه الأصليِّ . فجعل اسماً له على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه .

أما الحِسِّيُّ فكقولك « رأيْتُ أسداً » وأنت تريد رجلاً شجاعاً . وعليه قول زُهَيْرٍ :

٣٣٥ – لَدَى أسَدٍ شاكِي السِّلاح مُقذَّفٍ ..(١)

أي : لَدَى رجلٍ شجاع .

ومن لَطِيف هذا الضرب : ما يَقَعُ التشبيه فيه في الحركات . كقول أبي دُلامَةَ يصف بغْلَته :

---

(١) بقيته : . له لبد أظفاره لم تقلم .

شاكي السلاح : قويه شامه . ومثله : شاك السلاح بالتخفيف ، وشاكه بالتضعيف . وشائكه بالهمز . شاكي : أصله شائك فقلب قلباً مكانياً : لأنه من شاك يشاك شوكا بمعنى ظهرت شوكته وحدته، وبابه سمع .مقذف.شجاع قذف به كثيراً في الحروب لبد : جمع لبدة ، وهي الشعر المتكاثف بين كتفي الأسد ، أظفاره لم تقلم : عزيز منيع قوي ، بطريق الكناية .

٣٣٦ - أَرَى الشَّهْبَاءَ تَعْجِنُ إذ غَدَوْنَا
برِجْلَيْهَا ، وَتَخْبِزُ باليَدَيْنِ (١)

شبَّه حركةَ رِجْلَيْها - حيثُ لم تَثْبُتا على موضع تعتمد بهما عليه وهَوَتا (٢) ذاهبتين نحو يديها - بحركة يَدَي العاجِن ؛ فإنهما لا تثبتان في موضع ، بل تَزِلاَّن إلى قُدَّام ؛ لرخاوة العجين ، وشبَّه حركةَ يَدَيْها بحركة يَدَي الخابز ؛ فإنه يَثني يَدَهُ نحوَ بَطْنِه ، ويُحْدِثُ فيها ضَرْباً من التقويس ، كما تجد في يَدِ الدَّابَّة إذا اضطربَتْ في سيرها ، ولم تَقْوَ على ضَبْطِ يَدَيْها ، وأن ترمي بها إلى قُدَّام ، وأن تَشُدَّ اعتمادَها ، حتَّى تَثْبُت في الموضع الذي تقع عليه ، فلا تَزُول عنه ولا تَنْثَني .

وأما العقلي فكقولك : « أبْدَيْتَ نوراً » وأنت تريد « حُجَّةً » فإن الحجة مما يُدْرك بالعقل من غير وَساطة حِسٍّ ؛ إذ المفهوم من الألفاظ هو الذي يُنَوِّرُ القلبَ ويكشِفُ عن الحق ، لا الألفاظ أنفسها .

وعليه قوله عز وجل : « اهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ » (٣) أي : الدينَ الحقَّ .

وأما قوله تعالى : « فأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ » (٤) فعلى ظاهر قول الشيخ جارِ الله العَلاَّمَةِ استعارةٌ عقليَّة ؛ لأنه قال : شبّه باللِّباس - لاشتماله على اللابس - ما غَشِيَ الإنسانَ والتبس به من بعض الحوادث ، وعلى ظاهر قول الشيخ صاحب المفتاح حِسِّيَّةٌ ؛

---

(١) الشهباء : البيضاء ، وأبو دلامة هو زند بن الجون ، شاعر من رجال السفاح والمنصور والمهدي .

(٢) هوتا : سقطتا وزلتا .

(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

(٤) بعض الآية ١١٢ من سورة النحل .

لأنه جعل اللباسَ استعارةً لما يَلبَسه الإنسانُ عند جوعه وخوفه ، من امتقاع اللون ، ورَثاثة الهيئة .

معنى الاستعارة

فالاستعارة : ما تَضَمَّن تشبيهَ معناه بما وَضِعَ له .

هل التشبيه البليغ يسمى استعارة

والمراد بمعناه : ما عني به ، أي : ما استعمل فيه ؛ فلم يتناول ما استعمل فيما وضع له ، وإن تضمَّن التشبيه به ، نحو : زيدٌ أسدٌ ، ورأيتُه أسداً ، ونحو : رأيت به أسداً ؛ لاستحالة تشبيه الشيء بنفسه .

على أن المراد بقولنا : « ما تضمن » مجازٌ تضمن ؛ بقرينة تقسيم المجاز إلى الاستعارة وغيرها ، والمجاز لا يكون مستعملا فيما وضع له .

١٨٨ — وههنا شيءٌ لا بُدَّ من التنبيه عليه ، وهو أنه إذا أُجْرِيَ في الكلام لفظٌ دلَّتِ القرينةُ على تشبيه شيء بمعناه ، فيكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن لا يكون المشبه مذكوراً ولا مقدراً كقولك « رَنَتْ (١) لنا ظَبْيَةٌ » وأنت تريد « امرأة » و « لقيتُ أسداً » وأنت تريد « رجلا شجاعاً » ولا خِلافَ أن هذا ليس بتشبيه ، وأن الاسمَ فيه استعارة .

والثاني : أن يكون المشبه مذكوراً أو مُقدَّراً ؛ فاسم المشبه به إن كان خَبراً أو في حكم الخبر — كخبر « كان » و « إنَّ » والمفعول الثاني لباب « علِمت » والحال — فالأصح أنه يُسمَّى تشبيهاً ، وأن الاسم فيه لا يُسمَّى استعارةً ؛ لأن الاسم إذا وقع هذه المواقع ؛ فالكلام موضوعٌ لإثبات معناه لما يعتمد عليه ، أو نَفْيِه عنه ؛ فإذا قلتَ : « زيدٌ أسدٌ » فقد وضعتَ كلامك في الظاهر لإثبات معنى الأسد لزيد ، وإذا امتنع إثبات ذلك له على الحقيقة كان لإثبات شَبَهٍ من الأسد له ؛ فيكون اجتِلابُه لإثبات التشبيه فيكون خَلِيقاً بأن يُسمَّى تشبيهاً ؛ إذ كان

(١) رنا اليه ، وله يرنو : أدام النظر اليه بسكون الطرف ، وفي نسخة « غنت » وما نراه إلا تحريفاً عما أثبتناه .

إنما جاء ليُفيدَه بخلاف الحالة الأولى ، فإن الإسم فيها لم يُجتَلَبْ لإثبات معناه للشيء ، كما إذا قلت : جاءني أسدٌ ، ورأيت أسداً ؛ فإن الكلام في ذلك موضوع لإثبات المجيء واقعاً من الأسد ، والرؤيةِ واقعة منك عليه ، لا لإثبات معنى الأسد لشيء ؛ فلم يكن ذكر المشبه به لإثبات التشبيه ، وصار قصدُ التشبيه مكنونا في الضمير ؛ لا يُعْلَم إلا بعد الرجوع إلى شيء من النظر .

ووجهٌ آخَرُ في كون التشبيه مكنونا في الضمير ، وهو أنه إذا لم يكن المشبَّهُ مذكوراً ، جاز أن يَتوهَّم السامعُ في ظاهر الحال أن المراد باسم المشبه به ما هو موضوع له ، فلا يُعْلَم قَصْدُ التشبيه فيه إلا بعد شيء من التأمُّل ، بخلاف الحالة الثانية ؛ فإنه يمتنع ذلك فيه مع كون المشبه مذكوراً أو مقدَّراً .

ومن الناس مَنْ ذهب إلى أن الاسم في الحالة الثانية استعارة ؛ لإجرائه على المشبه مع حذف كلمة التشبيه .

وهذا الخلاف لفظيٌّ راجع إلى الكشف عن معنى الاستعارة والتشبيه في الاصطلاح ، وما إخترناه هو الأقرب ؛ لما أوضحنا من المناسبة ، وهو اختيار المحقِّقين كالقاضي أبي الحسَنِ الجرْجَانيِّ ، والشيخ عبد القاهر . والشيخ جارِ الله العلاَّمة والشيخ صاحب المفتاح ، رحمهم الله

غير أن الشيخ عبد القاهر قال بعد تقرير ما ذكرناه : فإن أبيْتَ إلا أن تُطْلِق اسم الاستعارة على هذا القسم؛ فإن حَسُنَ دُخول أدوات التشبيه لا يحسن إطلاقُهُ وذلك كأن يكون اسم المشبه به معرفةً ، كقولك زيدٌ الأسدُ ، وهو شمسُ النهار ؛ فإنه يحسن أن يقال زيدٌ كالأسدِ ، وخلِته شمسَ النهار .

وإن حَسُنَ دخول بعضها دون بعض ؛ هان الخطب في إطلاقه ، وذلك كأن يكون نكرةً غير موصوفة ، كقولك : زيدٌ أسدٌ ؛ فإنه

لا يحسن أن يقال زيدٌ كأسدٍ . ويحسن أن يقال : كأن زيداً أسدٌ ، ووجدته أسداً

وإن لم يحسن خول شيء منها إلا بتغيير لصورة الكلام ، وكان إطلاقهُ أقربَ ؛ لغموض تقديره أداة التشبيه فيه ، وذلك بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به ، كقولك : فلانٌ بدرٌ يسكن الأرض ، وهو شمسٌ لا تغيب ، وكقوله :

٣٣٧ — شمسٌ تألَّقُ والفِراقُ غرُوبُها
عنَّا ، وبَدرٌ والصُّدودُ كسُوفُهُ(١)

فإنه لا يحسن دخول الكاف ونحوِه في شيء من هذه الأمثلة ونحوها ، إلا بتغيير صورته . كقولك : هو كالبدر ، إلا أنه يسكن الأرض وكالشمس ، إلا أنه لا يغيب وكالشمس المُتألِّقة ، إلا أن الفراقَ غروبُها ، وكالبدر ، إلا أن الصدود كسوفه .

وقد يكون في هذه الصِّفات والصِّلات التي تجيء في هذا النحو ما يُحيل تقديرَ أداة التشبيه فيه ؛ فيقرب إطلاقه أكثر ، وذلك مثل قول أبي الطيب :

٣٣٨ — أسدٌ ، دَمُ الأسدِ الهِزَبْرِ خِضابُهُ
موتٌ ، فَريصُ الموتِ منه يُرْعَدُ(٢)

فإنه لا سبيل إلى أن يقال : المعنى : هو كالأسد ، وكالموت ؛ لما في ذلك من التَّناقُضِ ؛ لأن تشبيهه بجنس السبع المعروف دليل أنه دونه

---

(١) تألق . تلمع وأصله تتألق . الصدود : الإعراض . كسوف القمر : إعتامه باحتجاب نور الشمس عنه . والبيت للبحتري .

(٢) الهزبر : إذا أفرد أريد منه الأسد . وإذا وقع وصفاً للأسد أريد منه الغليظ الضخم الشديد الصلب . الخضاب : ما تخضب به ويلون ، الفريص : اسم جنس جمعي واحده فريصة ، وهي لحمة بين الجنب والكتف ، أو بين الثدي والكتف ، ترتعد عند الخوف وترتجف .

أو مثلُه ، وجَعْلُ دَمِ الهِزَبْرِ – الذي هو أقوى الجنس – خضابَ يده ، دليلُ أنه فَوْقَه ، وكذلك لا يصح أن يُشَبَّهَ بالموت المعروفِ ، ثم يُجْعَلَ الموتُ يَخافُ منه ، وكذا قول البُحْتُرِيِّ :

٣٣٩ – وبدر أضــاء الأرضَ شرقاً ومَغْرِبــاً
ومَوضعُ رَحْلِي منه أسْوَدُ مُظْلِمُ (١)

إن رُجِــعَ فيه إلى التشبيه السَّاذَج حتى يكون المعنى هو كالبدر ؛ لَزِمَ أن يكون قد جعل البدر المعروف موصوفاً بما ليس فيه ؛ فظهر أنه إنما أراد أن يُثْبِت من الممدوح بدراً له هذه الصِّفةُ العجيبةُ التي لم تُعْرَف للبدر ؛ فهو مَبْنِيٌّ على تخييل أنه زاد في جنس البدر واحداً له تلك الصِّفةُ ؛ فالكلام موضوع لا لإثبات الشَّبَهِ بينهما ، ولكن لإثبات تلك الصفة ؛ فهو كقولك : زيدٌ رجلٌ كَيْتَ كَيْتَ ، لم تقصد إثبات كونه رجلا ، لكن إثبات كونه متَّصِفاً بما ذكرْتَ ، فإذا لم يكن اسم المشبه به في البيت مُجْتَلَباً لإثبات الشبه ، تبين أنه خارج عن الأصل الذي تقدم من كون الإسم مجتلباً لإثبات الشبه ؛ فالكلام فيه مَبْنِيٌّ على أنَّ كونَ الممدوح بدراً أمرٌ قد استَقَرَّ وثبت ، وإنما العمل في إثبات الصفة الغريبة .

وكما يمتنع دخول الكاف في هذا ونحوِه ، يمتنع دخول « كأن » ونحوُه : « تَحْسَبُ » ، لاقتضائهما أن يكون الخبرُ والمفعولُ الثاني أمراً ثابتاً في الجملة ، إلا أنَّ كَوْنَه مُتعلِّقاً بالاسم والمفعولِ الأول مَشْكُوكٌ فيه ، كقولنا ، كأن زيداً منطلقٌ ، أو خلافُ الظاهر ، كقولنا : كأن زيداً أسدٌ ، والنكرة فيما نحن فيه غيرُ ثابتة ؛ فدخول « كأنَّ » و « تَحْسَبُ » عليها كالقياس على المجهول .

---

(١) موضع رحلي : مكاني ، والمقصود : حظي ونصيبي منه سيء والبيت – كما قال – للبحتري في مدح الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

وأيضاً هذا النحوُ – إذا فَلَيْتَ عن سرِّه – وجدْتَ محصولَه أنك تَدَّعي حدوث شيء هو من الجنس المذكور ، إلا أنه اختصَّ بصفة عجيبة لم يُتَوَهَّم جَوازُها على الجنس ؛ فلم يكن لتقدير التشبيه فيه معنىً .

وإن لم يكن إسم المشبه به خبراً للمشبه ، ولا في حكم الخبر ، كقولهم : رأيْتُ بفلانٍ أسَداً ، ولَقِيَنِي منه أسدٌ ؛ سُمِّي تجريداً ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ولم يُسَمَّ استعارةً ؛ لأنه إنما يُتَصَوَّر الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرَى بوجْهٍ على ما يُدَّعَى أنه مُستعارٌ له ؛ إما باستعماله فيه ، أو بإثبات معناه له ، والاسمُ في مثل هذا غيرُ جارٍ على المشبه بوجه .

ولأنه (١) يجيء على هذه الطريقة ما لا يُتَصَوَّر فيه التشبيهُ فيُظَنَّ أنه استعارة كقوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ » (٢) إذ ليس المعنى على تشبيه جَهَنَّم بدار الخلد؛ إذ هي نفسُها دارُ الخلد ، وكقول الشاعر :

٣٤٠ – يا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ، ولا
يَشْرَبُ كَأْساً بكَفِّ مَنْ بَخِلاَ (٣)

فإنه لا يُتَصَوَّرُ فيه التشبيهُ ، وإنما المعنى أنه ليس ببخيل .

ولا يُسَمَّى تشبيهاً أيضاً ؛ لأن اسم المشبه به لم يُجْتَلَبْ فيه لإثبات التشبيه ، كما سبق ، وعَدَّهُ الشيخ صاحبُ المفتاح تشبيهاً ، والخلافُ أيضاً لفظِيٌّ .

---

(١) العطف على قوله « لأنه إنما يتصور ، الخ » الذي علل به عدم تسميته استعارة في الفقرة السابقة .

(٢) بعض الآية ٢٨ من سورة فصلت .

(٣) المطي والمطايا : الركائب ، واحدتها مطية . وفي البيت تجريد وكناية ، وقائله أعشى قيس .

الاستعارة مجاز لغوي

١٨٩ — والدليل على أن الاستعارة مَجَازٌ لغويٌّ ؛ كونُها موضوعةً للمشبه به ، لا للمشبه ولا لأمر أعم منهما ، كالأسد ؛ فإنه موضوع للسبع المخصوص ، لا للرجل الشجاع ، ولا للشجاع مطلقاً ؛ لأنه لو كان موضوعاً لأحدهما لكان استعماله في الرجل الشجاع من جهة التحقيق لا من جهة التشبيه ، وأيضاً لو كان موضوعاً للشجاع مُطلَقاً لكان وصفاً لا اسْمَ جِنْس .

أو مجاز عقلي

وقيل : الاستعارةُ مَجازٌ عقلي ، بمعنى أن التصرُّف فيها في أمر عقلي لا لغوي لأنها لا تُطْلَق على المشبه إلا بعد ادّعاء دخوله في جنس المشبه به ؛ لأن نقل الاسم وَحْدَهُ لو كان استعارة لكانت الاعلامُ المنقولة كـ « يزيد » و « يَشْكُر » استعارةً .

ولَـمَّا كانت الاستعارةُ أبلغ من الحقيقة ؛ لأنه لا بَلاغةَ في إطلاق الاسم المجرد عارياً عن معناه .

ولَـمَّا صح أن يقال لمن قال : « رأيت أسداً » يعني زيداً : إنه جعله أسداً ، كما لا يقال لمن سَمَّى ولدَه أسداً : إنه جعله أسداً ؛ لأن «جَعَلَ» إذا تعدى إلى مفعولين ؛ كان بمعنى « صَيَّر » فأفاد إثباتَ صفَةٍ للشيء : فلا تقول « جعلتُه أميراً » إلا على معنى أنك أثبتَّ له صفةَ الإمارة .

وعليه قوله تعالى : « وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً » (١) المعنى أنهم أثبتوا صفـــة الأنوثة ، واعتقدوا وجودها فيهم ، وعن هذا الاعتقاد صَدَرَ عنهم للملائكة إطلاقُ اسم الإناث عليهم ، لا أنهم أطلقوه من غير اعتقاد ثبوت معناه لهم ؛ بدليل قوله تعالى : « أشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ » (١) .

وإذا كان نقل الأسم تبعاً لنقل المعنى كان الاسم مُستَعملاً فيما

---

(١) بعض الآية ١٨ من سورة الزخرف .

وُضِعَ له ؛ ولهذا صح التَّعَجُّبُ في قول ابنِ العَمِيدِ (١) :

٣٤١ — قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشمسِ
نفسٌ أعَزُّ عَلَيَّ من نَفْسي
قَامَتْ تُظَلِّلُنِي ، ومِنْ عَجَبٍ
شمسٌ تُظَلِّلُنِي من الشمس

والنَّهْيُ عنه في قول الآخر :

٣٤٢ — لا تَعجَبوا مِنْ بِلَى غِلالَتِه
قد زَرَّ أزرارَه عَلَى القمَرِ(٢)

وقوله :

٣٤٣ — ترى الثياب من الكتَّان يلمَحُها
نورٌ من البدر أحياناً فيُبْليها(٣)
فكيف تُنكِرُ أن تَبْلَى معاجِرُها
والبدرُ في كل وقتٍ طالعٌ فيها ؟ !

نقد الرأي الثاني

والجواب عنه أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به ؛ لا يُخْرِج اللفظ عن كونه مُستعمَلا في عير ما وُضِعَ له .

وأما التعجُّبُ والنهيُ فيما ذُكِرَ فَلِبِناء الاستعارة على تناسي التشبيه قضاءً لحق المبالغة .

(١) هو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، إمام الكتاب في القرن الرابع الهجري ، وإليه تنسب الطريقة الكتابية التي راجت عند كتاب عصره ، وزر لركن الدولة البويهي إلى أن مات سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) بلى غلالته : رثاثتها وخلقها ، والغلالة : شعار رقيق يلبس تحت الثوب مما يلي الجسد . زر أزراره : شدها وضم بها لفقي ثوبه . وقائله ابن طباطبا العلوي أبو الحسن محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

(٣) المعاجر : جمع معجر ، على وزن منبر ، وهو ثوب تعمّ به المرأة وتشده على رأسها ، والشعر لأبي المطاع ناصر الدولة الحمداني .

فإن قيل : إصرار المتكلم على ادّعاء الأسديّة للرجل يُنافي نَصْبَهُ قَرِينَةً من أن يراد به السبع المخصوص .

قلنا : لا مُنافاة .

وَوَجْهُ التوفيق ما ذكره السكَّاكيُّ ، وهو أن تُبْنَى دعوى الأسَديّة للرجل على ادّعاء أن أفراد جنس الأسد قسمان بطريق التأويل : مُتَعَارَفٌ ، وهو الذي له غاية الجراءة ، ونهاية قوة البطش ، ومع الصورة المخصوصة ، وغيرُ مُتعارَفٍ ، وهو الذي له تلك الجراءة ، وتلك القوة ، لا مع تلك الصورة ، بل مع صورة أخرى ، على نحو ما ارتكب المُتَنَبِّي هذا الادّعاء في عَدّ نفسه وجماعته من جنس الجِنّ ، وعَدّ جِماله من جنس الطير ، حين قال :

٣٤٤ــ نحن قومٌ مِ الجِنّ في زِيّ نَاسٍ
فَوْقَ طَيْرٍ ، لها شُخوصُ الجِمالِ(١)

مُسْتَشهداً لدعواه هاتيك بالمخيّلات العرفية .

وأن (٢) تُخَصّص القرينةُ بنفيها المتعارَفَ الذي يسبق إلى الفهم ؛ ليتعين الآخر .

ومن البناء على هذا التنويع قولُه :

٣٤٥ــ • تَحِيّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ(٣) •

وقولُهم : « عتابُك السيفُ » وقوله تعالى : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مالٌ

(١) م الجن : من الجن ، حذف نون « من » الجارة ، وهو كثير في شعره ، وله نظائر في شعر العرب المحتج بهم .

(٢) عطف على قوله : « أن تبنى دعوى الأسدية ... إلخ » في الفقرة السابقة

(٣) صدره : • وخيل قد دلفت لها بخيل •

دلفت : تقدمت ، والمراد بالخيل ركبانها . وصاحبه عمرو بن معد يكرب الزبيدي

وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١) .

ومنه قولُه :

٣٤٦ – وبَلْدَةٍ ليس بها أنيسُ
إلاَّ اليَعافيرُ ، وإلاَّ العيسُ (٢)

الاستعارة تفارق الكذب من وجهين

١٩٠ – وإذ قد عرفت معنى الاستعارة ، وأنها مجازٌ لغوي ؛ فاعلم أن الاستعارةَ تفارِق الكذب من وجهين :

بناء الدعْوى فيها على التأويل . ونَصْب القرينة على أن المراد بها خلاف ظاهرها ؛ فإن الكاذب يتبرَّأ من التأويل ، ولا ينصِب دليلا على خلاف زعمه .

هل تدخل الاستعارة من الأعلام

وأنها لا تدخل في الأعلام ؛ لما سبق من أنها تعتمد إدخالَ المشبه في جنس المشبه به ، والعَلَميَّةُ تُنافي الجنسيَّةَ ، وأيضاً لأن العَلَمَ لا يدل إلا على تعيُّن شيء من غير إشعار بأنه إنسان أو فرس أو غيرهما ؛ فلا اشتراك بين معناه وغيره ، إلا في مُجرَّد التعيُّنِ ، ونحوِه من العوارض العامَّة التي لا يكفي شيء منها جامعاً في الاستعارة ، اللّهُم إلا اذا تضمَّن نوعَ وَصْفيَّةٍ لسبب خارج ، كتضمُّن اسم حاتمٍ الجوادَ ، ومادِرٍ البخيلَ ، ومَا جرى مَجراهما .

قرينة الاستعارة

١٩١ – وقرينة الاستعارة إما معنىً واحدٌ . كقولك : رأيتُ أسداً يَرْمِي ؛ أو أكثرُ . كقول بعض العرب :

٣٤٧ – فإن تَعافُوا العدل والإيمانا
فإنَّ في أيْمانِنا نيرانا (٣)

---

(١) الآيتان ٨٨ – ٨٩ من سورة الشعراء .

(٢) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الغزال . العيس الإبل يخالط بياضها صفرة . الواحد أعيس ، وهي عيساء ، والرجز لجران العود النمري عامر بن الحارث . الشاعر الجاهلي .

(٣) إن تعافوا : إن تكرهوا وتأبوا . أيماننا : أيدينا اليمنى .

أي : سُيوفاً تلمع كأنها شُعَلُ نيران ، كما قال الآخر :

٣٤٨ ــ ناهَضْتَهُمْ والبارِقاتُ كأنها
شُعَلٌ على أيْدِيهِمُ تَتَلَهَّبُ(١)

فقوله : « تعافوا » باعتبار كل واحد من تَعَلقِه بالعدل ، وتَعَلُّقِه بالإيمان؛ قرينة لذلك؛ لدلالته على أن جوابه : أنهم يُحارَبون ويُقْسَرون على الطاعة بالسيف .

أو معانٍ مربوطٌ بعضُها ببعض ، كما في قول البحتري :

٣٤٩ ــ وصاعقةٍ من نَصْلِه تَنْكَفِي بها
على أَرْؤُسِ الأقرانِ خَمْسُ سَحائبِ(٢)

عنى بـ « خمس سحائب » أناملَ الممدوح ؛ فذكر أن هناك صاعقة ؛ ثم قال « من نَصْلِه » فبين أنها من نصل سيفه ، ثم قال « على أرؤس الأقران » ثم قال « خمس » فذكر عدد أصابع اليد ؛ فبان من مجموع ذلك غرضُه .

* * *

أقسام الاستعارة

١٩٢ ــ ثم الاستعارة تنقسم باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع ، وباعتبار الثلاثة ، وباعتبار اللفظ ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله .

١٩٣ ــ أما باعتبار الطرفين فهي قسمان ؛ لأن اجتماعهما في شيء إما ممكن ، أو ممتنع ، ولتُسَمَّ الأولى وفاقيَّةً ، والثانيةُ عِنادِيَّةً .

---

(١) ناهضتهم : قاومتهم ونازلتهم . والخطاب للممدوح . البارقات : جمع بارقة وهي السيوف . الشعل : جمع شعلة ، وهي لهب النار . تلتهب : تتلظى وتتسعر وتتوقد . والشاعر البحتري .

(٢) الصاعقة : نار تسقط من السماء في رعد شديد ، وأريد بها الضربة القوية النصل : حديدة الرمح والسهم والسكين ، وقد يسمى به السيف ، تنكفيء : تنصب، الأقران : جمع قرن ، وهو النظير والكفء .

الوفاقية

أما الوفاقية فكقوله تعالى : « أَحْيَيْنَاهُ » في قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه ؟ » (١) فإن المراد « بأحييناه » هديناه . أي : أوَ من كان ضالاً فهديناه ؟ والهداية والحياة لا شك في جواز اجتماعهما في شيء .

العنادية

وأما العنادية فمنها ما كان وضع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لِخُلُوِّها مما هو ثمرتها والمقصودُ منها ، وإذا ما خَلَتْ منه لم تستحق الشرف ، كاستعارة اسم المعدوم للموجود ، إذا لم تحصُل منه فائدةٌ من الفوائد المطلوبة من مثله ؛ فيكون مشاركاً للمعدوم في ذلك ، أو اسم الموجود للمعدوم إذا كانت الآثار المطلوبة من مثله موجودةً حالَ عَدَمِه ؛ فيكون مشاركاً للموجود في ذلك ، أو اسم الميت للحي الجاهل ؛ لأنه عَدِمَ فائدةَ الحياة والمقصودَ بها ، أعني العلم ؛ فيكون مُشارِكاً للميت في ذلك ، ولذلك جُعل النومُ موتاً ؛ لأن النائم لا يشعر بما بحضرته ، كما لا يشعر الميتُ ، أو الحيِّ العاجزِ (٢)؛ لأن العجز كالجهل يَحُطّ من قدر الحي .

ثم الضدان إن كانا قابلين للشدة والضعف ؛ كان استعارةُ اسم الأشَدِّ للأضعف أولى ؛ فكل من كان أقلَّ علماً وأضعفَ قوةً كان أولى بأن يُسْتَعار له اسْمُ الميت ، ولما كان الإدراكُ أقدمَ من العَقْل في كونه خاصَّة للحيوان كان الأقلُّ علماً أولى باسم الميت أو الجماد من الأقلِّ قوةً .

وكذا في جانب الأشدِّ ؛ فكل من كان أكثرَ عِلْماً كان أولى بأن يقال له : « إنه حي » وكذا من كان أشرف علماً ، وعليه قوله تعالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ » (٣) فإن العلم بوحدة الله تعالى وما

(١) بعض الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .
(٢) أي أو كاستعارة اسم الميت للحي العاجز .
(٣) بعض الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم أشرفُ العلوم .

ومنها : ما استُعمِل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقُض منزلة التناسُب ، بوساطة تَهَكُّم أو تمليح على ما سبق في التشبيه ، كقوله تعالى « فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ أليمٍ » (١) ويُخَصُّ هذا النوعُ باسم التهكمية أو التمليحية .

• • •

١٩٤ ـ وأما باعتبار الجامع فهي قسمان :

أحدهما : ما يكون الجامع فيه داخلا في مفهوم الطرفين ، كاستعارة الطَّيَران للعَدو ، كما في قول امرأة من بني الحارث ترثي قتيلا :

٣٥٠ ـ لو يَشَأْ طار به ذو مَيْعَة
لاحِقُ الآطال نَهْدٌ ذو خُصَل(٢)

وكما جاء في الخبر : « كلَّما سمع هَيْعَةً طار إليها » (٣) فإن الطَّيَران والعَدْو يشتركان في أمر داخل في مفهومهما ، وهو قطع المسافة بسرعة ، ولكن الطيران أسرع من العَدْوِ .

---

(١) بعض الآية ٢١ من سورة آل عمران ، ٣٤ من سورة التوبة ، الآية ٢٤ من سورة الانشقاق .

(٢) يشا : يشاء ويريد . الميعة : الجرية السهلة ، وميعة الفرس : أول جريه . والتنكير للتعظيم . لاحق : ضامر . الآطال : جمع إطل ، وهو الخاصرة . نهد : حسن جميع الجسم . خصل : جمع خصلة ، وهي الشعر المجتمع ، ويقصد به هنا الشعر المتدلي على رقبته وهو عرفه ، والخصلة أيضاً : العضو من اللحم : ويراد بها هنا العضلات المفتولة ، والتنكير للتعظيم .

(٣) تمام الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها ، أو رجل في شعفة ، في غنيمة له ، يعبد الله حتى يأتيه الموت » الهيعة : الصوت تفزع منه وتخافه . الشعفة : رأس الجبل . غنيمة : تصغير غنم للتقليل .

ونحوهما قول بعض العرب :

٣٥١ ـ فَطِرْتُ بمُنْصُلي في يَعْمَلاتٍ
دَوامي الأيْدِ يَخْبِطْنَ السَّريحا(١)

يقول : إنه قام بسيفه مسرعاً إلى نُوقٍ فعَقَرَهُنَّ وَدَمِيَتْ أيديهنَّ فَخَبَطْنَ السُّيور المشدودة على أرجلهن .

وكاستعارة الفَيْض لانبساط الفجر في قوله :

٣٥٢ ـ • كالفجر فاض على نُجوم الغَيْهَبِ •(٢)

فإن الفيض موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص ، وذلك أن يفارق مكانه دفعة ؛ فينبسط ، وللفجر انبساط شبيه بذلك .

وكاستعارة التقطيع لتفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعض في قوله تعالى : « وقَطَّعْنَاهُمْ في الأرْضِ أُمَماً » (٣) فإن القطع موضوع لإزالة الاتصال بين الأجسام التي بعضها ملتصق ببعض ؛ فالجامع بينهما ازالة الاجتماع التي هي داخلة في مفهومهما ، وهي في القطع أشدُّ .

وكاستعارة الخياطة لسَرْدِ الدِّرْع في قول القُطاميّ :

---

(١) منصلي : سيفي . يعملات : نياق مطبوعة على العمل ، واحدتها يعملة . السريح : السيور من الجلد ، واحدها سريحة ، ويخبطنها : بمعنى يضربنها ضرباً شديداً يحاولن حلها أو قطعها ، ولذلك تدمى أيديهن . وهو لمضرس بن ربعي .

(٢) صدره : • يترا كون على الأسنة في الوغى

يترا كون : يتجمعون ويتزاحمون . والأسنة : الرماح . الوغى : الحرب . الغيهب : الظلمة . والمراد وصفهم بالشجاعة الباسلة . والشاعر البحتري .

(٣) بعض الاية ١٦٨ من سورة الأعراف . الأمم : الجماعات ، واحدها أمة .

٣٥٣ – لم تَلْقَ قوماً هُم شَرٌّ لإخوتهم
مِنَّا عَشيَّةَ يَجْرِي بالدم الوادي(١)
نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بها
ما كان خاط عليهم كُلُّ زَرَّادِ

فإن الخياطة تَضُمُّ خَرْقَ القميص ، والسَّرْد يضم حِلَقَ الدِّرْع ؛ فالجامع بينهما الضم الذي هو داخل في مفهومهما ؛ وهو في الأول أشد.

وكاستعارة النثر لإسقاط المنهزمين وتفريقهم في قول أبي الطَّيِّب :

٣٥٤ – نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً
كما نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ(٢)

لأن النثر أن تُجْمَعَ أشياء في كَفٍّ أو وِعاءٍ ، ثم يقع فعلٌ تتفرَّقُ معه دَفْعَةً من غير ترتيب ونظام ، وقد استعاره لما يتضمن التفرُّق على الوجه المخصوص ، وهو ما اتفق من تساقط المنهزمين في الحرب دفعةً من غير ترتيب ونظام ، ونسبه إلى الممدوح ؛ لأنه سببه .

والثاني ما يكون الجامع فيه غيرَ داخل في مفهوم الطرفين ، كقولك « رأيت شمساً » وتريد إنساناً يَتَهَلَّلُ وَجْهُه ؛ فالجامع بينهما التَّلألُؤ ، وهو غير داخل في مفهومهما .

* * *

١٩٥ – وتنقسم باعتبار الجامع أيضاً إلى عامِّيَّةٍ وخاصِّيَّة .

العامية المبتذلة

فالعامية المُبْتَذَلَة لظهور الجامع فيها ، كقولك : « رأيْتُ أسداً ، ووَرَدْتُ بحراً » .

---

(١) نقريهم : نعطمهم طعام القرى . لهذميات سيوفاً قواطع ، مفردها لهذمي وأصله لهذم وزيدت الياء التي تشبه ياء النسب للمبالغة . نقد : نقطع : الزراد : صانع الزرد ، وهي الدروع .

(٢) نثرتهم : فرقتهم وبعثرتهم . الأحيدب : جبل كانت به الـ[illegible]ـقعة ؛

والخاصية الغريبة التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة ، كما سيأتي في الاستعارات الواردة في التنزيل ، كقول طُفَيْل الغَنَوِيّ :

الخاصية الغريبة

٣٥٥ــ وجعلْتُ كُورِي فوق نَاجِيَــــة
يَقْتَــاتُ شَحْمَ سَنَامِها الرحْلُ(١)

وموضع اللطف والغرابة منه أنه استعار الافْتِياتَ لإذهاب الرَّحْلِ شَحْمَ السَّنام ، مع أن الشحم مما يُقْتات .

وقول ابن المعتز :

٣٥٦ــ حتى إذا ما عرَفَ الصيدَ الضَّــار
وأذِنَ الصبحُ لنــا في الإبصــار(٢)

ولما كان تعذُّر الإبصار مَنْعاً من الليل ، جَعَل إمكانه عند ظهور الصبح إذناً منه .

وقول الآخر :

٣٥٧ــ بعَرْضِ تَنُوفَةٍ للريح فيــــه
نسيمٌ لا يروع التُّرْبَ وانٍ (٣)

وقوله :

٣٥٨ــ يُناجِينيَ الإخلافُ من تحت مَطْلــه
فَتَخْتَصِمُ الآمالُ واليَأسُ في صدري(٤)

ثم الغرابة قد تكون في الشَّبَهِ نفسه ، كما في تشبيه هيئة العنان ــ في

وجوه الغرابة في الاستعارة

(١) الكور : الرحل. الناجية : الناقة السريعة تنجو براكبها : يقتات : يأكل .
(٢) الضار : الضاري ، وهو الكلب المعتاد الصيد المغرى به .
(٣) تنوفة : صحراء . لا يروع : لا يزعج ولا يثير ، وان : ضعيف . وصاحبه سوار بن المضرب .
(٤) يناجيني : يسارني ويحدثني خفية : الاخلاف : عدم الوفاء بالوعد . مطله : تسويفه . تختصم : تتضارب . وقائله ابن المعتز .

موقعه من قَرَبُوسِ السرج – بهيئة الثوب في موقعه من رُكْبَةِ المُحْتَبِيَ في قول يَزِيدَ ابْنِ مَسْلَمَةَ بنِ عبد الملِكِ يَصِف فرساً له بأنه مُؤَدَّبٌ :

٣٥٩ – وإذا احْتَبَى قَرَبُوسُهُ بعِنانِـهِ
عَلَكَ الشَّكِيمَ إلى انصراف الزائر(١)

وقد تحصل بتصرُّفٍ في العامية . كما في قول الآخر :

« وسالَتْ بأعْنَاقِ المَطيِّ الأباطِحُ »(٢)

أراد أنها سارت سَيْراً حَثِيثاً في غاية السرعة . وكانت سرعة في لِينٍ وسَلاسَةٍ حتى كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها .

ومثلها في الحسن وعُلُوِّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول ابن المعتز :

٣٦٠ – سالت عليه شِعابُ الحيِّ حِينَ دَعَـا
أنصــارَهُ بوُجــوه كالدنــانير(٣)

أراد أنه مُطاعٌ في الحي . وأنهم يُسرعون إلى نُصرته . وأنه لا يدعوهم لخطْبٍ إلا أتَوْهُ ، وكَثُرُوا عليه ، وازدحموا حَوَالَيْهِ . حتى تجدهم كالسيول، تجيء من ههنا، وتنصَبُّ من هذا المَسِيل وذاك، حتى يَغَصَّ بها الوادي ويَطفَح منها .

---

(١) احتبى بثوب أو جبل أو شبهه : جعله حبوة ، واشتمل به ، فجعله دائراً حول ظهره وركبتيه ، فصار سناداً له عند الجلوس والحباء حيطان العرب . القربوس: حنو السرج بكسر الحاء ، ويطلق على كل من مقدمه ومؤخره . العنان: سير اللجام . علك : مضغ .الشكيم : حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس ، والبيت ليزيد بن مسلمة بن عبد الملك .

(٢) الشاهد ١٨٧ .

(٣) الشعاب : جمع شعب بكسر الشين ، وهو الطريق في الجبل . الحي : البطن من بطون العرب ، أو محلة القوم .

وهذا شَبَهٌ معروف ظاهر ، ولكن حُسْنَ التصرُّف فيه أفاد اللطف والغرابة وذلك أنْ أسند الفعل إلى الأباطحْ والشّعاب ، دون المَطيِّ أو أعناقِها ، والأنصار أو وجوهِهم ، حتى أفاد أنه امتلأت الأباطحُ من الإبل . والشعابُ من الرجال . على ما تقدم في قوله تعالى: «واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبا » (١) .

وفي كل واحد منهما شيءٌ غيرُ الذي في الآخر يؤكِّد أمرَ الدِّقَة والغرابة :

أما الذي في الأول فهو أنه أدخل الأعناق في السَّيْر ؛ فإن السرعةَ والبطء في سير الإبل يظهران غالباً في أعناقها على ما مر .

وأما الذي في الثاني فهو أنه قال « عليه » فعدَّى الفعلَ إلى ضمير الممدوح بـ « علي » فأكد مقصودَه من كونه مُطاعاً في الحيِّ .

وكما في قوله :

٣٦١ – فَرْعاءُ . إن نَهَضَتْ لحاجتها
عَجِلَ القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ(٢)

إذ وصف القضيبَ بالعجلة ، والدِّعْصَ بالبطء .

وقد تحصل الغرابة بالجمع بين عدَّة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل ، كقول امرِىء القَيْس :

---

(١) بعض الآية ٤ من سورة مريم .

(٢) فرعاء : طويلة الفرع وغزيرته ، والفرع : الشعر . نهضت: قامت . عجل : أسرع . القضيب؛ القامة المستقيمة كالقضيب ، وهو الغصن . الدعص : الردف الشبيه في وثارته وامتلائه بالدعص ، وهو كثيب الرمل .

٣٦٢ـ فقلْتُ لــه لمَّـا تمَطَّى بصُلْبِــه
وأردَفَ أعجازاً ، ونــاء بكَلْكَلِ(١)

أراد وصفَ الليل بالطول ؛ فاستعار له صُلْباً يتَمطَّى به ؛ إذ كان كل ذي صلب يزيد في طوله عند تمطّيه شيء ، وبالغ في ذلك بأن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً ، ثم أراد أن يصفه بالثِّقَل على قلب ساهره ، والضغط لمُكَابِدِه ؛ فاستعار له كَلْكَلاً ينوء به ، أي : يثقل به : وقال الشيخ عبد القاهر : لما جعل لليل صُلباً تمطَّى به ؛ ثنَّى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردفَ بها الصُّلب ، وثلَّث فجعل له كَلْكَلاً قد ناء به ؛ فاستوفى له جملة أركان الشخص ، وراعى ما يراه الناظر من سواه إذا نظر قُدَّامَه ، وإذا نظر خَلْفَه ، وإذا رفع البصر ومدَّه في عرض الجوّ .

• • •

أقسام الاستعارة باعتبار طرفيها والجامع معاً

١٩٦ ـ وأما باعتبار الثلاثة ـ أعني الطرفين ، والجامع ـ فستة أقسام : استعارة محسوس لمحسوس بوجه حِسِّيٍّ ، أو بوجه عقلي ، أو بما بعضه حِسِّيٌّ وبعضه عقلي ، وباستعارة معقول لمعقول ، واستعارة محسوس لمعقول ، واستعارة معقول لمحسو س ، كل ذلك بوجه عقلي ؛ لما مر .

أما استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي فكقوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ » (٢) فإن المستعار منه ولد البقرة ،

---

(١) تمطى : تمدد . صلبه : ظهره . أردف : والى وتابع شيئاً إثر شيء . الأعجاز : المآخير والأرداف . ناء : بعد ، مقلوب نأى ، وهذا يناسب وصف الليل بالثقل على من يقاسيه ، أو نهض إذا نظر إلى ازدياد الضجر من آخر الليل إذا طال ، كما ينتقل ثقل البعير إلى آخره إذا نهض بصدره . الكلكل : الصدر .

(٢) بعض الآية ٨٨ من سورة طه . الجسد : كل خلق لا يأكل ولا يشرب كالملائكة والجن ، وكذلك كان عجل بني إسرائيل . الخور : صوت البقر .

والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حُلِيِّ القِبْطِ التي سَبَكَتْهَا نار السَّامِرِيِّ عند إلقائه فيها التربةَ التي أخذها من مُوطِيء حَيْزُوم فرس جِبرائيلَ عليه السلام ، والجامع لهما الشكل ، والجميع حِسِّي .

وكقوله تعالى: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ»(١) فإن المستعار منه حركة الماء على الوجه المخصوص ، والمستعار له حركة الإنس والجن، أو يَأْجُوج ومَأْجُوجُ،وهما حِسِّيان،والجامع لهما ما يشاهد من شدة الحركة والاضطراب .

وأما قوله تعالى : « واشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً » (٢) فليس مما نحن فيه وإن عُدَّ منه لأن فيه تشبيهين : تشبيه الشيب بشُوَاظِ النار في بياضه وإنارته ، وتشبيه انتشاره في الشعر باشتعالها في سرعة الانبساط مع تعذر تلافيه ، والأول استعارة بالكناية ، والجامع في الثاني عقلي ، وكلامُنا في غيرهما .

وأما استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي فكقوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ » (٣) فإن المستعار فيه كَشْط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها ، والمستعار له إزالة الضوء عن مكان الليل ومَلْقَى ظله ، وهما حسيان ، والجامع لهما ما يعقل من تَرَتُّب أمر على آخر .

وقيل : المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، وليس بسديد ؛ لأنه لو كان ذلك لقال : « فإذا هم مبصرون » ونحوه . ولم يقل : « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » (٣) أي : داخلون في الظلام .

---

(١) بعض الآية ٩٩ من سورة الكهف .

(٢) بعض الآية ٤ من سورة مريم .

(٣) بعض الآية ٣٧ من سورة يس .

قيل : ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ »(١) فإن المستعار منه المرأة ، والمستعار له الريح ، والجامع المنبع من ظهور النتيجة والأثر ؛ فالطرفان حسيان ، والجامع عقلي .

وفيه نظر ؛ لأن العقيم صفة للمرأة لا اسم لها ، وكذلك جُعِلَتْ صفةً للريح لا اسماً .

والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع من الحمل ، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر وإلقاح شجر ، والجامع لهما ما ذُكِر .

وأما استعارة محسوس لمحسوس بما بعضه حسي وبعضه عقلي فكقولك : « رأيتُ شمساً » وأنت تريد إنساناً شبيهاً بالشمس في حسن الطلعة ونباهة الشأن ، وأهمل السكاكي هذا القسم .

وأما استعارة معقول لمعقول فكقوله تعالى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » ؟ (٢) فإن المستعار منه الرقاد ، والمستعار له الموت ، والجامع لهما عدم ظهور الأفعال ، والجميع عقلي .

وأما استعارة محسوس لمعقول فكقوله تعالى : «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»(٣) فإن المستعار منه صَدْع الزجاجة — وهو كسرها — وهو حسي ؛ والمستعار له تبليغ الرسالة ، والجامع لهما التأثير ، وهما عقليان كأنه قيل : أَبِنِ الأمرَ إبانةً لا تنمحي كما لا يلتئم صدع الزجاجة .

وكقوله تعالى : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ » (٤) جُعِلَتْ الذلةُ

---

(١) بعض الآية ٤١ من سورة الذاريات .
(٢) بعض الآية ٥٢ من سورة يس .
(٣) بعض الآية ٩٤ من سورة الحجر .
(٤) بعض الآية ٦١ من سورة البقرة ، ١١٢ من سورة آل عمران .

مُحيطةٌ بهم مشتملةٌ عليهم ؛ فهم فيها كما يكون في القبة مَنْ ضُرِبتْ عليه ، أو مُلْصَقةٌ بهم حتى لزمتهم ضربةَ لازبٍ كما يضرب الطين على الحائط ؛ فيلزمه ؛ فالمستعار منه إما ضرْبُ القُبّة على الشخص ، وإما ضرْبُ الطين على الحائط ، وكلاهما حسي ، والمستعار له حالهم مع الذلة ، والجامع الإطاحة ، أو اللزوم ، وهما عقليان .

وأما استعارة معقول لمحسوس ، فكقوله تعالى : « إنَّا لمَّا طغى الماء »(١) فإن المستعار له كثْرة الماء وهو حسي ، والمستعار منه التكبُّر ، والجامع الاستعلاء المفْرِطُ ، وهما عقليان .

أقسامها باعتبار اللفظ

١٩٧ ــ وأما باعتبار اللفظ فقسمان :

الأصلية

لأنه إن كان اسم جنس فأصْليةٌ ، كأسد ، وقتْل .

التبعية

وإلا فتبعيةٌ ، كالأفعال والصفات المشتقة منها ، والحروف ؛ لأن الاستعارة تعتمد التشبيه ، والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفاً ، وإنما يصلح للموصوفية الحقائق ، كما في قولك : جسم أبيض ، وبياض صافٍ دون معاني الأفعال ، والصفات المشتقة منها ، والحروف .

فإن قلت : فقد قيل في نحو « شُجاع باسل وجواد فيّاض وعالم نِحْرِير » إنَّ « باسلا » وصف لـ « شجاعٍ » و « فياضاً » وصف لـ « جواد » و « نحريراً » وصف لـ « عالم » .

قلت : ذلك مُتأوَّل بأن الثواني لا تقع صفاتٍ إلا لما يكون موصوفاً بالأول .

فالتشبيه في الأفعال والصفات المشتقة منها لمعاني مصادرها ، وفي الحروف لمتعلَّقات معانيها ، كالمجرور في قولنا : زيد في نعمة ورَفاهية

---

(١) بعض الآية ١١ من سورة الحاقة .

فيقدر التشبيه في قولنا : « نطقتِ الحال بكذا » والحال ناطقة بكذ للدلالة بمعنى النطق .

وعليه في التهكمية قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ » (١) بدل « فأنذرهم » وقوله تعالى : « إنّكَ لأنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ » (٢) بدل « السفيه الغوي » . .

وفي لام التعليل كقوله تعالى : « فالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَناً » (٣) للعداوة والحزن الحاصلين بعد الالتقاط . بالعِلة الغائيّة للالتقاط .

ومما يتصل بهذا أن « يا » حرفٌ وُضِعَ في أصله لنداء البعيد ، ثم استُعمِل في مناداة القريب ؛ لتشبيهه بالبعيد ، باعتبار أمر راجع إليه ، أو إلى المنادى .

أما الأول فكقولك لمن سها وغفل وإن قرُبَ : يا فلان .

وأما الثاني فكقول السائل في جُؤارة : « يا ربّ يا ألله » وهو أقرب إليه من حبل الوريد ؛ فإنه استقصار منه لنفسه ، واستعباد لها من مظانّ الزُّلْفَى وما يُقَرِّبه إلى رضوان الله تعالى ، ومَنازل المقربين ، هَضماً لنفسه ، وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله تعالى ، مع فَرْط التهالُك على استجابة دعوته ، والإذن لندائه وابْتهالِه .

* * *

قرينة التبعية

١٩٨ ـ واعلم أن مدار قرينة التبعية في الأفعال والصفات المشتقة منها

(١) بعض الآية ٢١ من سورة آل عمران ، ٣٤ من سورة التوبة . الآية ٢٤ من سورة الانشقاق .

(٢) بعض الآية ٨٧ من سورة هود .

(٣) بعض الآية ٨ من سورة القصص .

على نسبتها إلى الفاعل ، كما مر في قولك « نطقت الحال » أو إلى المفعول ، كقول ابن المعتز :

٣٦٣ — جُمِـعَ الحقُّ لنـا في أمام
قَتَلَ البُخْـلُ وأحْيـا السّماحـا

وقول كَعْبِ بن زُهَيْرٍ :

٣٦٤ — صَبَحْنَا الخزْرَجِيّةَ مُرْهَفات
أباد ذَوِيّ أَرُومَتِها ذَوُوها (١)

والفرق بينهما أن الثاني مفعول ثانٍ ، دون الأول .

ونظير الثاني قوله :

نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيّاتٍ نَقُدُّ بها
ما كان خاط عليهم كلُّ زَرّاد (٢)

أو إلى المفعولين الأول والثاني ، كقول الحريري :

٣٦٥ — وأقْرِي المَسَامعَ إمّا نَطَقْتُ
بَياناً يقود الحَرُونَ الشّمُوسا (٣)

أو إلى المجرور ، كقوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ » (٤) .

---

(١) صبحناهم : سقيناهم الصبوح ، وهو شراب الصبح . الخزرجية : قبيلة الخزرج ، وكانت على خلاف دائم مع الأوس بيثرب قبل الإسلام . مرهفات : سيوفاً مرققات مشحوذات . أباد : أهلك واستأصل ، ويروى « أبار » أرومتها : أصلها .

(٢) الشاهد ٣٥٣ .

(٣) الحرون : الشموس ، الصعب الذي لا ينقاد ، والحريري : صاحب المقامات أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥١٦ .

(٤) بعض الآية ٢١ من سورة آل عمران ، ٣٤ من سورة التوبة ، الآية ٢٤ من سورة الانشقاق .

قال السكاكي : أو إلى الجميع ، كقول الآخر :

٣٦٦ ـ تَقْرِي الرياحُ رياضَ الحَزْنِ مُزْهِرَةً
إذا سَرَى النومُ في الأجفان إيقاظا (١)

وفيه نظر .

• • •

تقسيم الاستعارة باعتبار الخارج

١٩٩ ـ وأما باعتبار الخارج فثلاثة أقسام :

المطلقة

أحدها : المطلقة ، وهي التي لم تقترن بصفة ولا تفريع كلام . والمراد المعنوية لا النعت .

المجردة

وثانيها : المجردة ، وهي التي قُرِنَتْ بما يلائم المستعار له ، كقول كثيّر :

٣٦٧ ـ غَمْرُ الرِّداء ، إذا تَبسّم ضاحكا
غَلِقَتْ لضحكته رِقابُ المال (٢)

فإنه استعار الرداء للمعروف ؛ لأنه يصون عِرْضَ صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه ، ووصفه بالغمر الذي وصف المعروف لا الرداء ؛ فنظر إلى المستعار له .

وعليه قوله تعالى : « فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ » (٣) حيث قال : « أذاقها » ولم يقل « كساها » فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استُعير له اللباس ، كأنه قال : « فأصابها الله بلباس الجوع والخوف» .

---

(١) الحزن : الأرض الغليظة ، والغالب أن تكون مرتفعة ، الأجفان هنا: أكمام الزهر الشبيهة بالأجفان .

(٢) غمر : كثير ، أو واسع . الرداء : العطاء الشبيه بالرداء في صون العرض وستر العيوب. غلقت : انتقل ملكهم إلى أيدي السائلين ، كما ينتقل ملك الرهن الى المرتهن إذا غلق أي عجز صاحبه عن افتكاكه . والبيت لكثير .

(٣) بعض الآية ١١٢ من سورة النحل .

قال الزمخشري : الإذاقة جرت عندهم مجرى الحقيقة ؛ لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسُّ الناس منها ؛ فيقولون : ذاق فلان البؤس والضرَّ . وأذاقه العذاب ، شُبِّه ما يُدْرَك من أثر الضر والألم بما يُدْرَك من طعم المر والبَشع .

فإن قيل : الترشيح أبلغ من التجريد ، فهلا قيل : فكساها الله لباس الجوع والخوف ؛ قلنا ؛ لأن الأدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ؛ فكان في الإذاقة إشعارٌ بشدة الإصابة ، بخلاف الكسوة.

فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ؟ قلنا : لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة ؛ فهو مُفَوِّتٌ لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميعَ البدنِ عُمومَ الملابس .

وثالثها : المرشحة ، وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه ، كقوله : المرشحه

٣٦٨ — يُنازعني رِدائي عبدُ عَمْرٍو
رُوَيْدَكَ يا أخا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ(١)
لِيَ الشَّطْرُ الذي ملكتْ يميني
ودونَك ؛ فاعتَجِرْ منه بِشَطْرِ

إنه استعار الرداء للسيف لنحو ما سبق ، وَوَصَفَه بالاعتجار الذي هو وَصْفُ الرداء ؛ فنظر إلى المستعار منه .

وعليه قوله تعالى : « أولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدى »

---

(١) ينازعني : يجاذبني ويحاول نزعه مني . ردائي : سيفي الذي يصون عرضي كما يصون الثوب . رويدك : اسم فعل أمر بمعنى « تمهل » الشطر : الجزء . دونك : اسم فعل بمعنى خذ . اعتجر : أدره بالضربة حول رأسك ولفه كما تلف العمامة والمعجر .

فمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم » (١) فإنه استعار الاشتراء للاختيار ، وقفّاه بالربح والتجارة اللذين هما من مُتعلّقات الاشتراء ؛ فنظر إلى المستعار منه .

وقد يجتمع التجريد والترشيح كما في قول زُهَيْرٍ :

لَدَى أسَدٍ شاكي السلاح مُقَذَّف
له لِبَدٌ أظفاره لم تُقَلَّمِ (٢)

والترشيح : أبلغ من التجريد ؛ لاشتماله على تحقيق المبالغة ، ولهذا كان مُبناه على تَناسي التشبيه : حتى إنه يُوضَع الكلامُ في عُلُوِّ المنزلة وَضْعَه في عُلُوِّ المكان كما قال أبو تمام :

٣٦٩ ـ وَيَصْعَدُ حتّى يَظُنَّ الجَهُولُ
بأن له حاجةً في السما (٣)

فلولا أنَّ قَصْدَه أنْ يَتَنَاسَى التشبيهَ ، ويُصَمِّمَ على إنكاره فيجعله صاعداً في السماء من حيث المسافة المكانية ؛ لَمَا كان لهذا الكلام وَجْهٌ .

وكما قال ابن الرومي :

٣٧٠ ـ يا آلَ نُوبَخْتَ ، لاعَدِمْتُكُمُ
ولَا تَبَدَّلْتُ بَعْدَكُمْ بَدَلا (٤)

---

(١) بعض الآية ١٦ من سورة البقرة .

(٢) الشاهد ٣٣٥ .

(٣) يصعد : يعلو قدراً ويسمو منزلة .

(٤) آل نوبخت : أسرة اشتغلت بعلم الفلك والنجوم في العصر العباسي ، وجدهم نوبخت كان منجماً للخليفة المنصور . لا عدمتكم : لا فقدتكم . تبدلت منه بدلا : اتخذت غيره بديلا منه . انتحل : ادعى لنفسه ما لغيره . قاس قدروحسب ، شافهتم البدر : حدثتموه فاكم إلى فيه . زحل : كوكب معروف .

إن صحَّ عِلمُ النجوم ، كان لكم
حقّاً إذا ما سِواكُمُ انتَحلا

كم عالِمٍ فيكُمُ وليس بِأنْ
قاسَى ولكِنْ بِأنْ رقى فعَلا !!

أعلاكُمُ في السماء مَجدُكُمُ
فلستُمُ تَجهلـون ما جهـلا

شافهتُمُ البدرَ بالسؤال عن الـ
أمر إلى أن بلَغتُمُ زُحَـلا

وكما قال بَشّارٌ :

٣٧١ ـ أتتني الشمسُ زائـرةً
ولم تَكُ تَبرَحُ الفَلَكَـا (١)

وكما قال أبو الطيِّبِ :

٣٧٢ ـ كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيارهم لما بَدَتْ
منها الشموسُ وليس فيها المَشْرِقُ (٢)

وكما قال :

٣٧٣ ـ ولم أرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البدرُ نحوَه
ولا رجلا قامت تُعانِقُه الأسدُ (٣)

ومن هذا الفن ما سبق من التعجب والنَّهْيِ عنه ، غير أن مذهب التعجب على عكس مذهب النهي عنه ؛ فإن مذهب التعجب إثباتُ وصفٍ يمتنع ثُبوتُه للمستعار منه ، ومذهب النهي عنه إثباتُ خاصَّةٍ من خوَّاصِّ المستعار منه .

---

(١) تبرح : تفارق . الفلك : مدار النجوم .
(٢) كبرت ، قلت تعجباً « الله أكبر » .
(٣) قائله المتنبي .

وإذا جازَ البناء على المشبه به مع الاعتراف بالمشبه . كما في قول العبّاس بن الأحْنَفِ :

٣٧٤ ــ هي الشمسُ مَسكنُها في السماء
فعزّ الفؤادَ عَزاءً جميلا(١)
فلن تستطيعَ إليها الصُّعودَ
ولن تستطيع إليك النزولا

وقول سعيد بن حميد :

٣٧٥ ــ قُلْتُ : زُورِي ، فأرسلت :
أنا آتيكَ سُحْرَهْ (٢)
قلتُ : فالليل كان أخفى وأدنى مسرّهْ
فأجابَتْ بحُجّةٍ زادت القلب حَسْرَهْ
أنا شمسٌ . وإنّما تطلعُ الشمس بُكْرَهْ

فَلأنْ (٣) يجوزَ مع جَحْدِه في الاستعارة أوْلى .

ومن هذا الباب قول الفَرَزْدَقِ :

أبِي أحْمَدُ الغيثين صَعْصَعَةُ الذي
متى تُخْلِفِ الجَوْزاءُ والدَّلْوُ يُمْطر(٤)

---

(١) عز : صبر . عزاء : صبرا .

(٢) سحرة : آخر الليل . وسعيد بن حميد : كاتب شعوبي من كتاب العصر العباسي .

(٣) الفاء داخلة على جواب « إذا » في قوله « وإذا جاز البناء » أول الفقرة .

(٤) أحمد الغيثين : أحقهما بالحمد والثناء . تخلف الجوزاء : تطمع في المطر ثم لا تفي . الجوزاء ، والدلو : برجان من اثني عشر برجا في السماء تتنقل فيها الشمس ، فإذا حلت هذين كثر المطر ، يمطر : يعطي عطاء كثيراً كالمطر . الوائدين : الدافنين بناتهم حيات خوف الإملاق ، أو العار ، أو خوفهما . من يجر : الذي يحمي . مخفر بصيغة اسم الفاعل من المزيد بالهمزة : غادر ، ناقض للعهد .

أجارَ بَناتِ الوائلين ، ومَنْ يُجِرْ
على الموتِ ، فاعلم أنه غيرُ مُخْفِرِ

ادّعَى لأبيه اسمَ الغيث ، ادّعاء من سُلِّم له ذلك ، ومَنْ لا يَخطِر بباله أنه مُتناولٌ له من طريق التشبيه .

وكذلك قول عَدِيِّ بْنِ الرِّقاع يصف حِمارَيْنِ وَحْشِيَّيْنِ :

٣٧٧ — يتعاوَران من الغُبار مُلاءةً
بيضاء مُحكَمَةً هما نَسَجاها(١)
تُطوَى إذا وردا مكاناً مُحْزِناً
وإذا السّنابكُ أسْهَلَتْ نَشَراها

• • •

(١) يتعاوران : يتداولان ويتبادلان . محزناً: صلباً لا تراب فيه . السنابك أطراف حوافر الخيل . أسهلت : وجدت أرضاً سهلة .

المجاز المركب

تعريفه ٢٠٠ - وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمَل فيما شبِّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي : تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمْرَين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبَّهة في جنس المشبه بها ، مُبالَغَة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه .

أمثلة له كما كتب به الوَليدُ بنُ يزيدَ - لمّا بُويِعَ - إلى مَرْوانَ بْنِ محمد ، وقد بلغه أنه مُتَوَقِّفٌ في البيعة له : « أما بعدُ ، فإني أراك تقدِّم رِجْلاً ، وتؤخِّر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فاعتمد على أيِّهما شئتَ ، والسلامُ » .

شبّه صورة تَردُّدِه في المبايعة بصورة تردُّدِ مَنْ قام ليذهب في أمر ، فتارةً يريد الذهاب فيقدّم رِجْلاً ، وتارةً لا يريد فيؤخر أخرى .

وكما يقال لمن يعمل في غير مَعْمَل : « أراك تَنفُخ في غير فحم ، وتَخُطُّ على الماء » والمعنى : إنك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يُعْمِل الحيلة حتى يُميل صاحبَه إلى ما كان يمتنع منه « ما زال يَفْتِل منه في الذِّرْوَة والغارِب حتى بلَغ منه ما أراد » والمعنى أنه لم يزَل يرفُق بصاحبه رِفْقاً يشبه حالُه فيه حالَ مَنْ يَجيء إلى البعير الصعب ، فيحُكه ، ويَفْتِل الشَعْرَ في ذِرْوَته وغارِبه حتى يسكُن ويَستأنس ، وهذا في المعنى نظير قولهم : « فُلانٌ يُقَرِّدُ فُلاناً » أي : يتلطف به ، فِعْلَ مَنْ يَنْزِعُ القُرادَ مِنَ البعير ، ليَلْتَذَّ بذلك ، فيسكُن ، ويثبت في مكانه ، حتى يتمكن من أخذه .

وكذا قوله تعالى : « يَـٰأيُّها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ »(١) فإنه لما كان التقدم بين يدي الرجل خارجاً عن صفة المُتَابِعِ له ؛ صار النهي عن التقدم مُتعلِّقاً باليدين مَثَلاً للنهي عن ترك الاتّباع .

وكذلك قوله تعالى: «والأرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢) إذ المعنى – والله أعلم – أن مَثَلَ الأرض في تصرفها تحت أمر الله تعالى وقدرته مَثَلُ الشيء يكون في قبضة الآخذ له منّا ، والجامعِ يَدَه عليه . وكذا قوله تعالى : « والسَّمَوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ »(٢) أي : يخلق فيها صفة الطّيِّ حتى تُرَى كالكتاب المطْوِيِّ بيمين الواحد منّا ، وخصَّ اليمين ليكون أعلى وأفخم للمثل ؛ لأنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتي لا غناء للأخرى دونها ، فلا يَهَش إنسان لشيء إلا بدأ بيمينه فهيّأها لنيله ؛ ومتى قُصِدَ جَعْلُ الشيء في جهة العناية جُعِلَ في اليد اليمنى ، ومتى قُصِد خلافُ ذلك جُعِلَ في اليُسْرَى ، كما قال ابن مَيَّادَةَ :

٣٧٨ – ألم تكُ في يمنى يديكَ جَعَلْتَنِي ؟
فلا تجعلَنِّي بعدها في شِمالكـــا

أي : كنتُ مكرما عندك ؛ فلا تجعلني مُهاناً ، وكنت في المكان الشريف منك ؛ فلا تَحُطّني في المنزل الوضيع .

وكذا إذا قلتَ للمخلوق : « والأمر بيدك » أردتَ المَثَلَ ، أي : الأمر كالشيء يحصل في يدك ؛ فلا يمتنع عليك :

وكذا قوله تعالى : « وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ » (٣)

---

(١) بعض الآية ١ من سورة الحجرات .
(٢) بعض الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٣) بعض الآية ١٥٤ من سورة الأعراف .

قال الزمخشري : كأن الغضب كان يُغْريه على ما فعل ، ويقول له : « قُلْ لقومك كذا . وألْقِ الألواحَ ، وجُرَّ برأس أخيك إليك » فترَكَ النطقَ بذلك . وقَطَعَ الإغراء ؛ ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم . وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيلِ شُعَبِ البلاغة ، وإلا فما لقراءة مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ « ولما سكن عن موسى الغضب » لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهِزَّة وَطَرَفا من تلك الرَّوْعة ؟

وأما قولهم : « اعتصمت بحبله » فقال الزمخشري أيضاً يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ، ووُثوقه بحمايته ؛ باستمساك المتدلي من مكان مرتفع ، بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، وأن يكون الحبل استعارةً لعهده ؛ والاعتصامُ لوثوقه بالعهد أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه .

وكذلك قول الشَّمَّاخِ :

إذا ما رَايَـــةٌ رُفِعَـــتْ لمجد
تلقَّاها عَرَابَـــةُ باليمـــين(١)

الشبه فيه مأخوذ من مجموع التلقّي واليمين ، على حدِّ قولهم : تلقّيْتُه بكلْتا اليدين ؛ ولهذا لا تَصْلُحُ حيث يُقْصد التجوُّز فيها وحدَها ؛ فلا يقال : « هو عظيم اليمين » بمعنى « عظيم القدرة » ولا « عرفتُ يمينكَ على هذا » بمعنى « عرفتُ قُدرتك عليه » .

ومثله قول الآخر (٢) :

٣٧٩ ـ هَوِّنْ عليكَ ؛ فإن الأمـــور
بِكَـــفِّ الإلـــه مقاديرُهـــا

---

(١) الشاهد ٢٢٥ .
(٢) هو الأعور الشني .

وكذا ما رَوَى أبو هُرَيرَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أحدكم إذا تصدق بالتمر من الطَّيِّب – ولا يقبل الله إلا الطيّب – جعل الله ذلك في كفه ، فيُرَبِّيها كما يُرَبِّي أحدُكم فِلْوَهُ ، حتى يبلغ بالتمرة مِثْلَ أُحد(١) » والمعنى فيهما على انتزاع الشبه من المجموع .

كل هذا من الاستعارة التمثيلية

وكل هذا يُسَمَّى التمثيل على سبيل الاستعارة ، وقد يُسَمَّى التمثيلَ مُطلقاً ، ومتى فشا استعمالُه كذلك سُمِّي مَثَلاً ؛ ولذلك لا تُغَيَّر الأمثال .

مثل أخرى

ومما يُبنَى على التمثيل نحو قوله تعالى : « إنَّ في ذلكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »(٢) معناه : لمن كان له قلب ناظر فيما ينبغي أن يُنْظَرَ فيه، واعٍ لما يجب وَعْيُه، ولكن عُدِلَ عن هذه العبارة ونحوها إلى ما عليه التلاوة بقصد البناء على التمثيل ؛ ليفيد ضرباً من التخييل ؛ وذلك أنه لما كان الإنسان حين لا ينتفع بقلبه ؛ فلا ينظر فيما ينبغي أن يُنْظَرَ فيه ، ولا يفهم ، ولا يَعِي ، جُعِلَ كأنه قد عَدِمَ القلبَ جُمْلَةً ، كما جُعِلَ مَنْ لا ينتفع بسَمْعِه وبصره ؛ فلا يفكر فيما يُؤَدِّيان إليه بمنزلة العادم لهما ، ولزم على هذا أن لا يقال : « فلان له قلب » إلا إذا كان ينتفع بقلبه ؛ فينظر فيما ينبغي أن يُنْظَرَ فيه ويعي ما يجب وَعْيُه ، فكان في قوله تعالى : « لمن كان له قلب » تخييلُ أن مَنْ لم ينتفع بقلبه كالعادم للقلب جُمْلَةً ، بخلاف نحو قولنا : لمن كان له قلب ناظر فيما ينبغي أن ينظر فيه ، واعٍ لما يجب وعيه .

وفي نظم الآية فائدة أخرى شريفة ، وهي تقليل اللفظ مع تكثير المعنى

ونقل الشيخ عبد القاهر عن بعض المفسرين أنه قال : المراد بالقلب

---

(١) فلوه : مهره ، على وزن « شلو » أو « عدو » أو « سمو » وانظر أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر (ص ٣١٤ طبع المنار) .

(٢) بعض الآية ٣٨ من سورة ق .

العقلُ ، ثم شدّد عليه النكير في هذا التفسير ، وقال : وإن كان المرجعُ فيما ذكرناه عند التحصيل إلى ما ذكره ، ولكن ذهب عليه أن الكلام مَبْنِيٌّ على تخييل أن من لا ينتفع بقلبه – فلا ينظر ، ولا يعي – بمنزلة مَنْ عُدِمَ قلبه جملةً ، كما تقول في قول الرجل إذا قال « قد غاب عنّي قلبي » أو « ليس يحضرني قلبي » : إنه يريد أن يُخيِّل إلى السامع أنه غاب عنه قلبه بجملته ، دون أن يريد الإخبار أن عقله لم يكن هناك ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك ، وكذا إذا قال « لم أكن هاهنا » يريد غفلته عن الشيء ؛ فهو يضع كلامه على التخييل .

هذا معنى كلام الشيخ ، وهو حق ؛ لأن المراد بالآية الحثُّ على النظر ، والتقريعُ على تركه ؛ فإن أراد هذا المفسِّر بتفسيره أن المعنى لمن كان له عقل مطلقاً فهو ظاهر الفساد ، وإن أراد أن المعنى لمن كان له عقل ينتفع به ويُعْمِلُه فيما خلق له من النظر فتفسير القلب بالعقل ، ثم تقييد العقل بما قيّده ، عُرِيٌّ عن الفائدة ؛ لصحة وصف القلب بذلك ؛ بدليل قوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا » (١) .

٢٠١ – واعلم أن المثل السائر لما كان فيه غرابةٌ ، استعير لفظة « المثل » للحال ، أو الصفة ، أو القصة ، إذا كان لها شأن وفيها غرابة .

وهو في القرآن كثير ، كقوله تعالى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً » (٢) أي : حالُهم العجيب الشأن كحال الذي استوقد ناراً ، وكقوله تعالى ، « وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى » (٣) أي : الوصف الذي

---

(١) بعض الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٢) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ٦٠ من سورة النحل .

له شأن من العظمة والجلالة . وقوله تعالى : « مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاةِ »(١) أي صفتهم وشأنهم المُتَعَجَّب منه . وكقوله تعالى : « مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ »(٢) أي : فيما قصصنا عليك من العجائب قِصَّةُ الجنة العجيبة . ثم أخذ في بيان عجائبها . إلى غير ذلك .

• • •

(١) بعض الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٢) بعض الآية ١٥ من سورة محمد .

فصل

في بيان الاستعارة بالكناية ، والاستعارة التَّخْييليَّة

المكنية والتخييلية

٢٠٢ ــ قد يُضمَر التشبيه في النفس ؛ فلا يُصرَّح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ، ويُدَلُّ عليه (١) بأن يُثْبَتَ للمشبه أمرٌ مُختصٌ بالمشبه به ، من غير أن يكون هناك أمرٌ ثابت حِسّاً أو عقلاً أُجْرِيَ عليه اسمُ ذلك الأمر ؛ فيُسَمَّى التشبيهُ استعارةً بالكناية ، أو مَكْنياً عنها ، وإثباتُ ذلك الأمر للمشبه استعارةً تخييلية ، والعَلَمُ في ذلك قول لَبِيدٍ :

٣٨٠ ــ وغَداةِ رِيحٍ قد كشفْتُ وقِرَّةٍ
إذ أصبحتْ بِيَدِ الشَّمال زِمامُها(٢)

فإنه جعل للشَّمال يَداً ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً تجري اليد عليه ، كإجراء الأسد على الرجل الشجاع ، والصِّراطِ على مِلَّة الإسلام فيما سبق ، ولكن لما شَبَّه الشَّمال ــ لتصريفها القِرَّة على حكم طبيعتها في التصريف ــ بالإنسان المصرِّف لِمَا زِمامُه بيده ؛ أثبتَ لها يداً على سبيل التخييل ؛ مُبالغةً في تشبيهها به ، وحكم الزمام ــ

---

(١) عليه : أي على التشبيه المضمر في النفس .

(٢) كشفت : هزمت وأزلت وتغلبت عليها ، ويروى : وزعت ، وكففت ، وكلاهما بمعنى واحد ، والقصد في الجميع أنه لغناه يستطيع أن يتغلب على شدة الشتاء . قرة : قر ، برد . الشمال : الريح الهابة من جهة الشمال ، وهي أبرد الرياح . زمامها : قيادها . والبيت من معلقة لبيد بن ربيعة .

في استعارته للقِرَّة — حكم اليد في استعارتها للشَّمال ، فجعل للقِرَّة زِماما ؛ ليكون أتمَّ في إثباتها مُشَرَّفَةً ، كما جعل للشَّمال يَداً ، ليكون أبلغ في تصييرها مُتصرِّفةً ؛ فوفَّى المبالغةَ حقَّها من الطرفين ؛ فالضمير في « أصبحت » و « زِمامها » للقِرَّة ، وهو قول الزمخشري . والشيخ عبد القاهر جعله للغداة ، والأول أظهر .

٢٠٣ — واعلم أن الأمر المختصَّ بالمشبه به المثبتَ للمشبه ؛ منه ما لا يكمل وجه الشبه في المشبه به بدونه ، كما في قول أبي ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيِّ :

٣٨١ — وإذا المَنِيَّــةُ أنشبَتْ أظفارَهــا
ألفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَـعُ(١)

فإنه شبه المنية بالسبع ، في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة ، من غير تفرقة بين نَفَّاعٍ وضَرَّارٍ ، ولا رِقَّةٍ لمرحوم ، ولا بُقْيا على ذي فضيلة ؛ فأثبت للمنية الأظفار التي لا يكمل ذلك في السبع بدونها ؛ تحقيقاً للمبالغة في التشبيه .

ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه في المشبه به ، كما في قول الآخر :

٣٨٢ — ولَئِنْ نَطَقْتُ بِشكرِ بِرِّكَ مُفْصِحاً
فلسانُ حالي بالشِّكَايَةِ أَنْطَـقُ(٢)

فإنه شبه الحالَ الدالَّةَ على المقصود بالإنسان متكلِّم في الدلالة ؛ فأثبت لها اللسانَ الذي به قوام الدلالة في الإنسان .

---

(١) أنشبت أظفارها : أعلقتها بها وأعمدتها فيها . ألفيت : وجدت . التميمة : الخرزة وشبهها يستدفعون بها الآفات ويتعوذون بها من شر العين . والبيت من قصيدة يرثي بها أبو ذؤيب أبناءه الخمسة وقد ثكلهم في عام ، واسم أبي ذؤيب : خويلد بن خالد بن محرث بن زيد بن مخزوم ، شاعر مخضرم .

(٢) فلسان : هكذا يروى مع أنه جواب للقسم السابق على الشرط بدلالة وهو اللام في له « لئن » .

وأما قول زُهَيْرٍ :

٣٨٣ ـ صَحا القلْبُ عن سَلْمَى وأقْصَرَ باطِلُهْ
وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورَوَاحِلُهْ(١)

فيحتمل أن يكون استعارة تخييلية ، وأن يكون استعارة تحقيقية .

أما التخييل فأن يكون أراد أن يُبَيِّن أنه ترك ما كان يرتكبه أوَانَ المحبة من الجهل والغَيِّ وأعرض عن مُعاوَدته ؛ فتعطَّلَت آلاتُه كأيٍّ أمر وطَّنْتَ النفسَ على تركه ، فإنه تُهمَلُ آلاتُه : فتتعطَّل ؛ فشبه الصبا بجهة من جهات المَسيرِ ـ كالحج والتجارة ـ قُضِيَ منها الوَطَرُ ؛ فأهْمِلَتْ آلاتُها ؛ فتعطلت ؛ فأثبَتَ له الأفراسَ والرواحِلَ ؛فالصِّبا على هذا من الصَّبْوة بمعنى الميل إلى الجهلِ والفُتُوَّة لا بمعنى الفَتَاء .

وأما التحقيق فأن يكون أراد دَواعِيَ النفوس ، وشَهَوَاتها ، والقُوَى الحاصلةَ لها في استيفاء اللَّذَّاتِ ، أو الأسباب التي قلما تتآخذ في اتِّباع الغَيِّ إلا أوَانَ الصِّبا .

---

(١) صحا : سلا سلوا شبيه صحوه وانتباهه . أقصر : كف وامتنع . الصبا : جهلة الفتوة . رواحله : ركائبه .

فصل

في آراء للسكاكي في الحقيقة والمجاز

٢٠٤ ــ اعلم أن كلام السكاكي في هذا الباب ــ أعني باب الحقيقة والمجاز ــ والفصل الذي يليه ؛ مخالف لمواضع مما ذكرنا ؛ فلا بدّ من التعرض لها ؛ ولبيان ما فيها .

الحقيقة اللغوية عند السكاكي

منها : أنه عرفَ الحقيقة اللغوية بالكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، وقال : إنما ذكرتُ هذا القيد ــ يعني قوله من غير تأويل في الوضع ــ ليُحترَز به عن الاستعارة : ففي الاستعارة تُعَدُّ الكلمةُ مستعملةً فيما هي موضوعةٌ له على أصح القولين ولا نُسمِّيها حقيقةً ، بل نسميها مجازاً لغوياً ؛ لبناء دعوى المستعار موضوعاً للمستعار له على ضرب من التأويل كما مر .

المجاز اللغوي عنده

ثم عرَّفَ المجازَ اللغويَّ بالكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع ، وقال : قولي « بالتحقيق » احترازٌ أن لا تخرج الاستعارة ، التي هي من باب المجاز ، نظراً إلى دعوى استعمالها فيما هي موضوعةٌ له على ما مر .

وقوله : « استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها» بمنزلة قولنا في تعريف المجاز « في اصطلاح به التخاطب » على ما مر ؛ وقوله : « مع قرينة إلخ » احتراز عن الكناية كما تقدم .

نقاش

وفيهما نظر ؛ لأن لفظ الوضع ، وما يشتق منه ؛ إذا أطلِق لا يُفهَم

منه الوضع بتأويل ، وإنما يُفْهَم منه الوضع بالتحقيق ؛ لما سبق من تفسير الوضع ؛ فلا حاجة إلى تقييد الوضع في تعريف الحقيقة بعدم التأويل وفي تعريف المجاز بالتحقيق ، اللّهُمَّ إلا أن يُراد زيادةَ البيان ، لا تتميم الحد .

ثم تقييد الوضع باصطلاح التخاطب ونحوه ؛ إذا كان لا بُدَّ منه في تعريف المجاز ؛ ليدخل فيه نحو لفظ « الصلاة » — إذا استعملها المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازا — فلا بد منه في تعريف الحقيقة أيضا ؛ ليخرج نحو هذا اللفظ منه كما سبق ، وقد أهمله في تعريفها .

لا يقال : قوله في تعريفها « من غير تأويل في الوضع » أغنى عن هذا القيد ؛ فإن استعمال اللفظ فيما وضع له في غير اصطلاح التخاطب إنما يكون بتأويل في وضعه ؛ لأن التأويل في الوضع يكون في الاستعارة على أحد القولين ، دون سائر أقسام المجاز ، ولذلك قال : وإنما ذكرتُ هذا القيد ليُحْتَرَز به عن الاستعارة .

ثم تعريفه للمجاز يدخل فيه الغلط كما تقدم .

المجاز بالاستعارة عند السكاكي

ومنها : أنه قسم المجاز إلى الاستعارة وغيرها ، وعرف الاستعارة بأن تَذكُرَ أحدَ طرَفَيِ التشبيه وتُريدَ به الطرفَ الآخر مُدَّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ، وقسم الاستعارة إلى المُصَرَّح بها ، والمَكْنِيِّ عنها ، وعنى بالمصرَّح بها أن يكون المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به ؛ وجعلها ثلاثة أضرب : تحقيقية ، وتخييلية ، ومحتملة للتحقيق والتخييل ، وفسر التحقيقية بما مر ، وعد التمثيل على سبيل الاستعارة منهـا .

مناقشة

وفيه نظر ؛ لأن التمثيل على سبيل الاستعارة لا يكون إلا مُرَكَّباً كما سبق ، فكيف يكون قسما من المجاز المفرد ؟ ! ولو لم يقيد الاستعارة بالإفراد ، وعرفها بالمجاز الذي أريد به ما شُبِّه بمعناه الأصلي مبالغةً في التشبيه ؛ دخل كل من التحقيقية والتمثيل في تعريف الاستعارة .

التخييلية عند السكاكي

ومنها: أنه فسر التخييلية بما استُعمِل في صورة وَهْمِية مَحْضَة قُدِّرَتْ مُشابِهَةً لصورة مُحقَّقة هي معناه، كلفظ الأظفار في قول الهُذَليِّ؛ فإنه لما شبه المنية بالسبع في الاغتيال على ما تقدم، أخذ الوهم في تصويرها بصورته، واختراع مثل ما يُلائم صورته، ويتم به شكله لها، من الهيئات والجوارح، وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتياله للنفوس به؛ فاخترع للمنية صورةً مُشابهةً لصورة الأظفار المحققة؛ فأطلق عليها اسمها.

مناقشة

وفيه نظر؛ لأن تفسير التخييلية بما ذكره بعيدٌ؛ لما فيه من التعسُّف، وأيضا فظاهر تفسير غيره لها – بقولهم: جعلُ الشيء للشيء كجَعْلِ لَبيدٍ للشَّمال يَداً – يخالفه؛ لاقتضاء تفسيره أن يجعل للشمال صورة مُتَوَهَّمة مثل صورة اليد، لا أن يجعل لها يداً، فإطلاق اسم اليد على تفسيره استعارةٌ، وعلى تفسير غيره حقيقةٌ، والاستعارة إثباتها للشَّمال كما قلنا في المجاز العقلي الذي فيه المسندُ حقيقةٌ لغوية.

وأيضا فيلزمه أن يقول بمثل ذلك – أعني بإثبات صورة مُتَوَهَّمة – في ترشيح الاستعارة؛ لأن كل واحد من التخييلية والترشيح فيه إثبات بعض لوازم المشبه به المختصة به للمشبه، غيرَ أن التعبير عن المشبه في التخييلية بلفظه الموضوع له، وفي الترشيح بغير لفظه، وهذا لا يفيد فرقاً، والقول بهذا يقتضي أن يكون الترشيح ضرباً من التخييلية، وليس كذلك.

وأيضا فتفسيره للتخييلية أعمُّ من أن تكون تابعة للاستعارة بالكناية – كما في بيت الهُذَليِّ – أو غير تابعة بأن يُتَخَيَّلَ ابتداءً صورةٌ وهميةٌ مشابهةٌ لصورة مُحَقَّقَة؛ فيستعار لها اسم الصورة المحقَّقة، والثانية بعيدةٌ جداً، ويدل على إرادته دخولَ الثانية في تفسير التخييلية أنه قال: حُسْنُها بحسب حسن المَكْنيِّ عنها متى كانت تابعة لها، كما في قولك:

فلان بين أنياب المنية ومخالبها ، وقلما تحسن الحسنَ البليغَ غيرَ تابعةٍ لها ؛ ولذلك استُهْجِنَتْ في قول الطَّائيّ :

٣٨٤ — لا تسقني مـاءَ المَـلامِ ؛ فإنني
صَبٌّ قد استعذَبْتُ مـاءَ بُكائي(١)

فإن قيل : لِمَ لا يجوز أن يريد بغير التابعة للمَكْنيّ عنها التابعةَ لغير المَكنيّ عنها ؟

قلنا : غيرُ المَكْنيّ عنها هي المصرَّحُ بها ؛ فتكون التابعةُ لها ترشيحَ الاستعارة ، وهو من أحسن وجوه البلاغة ، فكيف يصح استهجانه ؟

وأما قول أبي تمام فليس له فيه دليل ؛ لجواز أن يكون أبو تمام شَبَّهَ المَلامَ بظرف الشراب ؛ لاشتماله على ما يكرهه الملوم ، كما أن الظرف قد يشتمل على ما يكرهه الشارب ؛ لبشاعته أو مرارته ؛ فتكون التخييلية في قوله تابعةً للمكنى عنها ، أو بالماء نفسه (٢) ؛ لأن اللوم قد يُسكن حرارةَ الغرام ، كما أن الماء يُسكن غليل الأوام ؛ فيكون تشبيهاً على حَدٍّ « لجُيْن الماء » (٣) فيما مر ، لا استعارة ، والاستهجان على الوجهين لأنه كان ينبغي له أن يُشبِّهه بظرف شرابٍ مكروه ، أو بشراب مكروه ، ولهذا لم يُسْتَهْجَنْ نحوُ قولهم : « أغلَظْتُ لفلان القولَ » و « جرَّعْتُه منه كأساً مُرَّةً » أو « سقيته أمرَّ من العَلْقَم » .

المكنية عند السكاكي

ومنها : أنه عَنَى بالاستعارةِ المكنّى عنها أن يكون المذكور من

---

(١) صب : عاشق مولع . استعذبته : وجدته عذباً . والطائي هو أبو تمام .

(٢) « بالماء نفسه » عطف على قوله « بظرف الشراب » أي أو شبه الملام بالماء نفسه .

(٣) على حد « لجين الماء » أي : على طريقة « لجين الماء » : من باب إضافة المشبه به للمشبه .

طرفي التشبيه هو المشبه ، على أن المراد بالمنية – في قول الهُذَلِيِّ – السبعُ بادِّعاء السبعيّةِ لها ، وإنكار أن تكون شيئاً غيرَ السبع بقرينة إضافة الأظفار إليها .

مناقشة

وفيه نظر ؛ للقطع بأن المراد بالمنية في البيت هو الموتُ لا الحيوانُ المفترسُ ، فهو مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق ، وكذا كل ما هو نحوه . ولا شيء من الاستعارات مستعملاً كذلك .

وأما ما ذكره في تفسير قوله : من أنا ندّعي ههنا أن اسم المنيّةِ اسمٌ للسبع مرادِفٌ للفظ السبع بارتكاب تأويل – وهو : أن تُدخِلَ المنيّةَ في جنس السبع للمبالغة في التشبيه – ثم نذهب على سبيل التخييل إلى أن الواضع كيف يصح منه أن يضع اسمين لحقيقة واحدة ولا يكونان مترادفين ؟! فيتهيأ لنا بهذا الطريق دعوى السبعية للمنية مع التصريح بلفظ المنية ، فلايفيده ؛ لأن ذلك لا يقتضي كون اسم المنية غيرَ مُستعمَل فيما هو موضوع له على التحقيق من غير تأويل ؛ فيدخل في تعريفه للحقيقة . ويخرج من تعريفه للمجاز . وكأنه لما رأى علماء البيان يطلقون لفظ الاستعارة على نحو ما نحن فيه وعلى أحد نَوْعَي المجاز اللغوي – الذي هو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي – ويقولون : الاستعارة تنافي ذكر طرفي التشبيه ؛ ظن أن مرادهم بلفظ الاستعارة عند الإطلاق وفي قولهم : « استعارة بالكناية » ؛ معنًى واحدٌ ؛ فبنى على ذلك ما تقدم .

رأي السكاكي في التبعية

ومنها : أنه قال في آخر فصل الاستعارة التبعية : هـــذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل . ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية . بأن قلبوا . فجعلوا في قولهم « نطقت الحال بكذا » الحالَ – التي ذِكْرُها عندهم قرينةُ الاستعارة بالتصريح – استعارةً بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة في

التشبيه على مقتضى المقام ، وجعلوا نسبةَ النطق إليه قرينةَ الاستعارة ، كما تراهم في قوله :

* وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها (١) *

يجعلون المنيةَ استعارةً بالكناية عن السبع ، ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينةَ الاستعارة ، وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حيٍّ أُبْطِلَتْ حياتُه بسيف أو غير سيف فالتحق بالعدم ، وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة الاستعارة (٢) ، ولو جعلوا أيضاً اللَّهْذَمِيَّاتِ استعارةً بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهيّة على سبيل التهكم ، وجعلوا نسبةَ لفظ الْقِرَى إليها قرينةَ الاستعارة (٣) لكان أقرب إلى الضبط .

مناقشة

هذا لفظه ، وفيه نظر ؛ لأن التبعية التي جعلها قرينة لقرينتها التي جعلها استعارة بالكناية كـ « نطقت » في قولنا « نطقت الحال بكذا » لا يجوز أن يقدرها حقيقة حينئذ ؛ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن استعارة تخييلية ؛ لأن الاستعارة التخييلية عنده مجاز كما مر ، ولو لم تكن تخييلية لم تكن الاستعارة بالكناية مستلزمة للتخييلية ، واللازم باطل باتفاق ؛ فيتعين أن يقدرها مجازاً ، وإذا قدرها مجازاً لزمه أن يقدرها من قبيل الاستعارة ؛ لكون العلاقة بين المعنيين هي المشابهة ؛ فلا يكون ما ذهب إليه مُغْنِياً عن قسمة الاستعارة إلى أصلية وتبعية ، ولكن يستفاد مما ذكر رد التركيب في التبعية إلى تركيب الاستعارة بالكناية على ما فسرناها ، وتصيير التبعية حقيقةً واستعارةً تخييلية ؛ لما سبق أن التخييلية على ما فسرناها حقيقة لا مجاز .

---

(١) الشاهد ٣٨١ .

(٢) وذلك في الشاهد ٣٦٣ .

(٣) وذلك في الشاهد ٣٥٣ .

فصل

شروط حسن الاستعارة

٢٠٥ — وإذ قد عرفت معنى الاستعارة التحقيقية ، والاستعارة التخييلية ، والاستعارةِ بالكناية، والتمثيل على سبيل الاستعارة، فاعلم أن لحسنها شروطاً إن لم تصادفها عَرِيَتْ عن الحسن ، وربما تكتسب قبحاً .

وهي في كل من التحقيقية والتمثيل : رعايةُ ما سبق ذكره من جهات حُسْنِ التشبيه ، وأن لا يُشَمَّ من جهة اللفظ رائحته ، ولذلك يُوصَى فيه أن يكون الشبه بين طرفيها جَلِيّاً بنفسه أو عُرْفٍ أو غيره ، وإلا صار تَعْمِيَةً وإلغازاً ، لا استعارة وتمثيلا ، كما إذا قيل : « رأيت أسداً » وأريد إنسان أبْخَرُ ، وكما إذا قيل : « رأيت إبلاً مائةً لا تجد فيها راحِلَةً » وأريد الناس ، أو قيل : « رأيتُ عُوداً مستقيماً أوَانَ الغَرْسِ » وأريد إنسان مؤدَّبٌ في صِباه ، وبهذا ظهر أنهما لا يجيئان في كل ما يجيء فيه التشبيه .

ومما يتصل بهذا أنه إذا قوي الشبه بين الطرفين — بحيث صار الفرع كأنه الأصل — لم يحسن التشبيه ، وتعيَّنَتْ الاستعارة ، وذلك كالنور إذا شُبِّهَ العلمُ به والظُلْمةِ إذا شُبِّهَتِ الشبهةُ بها ؛ فإنه لذلك يقول الرجل إذا فَهِمَ المسألة « حصل في قلبي نور » ولا يقول : « كأن نوراً حصل في قلبي » ويقول لمن أوقعه في شبهة « أوقعتني في ظلمة » ولا يقول « كأنك أوقعتني في ظلمة » .

وكذا المكْنيُّ عنها ، حسنُها برعاية جهات حسن التشبيه .

وأما التخييلية فحسنها بحسب حسن المكني عنها ؛ لما بينا أنها لا تكون إلا تابعة لها .

فصل

المجاز بالحذف والزيادة

معناه ٢٠٦ — واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي كما مضى ؛ توصف به أيضاً لنقلها عن إعرابها الأصلي إلى غيره لحذف لفظ ، أو زيادة لفظ .

مجاز الحذف أما الحذف فكقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(١) أي : أهل القرية ، فإعراب القرية في الأصل هو الجرُّ فحُذِفَ المضافُ ، وأُعْطِيَ المضافُ إليه إعرابَه، ونحوه قوله تعالى : « وَجَاءَ رَبُّكَ »(٢) أي : أمرُ ربك . وكذا قولهم : بنو فلان يَطَؤُهُمُ الطريقُ ، أي : أهلُ الطريق .

مجاز الزيادة وأما الزيادة فكقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(٣) على القول بزيادة الكاف ، أي : ليس مِثلَه شيءٌ ، فإعراب « مثله » في الأصل هو النصب ، فزيدت الكاف ، فصار جرًّا .

فإن كان الحذف أو الزيادة لا يوجب تغيير الإعراب — كما في قوله تعالى : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ »(٤) إذ أصله : أو كمثل ذَوِي صَيِّبٍ ، فحذِفَ « ذَوِي » لدلالة « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

---

(١) بعض الآية ٨٢ من سورة يوسف .

(٢) بعض الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) بعض الآية ١١ من سورة الشورى .

(٤) بعض الآية ١٩ من سورة البقرة .

آذانِهِم » عليه . وحُذِفَ « مثل » لما دل عليه عَطْفه على قوله « كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً » (١) إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين صفة المنافقين العجيبة الشأن وذوات ذوي صيب ، وكقوله : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » (٢) وقوله « لِئَلاَّ يَعْلَمَ أهْلُ الْكِتَابِ » (٣) — فلا توصف الكلمة بالمجاز .

وقد بالغ الشيخ عبد القاهر في النكير على مَنْ أطلق القول بوصف الكلمة بالمجاز للحذف ، أو الزيادة .

• • •

(١) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .
(٣) بعض الآية ٢٩ من سورة الحديد .

القول في الكناية

معناها

٢٠٧ ـ الكناية : لفظ : أُريدَ به لازمُ معنـاه مع جواز إرادة معناه حينئذ ، كقولك : « فلانٌ طويلُ النِّجادِ » (١) أي : طويل القامة و« فلانة نَؤومُ (٢) الضحَى » أي : مُرَفَّهة مخدومة ، غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات ؛ وذلك أن وقتَ الضحى وقتُ سَعْيِ نساء العرب في أمر المعاش ، وكفاية أسبابه ، وتحصيل ما يُحتاج إليه في تَهْيِئَةِ المُتَنَاوَلاتِ ، وتدبيرِ إصلاحها ؛ فلا تنام فيه من نسائهم إلا مَنْ تكون لها خَدَمٌ ينوبون عنها في السعي لذلك ، ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طُولُ النِّجَادِ ، والنومُ في الضحى ، من غير تأول .

فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ؛ فإن المجاز يُنافي ذلك ؛ فلا يصح في نحو قولك : « في الحمام أسدٌ » أن تريد معنى الأسد من غير تأوُّلٍ ؛ لأن المجاز ملزومُ قرينةٍ معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت ، وملزومُ مُعانِدِ الشيء مُعانِدٌ لذلك الشيء .

وفرق السكاكي وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً ، وهو أن مَبْنَى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبني المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

---

(١) النجاد : حمائل السيف التي يعلق بها في الكَتف .

(٢) نؤوم الضحى : كثيرة النوم في وقت الضحى .

وفيه نظر ؛ لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنْتَقَلَ منه إلى الملزوم ؛ فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم .

ولو قيل : اللزومُ من الطرفين من خواصٍ الكناية دون المجاز ، أو شرط لها دونه ، اندفع هذا الاعتراض ، لكن اتجه منع الاختصاص والاشتراط .

اقسام الكناية

٢٠٨ – ثم الكناية ثلاثة أقسام ؛ لأن المطلوب بها إما غيرُ صفة ولا نسبة ، أو صفةٌ ، أو نسبة .

والمراد الصفة المعنوية، كالجود، والكرم ، والشجاعة ، وأمثالها ، لا النعت .

المطلوب بها موصوف

الأولى : المطلوب بها غير صفة ولا نسبة ، فمنها ما هو معنى واحد كقولنا :

« المِضْيَاف » كنايةً عن زيد ، ومنه قولُه كنايةً عن القلب :

٣٨٥ – الضاربين بكل أبْيَضَ مِخْذَمٍ
والطاعنين مَجَامِعَ الأضغانِ (١)

ونحوه قول البحتري في قصيدته التي يذكر فيها قتله الذئب :

٣٨٦ – فأتبعتُها أخرى ، فأضلَلْتُ نَصْلَها
بحيثُ يكون اللبُ والرُّعبُ والحقْدُ (٢)

---

(١) أبيض : سيف أبيض . مخذم : قاطع . الأضغان : الأحقاد . وهو لعمرو ابن معديكرب الزبيدي .

(٢) أضللت : دفنت وغيبت . النصل : حديدة الرمح ، والضمير في « نصلها » ضمير الضربة كالضمير في « أتبعتها » لأن الحديث عن ضربات يلحق بعضها بعضاً ، والإضافة إضافة سبب لمسبب . اللب : العقل الذكي . الرعب : الخوف .

فقوله : « بحيث يكون اللب ، والرعب ، والحقد » ثلاث كنايات لا كناية واحدة ؛ لاستقلال كل واحد منها بإفادة المقصود .

ومنها ما هو مجموع معان ، كقولنا كناية عن الإنسان « حيٌّ مُسْتَوِي القامةِ عريض الأظفار » .

وشرط كل واحدةٍ منهما أن تكون مختصة بالمكني عنه لا تتعداه ؛ ليحصل الانتقال منها إليه .

وجَعَلَ السكاكي الأولى قريبةً ، والثانيةَ بعيدةً ، وفيه نظر .

المطلوب بها صفة

الثانية : المطلوب بها صفة ، وهي ضربان : قريبة ، وبعيدة .

القريبة : ما يُنْتَقَل منها إلى المطلوب بها ، لا بواسطة .

وهي إما واضحة كقولهم كنايةً عن طويل القامة « طويلٌ نِجادُه ، وطويل النجاد » والفرق بينهما أن الأول كنايةٌ ساذجة ، والثاني كناية مُشتملةٌ على تصريحٍ ما ؛ لتضمن الصفة فيه ضميرَ الموصوف ، بخلاف الأول .

ومنها قول الحماسي :

٣٨٧ ـ أبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِيُّ لقُمْصِها
مَسَّ البُطُونِ وأن تَمَسَّ ظُهورا (١)

وإما خَفِيّةٌ كقولهم كنايةً عن الأبله « عريض القَفَا » فإن عرضَ القفا وعِظَمَ الرأس إذا أفرط ـ فيما يقال ـ دليلُ الغباوة ، ألا ترى إلى قول طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ :

---

(١) الروادف : الأعجاز كالأرداف ، واحدها رادفة . وبعد هذا البيت :

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة ، وهجن غيورا

٣٨٨ ـ أنا الرجلُ الضَرْبُ الذي تَعرفونه
خَشَاشٌ كرأسِ الحيّةِ المُتَوَقّدِ (١)

والبعيدة : ما ينتقل منها الى المطلوب بها بواسطة ، كقولهم كنايةً عن الأبله « عريض الوسادة » فإنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومنه إلى المقصود .

وقد جعله السكاكي من القريبة على أنه كناية عن عرض القفا . وفيه نظر .

وكقولهم : « كثير الرماد » كناية عن المِضْياف ؛ فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ، ومنها إلى كثرة الطبائخ ، ومنها إلى كثرة الأكَلَة . ومنها إلى كثرة الضيفان . ومنها إلى المقصود .

وكقوله :

٣٨٩ ـ وما يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي
جَبانُ الكلبِ مَهْزُولُ الفَصيلِ (٢)

فإنه ينتقل من جُبْنِ الكلب عن الهرير في وجه مَنْ يدنو من دار من هو بمَرْصَدٍ لأن يَعِسّ دونها ؛ مع كون الهرير في وجه مَنْ لا يعرفه طبيعياً له ، إلى استمرار تأديبه ؛ لأن الأمور الطبيعية لا تتغير بمُوجِبٍ لا يقوى ، ومن ذلك إلى استمرار مُوجِب نُباحه وهو اتصال مشاهدته وجوهاً إثر وجوه ، ومن ذلك إلى كونه مَقْصِدَ أدانٍ وأقاصٍ ، ومن ذلك إلى أنه مشهور بحسن قِرَى الأضياف . وكذلك يَنتقل من هُزال

---

(١) الرجل الضرب : الرجل الماضي الندب . خشاش : شجاع ، أو دخال في الأمور . المتوقد ؛ الحاد السريع التوقد في النشاط والمضاء .

(٢) مهزول : ضعيف نحيل . الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . والبيت لابن هرمة ؛ شاعر من مخضرمي الدولتين ، توفي سنة ١٤٥ هـ .

الفصيل إلى فقد الأم ، ومنه إلى قوة الداعي إلى نَحْرِها ، لكمال عناية العرب بالنوق لا سيّما المُتْلِياتِ (١) ، ومنها إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومنها إلى أنه مضياف .

ومن هذا النوع قول نُصَيْبٍ :

٣٩٠ ـ لعبد العزيز على قومه وغيرِهم مِنَنٌ ظاهرة (٢)
فبابُكَ أسهلُ أبوابهم ودارُك مأهُولَةٌ عامره
وكَلْبُكَ آنَسُ بالزائرين مِنَ الأمِّ بالأبنةِ الزائره

فإنهُ يُنتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين مَعارفُ عندَه ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدته إياهم ليلاً ونهاراً ، ومنه إلى لزومهم سُدَّتَه ، ومنه إلى تَسَنّي مَبَاغيهم لديه من غير انقطاع ، ومنه إلى وُفور إحسانه إلى الخاصِّ والعامِّ ، وهو المقصود .

ونظيره مع زيادة لطف قول الآخر :

٣٩١ ـ يكاد إذا ما أبصرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً
يكلِّمُهُ من حُبِّهِ وَهْوَ أعْجَمُ (٣)

ومنه قوله :

٣٩١ ـ لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفِصَالِ ، ولا
أبتاعُ إلا قريبةَ الأجَلِ (٤)

---

(١) المتليات : النياق وراءها أتلاؤها . هي متلية بصيغة اسم الفاعل ، وولدها تلو أو تلوة بكسر التاء وسكون اللام .

(٢) عبد العزيز ممدوح نصيب هو ابن مروان . وأبو عمر الخليفة الأموي ، ونصيب : شاعر من الموالي ، عاش ومات في العهد الأموي .

(٣) لابن هرمة أو النابغة الجعدي .

(٤) هو لابن هرمة أيضاً . والعوذ : النوق الحديثة النتاج . واحدتها عائذ . والفصال : جمع فصيل .

فإنه ينتقل من عدم إمتاعها إلى أنه لا يُبْقِي لها فِصالَها ، لتأنس بها ويحصل لها الفرح الطبيعي بالنظر إليها ، ومن ذلك إلى نحرها ، أو لا يُبْقِي العُوذَ إبقاءً على فصالها ، وكذا قُرْبُ الأجل يُنْتَقَل منه إلى نحرها ، ومن نحرها إلى أنه مِضْيافٌ .

٢٠٩ – ومن لطيف هذا القسم قولُه تعالى : « وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أي : ولما اشتدَّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ؛ لأنَّ مِنْ شأن مَن اشتدَّ ندمُه وحسرتُه أن يعضَّ يدَه غَمّاً ؛ فتصيرُ يَدُه مَسقوطاً فيها ؛ لأن فَاهُ قد وقع فيها .

وكذا قول أبي الطيب كنايةً عن الكذب :

٣٩٣ – تشتكي ما اشتكَيْتُ من ألم الشَّوْ
قِ إليها ، والشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وكذا قوله :

٣٩٤ – إلى كَمْ تَرُدُّ الرُّسُلَ عَمّا أتَوْا لَهُ
كأنّهُمُ فيما وَهَبْتَ مَلامُ ؟ !

فإن أوله كناية عن الشجاعة ، وآخره كناية عن السماحة .

وكذا قول أبي تمام :

٣٩٥ – فإن أنا لم يَحْمَدْكَ عَنِّي صاغِراً
عَدُوُّكَ ؛ فاعلم أنني غيرُ حامد (١)

يريد بحمده عنه حِفْظَهُ مَدْحَهُ فيه وإنشادَه ، أي : إن لم أكُنْ أُجِيدُ القول في مدحك ، حتى يَدْعُوَ حُسْنُه عدوَّك إلى أن يحفظه ويَلْهَجَ به صاغراً ؛ فلا تَعُدَّنِي حامدا لك بما أقول فيك ، ووصفه بالصَّغار ؛ لأن من يحفظ مديح عَدُوِّه ويُنْشِده فقد أذلَّ نفسَهُ ،

---

(١) صاغراً : مرغماً ذليلا ، وهو حال من « عدو » .

فكنى بِحِفْظِ عَدُوِّ الممدوح مَدْحَهُ له عن إجادته القولَ في مدحه .

وكذا قول من يصف راعِيَ إبلٍ أو غَنَمٍ :

٣٩٦ — ضعيفُ العصا ، بادي العُرُوقِ تَرَى له
عليها — إذا ما أجْدَبَ الناسُ — إصْبَعا

وقول الآخر :

٣٩٧ — ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ * صُلْبُ العصا ، بالضرب قد دَمَّاها *

أي : جعلها كالدَّمِ في الحسن .

والغرض من قول الأول « ضعيفُ العصا » وقول الثاني « صُلْبُ العصا » وهما وإن كانا في الظاهر مُتضادَّين فإنهما كنايتان عن شيء واحد ، وهو حُسْنُ الرِّعْيَةِ ، والعملُ بما يصلحها ، ويحسن أثره عليها .

فأراد الأول أنه رَفِيقٌ مُشْفِقٌ عليها ، لا يَقْصِد من حمل العصا أن يُوَجِعَهَا بالضرب من غير فائدة ؛ فهو يتخيَّر ما لان من العصا .

وأراد الثاني أنه جَيِّدُ الضبط لها ، عارِفٌ بسياستها في الرَّعْي ، يزجرها عن المراعي التي لا تُحْمَد ، ويتوخَّى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضاً أنه يمنعها عن التشرُّد والتبدُّد ، وأنها — لمَا عَرَفَتْ من شِدَّةِ شَكِيمَتِهِ وقوة عَزيمته — تنساق في الجهة التي يريدها ، وقوله «وبالضرب قد دمَّاها» تَوْرِيَةٌ حسنة ، ويؤكد أمرها قوله « صُلْبُ العصا » .

المطلوب بها نسبة مثل لها

٢١٠ — الثالثة : المطلوب بها نسبة ، كقول زِيادِ الأعْجَمِ :

٣٩٨ — إن السَّماحَةَ والمُروءةَ ، والنَّدى
في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحشْرَجِ(١)

(١) ابن الحشرج : من ولاة الدولة الأموية ، واسمه عبد الله ، وزياد الأعجم : شاعر أموي مولى .

فإنه حين أراد أن لا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قُبَّة ؛ تنبيهاً بذلك على أن مَحَلّها ذو قُبَّة ، وجعلها مضروبة عليه ؛ لوجود ذَوِي قِباب في الدنيا كثيرين ؛ فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظيره قولهم : « المجد بين ثَوْبَيْه ، والكرم بين بُرْدَيْه » .

قال السكاكي : وقد يُظَنّ هذا من قسم « زيد طويل نجاده » وليس بذاك ؛ فـ« طويل نجاده » — بإسناد الطويل إلى النجاد — تصريحٌ بإثبات الطول للنجاد ، وطول النجاد كما تعرف قائمٌ مَقَامَ طُول القامة ، فإذا صرح من بعدُ بإثبات النجاد لزيد بالإضافة ؛ كان ذلك تصريحاً بإثبات الطول لزيد ، فتأمل .

وقول الآخر :

٣٩٩ — والمجدُ يَدْعُو أن يَدومَ لِجِيدِه
عِقْدٌ مَسَاعِي ابنِ العَمِيدِ نِظَامُهُ (١)

فإنه شبّه المجدَ بإنسان بديع الجمال ، في ميل النفوس إليه ، وأثبت له جيداً على سبيل الاستعارة التخييلية ، ثم أثبت لجيده عِقْداً ؛ ترشيحاً للاستعارة ، ثم خصّ مَسَاعِيَ ابن العميد بأنها نظامُه ، فنبّه بذلك على اعتنائه خاصّةً بتزيينه ، وبذلك على مَحَبّتِه وَحْدَه له ، وبها على اختصاصه به ، ونبّه بدُعاء المجد أن يدوم لجِيده ذلك العقدُ على طلبه دَوَامَ بَقَاءِ ابنِ العَمِيدِ ، وبذلك على اختصاصه به . وكقول أبي نُوَاسٍ :

٤٠٠ — فما جازَهُ جودٌ ، ولا حَلّ دُونَهُ
وَلَكِنْ يَصِيرُ الجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ (٢)

---

(١) جيده : عنقه . مساعي ابن العميد : مكارمه وأفضاله ، واحدتها مسعاة . وابن العميد هو محمد بن الحسين ، وزير البويهيين . وزعيم كتاب القرن الرابع الهجري

(٢) جازه : تعداه وجاوزه . حل دونه : نزل بعيداً عنه .

فإنه كَنَى عن جميع الجود بأنْ نَكَرَهُ ، ونفى أن يجوز مَمْدُوحَه ويَحُلَّ دونَه فيكونَ مُتَوَزِّعاً ، يقوم منه شيءٌ بهذا وشيءٌ بهذا ، وعن إثباته له بتخصيصه بجهته بعد تعريفه باللام التي تفيد العموم ، ونظيره قولهم « مجلس فلان مَظِنَّةُ الجود والكرم » هذا قول السكاكي :

وقيل : كَنى بالشطر الأول عن اتّصافه بالجود ، وبالثاني عن لزوم الجود له .

ويحتمل وجهاً آخر ، وهو : أن يكون كل منهما كناية عن اختصاصه به ، وعدمُ الاقتصار على أحدهما للتأكيد والتقرير ، وذكرهما على الترتيب المذكور لأن الأولى بواسطة بخلاف الثانية .

وكقولهم « مثلك لا يبخل » قال الزمخشري : نَفَوُا البخل عن مثله ، وهم يريدون نَفْيَهُ عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك ؛ فسلكوا به طريق الكناية ؛ لأنهم إذا نَفَوْهُ عَمَّنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ ، وعمّن هو على أخصِّ أوصافه ؛ فقد نَفَوْهُ عنه .

ونظيره قولُكَ للعربي « العرب لا تَخْفِرُ الذِّمَمَ » (١) فإنه أبلغ من قولك « أنت لا تخفر » .

ومنه قولهم « أيْفَعَتْ لِدَاتُهُ ، وبلغَتْ أتْرَابُه » (٢) يريدون إيفاعَه وبُلوغَه .

وعليه قولُه تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ » (٣) على أحد الوجهين وهو أن لا تجعل الكاف زائدة .

قيل : وهذا غاية لنفي التشبيه ؛ إذ لو كان له مثلٌ ؛ لكان لمثله

---

(١) لا تخفر الذمم : لا تنقض العهود ولا تغدر .

(٢) أيفع : ترعرع وناهز البلوغ . لداته — ومثله أترابه — أي أقرانه ونظراؤه ومن ولدوا معه ، أو من تربوا معه . مفرداتها على التوالي : لدة ، ترب ، قرن ، نظير .

(٣) بعض الآية ١١ من سورة الشورى

شيء (يماثله) وهو ذاته تعالى ، فلما قال « لَيْسَ كَمِثْلِهِ » (١) دل على أنه ليس له مثل .

وأورِدَ أنه يلزم منه نفيه تعالى ؛ لأنه مثلُ مثلهِ ، ورد بمنع أنه تعالى مثلُ مثلهِ ؛ لأن صدق ذلك موقوفٌ على ثبوت مثله ، تعالى عن ذلك !

وكقول الشَّنْفَرَى الأزْدِيِّ في وصف امرأة بالعِفَّة :

٤٠١ – يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنِ اللَّوْمِ بَيْتُهَا
إذا ما بُيُوتٌ بالملامَةِ حُلَّتِ (٢)

فإنه نبّه بنفي اللوم عن بيتها على انتفاء أنواعِ الفجور عنه ، وبه على براءتها منها ، وقال « يَبِيتُ » دون « يَظَلُّ » لمزيد اختصاص الليل بالفواحش .

هذا على ما رواه الشيخ عبد القاهر والسكّاكيُّ ، وفي الأغاني الكبير ، « يَحِلُّ بمنجاة » .

هل هناك قسم رابع للكناية

٢١١ – وقد يُظَنُّ أن هنا قسماً رابعاً ، وهو أن يكون المطلوب بالكناية الوصفَ والنسبةَ معاً ، كما يقال : « يكثر الرماد في ساحة عَمْرٍو » في الكناية عن أن عَمْراً مِضْيافٌ ، وليس بذاك ؛ إذ ليس ما ذُكِرَ بكناية واحدة ، بل هو كنايتان : إحداهما عن المِضْيافِيَّةِ ، والثانية عن إثباتها لعَمْرٍو .

وقد ظهر بهذا أن طرف النسبة المثبتة بطريق الكناية يجوز أن يكون مَكْنِيّاً عنه أيضاً كما في هذا المثال ، ونحوُه بيتُ الشَّنْفَرَى المتقدم ؛ فإن حُلول البيت بمنجاة من اللوم كناية عن نسبة العفّة إلى صاحبه ، والمنجاة من اللوم كناية عن العفة .

---

(١) بعض الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) المنجاة : مكان النجاة . والشنفرى : شاعر جاهلي عداء ، يضرب به المثل . فيقاس عليه من يراد وصفه بالتفوق في العدو .

٢١٢ ـ واعلم أن الموصوف في القسم الثاني والثالث قد يكون مذكور كما مر ، وقد يكونُ غير مذكور ، كما تقول في عرض من يؤذي المسلمين : « المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده (١) » أي : ليس المؤذي مسلماً .

وعليه قوله تعالى في عرض المنافقين : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (٢) » إذا فُسِّرَ الغَيْبُ بالغَيْبَةِ ، أي : يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه رضي الله عنهم ، أي هدى للمؤمنين عن إخلاص لا للمؤمنين عن نفاق .

أقسام أخرى للكناية عند السكاكي

٢١٣ ـ وقال السكّاكِيُّ : الكناية تتفاوت إلى تعريض ، وتلويح ، ورَمْز ، وإيماء ، وإشارة .

فإن كانت عرضية فالمناسب أن تُسَمَّى تعريضاً .

وإلاَّ ، فإن كان بينهما وبين المكني عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط ـ كما في كثير الرماد وأشباهه ـ فالمناسب أن تُسَمَّى تلويحاً ؛ لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بُعد .

وإلاَّ ، فإن كان فيها نوع خفاء ، فالمناسب أن تُسَمَّى رَمْزاً ؛ لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية ، قال :

٢٠٤ ـ رَمَزَتْ إليَّ مَخَافَةً من بَعْلِها
من غير أن تَبْدِي هُنَاكَ كَلاَمَها(١)

---

(١) هذا التركيب مما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) بعض الآيتين ٢ ـ ٣ من سورة البقرة .

(٣) البيت شاهد لتفسير الرمز بالإشارة إلى قريب منك على سبيل الخفية ، لا للكناية التي يكون فيها نوع خفاء فتسمى رمزاً .

وإلا ؛ فالمناسب أن تُسَمّى إيماءً وإشارة ، كقول أبي تمام يصف إبلا :

٤٠٣ - أبَيْنَ ، فما يَزُرْنَ سِوَى كريم
وحَسْبُكَ أن يَزُرْنَ أبا سعيد (١)

فإنه في إفادة أن أبا سعيد كريم غيرُ خافٍ ، وكقولِ البُحْتُرِيِّ :

٤٠٤ - أوَ ما رأيْتَ المجدَ ألْقَى رَحْلَهُ
في آل طَلْحَةَ ، ثُمَّ لم يتَحَوَّلِ (٢)

فإنه في إفادة أن آل طَلْحَةَ أماجِدُ ظاهرٌ ، وكقول الآخر :

٤٠٥ - إذا اللهُ لم يَسْقِ إلاّ الكِرَامَ
فَسَقّى وُجُوهَ بَنِي حَنْبَلِ (٣)
وسَقّى دِيَارَهُمُ باكِراً
مِنَ الغيث في الزمن المُمْحِلِ

وكقول الآخر :

٤٠٦ - متَى تَخْلُو تَمِيمٌ مِنْ كَرِيمٍ
ومسلَمَةُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ تَمِيمِ ؟

ثم قال :

والتعريض كما يكون كِنايةً قد يكون مَجازاً ، كقولك « آذَيْتَنِي فستعرف » وأنت لا تريد المخاطَبَ ، بل تريد إنساناً معه ، وإن أردتَهما جميعاً كان كناية .

---

(١) الضمير في « أبين » و« يزرن » يرجع إلى الإبل التي يصفها .

(٢) في البيت استعارة مكنية لا بد من التنبه إليها مع الكناية ، ومحل المكنية « المجد ألقى رحله » .

(٣) سقى : مضعف للمبالغة في معنى السقيا . باكر الغيث : عاجله . الممحل : الجديب .

تنبيه

٢١٤ ـ أطبق البلغاء على أن المجاز أَبْلَغُ من الحقيقة .

وأن الاستعارة أَبْلَغُ من التصريح بالتشبيه .

وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أَبْلَغُ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة .

وأن الكناية أَبْلَغُ من الإفصاح بالذكر .

قال الشيخ عبد القاهر : ليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه ، بل لأنه يفيد تأكيداً لإثبات المعنى لا يفيده خلافه ؛ فليست فضيلة قولنا « رأيت أسداً » على قولنا « رأيت رجلاً هو والاسدُ سَواءٌ في الشجاعة » أن الأول أفاد زيادةً في مُساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني ، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة له لم يُفِدْهُ الثاني ، وليست فضيلة قولنا « كثير الرماد » على قولنا « كثير القِرَى » أن الأول أفاد زيادة لِقِراه لم يفدها الثاني ؛ بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات كثْرة القِرَى له لم يُفِدْه الثاني .

والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم ؛ فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء بِبَيِّنَةٍ ، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة ابلغ في إثباته دعواه بلا بينة .

ولقائل أن يقول : قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه ، وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون في المشبه به أتمَّ منه في المشبه وأظهر ؛ فقولنا

« رأيت أسداً » يفيد للمرئيّ شجاعةً أتمّ مما يفيدها قولنا « رأيت رجلاً كالأسد » ، لأن الأول يفيد شجاعة الأسد ، والثاني شجاعةً دون شجاعة الأسد .

ويمكن أن يجاب بِحَمْلِ كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك ، لا أن ذلك ليس بسبب في شيء من الصور أصْلاً .

هذا آخر الكلام في الفن الثاني

• • •

تقسيم السكاكي للبلاغة

وذكر السكاكي بعد الفراغ منه تفسيرَ البلاغة بما نقلناه عنه في صدْر الكتاب ثم قسّم الفصاحة إلى معنوية ولفظية .

وفسّر المعنوية بخلوص المعنى عن التعقيد ، وعَنَى بالتعقيد اللفظيَّ على ما سبق تفسيره .

وفسّر اللّفظيّةَ بأن تكون الكلمةُ عَرَبِيَّةً أصيلة .

وقال : وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدْوَرَ ، واستعمالُهم لها أكثرَ ، لا مما أحدثه المُوَلّدُون ، ولا مما أخطأتْ فيه العامّة ، وأن تكون أجْرَى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر ؛ فجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ، وحصر مرجع البلاغة في الفنّيْن ، ولم يجعل الفصاحة مرجعاً لشيء منهما (١) .

بلاغة آية قرآنية
تطبيق السكاكي عليها

ثم قال : وإذ قد وقفت على البلاغة والفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آيةً أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عَسَى يسترها عنك ، وذكَر ما أورده الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ المَاءُ ، وَقُضِيَ الأمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٢) وزاد عليه نُكَتاً لا بأس بها ،

---

(١) لعل أصل التركيب هو : « ولم يجعل للفصاحة مرجعاً في شيء منهما » أي من الفنين اللذين جعلهما مرجعاً للبلاغة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

فرأيتُ أن أُوردَ تلخيص ما ذكره جارياً على اصطلاحه في معنى البلاغة والفصاحة .

قال :

أما النظر فيها من جهة علم البيان ؛ فهو أنه – تعالى – لمّا أراد أن يُبَيِّن معنى : أردنا أن نَرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارْتَدَّ ، وأن نقطع طُوفان السماء فانقطع ، وأن يَغيضَ الماءُ النازل من السماء فغاض ، وأن يُقْضَى أمرُ نوح – وهو إنجاز ما كُنّا وعدناه من إغراق قومه – فَقُضِيَ ، وأن نُسَوِّي السفينة على الجُودِيّ فاستَوَتْ . وأبقينا الظَّلَمَةَ غَرْقَى ، بَنَى الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يَتَأتَّى منه – لكمال هَيْبَتِه – العِصْيانُ وتشبيهِ تكوين المراد بالأمر الجزْم النافذ في تكوين المقصود ؛ تصويراً لاقتداره تعالى ، وأن السمواتِ والأرضَ وهذه الأجرام العِظامَ تابعةٌ لإرادته ، كأنها عقلاء مُمَيِّزون ، قد عرفوه حقَّ معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، وتَحتّم بَذْلِ المجهود عليهم في تحصيل مُراده .

ثم بَنَى على تشبيهه هذا نَظْمَ الكلام ؛ فقال تعالى : « قِيلَ » على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجَعَلَ قرينةَ المجاز خِطابَ الجماد ، وهو : « يا أرض » و« يا سماء » .

ثم قال : « يا أرض » و « يا سماء » مخاطِباً لهما ، على سبيل الاستعارة للشبه المذكور .

ثم استعار لِغَوْرِ الماء في الأرض البَلْعَ الذي هو إعمالُ الجاذبة في المطعوم ، بجامع الذهاب إلى مَقَرٍّ خَفِيٍ .

واستتبع ذلك تشبيه الماء بالغذاء على طريق الاستعارة بالكناية ؛ لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزرع والاشجار ؛ وجعل قرينة الاستعارة لفظ « ابلعي » لكونه موضوعاً للاستعمال في الغذاء دون الماء .

ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدَّم ذكرُه .

ثم قال : « ماءكِ » بإضافة الماء إلى الأرض ، على سبيل المجاز ؛ تشبيهاً لاتّصَال الماء بالأرض باتصال المِلْكِ بالمالك ، واستعار لحبس المطر الإقلاعَ الذي هو ترك الفاعلِ الفعلَ ؛ للشبه بينهما في عدم ما كان ، وخاطب في الأمرين ترشيحاً للاستعارة .

ثم قال «وَغِيضَ الماءُ ، وَقُضِيَ الأمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلى الجُودِيِّ ، وقيل : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» . فلم يُصَرِّح بالغائض ، والقاضي ، والمسول والقائل ، كما لم يصرح بقائل«يا أرض» و«يا سماء» سُلوكا في كل واحد من ذلك سبيلَ الكناية أن تلك الأمورَ العِظامَ لا تتأتّى إلا من ذي قدرة لا تُكْتَنَه ، قَهّارٍ لا يُغَالَب ؛ فلا مَجَال لذهاب الوَهْم إلى أن يكون الفاعلُ لشيء من ذلك غيرَه .

ثم ختَم الكلام بالتعريضِ لسالِكِي مَسْلَكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم ختَم إظهارٍ لمكان السُّخْطِ ، ولجهة استحقاقهم إياه .

وأما النظر فيها من حيثُ علمُ المعاني ، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير بين جملها ؛ فذلك أنه اختِيرَ « يا » دون سائر أخواتها لكونِها أكثرَ استعمالا ، ولدلالتها على بُعْدِ المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العَظَمَةِ ، ويؤذِن بالتهاون به .

ولم يُقَلْ « يا أرض » بالكسر تجنُّباً لإضافة التشريف ؛ تأكيداً للتّهاوُن .

ولم يقَلْ « يا أيّتُها الأرض » للاختصار ، مع الاحتراز عما في « أيّتها » من تكلُّف التنبيه غير المناسب للمقام ؛ لكون المخاطَب غير صالح للتنبيه على الحقيقة .

واختير لفظ الأرض دون سائر أسمائها لكونه أخَفَّ وَأدْوَرَ .

واختير لفظ السماء لمثل ذلك مع قصد المطابقة .

واختير « ابلعي » على « ابتلعي » لكونه أخْصَرَ ، ولمجيء حظ التجانس بينه وبين « اقلعي » أوفَر .

وقيل « ماءكِ » بالإفراد دون الجمع لدلالة الجمع على الاستكثار الذي يأباه مقام إظهار الكبرياء ، وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء .

ولم يُحذَف مفعول « ابلعي » لِئلاَّ يُفْهَم ما ليس بمراد ، من تعميم الابتلاع للجبال والتِّلالِ والبحارِ وغيرها؛ نظراً إلى مقام وُرُودِ الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء .

ثم إذْ بيَّنَ المرادُ اختُصِرَ الكلامُ على « أقلِعي » فلم يُقَلْ « أقلعي عن إرسال الماء » احترازاً عن الحشو المستغنَى عنه من حيث الظاهر ، وهو الوجه في أنه لم يُقَلْ : يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ، ويا سماءِ اقلعي فأقلعت .

واختير « غيضَ الماء » على غُيِّضَ » المشدَّدة ؛ لكونه أخصر وأخفَّ ، وأوفق لقيل .

وقيل « الماء » دون أن يقال « ماء طوفان السماء » وكذا « الأمر » دون أن يقال « أمر نوح » للاختصار .

ولم يقل : « سُوِّيَتْ على الجُوْدِيِّ » بمعنى أُقِرَّت على نحو « قِيلَ » وَ « غِيضَ » و « قُضي » في البناء للمفعول ؛ اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله « وهي تجري بهم » مع قصد الاختصار .

ثم قيل « بُعْداً للقوم » دون أن يقال : « لِيَبْعَدِ القوم » طلباً للتوكيد مع الاختصار . وهو نزول «بُعْداً» منزلةَ « ليبعدوا بعداً » مع إفادة أخرى ، وهي استعمال اللام مع « بعداً » الدَّالِّ على معنى أن البعد حَقٌّ لهم .

ثم أطلقَ الظلمُ ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل .

هذا من حيث النظر إلى الكلم .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل ؛ فذلك أنه قدم النداء على على الأمر ؛ فقيل « يا أرض ابلعي ، ويا سماء اقلعي » دون أن يقال « ابلعي يا أرض ، واقلعي يا سماء » جَرْياً على مُقْتَضَى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقةً من تقديم التنبيه ؛ ليتمكن الأمرُ الوارد عَقِيبَه في نفس المنادَى ؛ قصداً بذلك لمعنى الترشيح .

ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ؛ لابتداء الطُّوفان منها ، ونُزولها لذلك في القصة مَنْزِلَة الأصل .

ثم أتبعهما قوله « وغيض الماء » لاتصاله بقصة الماء .

ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة ، وهو قوله « وقضي الأمر » أي : أنْجِزَ الوَعْدُ من إهلاك الكَفَرَة ، وإنجاء نوح ومَنْ معه في السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، ثم خُتِمَتِ القصةُ بما ختمت .

هذا كله نظر في الآية من جانب البلاغة .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ؛ فهي — كما ترى — نَظْمٌ للمعاني لطيفٌ وتَأدِيةٌ لها ملخصة مبينة لا تعقيد يُعْثِر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يَشِيكُ الطريق إلى المرتاد ، بل ألفاظها تُسابِق معانِيَهَا ومعانيها تسابقُ ألفاظَها .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية ؛ فألفاظها على ما ترى عربيةٌ ، مُستعمَلة ، جاريةٌ على قوانين اللغة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عَذْبَةٌ على العَذَبات (١) ، سَلِسَةٌ على الأسَلات (٢) ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرِّقة . والله أعلم .

(١) العذبات : الأطراف من كل شيء ، ويقصد بها هنا أطراف الألسنة .

(٢) الأسلات : رءوس الألسنة .

القسم الثالث

علم البديع

علم البديع

٢١٥ ـ وهو : علم يُعرف به وُجُوهُ تحسين الكلام ، بعدَ رِعاية تطبيقه على مُقْتَضَى الحال ووضُوح الدلالة . تعريفه

٢١٦ ـ وهذه الوجوه ضربان : ضَرْبٌ يرجع إلى المعنى ، وضَرْبٌ يرجع إلى اللفظ . وجوه التحسين

(المحسنات المعنوية)

٢١٧ ـ أما المعنوي فمنه المُطَابَقَةُ ، وتُسَمّى الطِّباقَ ، والتّضادّ أيضاً ، وهي : الجمع بين المتضادَّيْنِ ، أي معنيين متقابلين في الجملة . المطابقة وتسمى الطباق

ويكون ذلك إما بلفظين من نوع واحد :

اسمين، كقوله تعالى : « وَتَحْسَبُهُمْ أيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ » (١)

أو فعلَيْنِ . كقوله تعالى : « تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » (٢) .

وقول النبي عليه السلام للأنصار : « إنكم لَتَكْثُرونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطمع » (٣) وقول أبي صَخْرٍ الهُذَلِيِّ :

---

(١) بعض الآية ١٨ من سورة الكهف .

(٢) بعض الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الفزع هنا : الإغاثة والنصرة، والمراد بالطمع هنا أسبابه من غنائم الحرب .

٤٠٧ ـ أمَا والذي أبكى وأضحكَ والذي
أمات وأحيا والذي أمرُه الأمرُ (١)

وقول بشار :

٤٠٨ ـ إذا أيقظتكَ حروبُ العِـدَى
فَنَبِّـه لها عُمراً ثُمَّ نَـمْ(٢)

أو حرفين ، كقوله تعالى : « لهَا ما كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ » (٣) .

وقول الشاعر :

٤٠٩ ـ على أنني راضٍ بأن أحملَ الهوى
وأخلُصَ منه ، لا عَلَيَّ ، ولا ليا(٤)

وإما بلفظين من نوعين كقوله تعالى : « أوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأحْيَيْنَاه » (٥) . أي : ضالاً فهديناه ، وقول طُفَيْلٍ :

٤١٠ ـ بِساهِم الوجه ، لم تُقْطَعْ أبَاجِلُهُ
يُصانُ ، وَهْوَ ليوم الرَّوْعِ مَبذولُ(٦)

---

(١) « أمره الأمر » قصر « أل » فيه للاستغراق المفيد معنى الكمال ، وجواب القسم في البيت التالي :

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى   أليفين منهما لا يروعهما الذعر

راعه ويروعه : أفزعه . والذعر : الخوف ، والهذلي شاعر أموي .

(٢) صرف « عمر » لضرورة الشعر . والمقصود به عمر بن العلاء قائد جيش المهدي العباسي

(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٤) الهوى : العشق ، والمحمول منه آثاره وآلامه : والبيت لمجنون ليلى .

(٥) بعض الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

(٦) ساهم الوجه : عابسه . الأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق في ذراع الفرس يقصد للتداوي . وطفيل هو ابن عوف الغنوي الجاهلي .

ومن لطيف الطِّباق قول ابن رَشِيقٍ :

٤١١ — وقد أطْفَؤا شمسَ النهار ، وأوقدوا
نجومَ العَوَالي في سَمَاءِ عَجَاجِ (١)

وكذا قول القاضي الأرَّجانِيِّ :

٤١٢ — ولقد نزلْتُ من الملوكِ بماجِـد
فَقْرُ الرِّجالِ إليه مِفْتَاحُ الْغِنَى(٢)

وكذا قول الفَرَزْدَقِ :

٤١٣ — لعن الإلهُ بني كُلَيْبٍ : إنهم
لاَ يَغْدِرون ، ولا يَفُون لجار (٣)
يستيقظون إلى نَهِيقِ حِمَارِهِمْ
وتنـــام أعينُهُـــمْ عن الأوتار

وفي البيت الأول تكميلٌ حسنٌ ؛ إذ لو اقتصر على قوله : « لا يغدرون » لاحتمل الكلام ضرباً من المدح ؛ إذ تجنُّب الغدر قد يكون عن عِفّة ، فقال : « ولا يفون » ليفيد أنه للعجز ، كما أن ترك الوفاء لِلُّؤْمِ .

وحصل مع ذلك إيغالٌ حسن ؛ لأنه لو اقتصر على قوله « لا يغدرون ولا يفون » تمّ المعنى الذي قصده ، ولكنه لما احتاج إلى القافية أفاد بها

(١) العوالي : أعالي الرماح ، وتطلق على الرماح كلها ، واحدها عالية : نجوم العوالي : من إضافة المشبه به للمشبه ، وكذا « سماء عجاج » والعجاج : الغبار والشاعر هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني صاحب العمدة ، توفي سنة ٤٥٦ هـ .

(٢) الأرجاني : هو أبو بكر أحمد بن محمد القاضي ، توفي سنة ٥٤٤ هـ والبيت من شعر يمدح به ابن جهير وزير المستظهر بالله العباسي .

(٣) الأوتار : الثارات ، واحدها وتر ، بكسر الواو ، والبيتان من هجو في جرير .

مَعْنىً زائداً ؛ حيث قال « لجار » لأن ترك الوفاء للجار أشدُّ قُبحاً من ترك الوفاء لغيره .

٢١٨ — والطباق قد يكون ظاهراً كما ذكرنا ، وقد يكون خَفياً نَوْعَ خِفاء كقوله تعالى : « مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا ، فَأُدْخِلوا نَاراً » (١) طابَقَ بين « أغْرِقُوا » و« أدخلوا ناراً » وقول أبي تَمّامٍ :

٤١٤ — مَهَا الوحشِ إلاّ أن هاتا أوانِسٌ
قَنا الخَطِّ ، إلا أن تلك ذَوَابِلُ (٢)

طابق بين « هاتا » و« تلك » .

أقسام الطباق

٢١٩ — والطباق ينقسم :

طباق إيجاب

إلى طباق الإيجاب ، كما تقدم .

طباق سلب

وإلى طباق السَّلْبِ ، وهو : الجمع بين فِعْلَيْ مَصْدرٍ واحد مُثْبِتٍ ومَنْفِيٍّ ، أو أمْرٍ ونَهْيٍ ، كقوله تعالى : « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٣) ، وقوله : « وَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ » (٤) ، وقول الشاعر :

ونُنكِرِ إن شِئنا على الناس قولَهُمْ
ولا ينكرون القولَ حين نقول (٥)

---

(١) بعض الآية ٢٥ من سورة نوح .

(٢) مها : اسم جنس واحده مهاة ، وهي البقرة الوحشية . أوانس : جمع آنسة . وهي المؤنسة من الإنس . قنا : اسم جنس واحده قناة ، وهي الرمح . الخط : مرفأ للسفن بالبحرين ، كانت تجلب إليه أفضل الرماح . ذوابل : غير نضرات .

(٣) بعض الآيتين ٦ ، ٧ من سورة الروم .

(٤) بعض الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٥) انظر الشاهد ٢٢٧ آخر باب الإيجاز والإطناب والمساواة .

وقول البُحتُرِيِّ :

٤١٥ – يُقَيِّضُ لي من حيثُ لا أعلم النَّوَى
وبسري إليَّ الشَّوْقُ من حيثُ أعلم(١)

وقول أبي الطَّيِّبِ :

٤١٦ – ولقد عَرَفْتَ ، وما عَرَفْتَ حقيقةً
ولقد جَهِلْتَ ،وما جَهِلْتَ خُمولا(٢)

وقول الآخر :

٤١٧ – خُلِقوا وما خُلِقوا لمَكْرُمَة
فكأنهم خُلِقُوا ، وما خلقوا
رُزِقوا وما رُزِقُوا سَمَاحَ يَد
فكأنهم رُزِقوا ، وما رزقوا

قيل: ومنه قوله تعالى : « لاَ يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ ، ويَفْعَلُونَ ما يُؤمَرون » (٣) أي : لا يعصون الله في الحال ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل .

وفيه نظر ؛ لأن العصيان يُضادُّ فعلَ المأمور به ، فكيف يكون الجمع بين نفيه وفعل المأمور به تَضاداً ؟!

مثل للطباق

ومن الطِّباق قول أبي تَمَّامٍ .

---

(١) يقيض : يهيأ ويقدر : النوى : الفراق والبعد .

(٢) البيت من قصيدة يمدح المتنبي بها أحمد بن عمار . يقول : عرف ظاهرك ، ولم تعرف حقيقتك ، وجهلت للعجز عن فهم كنهك ، لا لخمول ذكرك .

(٣) بعض الآية ٦ من سورة التحريم ، والضمائر في الآية للملائكة .

٤١٨ – تَرَدَّى ثيابَ الموت حُمْراً ، فما أتَى
لها الليلُ إلا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ(١)

وقول ابن حَيُّوس :

٤١٩ – طالما قُلْتُ للمُسائل عنكم
واعتمادي هِدايةُ الضُّلالِ : (٢)
إن تُرِدْ عِلْمَ حالهم عن يقين
فالْقَهُمْ يومَ نائلٍ أو نِـــزالِ
تَلْقَ بِيضَ الوُجوهِ ، سُودَ مُثارِ النَّـ
قْعِ ، خُضْرَ الأكنافِ، حُمْرَ النِّصالِ

وقول الحريري : « فَمُذِ ازْوَرَّ المحبوبُ الأصفرُ ، واغبرَّ العيشُ

---

(١) تردى الثوب : ارتداه ولبسه . وإذا أبقي التركيب على حقيقته كان المعنى : لبس الأكفان حمراء ، وتكون حمرة الأكفان كناية عن استشهاده بالقتل ، ويجوز أن يجري في التركيب تصريحية وترشيح ، أو تصريحية وتبعية ، وإذا فلا كناية إلا بلون الخضرة في ثياب السندس عن دخول الجنة ؛ فكذلك يلبس أهلها . والسندس : ضرب من نسيج الحرير ، والبيت من رثاء أبي تمام لمحمد بن حميد الطوسي .

(٢) اعتمادي : قصدي وما أعتمده وأعتبره من أسباب قولي ، والشطر كله اعتراض بين القول ومقوله . النائل : العطاء والمعروف . النزال : التقاتل في الحرب . مثار النقع : ما هيج وأثير من الغبار . الأكناف : الجوانب . النصال : جمع نصل . ويطلق على السهم ، والرمح ، والسكين ، وقد يطلق على السيف . بياض وجوههم كناية عن كرمهم ؛ لأنها لا تربد عند لقاء الضيفان . وسواد غبارهم كناية عن شيوع الشجاعة فيهم ؛ لكثرة الزاحفين منهم إلى الحرب . وخضرة أكنافهم كناية عن كمال كرمهم ؛ لأنه كرم عن ثراء ناتج من خصب أرضهم التي اخضرت من أكنافهم ، وحمرة نصالهم كناية عن كمال شجاعتهم لكثرة ما ينالون من أعدائهم نيلا يصبغ السلاح بالدم . وابن حيوس هو أبو الفتيان محمد بن سلطان ، شاعر شامي اتصل بالمرادسيين في حلب ، وتوفي سنة ٤٧٣ هـ .

الأخضرُ . اسودَّ يومي الأبيضُ . وابيضَّ فَوْدِي الأسودُ ؛ حتى رثى لي العدوُّ الأزرقُ ، فيا حبّذا الموتُ الأحمر (٣) » .

التدبيج ومعناه

ومن الناس من سمى نحو ما ذكرناه تدبيجاً ، وفسره بأن يُذْكر في معنىً من المدح أو غيره ألوانٌ بقصد الكناية أو التَّوْرِيَةِ .

أما تدبيج الكناية فكبيت أبي تمام . وبَيْتَي ابنِ حَيُّوس .

وأما تدبيج التورية . فكلفظ الأصفر في قول الحريري .

ما يلحق بالطباق

٢٢٠ — ويلحق بالطباق شيئان :

أحدهما: نحو قوله تعالى: «أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »(٢) فإن الرحمة مُسبَّبة عن اللين الذي هو ضد الشِّدة . وعليه قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمتِهِ جعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ ؛ لِتَسْكنُوا فِيهِ ؛ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » (٣) فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المُضَادَّة للسكون . والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة ، والمراد الأولى لا الثانية .

ومن فاسد هذا الضرب قول أبي الطيِّب :

---

(١) ازور : انصرف وانحرف . المحبوب الأصفر : كناية عن الدينار . واغبرار العيش : كناية عن خشونته ، واخضراره : كناية عن نعومته . واسوداد يومه : كناية عن كثرة همومه ؛ وابيضاضه : كناية عن سروره . الفود : شعر جانب الرأس مما يلي الأذن ، وابيضاضه : كناية عن الضعف والهرم . واسوداده : كناية عن الفتوة والشباب . رثى لي : أشفق علي ورحمني . وزرقة العدو : كناية عن شدة عداوته ، والموت الأحمر كناية عن شدة نوعه كأن يسيل فيه الدم بالقتل .

(٢) بعض الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٣) بعض الآية ٧٣ من سورة القصص .

٤٢٠ ـ لِمَنْ تَطْلُبُ الدنيا إذا لم تُرِدْ بها
سرورَ مُحِبٍّ أو إساءةَ مُجْرِم ؟!(١)

فإن ضد المحب هو المبغِضُ . والمجرم قد لا يكون مُبْغِضاً ، وله وجه بعيد (٢)

إيهام التضاد

والثاني : ما يُسَمَّى إيهامَ التضادِّ (٣) كقول دِعْبِل

٤٢١ ـ لا تَعْجَبِي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ
ضَحِكَ المَشِيبُ برأسه ، فبكى (٤)

وقول أبي تَمَّامٍ

٤٢٢ ـ ما إن تَرَى الأحسابَ بِيضاً وُضَّحاً
إلاَّ بحيثُ تَرَى المَنَايَا سُودا(٥)

---

(١) المجرم : من ارتكب جريمة . والاستفهام إنكاري أشرب معنى التعجب ، والبيت من الكافوريات .

(٢) يمكن إيجاد التقابل بينهما بملاحظة متعلقيهما ، فهو لا يتحدث عن مطلق محب ومطلق مجرم . وإنما يتحدث عن محب لكافور . ومجرم إلى كافور ، والأول محسن إليه بحبه . والثاني مبغض له بدليل إجرامه إليه .

(٣) إيهام التضاد : هو ما يكون التقابل فيه بين الظاهر من مفهوم اللفظين وإن لم يكن بين حقيقة المراد منهما تقابل ما .

(٤) سلم : ترخيم سلمى . وضحك المشيب : تخييلية لمكنية في المشيب ، أو ضحكه استعارة تبعية لإظهاره بياضاً إظهاراً تاماً . أو التبعية جارية في التخييلية مع اعتبار المكنية . فتفيد بباطنها ما بيناه . وتفيد بظاهر لفظها معنى انتصار الشيب عليه وسروره بالتمكن منه . ودعبل هو ابن علي الخزاعي ، شاعر كان يتشيع للعلويين في العهد العباسي . توفي سنة ٢٤٦ هـ .

(٥) إن : نافية مؤكدة لـ « ما » ترى : تبصر . الأحساب : جمع حسب ، وهو شرف الأصل أو ما تعده من مفاخر الآباء . بيضا : نقيات خالصات من الشوائب وطريقه الاستعارة التبعية . وضحا : جمع واضح بمعنى جلي بين . المنايا السود : الميتات المؤلمات . بطريق الاستعارة .

وقوله أيضاً في الشيب :

٤٢٣ ــ له منظرٌ في العين أبيضُ ناصِــعٌ
ولكِنّه في القلب أسودُ أسْفَعُ(١)

وقوله :

٤٢٤ ــ وتَنَظّرِي خَبَبَ الركاب يَنُصُّها
مُحْيِي القَرِيضِ إلى مُمِيتِ المالِ(٢)

* * *

المقابلة ومعناها

٢٢١ ــ ودخل في المطابقة ما يُخَصُّ باسم المقابلة ، وهو : أن يؤتَى بمعنيين متوافقين أو مَعانٍ متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب. والمراد بالتوافق خلاف التقابل .

أنواعها

وقد تتركب المقابلة من طِباقٍ ومُلْحَقٍ به .

مثال مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً » (٣) وقول النبي عليه السلام « إن الرِّفْقَ لا يكون في شيء إلاّ زانَهُ ، ولا يُنْزَعَ من شيء إلاّ شانَهُ » وقول الذبيانيّ :

٤٢٥ ــ فتىً تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَــهُ
على أن فيه ما يَسوءُ الأعادِيَا (٤)

---

(١) أسفع : أسود ضارب إلى الحمرة ، هذه حقيقته ، وأراد بالوصفين معاً أنه مؤذ مؤلم ، وسبيله الاستعارة .

(٢) تنظري : انتظري . خبب الركاب : ضرب من سيرها . يعتمد الخطو فيه على إحدى الرجلين وما يخالف جهتها من اليدين مرة ، ثم على الرجل الثانية واليد المخالفة لها مرة أخرى ، وهكذا على التبادل ، ينصها : يحثها . محيي القريض : الشاعر نفسه . مميت المال : ممدوحه الكريم .

(٣) بعض الآية ٨٢ من سورة التوبة .

(٤) نسبة البيت للنابغة الذبياني خطأ ، وصواب نسبته إلى النابغة الجعدي ، كما في ديوان الحماسة ، وأمالي القالي .

وقول الآخر :

٤٢٦ - فواعَجَبا !! كيف اتفقنا ؟! فناصِحٌ
وَفِيٌّ ، وَمَطْوِيٌّ على الغِلِّ غادِرُ (١)

فإن الغِلَّ ضِدُّ النُّصح ، والغدر ضد الوفاء .

ومثال مقابلة ثلاثة بثلاثة قول أبي دُلامَةَ :

٤٢٧ - ما أحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيا إذا اجتمعا
وأقبحَ الْكُفْرَ والإفلاسَ بالرجل !! (٢)

وقول أبي الطيِّب :

٤٢٨ - فلا الجُودُ يفْنِي المالَ والجَدُّ مُقْبِلٌ
ولا البُخْلُ يُبْقِي المالَ والجَدُّ مُدْبِرُ(٣)

ومثال مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى »(٤) ؛ فإن المراد بـ « استغنى » أنه زَهِدَ فيما عند الله ، كأنه مُستغنٍ عنه ؛ فلم يَتَّقِ ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة ؛ فلم يَتَّقِ .

قيل : وفي قول أبي الطيِّب :

---

(١) الناصح : من لا يغش ولا يخادع ، والغل هنا : الغش . والاستفهام تعجبي ، وبينه وبين ما قبله استئناف بياني .

(٢) أبو دلامة : كنية زند بن الجون ، شاعر السفاح والمنصور والمهدي ، توفي سنة ١٦١ هـ .

(٣) الجد : الحظ .

(٤) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

٤٢٩ ــ أزورُهُمْ وسواد الليل يَشْفَعُ لي
وأنْثَنِي وبياضُ الصبح يُغْرِي بي(١)

مقابلة خمسة بخمسة ، على أن المقابلة الخامسة بين « لي » و« بي» .

وفيه نظر ؛ لأن اللام والباء فيهما صلتا الفعلين ؛ فهما من تمامهما .

وقد رُجِّح بيت أبي الطيِّب على بيت أبي دُلامة بكثرة المقابلة ، مع سهولة النظم ، وبأن قافية هذا مُمْكِنَةٌ وقافية ذاك مُسْتَدعاةٌ ؛ فإن ما ذكره غير مُخْتَص بالرجال .

وبيتُ أبي دلامة على بيت أبي الطيب بجَوْدة المقابلة . فإن ضِدَّ الليل المَحْضِ هو النّهَارُ لا الصبحُ .

ومن لطيف المقابلة ما حُكِيَ عن محمد بن عِمْران الطّلْحِي (٢) إذ قال له المنصور « بلغني أنك بخيل » فقال «يا أمير المؤمنين ما أجْمُدُ في حَقٍّ ولا أذوب في باطل » .

رأي السكاكي في المقابلة

٢٢٢ ــ وقال السكاكي :

المقابلة : أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضِدَّيْهما ، ثم إذا شرطْتَ هنا شرطاً شرطْتَ هناك ضِدَّه . كقوله تعالى « فَأمّا مَنْ

---

(٢) يشفع لي : يعاونني ويساعدني ، وسواد الليل لا يتأتى منه فعل اختياري وإنما يكون ظرفاً للمساعدة وزماناً ، ويصح أن يعتبر حجبه النظر مساعدة . على التشبيه ؛ لأن كلا من العملين ينجيه من الرقباء . أنثني : أرجع وأعود . يغري بي: يحض ويحرض علي ، والحكم فيه حكم شفاعة سواد الليل .

(٣) صوابه « التيمي » كما في «البديع» لابن المعتز . وكان محمد بن عمران قاضي المدينة .

أعطَىٰ » الآيتين (١) . لمّا جعل التيسير مُشترَكا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق ؛ جعل ضدَّه وهو التعسير مُشترَكا بين أضداد تلك ، وهي المنع والاستغناء والتكذيب .

* *

مراعاة النظير

٢٢٣ — ومنه مراعاة النظير وتسمَّى التناسب والائتلاف والتوفيق أيضا . وهي أن يُجمَع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ؛ كقوله تعالى « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » (٢) وقول بعضهم للمُهلَّبيِّ الوزير (٣) « أنت أيها الوزير إسماعيليُّ الوعد ، شُعَيبيُّ التوفيق ، يوسُفيُّ العفو ، مُحَمَّديُّ الخلق (٤) » وقول أسيد بن عَنْقَاء الفزاريِّ :

٤٣٠ — كأن الثُّرَيّا عُلِّقَتْ في جَبِينه
وفي خَدِّه الشِّعْرَى ، وفي وجهه البدر (٥)

---

(١) يقصد الآيتين ٥ ، ٦ من سورة الليل . فقد اعتبر ما فيهما من شروط . وقوبل بمثله في الآيتين ٨ ، ٩ من السورة نفسها .

(٢) الآية ٥ من سورة الرحمن . الحسبان : الحساب .

(٣) المهلبي : هو أبو محمد الحسن بن محمد ، وزير معز الدولة البويهي . شاعر وأديب كاتب . وينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة . توفي سنة ٣٥٢ هـ .

(٤) تراجع الآيتين ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم في صدق إسماعيل ، و٨٨ من سورة هود في توفيق شعيب ، و٩٢ من سورة يوسف في عفو يوسف ، و٤ من سورة القلم في سمو خلق محمد ، صلى الله وسلم عليهم وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين .

(٥) الثريا : اسم لجماعة من الكواكب سبع . والشعرى : كوكب آخر . والبيت بقافيته « البدر » ليس لأسيد ، وإنما قافيته « القمر » وهو من أبيات لها قصة طريفة رواها صاحب « الأمالي » والبيت كما في الإيضاح ثاني بيتين تمثل بهما علي بن أبي طالب بعد موت طلحة ، وأولهما :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى . ويبعده الفقر

وهو من أبيات لسلمى بن يزيد يرثي أخاه لأمه قيس بن سلمة ، وبيت الشاهد ليس منها فكأن عليا رضي الله عنه لفق بين البيتين بشيء من التصرف .

وقول الآخر في فرس :

٤٣١ — من جُلُّنارٍ ناضرٍ خدُّهُ
وأُذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الآسِ(١)

وقول البحتري في صفة الإبل الأنضاء :

٤٣٢ — كالقِسِيِّ المُعَطَّفَاتِ ، بل الأسهُمِ مَبْرِيَّةً ، بل الأوتارِ(٢)

وقول ابن رَشِيقٍ :

٤٣٣ — أصحُّ وأقوى ما سمعناه في النَّدَى
من الخبر المأثور مُنْذُ قديمِ(٣)
أحاديثُ تَرويها السُّيول عن الْحَيَا
عن البحر ، عن كفِّ الأمير تَميمِ

فإنه ناسب فيه بين الصِّحَّةِ ، والقُوَّة ، والسَّماع ، والخبر المأثور ، والأحاديث ، والرواية ، ثم بين السيل ، والحيَا ، والبحر ، وكَفِّ تَميمٍ ، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العَنْعَنَة ؛ إذ جعل الرواية لصاغرٍ عن كابرٍ ، كما يقع في سند الأحاديث ؛ فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر على ما يقال ؛ ولهذا جعل كَفَّ الممدوح أصلا للبحر مُبالغةً .

* * *

---

(١) الجلنار : زهر الرمان ، والآس : الريحان ، والبيت لابن خفاجه الأندلسي إبراهيم بن أبي الفتح المتوفى سنة ٥٣٣ هـ .

(٢) الأنضاء : جمع نضو بكسر النون ، وهو الهزيل النحيل . القسي : جمع قوس وهو آلة رمي السهام . المعطفات : المحنية . الأسهم مبرية : النبال منحوتة . الأوتار : جمع وتر بفتح الواو والتاء جميعاً ، وهو ما يشد بين طرفي القوس لينبض عند الرمي .

(٣) الندى : الكرم . الحيا : المطر . الأمير تميم : هو ابن المعز بن باديس ، من أمراء الدولة الزيرية أو الصنهاجية بإفريقية .

تشابه الأطراف

٢٢٤ ــ ومن مراعاة النظير ما يُسمّيه بعضهم تَشابُهَ الأطراف وهو : أن يُختَتم الكلامُ بما يناسب أوّلَه في المعنى ، كقوله تعالى : « لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ (١) » فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرَةُ تُنَاسب من يُدْرِكُ شيئاً ؛ فإن من يُدْرِكُ شيئاً يكون خبيراً به ، وقوله تعالى : « لَهُ ما في السَّموَاتِ وَمَا في الأرْضِ ، وَإنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ (٢) » قال : « الغنيُّ الحميد » لينبِّه على أن ماله ليس لحاجة ، بل هو غَنِيٌّ عنه ، جَوَادٌ به ، فإذا جاد به حَمِدَهُ المنعَمُ عليه .

ومن خفي هذا الضرب قوله تعالى « إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » (٣) فإن قوله « وَإنْ تَغْفِرْ لهم » يُوهِم أن الفاصلة « الغفور الرحيم » .

ولكن إذا أُنْعِمَ النظرُ عُلِمَ أنه يجب أن تكون ما عليه التِّلاوَةُ ؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحدٌ يَرُدُّ عليه حكمه ، فهو العزيز ؛ لأن العزيز في صفات الله هو الغالب من قولهم : عزّه يَعُزُّهُ عَزّاً ، إذا غَلَبَه ، ومنه المثل « مَنْ عَزَّ بَزَّ » أي : مَنْ غَلَبَ سَلَبَ ، ووجب أن يُوصَف بالحكيم أيضا لأن الحكيم من يضع الشيء في مَحَلِّه ، والله تعالى كذلك ، إلا أنه قد يخفى وَجْهُ الحكمة في بعض أفعاله ؛ فيَتَوهَّمُ الضُّعَفاءُ أنه خارج عن الحكمة ، فكان في الوصف بالحكيم احتراسٌ حَسَنٌ ، أي : وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذابَ فلا مُعْتَرَضَ عليك لأحَدٍ في ذلك ، والحكمة فيما فَعَلْتَه .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٦٤ من سورة الحج .
(٣) الآية ١١٨ من سورة المائدة .

ومما يلحق بالتناسب نحو قوله تعالى : « الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » (١) ويُسَمَّى إيهامَ التناسُب .

• • •

التفويف

٢٢٥ – وأما ما يسميه بعض الناس التفويف ، وهو : أن يُؤتَى في الكلام بمعانٍ متلائمة في جُملٍ مستوية المقادير أو مُتقارِبَتها ، كقول من يصف سحاباً :

٤٣٤ – تَسَرْبَلَ وَشْياً مِنْ خُزُوز تَطَرَّزَتْ
مَطارِفُها طُرْزاً من البَرْق كالتِّبْرِ (٢)
فوَشْيٌ بلا رَقْمٍ ، وَنَقْشٌ بلا يَدٍ
وَدَمْعٌ بلا عَيْنٍ ، وضِحك بلا ثَغْرِ

وكقول عنترة :

٤٣٥ – إن يَلْحَقوا أكْرُرْ ، وإن يَسْتلحِقوا
أَشْدُدْ ، وإن نزلوا بضَنْكٍ أنْزِلِ (٣)

---

(١) الآية ٥ من سورة الرحمن .

(٢) تسربل : لبس . الوشي : الثياب الموشية ، أي المنقوشة . خزوز : جمع – خز ، وهو ضرب من الحرير ، أو الحرير المخلوط بالصوف . تطرزت : أعلمت ونقشت . المطارف : جمع مطرف بضم الميم وكسرها ، وهو رداء من خز ذو أعلام . طرزا بضم فسكون ، مخفف طرز بضمتين : جمع طراز بكسر الطاء ، وهو علم الثوب . الوشي والرقم والنقش كلها بمعنى واحد . والمراد بالأولى والثالثة في البيت الثاني المعنى الحاصل بالمصدر ، والمراد بالثانية المصدر نفسه أي أن المقصود : نقوش موجودة بدون عملية نقش وبدون يد تنقشها . والثغر : فتحة الفم . ودمع وضحك : استعارتان لماء المطر ولمع البرق . والبيتان ينسبان لأبي العباس الناشيء أحد شعراء سيف الدولة ، وللوزير المهلبي .

(٣) إن يلحقوا : يدركوا عدوهم . أكرر : أهجم . إن يستلحقوا : إن يطلبوا لحاقي بهم . أشدد : أركض خيلي وأسرع بها . ضنك : ضيق وشدة . والحديث عنه مع قومه .

وكقول ابن زيدون :

٤٣٦ ــ تِهْ أَحْتَمِلْ ، واحْتَكِمْ أَصْبِرْ ،وعِزَّ أَهُنْ
وَدِلَّ أَخْضَعْ،وقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أُطِعِ (١)

وكقول ديكِ الجنّ :

٤٣٧ ــ أحْلُ ، وَامْرُرْ ، وَضُرَّ . وَانْفَعْ ، وَلِنْ ، وَاخْشُنْ ، وَرِشْ ، وابْرِ ، وانْتَدِبْ لِلْمَعَالي(٢)

فبعضه من مراعاة النظير ، وبعضه من المطابقة .

* * *

الإرصاد

٢٢٦ ــ ومنه الإرصادُ ، ويُسَمَّى : التَّسهيم أيضاً ، وهو : أن يُجْعَلَ قبلَ العَجُز من الفِقْرَةِ أو البيت ما يدل على العَجُز إذا عُرِفَ الرَّوِيُّ ، كقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٣) وقوله : « وَمَا كانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (٤) .

---

(١) ته : تكبر . احتكم : تصرف على هواك . عز : تمنع وتعال أهن : أذل وأخضع . دل : تجرأ علي في تكسر ولطف . وابن زيدون هو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله الشاعر الأندلسي صاحب ولادة ووزير ابن عباد .

(٢) احل : كن حلواً . امرر : كن مراً ، وهما استعارتان بُدل : أسعدني وأشقني ، ولن واخشن : اتصف باللين والخشونة كما تشاء ، وهما استعارتان بدل : أرحني وأتعبني . رش : من راش السهم إذا ألصق الريش بجانبيه ، والمستعار له : قوني . ابر : من برى السهم إذا نحته ، والمستعار له : أضعفني . انتدب للمعالي : استجب لندائهم . وديك الجن هو عبد السلام بن رغبان الشاعر الوصاف الشعوبي ، توفي سنة ٢٣٥ هـ .

(٣) بعض الآية ٤٠ من سورة العنكبوت . (٤) الآية ١٠ من سورة يونس .

وقول زهير :

٤٣٨ – سَئِمْتَ تكاليفَ الحياة ، ومَنْ يعِشْ
ثمانينَ حوْلاً – لا أبالَكَ – يسْأمِ (١)

وقول الآخر :

٤٣٩ – إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ(٢)

وقول البحتري :

٤٤٠ – أبْكيكُما دمْعاً ، ولو أنّي على
قَدْرِ الجوى أبكي بَكَيْتُكما دمَا (٣)

وقوله :

٤٤١ – أحلّتْ دمي مِنْ غير جُرْمٍ ،وحرّمَتْ
بلا سبب يومَ اللّقاء كلامي(٤)
فليسَ الذي حلّلْتِهِ بمُحلّلٍ
وليس الذي حرّمْتِهِ بحرامِ

• • •

٢٢٧ – ومنه المُشاكلة ، وهي : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . المشاكلة

---

(١) سئمت : مللت وتكرهت . تكاليف الحياة : مشقاتها . أبالك : اعتراض ، وهو تركيب يفيد التعظيم في مقام المدح ، على معنى أنك أعظم من أن تنسب لأب ، وهو يفيد التحقير في سياق الذم ، على معنى أنك ضائع النسب مجهول الأب .

(٢) البيت لعمرو بن معديكرب الزبيدي .

(٣) الجوى : شدة الوجد من الحزن أو العشق ، والأول مراده .

(٤) إنها لم تهدر دمه ، ولكن إعراضها عنه وهجرها إياه يؤلمه ويقع من نفسه موقع إهدار الدم ؛ فاستعاره له ، وبين البيتين إيجاز حذف دلت عليه الفاء ، وفيهما التفات ظاهر .

أما الأول فكقوله :

٤٤٢ ـ قالوا : اقْتَرِحْ شيئاً نُجِدْ لك طَبْخَهُ
قُلْتُ : اطْبُخُوا لي جُبَّةً وقَمِيصاً(١)

كأنه قال : خيطوا لي ، وعليه قوله تعالى « تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ » (٢) وقوله « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » (٣) .

ومنه قول أبي تمام :

٤٤٣ ـ مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّها
أَنِّي بَنَيْتُ الجارَ قبلَ المَنْزِلِ ؟(٤)

وشَهِدَ رجل عند شُرَيح ، فقال : إنك لسَبْطُ الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تَجَعَّدْ (٥) عنّي ، فالذي سوَّغ بِناء الجار ، وتَجْعيدَ الشهادة ؛ هو مُراعاةُ المُشاكلة ولولا بِناءُ الدار لم يصحَّ بِناءُ الجار ، ولولا سُبوطَةُ الشهادة لامتنع تَجْعيدها ، ومنه قول بعض العِراقيِّين في قاضٍ شهد عنده برؤية هلال الفطر ، فلم يَقبل شهادته :

---

(١) اقترح : تخير . الجبة : ثوب واسع يلبس فوق الثياب . وهو لأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي ، توفي سنة ٣٩٩ .

(٢) بعض الآية ١١٦ من سورة المائدة .

(٣) بعض الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٤) أفناء : جماعات . واحدها فنء بمعنى جماعة . يعرب : أبو العرب .

(٥) شريح : هو القاضي المعروف . سبط الشهادة : سهلها ومسترسلها ، لم تجعد عني : لم تلتو علي ولم تتعقد . والسبوطة والجعودة حقيقتان في وصف الشعر مجازان في غيره .

٤٤٤ – أتَرَى القــاضِيَ أعْمَــى
أم تُراهُ يتَعَــامَى؟ !(١)
سَرَقَ العيدَ كأن العيد أموالُ اليتَامَــى

وأما الثاني فكقوله تعالى : « صِبْغَةَ اللهِ » (٢) وهو مَصْدرٌ مؤكِّدٌ مُنتصِبٌ عن قوله : « آمَنَّا باللهِ » (٣) والمعنى : تَطهيرَ الله ؛ لأن الإيمان يُطَهِّرُ النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يَغْمِسون أولادهم في ماء أصفر ، يُسَمُّونه المعْمودِيَّةَ ، ويقولون : هو تطهير لهم؛ فأُمِرَ المسلمون أن يقولوا لهم : « قولوا : آمنا بالله » وصبَغنا الله بالإيمان صِبغةً لا مثل صبغتنا ، وطهَّرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالإيمان صبغة ، ولم يصبغ صبغتكم ، وجِيءَ بلفظ الصبغة للمشاكلة ، وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ ؛ لأن قرينة الحال – التي هي سبب النزول ، من غَمْسِ النصارى أولادَهم في الماء الأصفر – دَلَّتْ على ذلك ، كما تقول لمن يَغْرِس الأشجار : اغْرِسْ كما يَغْرِسُ فُلانٌ ، تريد رجلاً يصطنع الكرام .

• • •

الاستطراد

٢٢٨ – ومنه الاستطراد ، وهو : الانتقال من معنى إلى معنى آخر مُتَّصِلٍ به لم يُقصَد بذكر الأول التَّوَصُّلُ إلى ذكر الثاني ، كقول الحماسي :

٤٤٥ – وإنا لقومٌ ما نَرَى القتلَ سُبَّةً
إذا مــا رأتْهُ عــامِرٌ وسَلُولُ(٤)

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد . (٢) بعض الآية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٣٦ من سورة البقرة .

(٤) سبة : عار وعاب ، عامر وسلول ؛ قبيلتان ، والبيت من قصيدة السموأل اللامية المشهورة .

وقول الآخر :

٤٤٦ — إذا ما اتَّقَى اللهَ الفَتَى ، وأطـاعه
فليس به بأسٌ وإن كان من جَرْمِ(١)

وعليه قوله تعالى « يا بَنِي آدَمَ قَدْ أنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً ، ولِباسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ »(٢) .

قال الزمخشري : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عَقِيبَ ذكر السَّوْآت وَخَصْف الوَرَق عليها ، إظهاراً للمِنَّةِ فيما خلق الله من اللباس ولما في العُرْي وكَشْفِ العَوْرَة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستُّر بابٌ عظيم من أبواب التَّقْوَى .

هذا أصله . وقد يكون الثاني هو المقصود ؛ فيُذكَر الأول قبله ؛ ليُتَوَصَّل إليه ، كقول أبي إسحاقَ الصَّابي :

٤٤٧ — إنْ كُنْتُ خُنْتُكَ في المودَّة ساعةً
فذَمَمْتُ سيفَ الدَّوْلَةِ المَحْمُودَا(٣)
وزَعمْتُ أن له شريكاً في العُلَى
وجَحَدْتُهُ في فَضْلِهِ التَّوْحِيد

(١) ليس به بأس : ليس به خوف ، أو حرج ، أو افتقار . جرم : قبيلة ، والبيت لزياد الأعجم .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الأعراف . يواري : يستر ويداري . سوءاتكم : عوراتكم . ريشاً : لباساً فاخراً .

(٣) ساعة : فترة من الزمن . ذممت ... إلخ : جملة دعائية . جحدته كذا : أنكرته عليه . قسماً : مفعول مطلق نائب عن فعله . الغموس من الايمان : هي التي تغمس صاحبها في الإثم ، وهي الكاذبة عمداً ، غريم الدين : مستحقه المطالب به . يقصد أنه يقسم يميناً شديدة لو أقسمها عامداً كاذباً لصدقه غريمه وكف عن مطالبته

قَسَماً لَوَ أني حالِفٌ بِغَمُوسِها
لِغَرِيمِ دَيْنٍ ، ما أرادَ مَزِيدَا

ولا بأس أن يُسمَّى هذا إيهامَ الاستطراد .

* * *

المزاوجة

٢٢٩ – ومنه المُزَاوَجَة ، وهي : أن يُزاوَج بين معنيين في الشرط والجزاء ، كقول البحتري :

٤٤٨ – إذا ما نَهَى النَّاهِي فلَجَّ بِيَ الهوى
أصاخَتْ إلى الواشِي فلَجَّ بها الهَجْرُ(١)

وقوله أيضاً :

٤٤٩ – إذا احْتَرَبَتْ يوماً ففاضَتْ دماؤُهـــا
تذكَّرَتِ القُرْبَى ففاضَتْ دُموعُها(٢)

* * *

العكس أو التبديل

٢٣٠ – ومنه العكس والتبديل ، وهو : أن يُقدَّم في الكلام جُزْءٌ ثم يُؤخَّر ، ويقع على وجوه .

منها : أن يقع بين أحد طَرَفَيْ جملة وما أُضِيفَ إليه ، كقول بعضهم « عادات السادات ، سادات العادات » .

ومنها : أن يقع بين مُتَعَلَّقَيْ فعلين في جملتين ، كقوله تعالى : « يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ » (٣) وكقول الحماسِي :

---

(١) لج : تمادى وأوغل . أصاخت : أنصتت . الواشي : النمام .
(٢) احتربت : تحاربت . القربى : القرابة . فاضت : سالت سيلا يشبه فيضان في كثرته . (٣) بعض الآية ١٩ من سورة الروم .

٤٥٠ – فرَدَّ شعورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً
وردَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُوداً(١)

ومنها : أن يقع بين لفظين في طرَفَي جملتين ، كقوله تعالى « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » (٢) وقوله : « لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، وَلاَ هُمْ يَحِلُونَ لَهُنَّ » (٣) وقوله « ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابهم مِنْ شَيْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ » (٤) وقول الحسن البَصْرِي : إن من خَوفَكَ حَتَّى تَلْقَى الأمنَ ؛ خَيْرٌ مِمَّنْ أمَّنَكَ حتَّى تَلْقَى الخَوْفَ ، وقول أبي الطيب :

٤٥١ – فلا مَجْدَ في الدُّنيا لِمَنْ قَلَّ مالُه
ولا مالَ في الدُّنيا لِمَنْ قَلَّ مجدُه

وقول الآخر :

٤٥٢ – إن اللَّيالِيَ للأنام مَناهِلٌ
تُطْوَى وتُنْشَرُ دُونَها الأعمارُ(٥)

فقِصارُهُنَّ مع الهُمومِ طَوِيلَةٌ
وطِوالهُنَّ مع السُّرُورِ قِصارُ

* * *

(١) قائله عبد الله بن الزبير كما في الحماسة ، أو فضالة بن شريك كما في معجم الشعراء .

(٢) بعض الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٣) بعض الآية ١٠ من سورة الممتحنة .

(٤) بعض الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٥) مناهل : مشبه به ، وهي جمع منهل بمعنى مكان النهل ، وهو الشرب الأول . تطوى وتنشر : بطريق الاستعارة ، أو هما تخييلتان لمكنية في « الأعمار » والبيتان لعتاب بن ورقاء .

الرجوع

٢٣١ ــ ومنه الرُّجوع ، وهو : العَوْدُ على الكلام السابق بالنقض لنُكْتَةٍ ، كقول زُهَيْرٍ :

٤٥٣ ــ قِفْ بالدِّيار التي لم يَعْفُهَا القِدَمُ
بَلَى ، وَغَيَّرَهَا الأَرْوَاحُ والدِّيَمُ(١)

قيل : لمَّا وقف على الديار تسلَّطَتْ عليه كآبةٌ أذْهَلَتْهُ ، فأخبر بما لم يتحقق فقال : لم يَعْفُها القدم ، ثم ثاب إليه عقلُه ، فتدارك كلامه ، فقال : بَلَى وغيَّرها الأرواح والدِّيمُ . وعلى هذا بيتُ الحَمَاسَةِ :

٤٥٤ ــ أَلَيْسَ قليلاً نَظْرَةٌ إن نظرتها
إلَيْكِ ؟ ! وكلاَّ ليسَ منكِ قليلُ(٢)

ونحوه :

٤٥٥ ــ فَأُفٍّ لهذا الدَّهرِ ، لا بَلْ لأهلِه(٣)

* * *

التورية أو الإيهام

٢٣٢ ــ ومنه التَّوْرِيَة . وتُسَمَّى الإيهام أيضاً ، وهي : أن يُطْلَقَ لفظ له مَعْنَيَان : قريبٌ ، وبعيد ، ويراد به البعيدُ منهما .

وهي ضربان : مُجَرَّدة ، ومُرَشَّحة .

أما المُجَرَّدَةُ فهي : التي لا تُجامِع شيئاً مما يُلائم المُوَرَّى به .

---

(١) لم يعفها : لم يمحها أو يبلها . بلى : حرف تصديق يختص بالإيجاب سواء كان قبلها نفي أو إثبات . الأرواح : جمع ريح . الديم : اسم جنس واحدة ديمة ، وهي المطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق .

(٢) كلا : حرف للتنبيه على بطلان الكلام السابق ، وقد تفيده دونه . والبيت زيد بن الطثرية .

(٣) أف : اسم فعل مضارع معناه أتضجر منه وأنكره .

أعني المعنَى القريبَ ، كقوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (١) .

وأما المُرَشَّحَةُ فهي ؛ التي قُرِنَ بها ما يلائم المورَّى به ، اما قبلها ؛ كقوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » (٢) قيل : ومنه قول الحماسي :

٤٥٦ ـ فَلَمَّا نَأَتْ عنّا العَشِيرَةُ كُلُّها
أَنَخْنَا ، فَحَالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهرِ (٣)

فما أَسْلَمَتْنَا عندَ يومِ كَرِيهةٍ
ولا نحنُ أَغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

فإن الإغضاء مما يلائم جَفْنَ العين لا جفن السيف ، وإن كان المراد به إغماد السيوف ؛ لأن السيف إذا أُغْمِدَ انطبق الجفن عليه ، وإذا جُرِّد انفتح ؛ للخلاء الذي بين الدَّفَّتَيْنِ .

وإما بَعْدَها ، كلفظ « الغزالة » في قول القاضي الإمام أبي الفضل عِياضٍ في صَيْفِيَّةٍ بارِدة .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه . استوى : استولى ، وإن تبادر إلى الذهن معنى استقر استقراراً يليق به سبحانه .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الذاريات . بأيد : بقوة ، وإن تبادر إلى الذهن أنه جمع يد بمعنى يليق به سبحانه وإن كان في الناس بمعنى الجارحة .

(٣) نأت عنا : قاطعتنا وجفتنا ، مجازاً . العشيرة : الأقارب الأدنون . أنخنا : أقمنا ، بطريق الكناية . حالفنا السيوف : اكتفينا بأنفسنا واستغنينا عن الأحلاف ، على سبيل الكناية . أسلمتنا : خذلتنا . كريهة : شدة في حرب . أغضينا : أغمضنا وأطبقنا . الجفون : أغماد السيوف على هذا القول ، ومعناها المشهور أغطية العيون ، فإن أريد كان في « وتر » ــ ومعناه ثأر ــ استعارة مكنية . والبيتان لموسى بن جابر الحنفي في أكثر الروايات ، وليحيى بن منصور الحنفي على ما في الحماسة .

لشهر « تَمُّوزَ » أنواعاً من الحُلَلِ (١)

أو الغزالة من طول الْمَدَى خَرِفَتْ

فما تُفَرِّقُ بين الجَدْيِ والحَمَلِ

واعلم أن التوهم ضربان :

التوهم ضربان

ضرب يستحكم حتى يصير اعتقاداً كما في قوله :

٤٥٨ ــ حملناهُمُ طُرّاً على الدُّهْمِ بعدَما

خلعنا عليهم بالطعانِ مَلابِسا (٢)

وضرب لا يبلغ ذلك المبلَغَ . ولكنه شيء يجري في الخاطر وأنت تعرف حاله ، كما في قول ابن الربيع :

٤٥٩ ــ لولاَ التَّطَيُّرُ بالخِلافِ . وأنَّهُمْ

قالوا : مريضٌ لا يَعُودُ مَرِيضا (٣)

لَقَضَيْتُ نَحْبي في فِنائِكَ خِدْمَةً

لأكونَ مَنْدُوباً قَضَى مَفْرُوضا

ولا بُدَّ من اعتبار هذا الأصل في كل شيء بُنِيَ على التوهم ؛ فاعلم.
وقال السكاكي : أكثر متشابهات القرآن من التَّوْرِيَة .

* * *

---

(١) كانون : من شهور البرد . تموز : من شهور الصيف . الحلل : جمع حلة وهي الثوب مطلقاً أو إذا كان جديداً . الغزالة : الشمس . خرفت : اختلت . الجدي والحمل : من بروج السماء .

(٢) طرًّا : جميعاً . الدهم : قيود الحديد ، واحدها أدهم . وإن تبادرت الخيل السود . خلعنا عليهم : ألبسناهم . وفي الدهم بمعنى القيود مكنية تخييليتها « حملنا » ، وفي « خلعنا عليهم » بمعنى « ألبسناهم » استعارة تبعية لصببنا . وفي « ملابساً » تصريحية لدماء .

(٣) التطير : التشاؤم . نحبي : أجلي . فنائك : ساحتك . مندوبا : مبكياً علي ، وإن قرب منه معنى الموافق للسنة .

الاستخدام

٢٣٣ ـ ومنه الاستخدام ، وهو : أن يُراد بلفظ له معنيان أحدَهما ، ثم بضميره معناه الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه أحدُهما ، وبالآخر الآخر .

فالأول كقوله :

٤٦٠ ـ إذا نزلَ السَّماءُ بأرض قوم
رَعَيْنَاهُ ، وإن كانوا غِضابا (١)

أراد بالسماء الغَيْثَ (٢) ، وبضميرها النَّبْتَ (٣) .

والثاني كقول البحتري :

٤٦١ ـ فسقَى الغَضَا والسَّاكنيه ، وإن هُمُ
شَبُّوهُ بين جَوانح وضلوع (٤)

أراد بضمير الغضا في قوله « والساكنيه » المكانَ ، وفي قوله «شَبُّوه» الشجر (٥) .

* * *

(١) البيت لمعاوية بن مالك ، من شعراء المفضليات ، وينسب خطأ لجرير .

(٢) على طريق المجاز المرسل لعلاقة المحلية .

(٣) على طريق المجاز لعلاقة السببية .

(٤) سقى الغضا ... إلخ : دعاء . والغضا : ضرب من الأثل صلب الخشب صبور الجمر . شبوه : أوقدوه . الجوانح : جمع جانحة ، وهي الأضلاع تحت الترائب . ضلوع : خطأ في الرواية ؛ لأن البيت من قصيدة بائية ، والصواب « وقلوب » بدل « وضلوع » وهو أفضل لإقامته معنى جديداً ، بدل أن يكون من عطف التفسير .

(٥) حقه أن يكون « النار » بدل « الشجر » لأنها هي التي تشب ، وإفادة الضمائر ما عدا المعنى الأول للغضا وهو الشجر المعروف إنما يكون على طريق المجاز المرسل ، وضميره في شبوه ـ وإن كان بمعنى ناره ـ استعمل استعمالا مجازياً آخر لمعنى الشوق لعلاقة التشبيه ؛ فهو إذن مجاز على مجاز .

٢٣٤ – ومنه اللّفُّ والنَّشْرُ ، وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ؛ ثِقَةً بأن السامع يردُّه إليه . اللف والنشر

فالأول ضربان :

١ – لأن النَّشْر إما على ترتيب اللّفِّ ، كقوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ؛ لِتَسْكُنُوا فِيهِ . وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » (١) وقول ابن حَيُّوس :

٤٦٢ – فِعْلُ المدامِ ، ولونُها ، ومَذَاقُها
في مُقْلَتَيْهِ ، وَوَجْنَتَيْهِ ، وريقِهِ (٢)

وقول ابن الرومي :

٤٦٣ – آراؤكُم ، ووجوهُكم ، وسُيوفُكُمْ
في الحادثات إذا دَجَوْنَ نجومُ (٣)
فيها مَعَالِمُ للهُدَى ، ومَصابِحُ
تَجْلُو الدُّجَى ، والأخْرَيَاتُ رُجُومُ

٢ – وإما على غير ترتيبه ، كقول ابن حَيُّوس :

---

(١) بعض الآية ٧٣ من سورة القصص .

(٢) المدام : الخمر . مقلتيه : عينيه . وجنتيه : خديه .

(٣) دجون : أظلمن ، وهو استعارة تبعية لمعنى اشتددن وتفاقمن . آراؤكم نجوم : تشبيه . معالم : أدلة ، واحدة معلم وهو ما يقام للارشاد بالطريق . مصابح : مصابيح . تجلو : تكشف . الدجى : جمع دجية ، كالظلم جمع ظلمة وزناً ومعنى . رجوم : جمع رجم بفتح فسكون ، وهي الشهب ، ويقصد من الأخريات آراء الآخرين المغايرين لهم ، وبينها وبين الرجوم تشبيه ، أو أراد بها السيوف لأنها ترجم الأعادي ، وهذا أفضل .

٤٦٤ ـ كيف أسلو ، وأنت حِقْفٌ ، وغُصْنٌ
وغَزَالٌ : لَحْظاً ، وقَدّاً ، ورِدْفَا ؟!(١)

وقال الفرزدق :

٤٦٥ ـ لقد خُنْتَ قوماً لو لَجأتَ إلَيْهِمُ
طَرِيدَ دَمٍ ، أو حامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ (٢)

لألْفَيْتَ فيهم مُعْطِياً ، أو مُطاعِناً
وَرَاءَكَ شَزْراً بالوَشِيجِ المُقَوَّمِ

والثاني كقوله تعالى : «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نَصَارَى» (٣) فإن الضمير في «قالوا» لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى : وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ؛ فَلَفَّ بين القولين ؛ ثِقَةً بأن السامع يردُّ إلى كل فريق قولَه ، وأمْناً من الإلباس ؛ لما عَلِمَ من التَّعادي بين الفريقين ، وتضليلِ كل واحد منهما لصاحبه .

---

(١) أسلو : أنسى وتطيب نفسي . حقف : نقا رمل متراكم مستدير . قداً قواماً . ردفا : عجيزة ، والصواب أن البيت لأبي هلال العسكري كما صرح هو بذلك في الصناعتين .

(٢) طريد: مطارد . دم: ثأر، على سبيل المجاز. المغرم: ما يلزم اداؤه من المال، أو ما يؤدي منه على كره . ألفيت : وجدت . شزراً : مفعول مطلق مبين للنوع معمول لـ «مطاعنا» لأنه من معناه ، وفعله «شزر» من باب ضرب ومعناه : طعن عن يمينه وشماله . الوشيج : شجر الرماح ، وتطلق أيضاً على الرماح أنفسها المقوم : المثقف المعدل .

(٣) بعض الآية ١١١ من سورة البقرة .

الجمع

٢٣٥ — ومنه الجمع ، وهو : أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد ، كقوله تعالى « المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا » (١)
وقول الشاعر :

٤٦٦ — إنَّ الشَّبَابَ والفراغَ والجِدَهْ
مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ أيُّ مَفْسَدَهْ (٢)

ومنه قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تُشْرِقُ الدنيا ببهجتها
شمسُ الضُّحَى ، وأبو إسحق ، والقمرُ (٣)

• • •

التفريق

٢٣٦ — ومنه التفريق ، وهو : إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره ، كقوله :

٤٦٧ — ما نوالُ الغمام وقتَ ربيع
كنوال الأمير يومَ سخاء (٤)

فنوالُ الأمير بَدْرَةُ عَيْن
ونوال الغمام قَطرة ماء

ونحوه قوله :

٤٦٨ — مَنْ قاس جَدْواكَ بالغمام فما
أنصفَ في الحكم بين شَكْلَيْنِ (٥)

---

(١) بعض الآية ٤٧ من سورة الكهف .
(٢) الجدة : الغنى ، والبيت لأبي العتاهية .
(٣) انظر الشاهد رقم ١٠٨ ووقع هناك خطأ برقم ١٠٥ .
(٤) نوال : عطاء . الغمام : السحاب . البدرة : كيس فيه ألف دينار أو عشرة آلاف درهم . عين : ذهب أو فضة . والبيتان لرشيد الدين الوطواط محمد بن محمد ابن عبد الجليل .
(٥) جدواك : عطاؤك . وينسبان للوطواط السالف ذكره ، وللوأواء الدمشقي محمد بن أحمد .

أنت إذا جُدْتَ ضاحِكٌ أبـداً
وهو إذا جـاد دامِـعُ العَيْنِ

* * *

التقسيم

٢٣٧ – ومنه التقسيم ، وهو : ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكُلٍّ إليه على التعيين ، كقول أبي تمام :

٤٦٩ – فما هو إلا الوحي ، أو حَدُّ مُرْهَفٍ
تُميلُ ظُباهُ أخدَعَيْ كلِّ مائل(١)

فهذا دواء الـداء من كـل عالم
وهذا دواء الداء من كـل جاهل

وقول الآخر :

ولا يُقيم على ضَيْمٍ يُراد بـه
إلاَّ الأذلاَّنِ : عَيْرُ الحيِّ ، والوتدُ(٢)

هذا على الخَسْفِ مربوط بِرُمَّتِه
وذا يُشَجُّ ، فلا يَرْثي له أحـد

رأي السكاكي في التقسيم

٢٣٨ – وقال السكاكي : هو أن تذكر شيئاً ذا جُزأين أو أكثر . ثم تُضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك ، كقوله :

٤٧٠ – أديبـان في بَلْـخَ لا يـأكلان
إذا صَحِبا المرءَ – غيرَ الكَبِدْ(٣)

(١) هو : المراد به الأمر والشأن . أو أمر بابك الخرمي وشأنه خاصة ، وقد خرج الأفشين لتأديبه . الوحي : القرآن ، والمراد قبول حكمه . حد مرهف : شفرة سيف . ظباه : جمع ظبة ، وهي حد السيف . الأخدعان : عرقان في صفحتَي العنق ، عبر بهما عن العنق تعبيراً مجازياً .

(٢) انظر الشاهد رقم ٥٠ .

(٣) بلخ : بلد بفارس : الكبد : أل فيه نائبة عن المضاف إليه المحذوف المراد به ضمير المرء المصاحب ، وعدم أكل الآدميين غير كبد من يصاحبهما كناية عن ضعتهما . القناة : الرمح . الوتد : تفتح تاؤه وتكسر .

فهذا طويلٌ كظلِّ القناة
وهذا قصير كظلّ الوتدْ

وهذا يقتضي أن يكون التقسيم أعمّ من اللف والنشر .

• • •

الجمع مع التفريق

٢٣٩ – ومنه : الجمع مع التفريق ، وهو : أن يدخُلَ شيئان في معنى واحد ويُفرَّقَ بين جِهتَيِ الإدخال ، كقوله :

٤٧١ – فوَجْهُكَ كالنار في ضوئها
وقلْبِيَ كالنار في حرِّها(١)

شبّه وجه الحبيب وقلبَ نفسه بالنار ، وفرق بين وجهي المشابهة .

ومنه قوله تعالى « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً » (٢) .

• • • •

الجمع مع التقسيم

٢٤٠ – ومنه : الجمع مع التقسيم ، وهو : جمع متعدّد تحتَ حكمٍ ثم تقسيمُه ، أو تقسيمُه ثم جمعُه ؛ فالأول كقول أبي الطيبِ :

٤٧٢ – حتّى أقام على أرباض خَرْشَنَة
تَشْقَى به الرُّومُ ، والصُّلبانُ ، والبِيَعُ(٣)
للسَّبْيِ ما نكحوا ، والقَتْلِ ما ولدوا
والنَّهْبِ ما جمعوا ، والنَّارِ ما زرعوا

---

(١) البيت لرشيد الدين الوطواط .

(٢) بعض الآية ١٢ من سورة الإسراء .

(٣) أرباض خرشنة : ضواحيها . واحدها ربض ، بفتح الراء والباء جميعاً . وخرشنة : من بلاد الروم . البيع : جمع بيعة بكسر الباء ، وهي المعبد للنصارى أو اليهود. السبي : الأسر . والمقيم : سيف الدولة ، والبيتان من كلام أبي الطيب المتنبي في مدحه .

جمع في البيت الأول شقاء الروم بالممدوح على سبيل الإجمال حيث قال : « تشقى به الروم » ثم قسم في الثاني وفصّله .

والثاني كقول حسّان :

٤٧٣ — قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدُوَّهُمُ
أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا (١)
سَجيّةٌ تلك منهم غيرُ مُحْدَثَةٍ
إنَّ الخلائق — فاعلم — شرُّها البِدَعُ

قسَّمَ في البيت الأول صفة الممدوحين إلى ضرِّ الأعداء ونفْع الأولياء ، ثم جمعها في البيت الثاني حيث قال « سجية تلك » .

ومن لطيف هذا الضرب قولُ الآخر (ابن الرومي) :

٤٧٤ — لو أن ما أنتمُ فيه يدوم لكم
ظننتُ ما أنا فيه دائماً أبدا(٢)
لكن رأيتُ الليالي غيرَ تاركة
ما سَرَّ من حادث أو ساء مُطَّرِدا
فقد سكنتُ إلى أنّي وأنكمُ
سنَستجِدُ خِلافَ الحالَتَيْنِ غدا

فقوله « خلاف الحالتين » جمعٌ لما قسَّمَ لطيفٌ ، وقد ازداد لطفا بحسن ما بناهُ عليه من قوله :

• فقد سكنت إلى أني وأنكم •

* * *

(١) أشياعهم : أنصارهم . سجية : طبيعة وخلق . الخلائق : جمع خليقة ، بمعنى خلق . البدع : جمع بدعة ، وهي الأمر المستحدث .

(٢) مطرداً : متتابعاً مستقيماً يجيء بعضه إثر بعض والأبيات لإبراهيم بن العباس الصولي .

الجمع مع التقسيم والتفريق

٢٤١ – ومنه الجمع مع التفريق والتقسيم ، كقوله تعالى : « يَوْمَ يَأْتِي لا تَكلمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذْنِه ، فمنهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ، لَهُمْ فيهَا زَفيرٌ وَشَهيقٌ ، خَالِدِينَ فيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ والأرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ ربُّكَ ، إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لمَا يُرِيدُ ، وأمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الجنَّةِ خَالِدِينَ فيهَا، مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ ربُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » (١) .

أما الجمع ففي قوله : « يَوْمَ يأتي لاَ تَكلَّم نَفْسٌ إلاَّ بإذْنه » فإن قوله « نَفْسٌ » مُتعدِّدُ معنى ؛ لأن النكرة في سياق النفي تعُمُّ ، وأما التفريق ففي قوله « فمنهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » وأما التقسيم ففي قوله « فأمَّا الَّذِينَ شَقُوا » إلى آخر الآية الثانية .

وقول ابن شرف القيرواني :

٤٧٥ – لمختلِفي الحاجــات جمــعٌ ببابه
فهذا له فَنٌّ ، وهذا له فَــنٌّ (٢)
فللخامــل العَلْيَا ، وللمُعْدِمِ الغنى
وللمذنب العُتْبَى ، وللخائف الأمنُ

التقسيم بمعنى آخر

٢٤٢ – وقد يطلق التقسيم على أمرين :

أحدهما : أن يذكر أحوال الشيء مُضافاً إلى كل حال ما يليق بها ، كقول أبي الطيب :

---

(١) الآيات ١٠٥ – ١٠٨ من سورة هود – مجذوذ : مقطوع .

(٢) فن : حال . الخامل : الساقط لا نباهة لذكره . العليا : مقصور العلياء . لمعدم : من لا يملك شيئاً . العتبى : الرضى . وابن شرف هو محمد بن سعيد بن أحمد لقيرواني صاحب قراضة الذهب .

٤٧٦ – سأطلبُ حقّي بالقَنا ومَشايخٍ
كأنَّهمُ مِنْ طُولِ ما التَثَموا مُرْدُ(١)
ثِقالٌ إذا لاقَوْا ، خِفافٌ إذا دُعُوا
كثيرٌ إذا شَدُّوا ، قليلٌ إذا عُدُّوا

وقوله أيضاً:

بَدَتْ قمراً ، ومالَتْ خُوطَ بانٍ
وفاحَتْ عَنْبراً ، ورَنَتْ غزالا(٢)

ونحوه قول الآخر:

٤٧٧ – سَفَرْنَ بُدُوراً ، وانتَقَبْنَ أهِلَّةً
ومِسْنَ غُصوناً ، والتَفَتْنَ جآذِرا(٣)

والثاني: استيفاء أقسام الشيء بالذكر ، كقوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ؛ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ»(٤).

وقوله «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً»(٥).

ومنه ما حكي عن أعرابي وقف على حَلْقَةِ الحسن ، فقال: «رحم

---

(١) القنا: الرماح ، واحدتها قناة . التثموا: لبسوا اللثام للحرب . مرد: شباب لم تنبت لحاهم ، واحدهم أمرد . ثقال: شديدو الوطأة . خفاف: مسرعون . شدوا: حملوا على أعدائهم .

(٢) انظر الشاهد رقم ٢٩٣ .

(٣) سفرن: كشفن وجوههن . انتقبن: لبسن النقاب . مِسنَ: تمايلن وتبخترن. جآذر: جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية .

(٤) بعض الآية ٣٢ من سورة فاطر .

(٥) بعض الآيتين ٤٩ – ٥٠ من سورة الشورى .

الله منْ تصدّقَ مِنْ فَضْلٍ ، أو آسى مِنْ كفافٍ ، أو آثرَ مِنْ قُوتٍ » (١) فقال الحسن : ما ترك لأحد عذراً .

ومثاله من الشعر قولُ زهيرٍ :

وأعْلَمُ عِلْمَ اليـوم والأمـس قبله
ولكنني عن علم ما في غَدٍ عَـمٍ(٢)

وقول طريح :

٤٧٨ — إن يعلموا الخيرَ يُخْفُوه ، وإن علمـوا
شَرّاً أذاعوا ، وإن لم يعلموا كذبوا(٣)

وقول أبي تمام في الأفْشِين لما أحْرِقَ :

٤٧٩ — صَلّى لها حَيّاً ، وكان وَقودَهـا
مَيْتاً ، ويدخلهـا مع الفُجّـار(٤)

وقول نُصَيبٍ :

٤٨٠ — فقـال فريق القوم « لا » وفريقهم
« نعم » وفريق « لَاُ يْمُنُ الله ما ندري »

فإنه ليس في أقسام الاجابة غير ما ذكر .

---

(١) الحسن : هو البصري المشهور ، آسى : عاون أو صبر وعزى . كفاف : ما كفى وأغنى عن الناس من الرزق . آثر : فضل غيره على نفسه .

(٢) انظر الشاهد رقم ١٨٥ .

(٣) أذاعوا : أفشوا ونشروا ، وطريح : هو ابن اسماعيل الثقفي ، الشاعر الأموي .

(٤) الضمير المستتر في « صلى » يعود على الأفشين ، وهو قائد تركي من قواد المعتصم ، والضمير المنصوب أو المجرور في البيت يعود على النار ، وقصد أبو تمام أن يتهمه بالمجوسية .

وقول الآخر :

٤٨١ ـ فَهَبْهَا كشيء لم يكن ، أو كنازح
به الدارُ ، أو مَنْ غَيَّبَتْهُ المقابر(١)

• • •

التجريد

٢٤٣ ـ ومنه التجريد ، وهو : أن يُنْتَزَعَ من أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخرُ مثله في تلك الصفة ، مبالغةً في كمالها فيه .

أقسامه

وهو أقسام :

منها : نحو قولهم « لي من فُلاَنٍ صديقٌ حَمِيمٌ » أي : بلغ من الصداقة مبلغاً صح معه أن يُسْتَخْلَصَ منه صديقٌ آخر .

ومنها : نحو قولهم « لئن سألتَ فلاناً لتسألَنَّ به البحرَ » .

ومنها : نحو قول الشاعر :

٤٨٢ ـ وَشَوْهاء تَعْدُو بي إلى صارخ الوَغَى
بمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ الفَنِيقِ المُرَحَّلِ(٢)

أي : تعدو بي ؛ ومعي من نفسي ـ لكمال استعدادها للحرب ـ مُسْتَلْئِمٌ ، أي : لابسُ لأمَةٍ .

ومنها : نحو قوله تعالى : « لَهُمْ فيهَا دَارُ الخُلْدِ » (٣) ؛ فإن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ هي دار الخلد ، لكن انتُزِعَ منها مثلها ، وَجُعِلَ مُعَدّاً فيها للكفار ؛ تهويلاً لأمرها .

---

(١) نازح : بعيد . والبيت لعمر بن أبي ربيعة .

(٢) شوهاء : وصف لفرسه ، يعني أنها مشوهة قبيحة المنظر . الوغى : الحرب ، وصارخها : المستغيث فيها أو بسببها ، مستلئم : لابس اللأمة وهي الدرع . الفنيق : فحل الإبل الكريم يخلى من العمل للفحلة . المرحل : المطلق المرسل ، يشبه نفسه بهذا الفحل .

(٣) بعض الآية ٢٨ من سورة فصلت .

ومنها : نحو قول الحماسي :

٤٨٣ - فَلَئِنْ بَقيتُ لأرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ
تَحْوي الغَنَائِمَ أو يَمُوتَ كَرِيمُ(١)

وعليه قراءةُ من قرأ : « فإذَا انشَقَّتِ السمَّاء فكانَتْ وَرْدَةٌ كالدهان » (٢) بالرفع ، بمعنى : فحصلت سمَاءٌ وَرْدَةٌ .

وقيل : تقديرُ الأول أو يموت مني كريم ، والثاني : فكانت منه وردة كالدهان ، وفيه نظر .

ومنها : نحو قوله :

٤٨٤ - يا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ، ولا
يشربُ كأساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلا(٣)

ونحوه قول الآخر :

٤٨٥ - إن تَلْقَنِي لا ترى غيري بنــاظرة
تَنْسَ السِّلاحَ وتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأسَدِ(٤)

ومنها : مخاطبة الإنسان نفسه ، كقول الأعشى :

٤٨٦ - وَدِّع هُرَيْرَةَ إن الركب مُرْتَحِلُ
وهل تُطيق وَداعاً أيها الرجل ؟ !(٥)

---

(١) « أو » بمعنى « إلا » والبيت لقتادة بن مسلمة الحنفي .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الرحمن .

(٣) المطي : الركائب ، واحدة مطية ، والبيت للأعشى الأكبر أعشى قيس .

(٤) بناظرة : بعين ناظرة ، والبيت لأرطاة بن سهية .

(٥) في الشطر الأول استئناف بياني ، والاستفهام في الثاني إنكاري ، والأعشى أعشى قيس .

وقول أبي الطيب :

٤٨٧ ــ لا خيلَ عِنْدَكَ تُهديها ولا مـــالُ
فليُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم يُسْعِدِ الحالُ(١)

* * *

المبالغة وأنواعها

٢٤٤ ــ ومنه : المبالغة المقبولة .

والمبالغة : أن يُدَّعى لوصف بلوغُه في الشدة أو الضعف حدّاً مستحيلاً أو مستبعداً ؛ لئلا يُظَنَّ أنه غير مُتَنَاهٍ في الشدة أو الضعف .

وتنحصر في التبليغ ، والاغراق ، والغُلُوّ ؛ لأن المدعّى للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنا في نفسه ، أولا : الثاني الغُلُوُّ ، والأول إما أن يكون ممكنا في العادة أيضا ، أوْ لاَ : الأول التبليغ ، والثاني الإغراق .

١ ــ أما التبليغ فكقول امرىء القيس :

٤٨٨ ــ فعادَى عِداءً بين ثَوْرٍ ونعجـــة
دِراكـــاً فلَم يَنْضَحْ بماء فيغسِلِ(٢)

وَصَفَ هذا الفرسَ بأنه ادرك ثوراً وبقرةً وَحْشِيَّين في مِضمار واحد ولم يَعْرَق ، وذلك غير ممتنع عقلاً ولا عادة ، ومثلُه قولُ أبي الطيب :

---

(١) يريد من النطق قول الشعر في مدح فاتك جزاء ما منحه من هبات .

(٢) عادى بين الصيدين : صرع أحدهما إثر الآخر في طلق واحد ، فهو إذن بمعنى واصل العدو . نعجة : بقرة وحشية . دراكا : متتابعاً ، وهو وصف لقوله « عداء » لم ينضح : لم يرشح .

٤٨٩ ــ وأَصْرَعُ أيَّ الوحش قَفَيْتُــهُ به
وأنزل عنه مِثْلَه حِينَ أركَبُ(١)

٢ ــ وأما الإغراق كقول الآخر :

٤٩٠ ــ ونُكرِم جارَنا ما دام فينـــا
ونُتْبِعه الكرامَـــةَ حيث مـــالا(٢)

فإنه ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يُتْبِعه الكرامَة ، وهذا ممتنع عادة ، وإن كان غيرَ ممتنع عقلا .

وهما مقبولان .

٣ ــ وأما الغلو فكقول أبي نُوَاسٍ :

٤٩١ ــ وأخَفْتَ أهل الشِّرْكِ ، حتى إنـه
لَتَخافُك النُّطَفُ التي لم تُخْلَق(٣)

المقبول من الغلو

والمقبول منه أصناف :

أحدها : ما أُدْخِل عليه ما يُقَرِّبُه إلى الصحة ، نحو لفظة يكاد في في قوله تعالى : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ »(٤) في قول الشاعر يصف فرساً :

٤٩٢ ــ ويكـــاد يخرج سُرْعَـــةً عن ظلـــه
لو كان يرغب في فراق رفيق (٥)

والثاني : ما تضمن نوعاً حسناً من التخييل ، كقول أبي الطيب :

---

(١) أصرع : أطرح أرضاً . قفيته : أتبعته .

(٢) مال : عدل وانتقل . وقائله عمرو بن الأيهم التغلبي ، كما في نقد الشعر لقدامة

(٣) النطف : واحدها نطفة ، وهي ماء الرجل قبل أن يتخلق في الرحم .

(٤) بعض الآية ٣٥ من سورة النور .

(٥) سرعة : مفعول لأجله . والبيت لابن حمديس الصقلي ، أبي محمد عبد الجبار ابن أبي بكر .

٤٩٣ ـ عَقَدَتْ سنابكُهـا عليها عِثْيَراً
لو تبتغي عَنَقاً عليه لأمكنـا(١)

وقد جمع القاضي الأرَّجانِيُّ بينهما في قوله يصف الليل بالطول :

٤٩٤ ـ يُخَيَّلُ لي أن سُمِّرَ الشُّهْبُ في الدُّجَى
وشُدَّتْ بأهدابي إليهنَّ أجفـاني(٢)

والثالث : ما أُخْرِجَ مُخْرَجَ الهزل والخلاعة ، كقول الآخر :

٤٩٥ ـ أسكر بالأمس إن عَزَمْتُ على الشُّرْب غداً ، إنَّ ذامن العَجَبِ

* * *

المذهب الكلامي

٢٤٥ ـ ومنه : المذهب الكلامي ، وهو : أن يورد المتكلم حُجَّةً لما يَدَّعيه على طريق أهل الكلام ، كقوله تعالى « لَوْ كَانَ فيهمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » (٣) .

وقوله « وَهُوَ الَّذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُه ، وَهُوَ أهْوَنُ عَلَيْهِ » (٤) أي : والإعادة أهون عليه من البَدْءِ ، والأهون من البدء أدْخَلُ في الإمكان من البدء ؛ فالإعادة أدخل في الإمكان من البدء ، وهو المطلوب .

---

(١) سنابكها : أطراف حوافرها . واحده سنبك . عثيراً : غباراً . عنقاً : سيراً سريعاً .

(٢) سمر : ثبت وشد بالمسامير . الشهب ، هنا : الكواكب . وعينه مخففة بالسكون عن الضم ، واحده شهاب .

(٣) بعض الآية ٢٢ من سورة الانبياء .

(٤) بعض الآية ٢٧ من سورة الروم .

وقوله تعالى « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ » (١) أي : القمر آفلٌ ، وربي ليس بآفل ، فالقمر ليس بربي .

وقوله تعالى « قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » (٢) أي : أنتم تعذَّبون ، والبَنُون لا يعذَّبون . فلستم ببنين له .

ومنه قول النابغة يعتذر إلى النُّعمان :

٤٩٦ – حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً
وليس وراءَ الله للمرء مَطْلَبُ(٣)

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني خيانةً
لمبلِّغك الواشي أَغشُّ وأكذبُ

ولكنَّني كنتُ أمرأً ليَ جانبٌ
من الأرض فيه مُسْتَرادٌ ومَذهبُ

مُلوكٌ ، وإخوان ، إذا ما مدحتُهم
أُحَكَّمُ في أموالهم وأُقَرَّبُ

كفِعْلِكَ في قومٍ أراكَ اصطفيتَهُمْ
فلم تَرَهُمْ في مدحِهِم لَكَ أذنبوا

يقول : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إليَّ قومٌ

---

(١) بعض الآية ٧٦ من سورة الأنعام . أفل : غاب واختفى .

(٢) بعض الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٣) الريبة : الشك . ليس وراء الله ... إلخ : لا يطلب بعد القسم بالله دليل آخر على البراءة . أغش : أخون ، والمفضل عليه ملحوظ تقديره : من كل غاش ، ومن كل كاذب . مستراد : طلب رزق ، أو مكان يطلب فيه الرزق . مذهب : سبيل وطريق للحاجات . ملوك : يقصد بهم غساسنة الشام . إخوان : يشير به إلى حسن معاملتهم له وعدم ترفعهم عليه شأن الملوك ، وفي أكثر النسخ « أراك اصطنعتهم »

فمدحتهم ، فكما أنَّ مدحَ أولئك لا يُعدُّ ذنبا ؛ فكذلك مدحي لمن أحْسَنَ إليَّ لا يُعَدُّ ذنبا .

* * *

حسن التعليل

٢٤٦ — ومنه : حسن التعليل . وهو : أن يُدَّعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي .

أقسامه

وهو أربعة أقسام ؛ لأن الوصف إما ثابت قُصِدَ بيانُ علته ، أو غير ثابت أُرِيدَ إثباته ، والأول إما أن لا يظهر له في العادة علة ، أو يظهر له علة غير المذكورة ، والثاني إما ممكن ، أو غير ممكن .

أما الأول فكقول أبي الطيب :

٤٩٧ — لم يَحْكِ نائلَكَ السحابُ ، وإنَّما
حُمَّتْ به فَصَبيبُها الرُّحَضَاءُ (١)

فإن نزول المطر لا يظهر له في العادة علة ، وكقول أبي تمام :

٤٩٨ — لا تُنْكري عَطَلَ الكريم من الغنى
فالسَّيْلُ حربٌ للمكان العالي(٢)

علَّل عدم إصابة الغنَى الكريمَ بالقياس على عدم إصابة السيل المكانَ العاليَ كالطَّوْد العظيم ، من جهة أن الكريم — لاتِّصافه بعلو القدر — كالمكان العالي ، والغنَى لحاجة الخلق إليه كالسيل .

ومن لطيف هذا الضرب قولُ أبي هلال العسكري :

---

(١) نائلك : عطاءك ، حمت به : أصابتها الحمى بسبب الغيرة منه . صبيبها : ما تصبه . الرحضاء : عرق الحمى .

(٢) عطل الكريم : خلوه وفراغه .

٤٩٩ – زعم البَنَفْسَج أنه كعذاره
حُسْناً ، فَسَلُّوا من قَفاهُ لِسانَهُ(١)

وقول ابن نُبَاتة في صفة فرس :

٥٠٠ – وأدْهَمَ يستَمِدُّ الليلُ منه
وتَطْلُعُ بين عينيه الثُّرَيَّا(٢)
سَرَى خَلْفَ الصباح يطير مَشْياً
ويَطْوِي خلفه الأفلاكَ طَيَّاً
فلما خاف وَشْكَ الفَوْتِ منه
تَشَبَّثَ بالقوائم والمُحَيَّا

وأما الثاني فكقول أبي الطيب :

٥٠١ – ما بِهِ قَتْلُ أعاديه ، ولَكِنْ
يَتَّقِي إخلافَ ما ترجو الذِّئابُ(٣)

فإن قتل الملوك أعداءهم في العادة لإرادة هلاكهم ، وأن يدفعوا مضارَّهم عن أنفسهم ؛ حتى يَصْفُوَ لهم مُلْكُهُم من منازعتهم . لا لما ادَّعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومَحَبَّته أن يُصَدِّق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ؛ لما علم أنه كلما غدا للحرب غَدَتِ الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم .

---

(١) البنفسج : مقصود به زهره المعروف ، وقد استخرج العسكري هذا المعنى بدقة ملاحظته لما تمتاز به هذه الزهرة من وجود نبتة زائدة في جانب تحت قمعها . العذار : شعر اللحية في جانب الوجه . سلوا : انتزعوا واستخرجوا .

(٢) أدهم : فرس أسود . الثريا : كوكب معروف استعارة لغرة الفرس . يطير : مستعار لـ « يعدو » الأفلاك : مدارات النجوم ، وطيها خلفه استعارة لقطع مسافاتها بسرعة فائقة . وشك ، بفتح فسكون : سرعة . تشبث : تعلق . القوائم . أيدي الدابة وأرجلها . المحيا : الوجه .

(٣) يتقي : يخشى ويخاف . إخلاف ما ترجوه : عدم الوفاء به .

وهذا مبالغة في وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييليٍّ ، أي تَنَاهى في الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العَجْمِ ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه .

وفيه نوع آخر من المدح . وهو أنه ليس ممن يُسْرِف في القتل طاعةً للغيظ والحنَق .

وكقول أبي طالب المأمونيِّ في بعض الوزراء ببُخارَى :

٥٠٢ ـ مُغْرَمٌ بالثناء، صَبٌّ بكسب المجد، يهتزُّ للسماح ارتياحا(١)

لا يذوق الإغفاء إلاَّ رَجاءً
أن يرى طَيْفَ مُسْتَميحٍ رَواحا

وكأن تقييده بالرَّواح ليشير إلى أن العُفَاةَ إنما يحضرون له في صدر النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قَلُّوا ، فهو يشتاق اليهم ، فينام ليأنس برؤية طيفهم ، وأصله من نحو قول الآخر :

٥٠٣ ـ وإني لأَسْتَغْفِي ، وما بيَ نَعْسَةٌ
لعلَّ خيالا منكِ يَلْقَي خياليَا(٢)

وهذا غيرُ بعيد أن يكون أيضاً من هذا الضرب ، إلا أنه لا يبلغ في الغرابة والبعد عن العادة ذلك المبلغ ؛ فإنه قد يُتصوَّرُ أن يريد المُغْرَمُ المُتَيَّمُ إذا بعدُ عهده بحبيبه أن يراه في المنام؛ فيريد النوم لذلك خاصَّةً .

---

(١) مغرم ، ومثله صب : شديد الحب . يهتز : يرتاح . السماح : الجود . الإغفاء : النوم الخفيف . الطيف : الخيال الذي يتراءى في النوم . مستميح : طالب عطاء . رواحا : عشاء ، والقصد ليلا ، وهو منصوب على الظرفية . والمأموني هو عبد السلام بن الحسين ، ينتهي نسبه إلى الخليفة المأمون ، وتوفي في سنة ٣٨٣ هـ .

(٢) أستغفي : أطلب الإغفاء . نعسة : نوم . ما بي كذا : لا حاجة لي فيه . البيت لمجنون ليلى قيس بن الملوح .

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز :

٥٠٤ – قالوا : اشتكتْ عينُه ، فقلتُ لهم : من كثرة القتل نالها الوَصَبُ(١)
حُمرتُها من دماء مَنْ قَتَلَتْ والدمُ في النَّصْلِ شاهدٌ عَجَبُ

وقول الآخر :

٥٠٥ – أتَتْني تؤنِّبُني بالبُكا فأهلاً بها وبتأنيبها (٢)
تقول – وفي قولها حِشْمَةٌ – أتبكي بعين تراني بها؟ !
فقلتُ : إذا استحسنت غيرَكم أمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

وذلك أن العادة في دمع العين أن يكون السببُ فيه إعراضَ الحبيب ، أو اعتراضَ الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب ، لا ما جعلهُ من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب .

وأما الثالث فكقول مُسْلِم بن الوَليد :

---

(١) الوصب : المرض والوجع الدائم . النصل : يطلق على بعض أدوات القتال ومنها السكين والسيف . والشطر الثاني تذييل ، وفيه تشبيه ضمني . شاهد عجب : شاهد عظيم ، والعجب في الحقيقة انفعال النفس لاستعظام شيء أو استنكاره أو أشبه ذلك ، وقد عبر به عن العظمة لأنه مسبب عنها .

(٢) تؤنبني : تلومني . أهلا : عبارة للترحيب ، وعامله محذوف تقديره « تلقى » أو مثله مما يستقيم به المعنى . بها : متعلق بقوله « أهلا » على معنى « مرحبين » . والحشمة في البيت الثاني بمعنى الغضب . والاستفهام إنكاري ، وتنسب الأبيات في « أزهار الرياض » لابن العربي ، ولكنها أقدم منه ؛ وذلك لأنها من شواهد عبد القاهر ، وأبي هلال ، وهما قبله ، وينسبها شارح شواهد الإيضاح لابن المعتز .

٥٠٦ — يا واشيا حَسُنَتْ فينا إساءتُـه
نَجَّى حِذَارُكَ إنساني من الغَرَقِ(١)

فإن استحسان إساءة الواشي ممكن ، لكن لما خالف الناسَ فيه عقَّبه بذكر سببه ، وهو أن حِذَارَهُ من الواشي مَنَعه من البكاء ، فسلم إنسانُ عينه من الغرق في الدموع وما حَصَّل ذلك فهو حسن .

وأما الرابع فكمعنى بيت فارسي ترجمته :

٥٠٧ — لو لم تكن نِيَّةُ الجَوْزاء خِدْمَتَهُ
لما رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَطِقِ(٢)

فإن نِيَّة الجوزاء خِدْمَتَهُ مُمْتَنِعةٌ .

٢٤٧ — ومما يلحق بالتعليل — وليس به ؛ لبناء الأمر فيه على الشك — نحوُ قولِ أبي تمامٍ :

٥٠٨ — رُبىً شفعَتْ ريحُ الصَّبا لرياضِهـا
إلى المُزْنِ حتى جادَها وَهْوَ هامع(٣)

(١) حذارك : الخوف منك ، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله . إنساني : حبة عيني مجازاً لعلاقة الجزئية ، والإنسان في الحقيقة سوادها ، أو ما يرى في سوادها كالصورة ، ونجاته من الغرق كناية عن عدم البكاء أو قلته .

(٢) الجوزاء : برج في السماء ، وحولها نجوم تسمى نطاق الجوزاء . العقد : ما يلبس في العنق ، ومراده به هنا هذا النطاق المشبه له بترصيعه على طريق الاستعارة . والمنتطق : لابس النطاق أو المنطقة ، وهي ما يشد به الوسط .

(٣) ربى ، جمع ربوة ، وهي المكان المرتفع . الصبا : ريح يهبها الشرق ؛ فإضافتها إلى « ريح » بيانية . الرياض : جمع روضة ، وهي هنا الأرض المخضرة بالنبات . المزن : السحاب الأبيض ، واحدته مزنة . جادها : أمطرها . هامع : سيال . الغر : جمع غراء ، وهي من السحاب البيضاء ، وهو مطابق لقوله « المزن » . ترقا : مخفف ترقأ بمعنى تسكن وتجف وتنقطع .

كأن السحاب الغُرَّ غَيَّبْنَ تحتَهـا
حبيبا فما تَرْقا لهُنَّ مدامـعُ

وقول أبي الطيب :

٤٠٩ – رحَلَ العزاءُ برحلتي . فكأنني
أتبعته الأنفاسَ للتشييع(١)

علّةُ تصعيد الأنفاس في العادة هي التحسُّر والتأسُّف . لا ما جوّز أن يكون إيّاه . والمعنى : رَحَلَ عني العزاء بارتحالي عنك . أي : معه . أو بسببه . فكأنه لما كان الصدر مَحَلَّ الصبر . وكانت الأنفاس تتصعَّد منه أيضاً : صار العزاء وتنفس الصُّعَداء كأنهما نزيلان . فلما رَحَلَ ذلك كان حقّاً على هذا أن يشيِّعه . قضاءً لحقِّ الصُّحبة .

* * *

٢٤٨ – ومنه التفريع ، وهو : أن يُثْبِتَ لمُتعلق أمرٍ حكمٌ بعد إثباته لمُتعلّقٍ له آخر . كقول الكميت : التفريع

٥١٠ – أحلامكم لسَقام الجهـل شافيـةٌ
كما دِماؤكُمُ تشفي من الكَلَبِ(٢)

فَرَّعَ من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل وَصْفَهم بشفاء دمائهم من داء الكَلَبِ .

* * *

(١) العزاء : الصبر . التشييع : التوديع .

(٢) الأحلام : جمع حلم ، وهو الأناة وضد السفه والطيش . سقام : مرض . الجهل : السفه والطيش والخفة . الكلب : جنون الكلاب ، فعله من باب فرح ، وهو معد للانسان بالعض ، وعقيدة العرب كانت أن دواءه شرب دماء الأشراف السادة . والكميت بن زيد شاعر كان يتشيع للعلويين في أيام الأمويين .

تأكيد المدح بما يشبه الذم
أضربه

٢٤٩ — ومنه تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو ضربان :

أفضلهما أن يستثنى من صفة ذم مَنْفِيَّةٍ عن الشيء صفةُ مدح بتقدير دخولها فيها ، كقول النابغة الذبياني :

٥١١ — ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
بِهِنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ(١)

أي : إن كان فلول السيف من قراع الكتائب من قبيل العيب ؛ فأثبت شيئاً من العيب ، على تقدير أن فلول السيف منه ، وذلك مُحال ؛ فهو في المعنى تعليقٌ بالمحال ؛ كقولهم « حتى يَبْيَضَّ القارُ » .

فالتأكيد فيه من وجهين :

أحدهما : أنه كدَعْوَى الشيء ببيِّنة .

والثاني : أن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلا ، فإذا نطق المتكلم بإلا أو نحوها ؛ توهَّم السامع قبل أن ينطِق بما بعدها أنَّ ما يأتي بعدها مُخرَجٌ مما قبلها ، فيكون شيء من صفة الذم ثابتا ، وهذا ذَمٌّ ، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح ؛ لكونه مدحاً على مدح وإن كان فيه نوع من الخلابة .

والثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم « أنا أفصح العرب ، بَيْدَ أنِّي من قريش » .

وأصل الاستثناء في هذا الضرب أيضاً أن يكون منقطعاً ، لكنه باق على حاله لم يقدر مُتَّصِلا ، فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين ، ولهذا قلنا : الأول أفضل . ومنه قول النابغة الجعدي :

٥١٢ — فتىً كملتْ أخلاقُه ، غير أنه
جواد ؛ فما يُبْقِي من المال باقيا

---

(١) فلول : ثلم ، واحد الأول فل ، والثاني ثلمة . قراع : مضاربة . الكتائب : جمع كتيبة ، وهي الجماعة من الجيش .

وأما قوله تعالى « لاَ يَسْمَعُونَ فيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ، إلاَّ قيلاً سَلاَماً سَلاَماً » (١) فيحتمل الوجهين .

وأما قوله تعالى « لاَ يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إلاَّ سَلاَماً » (٢) فيحتملهما ، ويحتمل وجهاً ثالثاً ، وهو أن يكون الاستثناء من أصله متصلاً ، لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ، وأهل الجنة عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهرهُ من قبيل اللغو وفضول الكلام ، لولا ما فيه من فائدة الاكرام .

* * *

٢٥٠ — ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضرب ثالث ، وهو : أن يأتي الاستثناء فيه مُفرَّغاً، كقوله تعالى «وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أن آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنا لَمَّا جَاءَتْنَا » (٣) أي : وما تَعيبُ منا إلا أصلَ المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان بأيات الله . ضرب ثالث منه

ونحوه قوله « قُلْ : يَا أَهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أنْ آمَنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ؟ » (٤) فإن الاستفهام فيه للإنكار .

واعلم أن الاستدراك في هذا الباب يجري مجرى الاستثناء ، كما في قول أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني :

٥١٣ — هو البدر ، إلا أنه البحر زاخـــــر
سوى أنه الضِّرغام ، لكنَّهُ الوَبْلُ (٥)

* * * *

(١) الآيتان ٢٥ — ٢٦ من سورة الواقعة .

(٢) بعض الآية ٦٢ من سورة مريم .

(٣) بعض الآية ١٢٦ من سورة الأعراف .

(٤) بعض الآية ٥٩ من سورة المائدة .

(٥) زاخر : طام ممتلىء . الضرغام : الأسد : الوبل : المطر الغزير . وبديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني أول كتاب فن المقامات ،

تأكيد الذم بما يشبه المدح

٢٥١ ــ ومنه تأكيد الذم بما يشبه المدح ، وهو ضربان :

أحدهما : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفةُ ذم بتقدير دخولها فيها ، كقولك : فلانٌ لا خير فيه إلا أنه يسيء إلى مَنْ يحسن إليه .

وثانيهما : أن يُثبَت للشيء صفةُ ذم ، ويعقَّب بأداة استثناء تليها صفةُ ذم أخرى له ، كقولك : فلان فاسق إلا أنه جاهل .

وتحقيق القول فيهما على قياس ما تقدم .

* * *

الاستتباع

٢٥٢ ــ ومنه الاستتباع . وهو : المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر ، كقول أبي الطيب :

٥١٤ ــ نَهَبْتَ من الأعمارِ مالو حَوَيْتَهُ
لهُنِّئَتِ الدنيا بأنك خالد(١)

فإنه مدحه ببلوغه النهايةَ في الشجاعة إذ كثر قتلاه ، بحيث لو ورِث أعمارَهم لخلد في الدنيا ، على وجه استتبع مدحه بكونه سبباً لصلاح الدنيا ونظامها ، حيث جعل الدنيا مُهنَّأة بخلوده .

قال علي بن عيسى الرَّبعِيّ : وفيه وجهان آخران من المدح ، أحدهما أنه نَهَب الأعمار دون الأموال ، والثاني أنه لم يكن ظالماً في قتل أحد من مقتوليه ؛ لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه .

* * *

٢٥٣ ــ ومنه الإدماج ، وهو : أن يضمَّن كلامٌ سِيقَ لمعنى معنىً آخرَ ؛ فهو أعمُّ من الاستتباع ، ومثاله قول أبي الطيب :

---

(١) النهب : أخذ الشيء غلبة وقهرا ، وهو لم يأخذ الاعمار ، وإنما أنهاها بالقتل ، فاستعمال « نهب » هنا استعارة ، والمخاطب سيف الدولة الحمداني .

٥١٥ – أقلّبُ فيه أجفاني ، كأني
أعُدُّ بها على الدهر الذُّنوبا(١)

فإنه ضمَّن وصفَ الليل بالطولِ (٢) الشَّكايةَ من الدهر .

وقول ابن المعتز في الخيريِّ :

٥١٦ – قد نفض العاشقون ما صنع الهَجْرُ بألوانهم على ورَقِهْ(٣)

فإن الغرض وصف الخيري بالصفرة ، فأدمج الغزل في الوصف .

وفيه وجه آخر من الحسن . وهو إيهام الجمع بين متنافيين ، أعني الإيجاز والإطناب ، أما الإيجاز فمن جهة الإدماج ، وأما الإطناب فلأن أصل المعنى أنه أصفر ؛ فاللفظ زائد عليه لفائدة .

ومنه قول ابن نُباتَةَ :

٥١٧ – ولا بُدَّ لي من جَهْلةٍ في وصاله
فمَنْ لي بخِلٍّ أودِعُ الحِلْمَ عندَهُ؟!(٤)

فإنه ضمَّن الغزلَ الفخرَ بكونه حليما ؛ المكنى عنه بالاستفهام عن وجود خل صالح لأن يودعه حلمه، وضمَّن الفخر بذلك – بإخراج

---

(١) تقليب الأجفان كناية عن السهاد والأرق . وعد ذنوب الدهر كناية عن الشكوى منه .

(٢) الصحيح أنه ضمن إثبات السهاد لنفسه الشكاية من الدهر ، أما وصف الليل فقد أفاده المتنبي في البيت قبله :

أعزمي ، طال هذا الليل ، فانظر أمنك الصبح يفرق أن يؤوبا ؟

أعزمي : نداء لعزمه وهمته . يفرق : يخاف . يؤوب : يرجع . والاستفهام تقريري .

(٣) نفض : نثر وأسقط . ما صنع الهجر بألوانهم : كناية عن موصوف هو الصفرة والهجر : القطيعة والإعراض . والخيري : ورد أصفر .

(٤) جهلة : مرة من الجهل بمعنى الخفة والطيش ، في وصاله : لأجل وصاله . أو في نيل وصاله ، يعني بسبب نيله . وخل : صديق . والاستفهام إنكاري .

الاستفهام مُخْرَج الإنكار ــ شكوى الزمان لتغيُّر الإخوان ، حتى لم يبق فيهم من يصلح لهذا الشأن ، ونبه بذلك على أنه لم يعزم على مفارقة حلمه جُملةً أبدًا ، ولكن إذا كان مريداً لوصل هذا المحبوب المستلزم للجهل المنافي للحلم ؛ عزم على أنه إنْ وَجَد من يصلح لأن يودعه حِلْمَه أودعه إيَّاه ؛ فإن الودائع تُسْتَعاد .

٢٥٤ ــ فين : ومنه قول الآخر يهنيء بعض الوزراء لما استوزرَ :

٥١٨ ــ أبى دهرنــا إسعافنا في نفوسنــا
وأسعفنا فيمن نحبُّ ونُكــرِمُ(١)
فقلتُ له : نُعمــاكَ فيهم أتِمَّها ،
ودع أمرنــا ؛ إن المُهِمَّ المقــدَّمُ

فإنه أدمج شكوى الزمان وما هو عليه من اختلال الأحوال في التهنئة . وفيه نظر ؛ لأن شكوى الزمان مصرَّحٌ بها في صدره ، فكيف تكون مُدْمَجَة ؟ ! ولو عكس فجعل التهنئة مُدْمَجَةً في الشكوى أصاب .

* * *

التوجيه

٢٥٥ ــ ومنه التوجيه ، وهو : إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين ، كقول مَنْ قال لأعور يسمَّى عَمْراً :

٥١٩ ــ خاط لي عَمْرٌو قَباء ليت عينيه ســواء(٢)

وعليه قوله تعالى « واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا » (٣) قال

---

(١) أبى : رفض ولم يقبل . إسعافنا : مساعدتنا . في نفوسنا : في حاجات نفوسنا، وعبر بالنفوس عما تحتاجه ليفيد أنه ضروري تتوقف عليه حياة هذه النفوس، فكأنه عبر بالمسبب عن السبب . نعماك : يدك البيضاء وصنيعتك ، وهو منصوب على الإغراء أتمها : الضمير يعود على « نعماك » والجملة بيان للتي قبلها . فبينهما كمال الاتصال . والبيتان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر . المتوفى في سنة ٣٠٠ هـ يهنيء سليمان بن وهب حينما استوزره الخليفة المعتضد العباسي ، ويعرض له باختلال حاله .

(٢) القباء بفتح القاف : ثوب فوق الثياب ، وقائله بشار بن برد في خياط أعور .

(٣) بعض الآية ٤٧ من سورة النساء .

الزمخشري : « غَيْرَ مُسْمَعٍ » حالٌ من المخاطب ، أي : اسمع وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين .

يحتمل الذم ، أي : اسمع منا مَدعُوّاً عليك بـ « لا سمعت » لأنه لو أُجِيبَتْ دعوتُهم عليه لم يَسْمَع . فكان أصمَّ غير مُسْمَع ، قالوا ذلك اتكالاً على أن قولهم « لا سُمعت » دعوة مستجابة .

أو اسمع غيرَ مُجابٍ ما تدعو إليه ، ومعناه غير مُسْمَعٍ جواباً يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً .

أو اسمع غير مسمَع كلاماً ترضاه ، فسمعك عنه نابٍ .

ويجوز على هذا أن يكون « غيرَ مُسمَع » مفعول « اسمع » أي : اسمع كلاماً غير مسمع إياك ؛ لأن أذنك لا تعيه نُبُوّاً عنه .

ويحتمل المدح ، أي : اسمع غيرَ مُسمَع مكروهاً من قولك « أسمعَ فلانٌ فلاناً » إذا سبَّه .

وكذلك قوله « راعِنا » يحتمل « راعنا نُكلِّمك » أي : ارقبنا وانتظرنا ويحتمل شبه كلمة عِبْرانيَّة ، أو سُريانيَّة كانوا يتسابُّون بها ، وهي « راعينا » فكانوا سخريةً بالدين وهُزْءاً برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام محتمِل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام .

ثم قال : فإن قلت : كيف جاءوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا : « سمعنا وعصينا ؛؟ » قلت : جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ، ولا يواجهونه بالسبِّ ودعاء السوء ، ويجوز أن يقولوه فيما بينهم ، ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ، ولكنهم لما لم يؤمنوا به جُعِلوا كأنهم نطقوا به .

قال السكاكي : ومنه متشابهات القرآن باعتبار .

* * *

الهزل الذي يراد به الجد

٢٥٦ ـ ومنه الهزل الذي يراد به الجد ؛ فترجمته تغني عن تفسيره ومثالُه قول الشاعر :

٥٢٠ ـ إذا ما تَمِيمِيٌّ أتاكَ مُفَاخِراً
فقُلْ : عدِّ عن ذا، كيفَ أكلُكَ للضَّبِ(١)؟!

ومنه قول امرىء القيس :

٥٢١ ـ وقد علِمتْ سَلْمَى وإن كان بَعْلَهَا
بأن الفَتَى يَهْذِي وليس بِفَعَّال(٢)

* * *

تجاهل العارف

٢٥٧ ـ ومنه تجاهل العارف ، وهو ـ كما سمَّاه السكاكي ـ سوقُ المعلوم مَساقَ غيره لنكتة . كالتوبيخ في قول الخارجيَّة :

٥٢٢ ـ أيا شَجَرَ الخابور مالَكَ مُورِقاً
كأنَّكَ لم تَجزَعْ علىابن طَرِيفِ(٣)؟!

والمبالغةِ في المدح في قول البحتري :

---

(١) تميمي : رجل من تميم . ذا : إشارة إلى الفخر المفهوم من قوله « مفاخرا » وعد عنه : تجاوزه واتركه . الضب : حيوان صحراوي كثير عقد الذنب . والاستفهام يراد به التهكم ؟ لأن التميميين كانوا يرمون بأكل الضباب وهي مما تعافه الأنفس . والبيت لأبي نواس .

(٢) سلمى : زوج من ذكر في الأبيات قبله أنه يهدده : كان : اسمها ضمير يعود على المذكور . بعلها : زوجها . يهذي : يخرف .

(٣) الخابور : نهر بديار بكر من العراق . مورقاً : نابتاً ورقك ظاهراً ، كأنها كانت تنتظر أن يصوح ويجف ؛ فوبخته بالاستفهام . لم تجزع : لم تحزن حزناً شديداً . ابن طريف : هو الوليد بن طريف الخارجي . والبيت من رثاء أخته ليلى فيه ، وهي خارجية مثله .

٥٢٣ ـ أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى ، أم ضوءُ مِصباح
أم ابتسامَتُها بالمنظَرِ الضَّاحِي (١)؟ !

أو في الذم كقول زهير :

٥٢٤ ـ وما أدْرِي ـوسَوْفَ إخَالُ أدْرِي ـ
أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ (٢)؟!

والتَّدَلُّه في الحب في قول الحسين بن عبد الله :

٥٢٥ ـ بالله يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا :
لَيْلايَ مِنكُنَّ أم لَيْلَى مِنَ البشر(٣)؟

وقولِ ذي الرُّمَّة : ـ

٥٢٦ ـ أيا ظبيةَ الوَعْساءِ بين جلاجلٍ
وبينَ النَّقا أأنتِ أمْ أمُّ سَالِم ؟(٤)

والتحقير في قوله تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم حكايةً عن الكفار «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ » (٥) كأن لم يكونوا يعرفون عنه إلاأنهُ رجلٌ مَّا .

والتعريض في قوله تعالى « وَإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أوْ في

---

(١) سرى : أراد به ظهر ليلا . المنظر : مكان النظر . الضاحي : البادي الظاهر الواضح . والاستفهام تعجبي ، وفيه تشبيه ضمني .

(٢) إخال : أظن . قوم : رجال ، بدليل مقابلته بالنساء . والاستفهام تهكمي ، وفيه تشبيه ضمني.

(٣) القاع : ما استوى واطمأن من الارض . والاستفهام تعجبي ، وفي البيت تشبيه ضمني .

(٤) الوعساء : الرابية اللينة من الرمل . جلاجل والنقا : موضعان . الاستفهام تعجبي ، ومعه تشبيه ضمني .

(٥) بعض الآية ٧ من سورة سبأ ، والاستفهام للتهكم .

ضَلاَلٍ مُبِينٍ (١) » .

وفي مجيء هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى، وهي أنه يبعث المشركين على الفكر في حال أنفسهم وحال النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وإذا فكروا فيما هم عليه : من إغارات بعضهم على بعض ، وسَبْيِ ذراريهم ، واستباحة أموالهم ، وقطع الأرحام ، وإتيانِ الفروج الحرام، وقتلِ النفوس التي حرَّم الله قتلها ، وشرب الخمر التي تُذْهِبُ العقول، وتُحَسِّنُ ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبيُّ عليه السلام والمؤمنون عليه : من صلة الأرحام ، واجتناب الآثام ، والأمر بالمعروف ، والنَّهْيِ عن المنكر ، وإطعام المساكين ، وبرِّ الوالدين ، والمواظبة على عبادة الله تعالى ؛ علموا أن النبي عليه السلام والمسلمين على هُدًى ، وأنهم على الضلالة ، فبعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة عظيمة .

• • •

القول بالموجب أضربه

٢٥٨ — ومنه القول بالموجب ، وهو ضربان :

أحدهما : أن تقع صفةٌ في كلام الغير كناية عن شيء أُثْبِتَ له حُكم ، فثبتَ في كلامكَ تلك الصفةَ لغير ذلك الشيء ، من غير تَعَرُّضٍ لثبوت ذلك الحكم له أو في انتفائه عنه ، كقوله تعالى : « يَقُولُونَ : لَئِنْ رَجَعْنَا إلىَ المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ ، وَلله العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(٢) » فإنهم كَنَوْا بالأعز عن فريقهم ، وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفةَ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، من غير تعريض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم .

---

(١) بعض الآية ٢٤ من سورة سبأ .

(٢) بعض الآية ٨ من سورة المنافقون .

والثاني : حَمْلُ لَفْظٍ وَقَعَ في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر مُتعلَّقه ، كقوله :

٥٢٧ – قلتُ : ثَقَّلْتُ إذْ أتيتُ مِـــراراً
قال : ثقَّلْتَ كاهلي بالأيـــادِي(١)
قلتُ : طولتُ ، قال: لا ، بل تَطَوَّلْتَ ،
وأبرمتُ قال : حَبْلَ ودادِي

والاستشهاد بقوله « ثقَّلْتُ » و « أبرمتُ » دون قوله « طوَّلتُ » (٢).

ومنه قول القاضي الأرَّجانيِّ :

٥٢٨ – غالَطَتْنِي إذْ كسَتْ جِسمي الضَّنا
كُسْوَةً عرَّتْ من اللحم العظاما (٣)
ثم قالَتْ : أنتَ عندي في الهـــوى
مثْلُ عَيْني ، صَدَقَتْ ،لَكِنْ سَقاما

وكذا قول ابن دويدة المغربي من أبيات يخاطب بها رجلاً أَوْدَعَ بعضَ القضاة مالاً فأدَّعى القاضي ضياعه :

---

(١) ثقلت : أتعبت وضايقت وأضجرت . الكاهل : أعلى الظهر مما يلي العنق . الأيادي : النعم ؛ لأنها سببها ، والتركيب استعارة تمثيلية . طولت : أطلت في الزيارة تطو لت : أكثرت طوائلك بمعنى أفضالك . أبرمت : أضجرت ، وعند تعديته إلى = حبل يحمل على معنى « قويت » وأصل الابرام فتل الحبل على طاقين ، فالتقوية لازمة له . والوداد شبيه بالحبل في الربط ومضاف اليه . والبيتان لابن حجاج الحسن ابن أحمد الشاعر الهازل . وينسبان لمحمد بن إبراهيم الأسدي .

(٢) لا يصلح قوله « طولت » للاستشهاد في هذا الباب ؛ لأنه نقضه بالنفي الذي هو « لا » وأثبت فعلاً آخر له .

(٣) الضنى : المرض والهزال ، وكسوة الجسم به مجاز عن شموله وإحاطته . سقاما : مرضا ، وهو وجه شبه المماثلة – في رأيه – بين نفسه وعين حبيبته .

٥٢٩ ــ إن قال : قد ضاعت ؛ فيصدق ؛ إنها
ضاعَتْ ، ولكنْ منكَ يَعْني لو تَعي(١)
أو قال : قد وقعت ، فيصدق ؛ إنها
وقعَتْ ، ولكنْ منه أحسنَ موقع

وقريب من هذا قول الآخر :

٥٣٠ ــ وإخوانٍ حَسِبْتُهُمْ دُروعا
فكانوها ، ولكنْ للأعادي(٢)
وخِلْتُهُمُ سِهَاما صائباتٍ
فكانوها ، ولكنْ في فؤادي
وقالوا : قد صَفَتْ منا قلوبٌ
لقد صدقوا ، ولكن مِنْ ودادي

والمراد البيتان الاولان ، ولك أن تجعل نحوهما ضرباً ثالثاً .

* * *

لاطراد

٥٩٨ ــ ومنه الاطِّرَاد ، وهو : أن يأتي بأسماء الممدوح أو غيره وآبائه ، على ترتيب الولادة ، من غير تكلُّفٍ في السبك ، حتى تكون الأسماء في تحدُّرها كالماء الجاري في اطِّرَادِه وسهولة انسجامه .

كقول الشاعر :

---

(١) يعنى : يقصد ، وفاعلها ضمير يعود على القاضي ، كفاعل قال . تعي : تفطن وتتنبه .

(٢) حسبتهم : ظننتهم . كانوها : الضمير الواقع خبرا لكان يعود على الدروع ، وتنسب الأبيات لابن الرومي ، ولأبي العلاء المعري ، ولعلي بن فضالة القيرواني ، وهو شاعر مغربي توفي سنة ٤٧٤ هـ.

والباب كله من قبيل مجاز الحذف ؛ لأن العبارة الدالة على المعنى الذي لم يرده الغير إنما هو جزء كلام محذوف يدل عليه كلام ذلك الغير .

٥٣١ – إن يقتلوكَ فقد ثَلَلْتَ عُروشَهم
بعُتَيْبَةَ بْنِ الحارِثِ بْنِ شِهابِ(١)

وقول دُرَيْدِ بن الصمة :

٥٣٢ – قتلنا بعبد الله خيرَ لِداته
ذُؤابَ بْنَ أسماءبْنِ زَيْدِ بن قارِبِ(٢)

وفيه تعرض للمقتول به ، ولشرف المقتول ، قيل : لما سمعه عبدُ الملكِ بْنُ مَرْوانَ قال : لولا القافيةُ لبلغ به آدم .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « الكريمُ ابنُ الكريمِ ابْنِ الكريمِ ابْنِ الكريمِ ، يوسفُ بنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسحاقَ بن ابراهيم »

* * *

(المحسنات اللفظية)

الجناس

وأما اللفظي فمنه :

أنواعه

٢٦٠ – الجناس بين اللفظين . وهو : تشابههما في اللفظ .

والتامُّ منه : أن يتفقا في أنواع الحروف ، وأعدادِها ، وهيئاتِها ، وترتيبها .

المماثل

فإن كانا من نوع واحد – كاسمين – سُمِّيَ مُمَاثِلاً ، كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ

(١) ثللت : هدمت وقوضت . وثل عروشهم كناية عن إذهاب عزهم ، والبيت لربيعة بن سعد ، أو لدواد بن ربيعة الأسدي .

(٢) لداته : أقرانه ، واحده لدة ، بزنة عدة . وعبد الله المذكور هو أخو دريد بن الصمة الشاعر .

ساعة ، (١) وقول الشاعر :

٥٣٣ ـ حَدَقُ الآجالِ آجالُ والهوى للمرء قتَّالُ(٢)

الأولُ جمع إجْلٍ بالكسر . هو القطيع من بقر الوحش ، والثاني جمع أجَلٍ والمراد به منتهى الأعمار ، وقول أبي تمام :

٥٣٤ ـ إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الحربِ صَدَّعوا
صُدورَ العوالي في صدور الكتائب (٣)

المستوفى

وإن كانا من نوعين ـ كاسم وفعل ـ سُمِّيَ مُسْتَوْفَى ، كقول أبي تمام أيضاً :

٥٣٥ ـ ما مات مِنْ كَرَمِ الزمـان فإنـه
يَحْيا لدى يحيي بْنِ عبـدِ الله

ونحوه قول الآخر :

٥٣٦ ـ وسَمَّيْتُه يَحْيَى ليَحْيَا ، فلم يكن
إلى رَدِّ أمرِ الله فيه سبيـلُ(٤)

جناس التركيب

المرفو

والتام أيضاً إن كان أحدُ لَفْظَيْهِ مُرَكَّباً سمي جناسَ التركيب . ثم إن كان المركب منهما مُركباً من كلمةٍ وبعضِ كلمةٍ سمي مَرْفُوّاً ، كقول الحريري :

---

(١) بعض الآية ٥٥ من سورة الروم .

(٢) حدق : واحده حدقة ، وهي سواد العين : وبإضافته للآجال في البيت صار استعارة لسواد عيون العين . والبيت لأبي سعيد عيسى بن خالد المخزومي .

(٣) جابت : قطعت واخترقت . قسطل : غبار : صدعوا . غيبوا ، أو مرروا ، أو حطموا . العوالي : الرماح ، واحده عالية . الكتائب : جماعات الجند ، واحده كتيبة . وصدور العوالي : أسنتها وأعاليها . وصدور الكتائب : نحور أفرادها .

(٤) البيت لمحمد بن عبد الله بن كناسة الأسدي يرثي ابنه .

٥٣٧ ــ ولا تَلْهُ عن تَذْكار ذَنْبِكَ، وابْكِه
بِدَمْعٍ يُحاكي الوَبْلَ حَالَ مَصابِهِ (١)
وَمثِّلْ لعينيكَ الحِمَامَ وَوَقْعَهُ
وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

المتشابه

وإلا ؛ فإن اتفقا في الخط سمي مُتشابهاً ، كقول أبي الفتح البُسْتِيِّ :

٥٣٨ ــ إذا مَلك لم يكن ذا هِبَهْ
فدَعْهُ . فدولته ذاهبه (٢)

المفروق

وإن اختلفا سمي مفروقا ، كقول أبي الفتح أيضا ـ :

٥٣٩ ــ كلكُمْ قد أخذ الجا م ، ولا جام لنا (٣)
ما الذي ضرَّ مُديرَ الجامِ لو جاملنا

وقول الآخر :

٥٤٠ ــ لا تَعْرِضَنَّ على الرُّواة قَصيدةً
ما لم تبالِغْ قَبْلُ في تهذيبها (٤)
فمتى عرضْتَ الشعْرَ غيْرَ مهذَّب
عَدُّوه مِنْك وَساوِساً تَهْذِي بها

ووَجْهُ حسنِ هذا القسم ــ أعني التامَّ ــ حُسْنُ الإفادة ، مع أن الصُّورةَ صورةُ الإعادة .

المحرف

وان اختلفا في هيآت الحروف فقط ؛ سمي مُحَرَّفاً .

---

(١) لا تله : لا تشتغل ، ولا تغفل ، تذكار : تذكر . الوبل : المطر الغزير ماؤه. مصابه : مصدر ميمي بمعنى صوبه أي انصبابه ونزوله . الحمام : الموت . روعة ملقاه : فزع لقائه . مطعم : طعم . وهو مثبت للموت مجازا عن أثره ووقعه . الصاب : شجر مر المذاق ، وهو مضاف إلى ضمير الموت من إضافة المشبه به إلى المشبه .

(٢) ذا هبة : صاحب هيبة . دولته ذاهبة : بائدة وفانية . والبستّي هو أبو الفتح . علي بن محمد كاتب الدولة الغزنية ، وأشهر المغرمين بالتجنيس في الشعر والنثر .

(٣) الجام : الكأس . لا جام لنا : ليس لنا كأس . لو جاملنا : لو قابلنا بالمجاملة .

(٤) الوساوس : جمع وسوسة ، وهي التخليط في الكلام . تهذي بها : تخرف بها . والبيت لأبي عمر بن علي المطوعي .

ثم الاختلاف قد يكون في الحركة فقط . كالبُرْدِ والبَرْدِ في قولهم : « جُبَّةُ البُرْدِ ، جُنَّةُ البَرْدِ » (١) وعليه قوله تعالى : «ولَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِينَ ؟ »(٢) .

قال السكاكي : وكقولك « الجهول اما مُفْرِطٌ أو مُفَرِّطٌ» والمشدّد في هذا الباب يقوم مقام المخفّف نظراً إلى الصورة ، فاعلم .

وقد يكون في الحركة والسكون ، كقولهم « البِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ (٣) » وقول أبي العلاء :

٥٤١ — والحُسْنُ يظهر في بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ
بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ ،أو بيتٍ مِنَ الشِّعَرِ(٤)

الجناس الناقص وأنواعه

وإن اختلفا في أعداد الحروف فَقَطْ ؛ سمي ناقصاً ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يختلفا بزيادة حرف واحد في الأول كقوله تعالى « والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ » (٥)

أو في الوسط ، كقولهم « جَدِّي جَهْدِي » .

أو في الآخر ، كقول أبي تمام :

٥٤٢ — يَمُدُّون مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ
تَصُولُ بأسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ(٦)

---

(١) الجبة : ثوب واسع يلبس فوق الثياب . البرد ، بضم بائه : الثوب المخطط . جنة : وقاية .

(٢) الآيتان ٧٢ — ٧٣ من سورة الصافات .

(٣) البدعة ، هنا : ما يستحدث في الدين ولا أصل له فيه ، شرك ، بالتحريك : حبالة . الشرك ، بالكسر : اتخاذ شريك مع الله — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٤) رونقه : طلاوته ، وحسنه ، وإشراقه .

(٥) الآيتان ٢٩ — ٣٠ من سورة القيامة .

(٦) عواص : جمع عاصية بمعنى أبية . عواصم : جمع عاصمة ، أي مانعة حافظة. تصول : تسطو وتقهر . قواض : جمع قاض أي فاصل في القطع منجز في الفعل . قواضب : جمع قاضب بمعنى قاطع .

وقول البحتري :

٥٤٣ — لئِنْ صَدَفَتْ عنّا فربَّتَ أنفُسٍ
صَوَادٍ إلى تلك الوجوهِ الصَّوَادِفِ(١)

ومنه ما كتب به بعض ملوك المغرب إلى صاحب له يدعوه إلى مجلس أنسٍ له :

٥٤٤ — أيها الصاحبُ الذي فارقَتْ عيْنِي و نَفْسِي منه السَّنا والسَّنَاء(٢)
نحن في المجلس الذي يَهَبُ الرا
حة والمَسْمَعَ الغِنَى والغناء
نتعاطى التي تُنَسِّي من اللـ
ـذة والرِّقَةَ الهوى والهواء
فأتهِ تُلْفِ راحةً ومُحَيّاً
قد أعدَّا لك الحيا والحياء

وربما سُمي هذا القسم — أعني الثالث — مطرَّفاً . المطرف

ووَجْهُ حسنِه أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة — كالميم من عواصم — انها هيَ التي مضت ، وإنما أُتِيَ بها للتأكيد ، حتى إذا تمكن آخرُها في نفسك ، ووعاه سمعُك ؛ انصرف عنك ذلك التوهم ؛ وفي هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها .

الوجه الثاني : أن يختلفا بزيادة أكثر من حرف واحد كقول الخنساء :

٥٤٥ — إن البُكاءَ هو الشِّفَا ءُ من الجَوَى بين الجوانِحِ(٣)

---

(١) صدفت : أعرضت وانصرفت . ربت : رب ، ولحقتها التاء لتأنيث اللفظ ، وهي في الأصل للتقليل ، والمقام يقتضي التكثير . صواد : جمع صادية اي عطشانة . الصوادف : جمع صادفة أي مائلة منصرفة .

(٢) السنا : الضوء . السناء : الشرف . الراحة في البيت الثاني : باطن الكف . المسمع : الأذن . الغنى : الثروة . الغناء : التطريب وترجيع الصوت بالالحان . التي تنسي . . الخ : الخمر . الهوى : الحب . الهواء : النسيم . تلف : تجد . راحة : يداً . محياً : وجهاً . الحيا : المطر ، ويراد به العطاء الكثير مجازاً على سبيل الاستعارة . الحياء : الخفر والاستحياء . وصاحب الشعر هو المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف بالأندلس .

(٣) الجوى : شدة الوجد من الحزن أو العشق . الجوانح : الضلوع فوق الترائب ، واحدها جانحة .

المذيل

وربما سُمِّيَ هذا الضرب مذيَّلاً .

وان اختلفا في أنواع الحروف اشْتُرِطَ أن لا يقع الاختلاف بأكثر من حرف .

المضارع

ثم الحرفان المختلفان إن كانا متقاربين سُمِّيَ الجناسُ مضارعا .

ويكونان إما في الأول ، كقول الحريري « بيني وبين كِنّي ليل دامِسٌ وطريق طامس » (١) .

وإما في الوسط ، كقوله تعالى « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » (٢) . وقول بعضهم « البَرَايَا أهْدَافُ البَلاَيَا (٣) » .

وإما في الآخر ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم « الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخَيْرُ إلى يوم القيامة » (٤) .

اللاحق

وإن كانا غير متقاربين سمي لاحقا .

ويكونان أيضا إما في الأول ، كقوله تعالى « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لمُزَةٍ » (٥) وقول بعضهم « رُبَّ وضِيٍّ غير رَضِيٍّ » (٦) وقول الحريري « لا أُعطي زمامي لمن يَخْفِر ذمامي » (٧) .

وإما في الوسط ، كقوله تعالى « ذلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ » (٨) . وقوله تعالى «وَإنَّهُ عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ » (٩).

---

(١) كنّي : بيتي . دامس : مظلم شديد الظلام . طامس : خفي المعالم .

(٢) بعض الآية ٢٦ من سورة الأنعام .

(٣) البرايا : جمع البرية بمعنى الخلق ، وأصله من « برأ» فخفف . البلايا : المصائب

(٤) معقود : مربوط ومنوط . النواصي : جمع ناصية وهي مقدم الرأس ، والمقصود من عقد الخير بنواصيها مقارنته لمجيئها ، فانظر ما فيه من أعمال البيان .

(٥) الآية ١ من سورة الهمزة .

(٦) وضي : مخفف وضيء ، وهو المشرق الوجه . رضي : مرضي عنه مقبول .

(٧) زمامي ، قيادي : والمراد طاعتي ، تجوزاً . يخفر ذمامي : يخون عهدي وينقضه .

(٨) الآية ٧٥ من سورة غافر .

(٩) الآيتان ٧ ـــ ٨ من سورة العاديات .

وإما في الآخر كقوله تعالى « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ » (١).

وقول البحتري :

٥٤٦ – هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ تَلَاقٍ تَلَافٍ
أَمْ لِشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافِي(٢)

جناس القلب

وإن اختلفا في ترتيب الحروف سمي جناس القلب ، وهو ضربان :

١ – قلب الكل ، كقولهم « حُسامُه فَتْحٌ لأوليائه ، حَتْفٌ لأعدائه » (٣) .

٢ – وقلب البعض ، كما جاء في الخبر « اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا ، وآمِنْ رَوْعَاتِنَا » (٤) وقول بعضهم « رحم الله امرأً أمسك ما بين فَكَّيْهِ ، وأطلق ما بين كَفَّيه » (٥) وعليه قول أبي الطيب :

٤٥٧ – مُمَنَّعَةٌ مُنَعَّمَةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لفظُهَا الطيرَ الوُقوعا(٦)

وإذا وقع أحد المتجانسين جناسَ القلب في أول البيت ، والآخرُ في آخره ؛ سمي مقلوبا مجنَّحا .

وإذا وَلِيَ أحدُ المتجانسين الآخرَ سمي مُزْدَوجاً ، ومكرَّراً ، ومردَّدا ، كقوله تعالى « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ » (٧) وما

---

(١) بعض الآية ٨٣ من سورة النساء .

(٢) تلاق : لقاء . تلاف : تدارك . الصبابة : شدة الشوق ، والاستفهام للانكار ، والغرض منه اظهار التحسر .

(٣) حسامه : سيفه . فتح : نصر . لأوليائه : لأنصاره الموالين له . حتف : هلاك .

(٤) روعات : جمع روعة بمعنى فزعة ومخافة .

(٥) الفكان : اللحيان الأعلى والأسفل ، وما بينهما كناية عن اللسان . وما بين الكفين : المال ، والقصد التكرم .

(٦) ممنعة : محمية . منعمة : مرفهة . رداح : كبيرة العجز . يكلف لفظها . . . إلخ كناية عن شدة تأثيره وسحره .

(٧) بعض الآية ٢٢ من سورة النمل .

جاء في الخبر : « المؤمنون هَيْنُون لينُون » وقولهم « من طلب وَجَدَّ وَجَدَ » وقولهم « من قرع باباً ولَجَّ وَلَجَ » وقولهم « النبيذ بغير النغم غم وبغير الدسم سم » وقوله :

يمُدُّون من أيْد عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ
تَصُولُ بأسيافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ (١)

ما يلحق بالجناس

٢٦١ ـ واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان :

أحدهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق كقوله تعالى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ » (٢) وقوله تعالى « فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ » (٣) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الظلم ظُلُمَاتٌ يوم القيامة » وقول الشافعي رضي الله عنه وقد سئل عن النبيذ « أجمع أهل الحَرَمَيْنِ على تحريمه » وقول أبي تمام :

٥٤٨ ـ * فيا دمعُ أَنْجِدني على ساكِنِي نَجْدِ (٤) *

وقول البحتري :

٥٤٩ ـ يَعْشَى عن المجْد الغَبِيُّ ، ولَنْ ترى
في سودَدٍ أرَباً لغير أريبِ (٥)

وقول محمد بن وهيب :

٥٥٠ ـ قَسَمْتَ صروفَ الدهر بَأساً ونائلاً
فَمَالُكَ مَوْتُورٌ ، وسيفُكَ واتر (٦)

---

(١) انظر الشاهد رقم ٥٤٢ .
(٢) بعض الآية ٤٣ من سورة الروم .
(٣) الآية ٧٩ من سورة الواقعة .
(٤) صدره : * وأنجدتم من بعد إتهام داركم * . أنجدتم : سكنتم نجدا . إتهام داركم : اتخاذها في تهامة . أنجدني : ساعدني وعاوني .
(٥) يعشى : أراد يعمى ، والقصد أنه لا يشغل به ، وطريقه الكناية . السودد : رفعة القدر وكرم المنصب . أرب : غاية ومأرب . أريب : عاقل لبيب .
(٦) صروف الدهر : أحواله وحدثانه . بأساً : شجاعة . نائلا : عطاء وكرما . مالك موتور : أي مالك منقوص ، وأصله قولهم « وتره ماله » أي نقصه . واتر : آخذ بالوتر والثأر .

والثاني : أن يجمعهما المشابهة ، وهي ما يشبه الاشتقاق وليس به ، كقوله تعالى « اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ ، أَرَضِيتُمْ بالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ (١) » وقوله تعالى « قَالَ : إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القَالِينَ »(٢) وقوله تعالى « وَجَنَى الجنَّتَيْنِ دَانٍ » (٣) —

وقول البحتري :

٥٥١ — وإذا ما رياحُ جُودِكَ هَبَّت
صار قول العذول فيها هَبَاءَ (٤)

* * *

رد العجز على الصدر

٢٦٢ — ومنه : ردُّ العَجزُ على الصدر ، وهو في النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين ، أو الملحقين بهما ، في أول الفقرة ، والآخر في آخرها ، كقوله تعالى « وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » (٥) وقولهم « الحيلة ترك الحيلة » وكقولهم : سائلُ اللئيم يرجع ودمعه سائل ، وكقولهم تعالى « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كانَ غَفَّاراً » (٦) وكقوله تعالى « قَالَ : إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القَالِينَ »(٧)

وفي الشعر : أن يكون أحدهما في آخر البيت ، والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حَشْوِه ، أو آخرِه ، أو صدر الثاني .

فالأول كقوله :

---

(١) بعض الآية ٢٨ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٦٨ من سورة الشعراء . (٣) الآية ٥٤ من سورة الرحمن .

(٤) رياح جودك : مشبه به ومشبه متضايفان ، وانظر معه تشبيه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالريح المرسلة . هبت : هاجت وثارت . العذول : اللائم . هباء : مثل الهباء ، وهو الذرات الدقيقة من الغبار المنبث في الجو .

(٥) بعض الآية ٢٧ من سورة الأحزاب .

(٦) بعض الآية ١٠ من سورة نوح .

(٧) الآية ١٦٨ من سورة الشعراء .

سريعٌ إلى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ وجهَه
وليس إلى داعي النَّدَى بِسَرِيعِ (١)

ونحوه قول الآخر :

٥٥٢ – سُكْرانِ :سُكْرُ هَوىً ، وسُكْرُ مُدَامَة
أنّى يُفيقُ فَتىً به سُكْرانِ ؟؟! (٢)

والثاني كقول الحماسي :

٥٥٣ – تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ
فَمَا بعد العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ(٣)

ونحوه قول أبي تمام :

٥٥٤ – ولم يُحْفَظ مُضَاعَ المجد شَيْءٌ
من الأشياء كالمال المُضاع(٤)

والثالث كقوله أيضاً :

٥٥٥ – ومَنْ كان بِالبيضِ الكواعب مُغْرَماً
فما زلتَ بالبِيضِ القواضب مغرما(٥)

والرابع كقول الحماسي :

٥٥٦ – وإن لم يكن إلا مُعَرَّجَ ساعةٍ
قليلا ؛ فإني نافع لي قليلُها(٦)

---

(١) انظر الشاهد رقم ٣٣ .

(٢) هوى : عشق . مدامة : خمر . أنى يفيق : معناه كيف يتنبه ؟ والاستفهام إنكاري .

(٣) شميم : شم . العرار : النرجس البري . والبيت للصمة بن عبد الله القشيري .

(٤) مضاع الأولى : مصدر ميمي بمعنى إضاعة أو بمعنى المفعول . والثانية اسم مفعول بمعنى مهلك بالإنفاق .

(٥) البيض الأولى : جمع بيضاء وصف للمرأة . الكواعب : جمع كاعب ، وهي الفتاة التي نهد ثدياها . البيض الثانية : جمع أبيض وهو السيف . القواضب : القواطع .

(٦) قبله : ألما على الدار التي لو وجدتها بها أهلها ما كان وحشاً مقيلها
ألما على الدار : انزلا بها . وحشاً : مقفرا . مقيلها : الاستراحة فيها وقت الظهيرة .

والخامس كقول القاضي الأرجاني :

٥٥٧ – دعاني مِنْ مَلامِكُما سَفاهاً
فداعي الشوق قبلَكُما دعاني(١)

وقول الآخر :

٥٥٨ – سَلْ سبيلاً فيها إلى راحة النفس بِرَاحٍ كأنها سلسبيلُ(٢)

وقول الآخر :

٥٥٩ – ذوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرْسِلَتْ
فَمِنْ أجلها منها النفوس ذوائبُ(٣)

والسادس كقول الآخر :

٥٦٠ – وإذا البلابلُ أفصحَتْ بلغاتها
فَانْفِ البلابلَ باحْتِساء بلابلِ (٤)

والسابع كقول الحريري :

٥٦١ – فَمَشْغُوفٌ بآيات الْمَثَاني
ومَفْتُونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَاني(٥)

لم يكن : اسمها يعود على الإلمام المفهوم من البيت السابق . معرَّج : خبر كان، وهو مصدر ميمي بمعنى التعريج وهو الوقوف والتلبث . ساعة : فترة من الزمان . والبيتان لذي الرمة غيلان بن عقبة .

(١) دعاني الأولى : اتركاني . سفاها : سفهاً وجهلا وحمقا . دعاني الثانية : ناداني .

(٢) سل : اطلب . سبيلا : طريقاً . راح : خمر . سلسبيل : ماء عذب سائغ .

(٣) ذوائب الأولى : جمع ذؤابة وهي شعر مقدم الرأس . العناقيد : جمع عنقود وهو مجتمع حب العنب . وذوائب الثانية : جمع ذائبة وهي هنا بمعنى حمقاء مجنونة ، من قولهم « ذاب الرجل » بمعنى حمق بعد عقل ، والبيت لأبي الحسن نصر المرغيناني .

(٤) البلابل الأولى : الطيور المغردة . انف : أزح وأبعد . البلابل الثانية : الأشجان. احتساء : شرب . بلابل الأخيرة : جمع بلبل وهو قناة الإبريق ، عبر به عن الخمر الحالة فيه . والبيت لعبد الملك بن محمد الثعالبي صاحب اليتيمة .

(٥) مشغوف : مغرم مولع . آيات المثاني : القرآن . رنات : أصوات . المثاني الأخيرة : الأوتار .

والثامن كقول القاضي الأرَّجانيّ :

٥٦٢ ـ أمَّلْتُهُمْ ثُمَّ تأمَّلْتُهُمْ
فلاح لي أنْ ليسَ فيهِمْ فَلاَحُ (١)

والتاسع كقول البحتري :

٥٦٣ ـ ضرائبُ أبدَعْتَها في السماح
فلسنا نرى لك فيها ضريبا (٢)

والعاشر كقول امرىء القيس :

٥٦٤ ـ إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليه لسانَه
فليس على شيء سِواهُ بِخَزَّانِ (٣)

وقول أبي العلاء المعري :

٥٦٥ ـ لو اختصرتم من الاحسان زُرْتكُمُ
والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفراط في الخَصَرِ(٤)

والحادي عشر كقول الآخر :

٥٦٦ ـ فدَع الوعيدَ ؛ فما وعيدُك ضائري
أطَنينُ أجنحة الذُّبابِ يضير؟!(٥)

---

(١) أملتهم : جعلتهم أملي ورجائي . تأملتهم : تدبرتهم وفكرت فيهم . لاح لي : ظهر لي . فلاح : فوز وصلاح حال .

(٢) ضرائب : جمع ضريبة وهي سجية ، أو هي جمع على غير قياس واحده ضرب بمعنى شكل أو صنف . أبدعتها : اخترعتها . السماح : الجود . ضريبا : نظيراً ومثيلا. وصحة نسبة البيت للقاضي الأرجاني الذي أخذه من قول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى   فما إن رأينا لفتح ضريبا

(٣) يخزن : يحبس ويحفظ . وحبس اللسان كناية عن حفظ السر وكتمانه ، أو اللسان مجاز مرسل أراد به السر .

(٤) اختصرتم : اقتصدتم وقللتم . الإفراط : مجاوزة الحد . الخصر : البرد .

(٥) ضائري : ضاري ومؤذ لي ، والاستفهام إنكاري ، وفي البيت تشبيه ضمني وهو لعبد الله بن محمد بن عيينة .

والثاني عشر كقول أبي تمام :

٥٦٧ — وقد كانت البِيضُ القَواضِبُ في الوَغَى
بَوَاتِرَ فهي الآنَ من بَعْدِه بُتْرُ(١)

* * *

٢٦٣ — ومنه السجع ؛ وهو : تواطُؤُ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا معنى قول السكاكي « الاسجاع في النثر كالقوافي في الشعر » . السجع

وهو ثلاثة أضرب : مُطَرَّفٌ ، ومتوازٍ ، وترصيع .

لأن الفاصلتين : إن اختلفتا في الوزن فهو السجع المُطَرَّفُ ، كقوله تعالى : « مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً ؟! » (٢) .

وإلا ؛ فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ ، أو أكثر ما فيها ، مِثْلُ ما يقابله من الأخرى في الوزن والتَّقْفِيَةِ ؛ فهو الترصيع . كقول الحريري « فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » وكقول أبي الفضل الهمذاني « إن بَعْدَ الكَدَر صَفْواً . وبعد المطر صَحْواً » وقول أبي الفتح البُسْتي « لِيَكُنْ إقدامك توكُّلا ، وإحجامك تأمُّلا » .

وإلا ؛ فهو السجع المتوازي . كقوله تعالى « فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأكوابٌ مَوْضُوعَةٌ » (٣) وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أدرأ بك في نُحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم » .

وشرطُ حسنِ السجع اختلافُ قرينتيه في المعنى كما مر ، لا كقول ابن

---

(١) البيض القواضب : السيوف القواطع . الوغى : الحرب . بواتر : جمع باتر بمعنى قاطع . بتر : جمع أبتر بمعنى قليل الفائدة .
(٢) الآية ١٣ من سورة نوح .
(٣) الآيتان ١٣ — ١٤ من سورة الغاشية .

عباد في مهزومين « طاروا وَاقِينَ بظهورهم صدورَهم ، وبأصلابهم نُحورَهُمْ » .

قيل : وأحسن السجع ما تساوت قرائنه ، كقوله تعالى « في سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ »(١) ثم ما طالَتْ قرينته الثانية . كقوله « والنَّجْمِ إذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى »(٢) أو الثالثةُ . كقوله تعالى « خُذُوهُ ، فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ »(٣) وقول أبي الفضل الميكالي « له الأمر المُطاعُ والشَّرَفُ اليَفاعُ (٤) والعِرْضُ المَصُونَ والمالُ المُضَاعُ » .

وقد اجتمعا في قوله تعالى « والْعَصْرِ . إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(٥) .

ولا يحسن أن تُولَى قرينةٌ قرينةً أقصرَ منها كثيراً ؛ لأن السجع إذا استوفى أمَدَهُ من الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً ، يكون كالشيء المبتور ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها . والذوق يشهد بذلك ، ويقضي بصحته .

أنواعه

ثم السجع إما قصير . كقوله تعالى « وَالْمُرْسَلاَتِ عرْفا ، فالعاصِفَاتِ عَصْفاً »(٦) .

أو طويل كقوله تعالى « إذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ

(١) الآيات ١٨ ــ ٣٠ من سورة الواقعة .

(٢) الآيتان ١ ــ ٢ من سورة النجم .

(٣) الآيتان ٣٠ ــ ٣١ من سورة الحاقة .

(٤) اليفاع : المرتفع .

(٥) سورة العصر .

(٦) الآيتان ١ ــ ٢ من سورة المرسلات .

أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ، وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ»(١) .

أو متوسط ، كقوله تعالى « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ، وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » (٢) .

ومن لطيف السجع قول البديع الهمذاني من كتاب له إلى ابن فريقون(٣) «كتابي والبحرُ وإن لم أرَه ؛ فقد سمعت خبره ، والليثُ وإن لم ألْقَه ؛ تصورتُ خَلْقَه ، والملكُ العادلُ وإن لم أكن لقيته ، قد لَقِيَنِي صيتُه ، ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره » .

واعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنةَ الأعجاز ، موقوفاً عليها ؛ لأن الغرض أن يُزَاوَجَ بينها ، ولا يتم ذلك في كل صورة إلا بالوقف ، ألا ترى أنك لو وصلت قولهم « ما أبعدَ ما فاتَ ، وما أقربَ ما هو آتٍ » لم يكن بُدٌّ من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فيفوت الغرض من السجع ؟ وإذا رأيتهم يُخْرِجون الكلم عن أوضاعها للازدواج في قولهم « إنّي لآتيه بالغَدايا والعشايا » أي : بالغدوات ؛ فما ظنُّك بهم في ذلك ؟

وقيل ؛ إنه لا يقال : في القرآن أسجاع ، وإنما يقال : فواصل .

وقيل : السجع غير مختص بالنثر ، ومثاله من الشعر قول أبي تمام :

٥٦٨ — تَجَلَّى به رُشْدِي ، وأَثْرَتْ به يَدِي
وفاض به ثَمْدِي ، وأوْرَى به زَنْدِي(٤)

---

(١) الآيتان ٤٣ — ٤٤ من سورة الأنفال .

(٢) الآيتان ١ — ٢ من سورة القمر (٣) انظر رسائل البديع ص ٣٥٨ بيروت

(٤) تجلى : ظهر وتكشف . رشدي : هداي . أثرت : كثر مالها . فاض : كثر وسال . الثمد ، بالفتح هنا ويأتي بالتحريك : الماء القليل يتجمع شتاء وينضب صيفا .

←

وكذا قول الخنساء :

٥٦٩ — حامي الحقيقة ، محمودُ الخليقة ، مَهْدِيّ الطريقة ، نَفّاعٌ ، وضَرّارُ (١) .

وكذا قول الآخر :

٥٧٠ — ومكارمٍ أوليتَها متبرِّعا
وجرائمٍ ألغيتَها متورِّعا(٢)

وهو ظاهر التكلف . وهذا القائل لا يشترط التقفية في العروض والضرب ، كقوله :

٥٧١ — وزَنْدُ نَدَى فَوَاضِلِهِ وريٌّ
وزَنْدُ رُبَى فضائلهِ نَضيرُ (٣)

* * *

ويطلق على الماء القليل مطلقا . والمراد به هنا المال القليل بطريق الاستعارة . أورى زندي : أخرج ناره ، والزند : عود تستخرج النار بحكه في عود آخر أسفله يسمى الزندة . والمقصود بالتركيب كله معنى نجحت ، على سبيل الكناية .

(١) الحقيقة ما يجب على المرء أن يحميه من عرض ونحوه . الخليقة : الخلق .

(٢) مكارم : جمع مكرمة وهي ما تسديه من معروف ، أوليتها : صنعتها إلى لبائك . متبرعاً : متفضلا بغير موجب ولا انتظار عوض . ألغيتها : أبطلتها وعفوت عنها : متورعاً : متعففاً من غير جبن أو خوف . وإرادة التكثير في البيت مستفادة من واو « رب » في أول الشطرين .

(٣) زند ندى فواضله : ثلاث إضافات متتابعة ، ومعنى زند سبق في الهامشة رقم(١) وهو مشبه به . ندى : جود ، وهو مشبه . فواضل : جمع فاضلة ، وهي هنا الهبة . وري : مخرج للنار ، ويجوز أن يكون « زند » تخييلية لمكنية في « ندى » المشبه بالشرر المتتابع ، ويجوز أن يكون « زند » تصريحية بدل «سائل» و « وري » ترشيح ، أو تبعية بدل «ناجح » . رند : نبت طيب الرائحة يشبه الآس . ربى : اسم جنس جمعي أو جمع تكسير واحده ربوة وهي المرتفع من الأرض . فضائله : أخلاقه الفاضلة . نضير : أخضر يانع . وربى ، وزند ، ونضير : قرائن على أنه شبه أخلاقه بالروض على سبيل الاستعارة المكنية ، والبيت لأبي الفتح المطرزي ناصر بن عبد السيد .

التشطير

ومن السجع على هذا القول ما يسمّى التشطير . وهو : أن يجعل كل من شَطْرَيِ البيت سجعةً مخالفةً لأختها ، كقول أبي تمام :

٥٧٢ ـ تدبيرُ مُعْتَصِمٍ بالله ، مُنْتَقِمٍ
لله، مُرتَغِبٍ في الله، مُرْتَقِبِ (١)

التصريع

ومنه ما يسمى التصريع ، وهو : جعلُ العروض مُقَفَّاةً تقفيةَ الضرب ، كقول أبي فِراس :

٥٧٣ ـ بأطراف المُثَقَّفَــــة العوالي
تفرَّدْنــــا بأوساط المعـــالي(٢)

وهو مما استُحْسِن ، حتى إن أكثر الشعر صُرِّعَ البيتُ الأول منه ولذلك متى خالفت العروضُ الضرب في الوزن ؛ جاز أن تُجْعَل مُوَازِنَةً له إذا كان البيت مُصَرَّعا ، كقول امرىء القيس :

٥٧٤ ـ ألا عِمْ صَباحاً أيُّهَا الطَّلَلِ البالي
وهل يَنْعَمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي؟(٣)

---

(١) معتصم : اسم الخليفة ابن الرشيد وهو ثالث ابنائه الخلفاء من بعده ، والبيت في ملحه بعد فتح عمورية من بلاد الروم . ويلاحظ تعلق الجار والمجرور بعده به ، وكذا الأوصاف بعده ومتعلقاتها . مرتغب : راغب . مرتقب : منتظر متطلع .

(٢)مثقفة : مقومة بالثقاف ، وهو آلة يعدل بها الرماح صانعها . العوالي : جمع عالية ، وتطلق على الرمح كما تطلق على صدره وأعلاه . أوساط : جمع وسط ، والمراد به هنا : الأفضل من الشيء . المعالي : جمع معلاة وهي الشرف والرفعة . وأبو فراس هو الشاعر الأمير الفارس الحمداني ، واسمه الحارث بن سعيد بن حمدان، وهو ابن عم سيف الدولة .

(٣) عم صباحاً : عبارة تقال للتحية في الصباح . عم : أصله انعم ، أمر من قولهم « نعم صباحك » أي جعله الله ذا لين ورغد ، وحذفت همزته ونونه لكثرة الاستعمال وروي « ألا انعم صباحا » ويقال : ماضيه وعم كوعد . الطلل : الأثر الشاخص من آثار الديار . البالي : الرث . العصر : الكثير فيه فتح العين وسكون الضاد ، ويأتي بوزن قفل ، وبوزن عنق كما هنا . الخالي : الفائت . والاستفهام للانكار والتحسر .

أتى بعروض الطويل « مفاعيلن » وذلك لا يصح إذا لم يكن البيتُ مُصرَّعا ، ولهذا خُطِّيء أبو الطيب في قوله :

٥٧٥ ـ تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ ومَنطقُه حُكْمٌ
وباطنُه دِينٌ ، وظاهرُه ظَرْفُ(١)

* * *

٢٦٤ ـ ومنه الموازَنة ، وهي . أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية . كقوله تعالى « وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ » (٢) . الموازنة

فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثرُ ما فيها مثلَ ما يقابله من الأخرى في الوزن خُصَّ باسم المماثلة ، كقوله تعالى « وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »(٣)وقول أبي تمام : المماثلة

مَهَا الوَحْشِ ، إلاَّ أنَّ هاتا أوانسٌ
قَنَا الخَطِّ ، إلاَّ أن تلك ذَوَابِلُ(٤)

وقول البحتري :

٥٧٦ ـ فأحْجَمَ لمّا لم يَجِدْ فيك مَطْعَماً
وأقدمَ لمّا لم يَجِدْ عنك مَهْرَبا (٥)

* * *

---

(١) التفكر : إعمال الخاطر ، يقصد أنه يستغرق الشيء علماً بمجرد إعمال خاطره فيه . منطقه : نطقه . حكم : حكمة ، وقصده أن كلامه الذي ينطقه حكمة لا مجرد كلام ككلام الناس . الظرف : حسن الهيئة ، والذكاء ، والبراعة . وأنسبها الأول ؛ ليتم له إثبات نظافته ظاهراً وباطناً .

(٢) الآيتان ١٥ ـ ١٦ من سورة الغاشية . النمارق : الوسائد الصغيرة . الزرابي : البسط الفاخرة . المبثوثة : المفروشة .

(٣) الآيتان ١١٧ ـ ١١٨ من سورة الصافات .

(٤) انظر الشاهد رقم ٤١٤ .

(٥) أحجم : نكص هيبة وتقهقر ، وفاعله ضمير يعود إلى الاسد الذي بارزه الفتح بن خاقان ممدوحه الذي قال فيه قصيدة منها هذا البيت .

٢٦٥ – ومنه القلب ، كقولك : أرضٌ خضراء ، وقول عماد الدين الكاتب للقاضي الفاضل : « سِرْ فلا كَبَابِكَ الْفَرَسُ » وجواب القاضي : « دامَ عُلاَ الْعِمَادِ » وقول القاضي الأرَّجانيِّ ؛ القلب

٥٧٧ – مَوَدَّتُهُ تدوم لكل هَــوْلِ
وهَـــلْ كُلٌّ مودتُـــه تدوم ؟

وفي التنزيل « كُلٌّ فِي فَلَكٍ » (١) وفيه « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » (٢) .

* * *

٢٦٦ – ومنه التشريع ، وهو : بناء البيت على قافيتين يصح المعنى على الوقوف على كل واحدة منهما ، كقول الحريري : التشريع

٥٧٨ – يا خاطبَ الدنيا الدَّنِيَّة ، إنها
شَرَكُ الرَّدَى ، وقَرَارَةُ الأكْدارِ(٣)

الأبيات :

* * *

٢٦٧ – ومنه لزوم ما لا يلزم ، وهو : أن يجيء قبل حرف الرَّوِيِّ وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع ، كقوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ »(٤) وقوله « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ » (٥) . لزوم ما لا يلزم

(١) بعض الآية ٣٣ من سورة الانبياء .
(٢) الآية ٣ من سورة المدثر .
(٣) الخاطب : من يطلب يد العروس ، وإضافته للدنيا تخييل وقرينة على أنه شبهها العروس على سبيل المكنية . الدنية : الحقيرة . شرك : حبالة . الردى : الهلاك . قرارة : مستقر . والأبيات في المقامة الشعرية ، وبقيتها :

دار متى ما أضحكت في يومها — أبكت غداً، تباً لها من دار
غاراتها لا تنقضي وأسيرها — لا يفتدى ، بجلائل الأخطار

(٤) بعض الآية ٢٠١ والآية ٢٠٢ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ٩ – ١٠ من سورة الضحى .

وقول الشاعر :

٥٧٩ ـ سأشكرُ عَمْراً إن تَرَاخَتْ مَنِيّتي
أيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإن هِيَ جَلّتِ (١)

فتىً غيرُ محجوبِ الغِنَى عن صديقه
ولا مُظْهِرُ الشكوى إذا النّعلُ زلّتِ

رأى خَلّتِي من حيثُ يَخفَى مَكَانُها
فكانت قَذَى عَيْنَيْهِ حتّى تجلّتِ

وقول الآخر :

٥٨٠ ـ يقولون : في البستان للعين لَذّةٌ
وفي الخمرِ والماء الذي غيرُ آسِنِ (٢)

إذا شِئْتَ أن تلقى المحاسِنَ كلّها
ففي وجه من تَهْوَى جميعُ المحاسنِ

وقد يكون ذلك في غير الفاصلتين أيضاً ، كقول الحريري : « وما اشْتارَ العسلَ ، مَنْ اختارَ الكسل » (٣) .

* * *

(شرط الحسن في البديع اللفظي)

وأصل الحسن في جميع ذلك ـ أعني القسم اللفظي ـ كما قال الشيخ عبد القاهر ، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ؛ فإن المعاني إذا أُرْسِلَتْ على سَجِيّتِهَا ، وتُرِكت وما تريد ؛ طَلَبَتْ لأنفسها الألفاظَ ، ولم

(١) انظر للبيتين الأولين الشاهد رقم ٣١ ـ خلّتي : حاجتي . القذى : ما يقع من الأجسام الغريبة في العين أو الشراب ، والكلام على التشبيه . تجلت : انكشفت .

(٢) آسن : متغير . والبيتان للمعري .

(٣) اشتار العسل : جناه وجمعه .

تَكْنُسِ إلا ما يليق بها ، فإن كان خلافَ ذلك كان كما قال أبو الطيب :

٥٨١ — إذا لم تُشَاهِدْ غيرَ حسنِ شِيَاتِهَا
وأعضائها ؛ فالحسنُ عنكَ مُغَيَّبُ (١)

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حَمَلَ صاحِبَهُ فَرْطُ شَغَفِهِ بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع على أن ينسى أنه يتكلم ليُفْهِم . ويقول ليُبِين ، ويُخَيَّلُ إليه أنه إذا جَمَعَ عِدَّةً من أقسام البديع في بيت ؛ فلا ضَيْرَ أن يقع ما عَنَاه في عَمْيَاء وأن يُوقِع السامع (مِنْ) طلبه في خَبْطِ عَشْوَاء (٢) .

* * *

(١) شياتها : أوضاحها وعلاماتها من الألوان المخالفة للونها الأصلي ، والضمير للخيل التي يصفها ، وفي نسخة « غير حسن شياتها وأغضانها » تحريف .

(٢) الزيادة بين المعقوفين عن عبد القاهر (أسرار البلاغة ص ٦ المنار) فهو صاحب العبارة . لا ضير : لا ضرر . عمياء : متاهة ومضلة . العشواء : الناقة لا تبصر أمامها ؛ فخبطها — أي سيرها — على غير مدى .

(خاتمة فن البديع)

٢٦٨ ــ هذا ما تيسر ــ بإذن الله تعالى ــ جَمْعُه وتحريره من أصول الفن الثالث ،.وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين .

١ ــ منها ما يتعين إهماله (لأحد سببين) :

ملحقات يجب إهمالها

لعدم دخوله فن البلاغة ، نحو ما يرجع في التحسين إلى الخط دون اللفظ مع أنه لا يخلو من التكلف ، ككون الكلمتين مُتماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطةً ، ونحو ما لا أثر له في التحسين ، كما يسمى التّرديد .

أو لعدم جَدْوَاه ، نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه ، كما سماه الإيضاح ؛ فإنه في الحقيقة راجع الى الإطناب ، أو خلَطَ فيه . كما سَمّاه حُسْنُ البيان .

ملحقات لا مانع من ذكرها

٢ ــ ومنها ما لا بأس بذكره ؛ لاشتماله على فائدة ، وهو شيئان :

أحدهما ؛ القول في السرقات الشعرية ، وما يتصل بها .

والثاني : القول في الابتداء ، والتّخلُّص ، والانتهاء .

فعَقَدْنَا فيهما فصلين ختَمْنَا بهما الكتاب .

الفصل الأَول

(القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها)

أنواع الاتفاق في المعنى

٢٦٩ ــ اعلم أن اتفاق القائلين إن كان في الغرض على العموم ــ كالوصف بالشجاعة ، والسخاء ، والبلادة ، والذكاء ــ فلا يُعَدُّ سرقة ، ولا استعانة ، ولا نحوهما ؛ فإن هذه أمورٌ مُتقرِّرة في النفوس ، مُتصوَّرَة للعقول ، يشترك فيها الفصيح والأعجم ، والشاعر والُمفْحَم .

٢٧٠ ــ وإن كان في وجه الدلالة على الغرض ــ وينقسم إلى أقسام كثيرة منها : التشبيه بما توجَد الصفة فيه على الوجه البليغ كما سبق ، ومنها ذِكر هيئاتٍ تدل على الصفة ؛ لاختصاصها بمن له الصفة ، كوصف الرجل حال الحرب بالابتسام ، وسكونِ الجوارح ، وقِلّةِ الفكر ، كقوله :

٥٨٢ ــ كأنَّ دَنانيراً على قَسَمَاتِهِمْ
وإنْ كان قَدْ شَفَّ الوُجوهَ لِقاءُ(١)

وكذا وصفُ الجواد بالتهلُّل عند وُرود العُفاةِ ، والارتياحِ لرؤيتهم ، ووصفُ البخيل بالعُبوس ، وقِلّةِ البِشْرِ ، مع سَعَة ذات اليد ، ومساعدة الدهر .

الاتفاق فيما يشترك الناس في معرفته

٢٧١ ــ فإن كان مما يشترك الناس في معرفته لاستقراره في العقول والعادات ، كتشبيه الفتاة الحسنة بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر والبليد البطىء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ؛ فالاتفاق فيه كالاتفاق في عموم الغرض .

---

(١) قسماتهم : وجوههم ، أو أعاليها خاصة ، واحدة قسمة ، بفتح السين وكسرها . شف الوجوه : وقفها عن التحول . والبيت لمحرز بن المكعبر الضبي .

الاتفاق فيما لا ينال إلا بفكر

٢٧٢ ـ وإن كان مما لا يُنَال إلا بفكر ، ولا يَصل إليه كلُّ أحد؛ فهذا الذي يجوز أن يُدَّعَى فيه الاختصاصُ والسَّبْقُ ، وأن يُقضى بين القائلين فيه بالتفاضل وأنَّ أحدَهما فيه أفضلُ من الآخر ، وأن الثاني زاد على الأول أو نقص عنه .

أنواعه

٢٧٣ ـ وهو ضربان :

أحدهما : ما كان في أصله خاصيًّا غريباً .

والثاني : ما كان في أصله عامِّياً مُبْتَذلا ، لكن تُصرِّف فيه بما أخرجه من كونه ظاهراً ساذَجاً إلى خلاف ذلك ؛ وقد سبق ذكر أمثلتهما في التشبيه والاستعارة .

إذا عرفت هذا فنقول :

ضروب الأخذ

٢٧٤ ـ الأخذ والسرقة نوعان : ظاهر ، وغير ظاهر .

الأخذ الظاهر

أما الظاهر فهو أن يُؤخَذَ المعنى كله : إما مع اللفظ كلِّه أو بَعْضِهِ ، وإما وحده .

الانتحال أو النسخ

٢٧٥ ـ فإن كان المأخوذ كلّه من غير تغيير لنظمه فهو مذموم مردود؛ لأنه سرقة مَحضة . ويُسَمّى نَسْخاً وانتحالا ، كما حُكِيَ أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده .

٥٨٣ ـ إذا أنتَ لم تُنْصِف أخاك وَجَدْتَهُ
على طَرَفِ الهِجْران إن كان يَعْقِلُ (١)
ويركب حَدَّ السيف مِنْ أن تَضيمَهُ
إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السيف مَزْحَلُ

فقال له معاوية : لقد شَعَرْتَ بعدي يا أبا بكر ، ولم يفارق عبدُ الله

(١) الطرف : الجانب والناحية ، وإضافته إلى الهجران تخييل ، على اعتبار تصور الهجران مكاناً له جانبان يحل كل من المتخاصمين في احدهما وله تخريج آخر . حدّ السيف : طرفه القاطع وشفرته ، والمرا د به الصعب المؤلم من الأمور ، مجازا . تضيمه : تظلمه . مزحل : منأى ، أي مكان النأي وهو البعد .

المجلسَ حتى دخل مَعْنُ بْنُ أوْسٍ الْمزنِيُّ ، فأنشد كلمتَهُ التي أوّلُها :

٥٨٤ ــ لَعَمْرُكَ ما أدري ، وإني لأوْجَلُ
على أيِّنَا تَعْدو المَنِيّةُ أوّلُ (١)؟

حتى أتى عليها ، وفيها ما أنشده عبد الله ، فأقبل مُعَاوِيَةُ على عبد الله ، وقال له : ألم تخبرني أنهما لك ؟ فقال : المعنى لي ، واللفظ له ، وبَعْدُ فهو أخي من الرضاعة ، وأنا أحق بشعره .

وقد روي لأوْسٍ ولزُهَيْرٍ في قصيدتَيهما هذا البيت :

٥٨٥ ــ إذا أنت لم تُعْرِضْ عن الجهل والخَنَا
أصبْتَ حليماً ، أو أصابكَ جاهلُ(٢)

وقد روي للأبَيْرِدِ اليَرْبُوعِيِّ :

٥٨٦ ــ فتىً يَشْتَري حُسْنُ الثّنَاءِ بِمَالِه
إذا السَّنَةُ الشّهباءُ أعْوَزَهَا القَطْرُ(٣)

ولأبي نُواس :

٥٨٧ ــ فتىً يشتري حُسْنُ الثناءِ بمالِهِ
ويعلم أن الدائراتِ تَدُورُ (٣)

وقد رُوِيَ لبعض المتقدِّمين يمدح مَعْبَداً :

---

(١) أوجل : أخاف ، وجملة إن ومعموليها اعتراضية . تعدو : تعتدي ، ويروى تغدو (بغين معجمة) ومعناه تروح .

(٢) لم تعرض : لم تصد وتنصرف . الجهل : السفه والطيش ، الخنا : الفحش . حليما : عاقلا غير سفيه .

(٣) السنة الشهباء : السنة المجدبة لا خضرة فيها ولا مطر . أعوزها القطر : احتاجت إليه . والقطر : المطر . الدائرات : النوائب من صروف الدهر . تدور : تتقلب وتطوف.

٥٨٨ ــ أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعدَه
وما قَصَباتُ السَّبْقِ إلاَّ لِمَعْبَدِ (١)

ولأبي تمام :
٥٨٩ ــ مَحَاسِنُ أصنافِ المُغَنِّينَ جَمَّةٌ
وما قَصَباتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ (١)

وحكى صاحب الأغاني في أصوات مَعْبَدٍ :
٥٩٠ ــ لهفي على فِتْيَةٍ ذَلَّ الزمانُ لهم
فما يصيبُهم إلاَّ بما شاءوا (٢)

وفي شعر أبي نواس :
٥٩١ ــ دارَتْ على فِتْيَةٍ ذَلَّ الزمانُ لهم
فما يُصيبهم إلا بها شاءوا !

وفي هذا المعنى ما كان التغيير فيه بإبدال كلمة أو أكثر بما يُرَادِفُهَا، كقول امْرِيء القيس :
٥٩٢ ــ وقوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ
يقولون : لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ (٣)

---

(١) طويس : هو عيسى بن عبد الله ، المغني على عهد الخليفة عثمان . والسريجي : عبيد الله بن سريج ، تلميذ الأول وخريجه . ومعبد : هو ابن وهب ، أشهر المغنين في العهد الأموي . قصبات السبق ، وقصبه : واحده قصبة ، وهي ما ينصب آخر حلبة السباق فيقتلعها السابق علامة لظفره . جمة ؛ كثيرة .

(٢) أصوات معبد : ألحانه . لهفي : حسرتي . ذل الزمان لهم : خضع لهم ، كناية عن عزهم وسيادتهم وتغلبهم . دارت : طاف بها السقاة ؛ والضمير المستتر للخمر .

(٣) وقوفا : مصدر ، أو جمع واقف بمعنى حابس ، وأحسن تخريجاته ــ على الثاني ــ أن يجعل حالا من فاعل « يقولون » في الشطر الثاني . مطيهم : ركائبهم . أسى : حزناً شديداً . تجمل : تحلَّ بالصبر . تجلد : تحمل وتكلف الجلد .

وقول طَرَفَةَ :

٥٩٣ – وُقوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ
يقولون : لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَلَّدِ(١)

وكقول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه :

٥٩٤ – وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتَهُمْ
ولا الدارُ بالدارِ التي كُنْتَ تَعْلَمُ

وقول الفرزدق :

٥٩٥ – وما الناسُ بالناسِ الذين عَهِدْتَهُمْ
ولا الدارُ بالدارِ التي كنتْ تَعْرِفُ

وكقول حاتم :

٥٩٦ – ومَن يَبْتَدِع ما ليس مِنْ خِيمِ نَفْسِه
يَدَعْهُ ، ويَغْلِبْهُ على النَفس خِيمُها(٢)

وقوب الأعور :

٥٩٧ – ومن يَقْتَرِفْ خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نفسه
يَدَعْهُ ،ويَغْلِبْهُ على النفس خِيمُها(٢)

٢٧٦ – وإن كان مع تغيير لنظمه ، أو كان المأخوذ بعض اللفظ سُمِّيَ إغارةً ومَسْخاً .

الإغارة أو المسخ

١ – فإن كان الثاني أبلغَ من الأول لاختصاصه بفضيلة – كحسن السَّبك ، أو الاختصار ، أو الإيضاح ، أو زيادة معنى – فهو ممدوح مقبول ، كقول بَشَّار :

٥٩٨ – مَنْ راقَبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بِحاجته
وفاز بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ(٣)

---

(١) وقوفاً : مصدر ، أو جمع واقف بمعنى حابس ، وأحسن تخريجاته – على الثاني – ان يجعل حالاً من فاعل «يقولون» في الشطر الثاني. مطيهم : ركائبهم . أسى : حزناً شديداً . تجمل : تحلَّ بالصبر . تجلد تحمل وتكلف الجلد .

(٢) يبتدع : يستحدث . خيم : طبع . يدعه : يتركه ويفارقه . من يقترف خلقاً : من يكتسب خلقاً .

(٣) راقب : خاف وحذر . الفاتك : الجرىء الشجاع . اللهج : المستهتر بالشيء المغرم المولع به .

وقول سلمِ الخاسِرِ :

٥٩٩ ــ مَنْ راقَبَ الناسَ مات غَمّاً
وفاز باللّذّةِ الجَسُو

فبيتُ سَلْم أجود سَبْكاً ، وأخْصَر .

وكقول الآخر :

٦٠٠ ــ خلَقنا لهم في كل عَيْنٍ وحاجِبٍ
بسُمْرِ القَنَا والبِيضِ عَيْناً وحاجِبا(١)

وقول ابن نُباتَةَ بعدَه :

٦٠١ ــ خلقْنَا بأطراف القَنَا في ظُهورهم
عُيونا لها وَقْعُ السيوف حَواجِب

فبيت ابن نُبَاتة أبلغ ؛ لاختصاصه بزيادة معنى ، وهو الإشارة إلى انهزامهم ، ومن الناس من جعلهما متساويين .

٢٧٧ ــ ٢ ــ وإن كان الثاني دُونَ الأول في البلاغة فهو مذموم مردود ، كقول أبي تمام :

٦٠٢ ــ هَيهَاتَ ؛ لا يَأتِي الزمانُ بمثلِه
إن الزمانَ بمثلِهِ لَبَخيلُ(٢)

---

(١) خلقنا لهم : أحدثنا . سمر : جمع أسمر ، ويطلق على الرمح . القنا : الرماح واحده قناة . البيض : السيوف ، واحدها أبيض . عيناً وحاجباً : استعارتان لضربتي الرمح والسيف ، وكذلك العيون والحواجب في البيت الثاني ، وإذا صح ما في ريحانة الألباء (ص ١٣٣ بولاق) من نسبة البيت الأول لأبي إسحاق إبراهيم الغزي كان هو المتأخر والآخذ من ابن نباته ، ولا يصح ذلك .

(٢) هيهات : بعد ، وهو اسم فعل ماض فاعله ضمير مستتر يعود على النسيان المفهوم من البيت قبله وهو :

أنسى أبا نصر ؟! نسيت إذن يدي من حيث ينتصر الفتى وينيل

وهمزة الاستفهام محذوفة للتخفيف حيث التقت بهمزة المضارعة ، والاستفهام إنكاري

وقول أبي الطيب :

٦٠٣ — أعْدَى الزَّمانَ سَخاؤه ؛ فَسَخَا بِـــه
ولَقَدْ يكونُ بهِ الزمانُ بخيــلا(١)

فإن مِصراعَ أبي تمام أحسنُ سَبْكاً من مصراع أبي الطيب . أراد أن يقول : « ولقد كان الزمان به بخيلا » فعَدَلَ عن الماضي إلى المضارع ؛ للوزن .

فإن قُلْتَ : المعنى « إن الزمان لا يسمح بهلاكه »

قُلْتُ : السخاء بالشيء هو بَذْلُه للغير ، فإذا كان الزمان قد سخا به ؛ فقد بَذَله ، فلم يبْقَ في تصريفه حتى يَسْمَحَ بهلاكه أو يبخل به.

٢٧٨ — ٣ — وإن كان مثلَه فالخطب فيه أهْوَنُ ، وصاحبُ الثاني أبعدُ من المَذَمَّة ، والفَضْلُ لصاحب الأول ، كقول بشار :

٦٠٤ — يا قَوْمُ أُذْنِي لبَعْضِ الحيِّ عاشِقَةٌ
والأذْنُ تَعْشَقُ قبلَ العينِ أحيــانا

وقول ابن الشِّحْنَةِ الموْصِليِّ :

٦٠٥ — وإنِّي إمرُؤٌ أَحْبَبْتُكُمْ لمَكَــارِمٍ
سَمِعْتُ بها ، والأُذْنُ كالعين تَعْشَقَ

وكذا قول القاضي الأرَّجانِيِّ :

٦٠٦ — لم يُبْكِنِي إلاَّ حديثُ فراقِكُــمْ
لَمَّا أسَرَّ بهِ إلَيَّ مُوَدِّعِــي(٢)

---

(١) أعدى الزمان سخاؤه : علمه الجود ، وطريقه المجاز في « أعدى » لمعنى « علم ». وفي إسناد « أعدى » بمعناه المجازي إلى السخاء . سخا به : جاد وتكرم بوجوده

(٢) هو : ضمير يعود على البكاء المفهوم من البيت الأول . الدر : أعظم اللؤلؤ ، واحدله درة ، وقد استعاره للألفاظ والكلمات .

هو ذلك الـدُّرُّ الذي أَوْدَعْتُـمْ
في مَسْمَعِي ، ألقيتُه مِنْ مَدْمَعِي

وقول جارِ الله :

٦٠٧ – وقائلةٍ : ما هـذه الدُّرَرُ الـتي
تُساقِطُها عَيْناكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ (١)

فقلتُ : هي الدُّرُّ الذي قد حَشَا بِهِ
أبو مُضَرٍ أُذْنِي تَساقَطَ مِنْ عَيْنِي

وكقول أبي تمام :

٦٠٨ – لو حارَ مُرْتَادُ المَنِيَّةِ ، لم يَجِـدْ
إلا الفِراقَ على النُّفوس دَليلا(٢)

وقول أبي الطيب :

٦٠٩ – لولا مُفَارَقَةُ الأحباب ما وَجَدَتْ
لها المَنايا إلى أرواحِنـا سُبُـلا

٢٧٨ – واعلم أن من هذا الضرب ما هو قبيح جِداً ، وهو ما يدل على السرقة باتفاق الوزن والقافية أيضاً ، كقول أبي تمام :

٦١٠ – مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْـدَكَ والأمـاني
وإنْ قَلِقَتْ رِكابي في البِلادِ(٣)

---

(١) الدرر : استعارة للألفاظ . سمطين سمطين : حال من المفعول ، والسمط : هو الخيط ما دام اللؤلؤ أو ما أشبهه منظوماً فيه . أبو مضر : هو محمود بن جرير الضبي ، أحد أساتذة جار الله الزمخشري ، وهو محمود بن عمر ، القائل للبيتين وصاحب التصانيف الممتعة .

(٢) تحير ولم يهتد إلى وجه الصواب . مرتاد المنية : الباحث عن المنايا المنقب على النفوس ليهلكها ؛ فالإضافة بيانية . دليلا : هادياً ومرشداً .

(٣) الأماني : معطوفة على الظن . قلقت : اضطربت وجالت . جدواك : عطائك . غاد : ذاهب .

ولا سافرتُ في الآفاق إلا
ومن جَدْواكَ راحِلَتِي وزَادِي

وقول أبي الطيب :

٦١١ — وإنّي عنكَ بَعْدَ غَدٍ لَغادِ
وقلبي عن فِنائكَ غَيْرُ غادِ
محبكَ حَيْثُما اتّجَهَتْ رِكابي
وضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ البِلادِ

٢٨٠ — وإن كان المأخوذ المعنى وَحْدَهُ سُمّيَ إلماماً وسَلْخاً ، وهو ثلاثة أقسام كذلك : الالمام أو السلخ

أولها : كقول البحتري :

٦١٢ — تَصُدُّ حَياءً أن تَراكَ بأوْجُهٍ
أتى الذَّنْبَ عاصِيها ، فَلِيمَ مُطِيعُها(١)

وقول أبي الطيب :

٦١٣ — وجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهاءُ قَوْمٍ
وحَلَّ بغير جَارِمِهِ العذابُ (٢)

فإن بيت أبي الطيب أحسن سبكا ، وكأنه اقتبسه من قوله تعالى : « أتُهْلِكُنا بِمَا فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا » (٣) .

وكقول الآخر :

ولَسْتُ بِنَظّارٍ إلى جانبِ الْغِنَى
إذا كانَتِ الْعَلْيَاءُ في جانبِ الْفَقْرِ (٤)

---

(١) تصد حياء : تعرض بسبب الخفر والحياء . ليم : أنب ، وعذل ، وعوتب .

(٢) وجرم : ورب جريمة وذنب . جره سفهاء قوم : ارتكبه جهالهم وطائشوهم . جارمه : مقترفه .

(٣) بعض الآية ١٥٥ من سورة الأعراف . (٤) انظر الشاهد ٢٢٤ .

وقول أبي تمام بعده :

يَصُدُّ عن الدنيا إذا عَنَّ سُودَدٌ
ولو بَرَزَتْ في زِيِّ عَذْراءَ ناهِدِ(١)

فبيت أبي تمام أخصر وأبلغ ؛ لأن قوله « ولو برزت في زي عذراء ناهد » زيادَة حَسنه .

وكقول أبي تمام :

٦١٤ — هو الصُّنْعُ ؛ إن يَعْجَلْ فخيرٌ ، وإن يَرِثْ
فَلَلرَّيْثُ في بَعْضِ المَواضِعِ أنفعُ(٢)

وقول أبي الطيب :

٦١٥ — ومن الخيرِ بُطْءُ سَيْبِـكَ عَنِّي
أسْرَعُ السحْبِ في المَسِيرِ الجَهامُ(٣)

فبيت أبي الطيب أبلغ ؛ لاشتماله على زيادة بيان .

وثانيها : كقول بعض الأعراب :

٦١٦ — وريحُهَا أطيبُ مِـنْ طِيبِهـا
والطِّيبُ فيه المِسْكُ وَالعَنْبَـرُ(٤)

وقول بشار :

٦١٧ — وإذا أدْنَيْـتَ منهـا بَصَـلاً
غَلَبَ المِسْكُ عـلى ريح البَصَلْ

---

(١) انظر الشاهد ٢٢٣ .

(٢) هو : ضمير الشأن . الصنع : الإحسان . إن يرث : إن يتأخر ويبطىء . الريث : البطء .

(٣) سيبك : عطائك . الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٤) ريحها : رائحة جسدها ونكهتها . الطيب : أل فيه للعهد والمقصود طيبها . والمسك والعنبر من أفضل الطيوب ، ومع ذلك فضل رائحتها على طيبها الغالي .

وقول أشْجَعَ :

٦١٨ـ وعلى عَدُوِّكَ يا بْنَ عَمِّ مَحَمَّـــد
رَصَدَانِ : ضَوْءُ الصبحِ ، والإظلامُ(١)

فإذا تنبَّه رُعْتَهُ ، وإذا هَـــدَا
سَلَّتْ عليهِ سُيوفَكَ الأحلامُ

وقول أبي الطيب :

٦١٩ـ يَرى في النوم رُمْحَكَ في كُـــلاهُ
ويخشى أن يراه في السُّهـــادِ(٢)

فقصَّر بذكر السُّهاد ؛ لأنه أراد اليَقَظَةَ ؛ ليطابق بها النومَ ، فأخطأ ؛ إذ ليس كل يَقَظَةٍ سُهادا ، وإنما السهاد امتناع الكَرَى في الليل . وأما المستيقظ بالنهار فلاَ يُسَمَّى ساهِدا .

وكقول البحتري :

٦٢٠ـ
وإذا تألَّقَ في النَّدِيِّ كَلامُهُ المَصْقولُ خِلتَ لِسانَهُ مِنْ عَضْبِهِ(٣)

---

(١) ابن عم محمد : المقصود به في البيت هارون الرشيد ، لأنه عباسي وجده الأعلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . رصدان: رقيبان . إذا تنبه: إذا استيقظ. رعته : خوفته . هدا : مخفف هدأ ، ويروى غفا : أي نام نوماً خفيفاً . سل السيف : انتزعه من غمده .

(٢) الكلى ، بضم الكاف : اسم جنس واحده كلية بالضم أيضاً ، وهي العضو المعروف . السهاد : حقيقته الأرق ، ويقصد منه الشاعر مطلق اليقظة .

(٣) تألق : لمع ، وهو تخييل . الندي : النادي ، وهو مجتمع العلية الأشراف . كلامه : فيه مكنية بدليل التخييلية في تألق . المصقول : المجلو ، وهو تخييل . العضب: السيف القاطع .

وقول أبي الطيب :

٥٢١ ــ كأن ألْسُنَهُمْ في النُّطْقِ قد جُعِلَتْ
على رماحِهِمُ في الطَّعْنِ خُرصانا(١)

فإن أبا الطيب فاته ما أفاده من البحتري بلفظَيْ « تألّق » و « المصقول» من الاستعارة التخييلية .

وكقول الخنساء :

٦٢٢ ــ وما بَلَغَ المُهْدُونَ للناس مِدْحَةً
وإن أطنبوا إلاّ وما فيكَ أفضلُ(٢)

وقول أشْجَعَ :

٦٢٣ ــ وما ترك المُدّاحُ فيك مَقالةً
ولا قال إلاّ دُونَ ما فيكَ قائلُ

فإن بيت الخنساء أحسن من بيت أشجع ؛ لما في مِصراعه الثاني من التعقيد ؛ إذ تقديره : ولا قال قائل إلا دون ما فيك .

وثالثها : كقول الإعرابي :

٦٢٤ ــ ولم يَكُ أكثَرَ الفِتْيانِ مالاً
ولكِنْ كانَ أرْحَبَهُمْ ذِراعا(٣)

(١) خرصانا : مفعول ثان لقوله « جعلت » والخرصان : أسنة الرماح ، واحدها خرص بكسر أوله ، يشبه ألسنتهم في الذرابة بأسنة رماحهم الماضية .

(٢) ما بلغوا مدحة : ما وصلوا إليها . المهدون : جمع المهدي ، اسم فاعل من أهدى : أي زف العروس الى بعلها او ساق الهدي الى الحرم وهذا تخييل اساسه تشبيه العضب بالعروس أو بالهدي . مدحة : قصيدة مدح ، ويتنازع العمل فيها « بلغ » و« المهدون » .

(٣) أرحبهم ذراعاً : أوسعهم امتداد ذراع ، هذا حقيقته ، والمراد أكثرهم كرماً وإنعاماً . والذراع واليد كلاهما يتجوز به عن النعمة والتكرم ، والبيت لموسى شهوات في عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كما يقوله الصولي في كتابه « الأوراق » .

وقول أشجع :

٦٢٥ — وليس بـأوْسَعِهِمْ في الغِنَــى
وَلَكِنَّ مَعْرُوفَـهُ أَوْسَعُ (١)

وكذا قول بَكْرِ بنِ النطّاح :

٦٢٦ — كأنكَ عندَ الكَرِّ في حَوْمَةِ الوَغَى
تَفِرُّ من الصَّفِّ الذي من وَرَائِكَا(٢)

وقول أبي الطيب :

٦٢٧ — فكأنه والطَّعْنُ من قُدَّامِـهِ
مُتَخَوِّفٌ من خَلْفِـهِ أن يُطْعَنا

وكذا قول الآخر يذكر ابْناً له مات :

٦٢٨ — والصبرُ يُحْمَدُ في المواطــن كلِّهــا
إلاَّ عليكَ ؛ فــإنه مَذمــومُ(٣)

وقول أبي تمام بعده :

٦٢٩ — وقد كان يُدْعَى لابسُ الصَّبْرِ حــازماً
فأصبح يُدْعَى حازِماً حِينَ يَجْزَع (٤)

٢٨١ — وأما غير الظاهر فمنه : أن يتشابه معنى الأول ومعنى الثاني ، كقول الطِّرِمَّاحِ بن حكيم الطائي :

---

(١) قاله أشجع السلمي في جعفر بن يحيى البرمكي ، وقبله :
يروم الملوك مدى جعفـر ولا يصنعـون كمـا يصنـع

(٢) الكر : الإقدام والحمل على العدو في الحرب . حومة الوغى : هجوم الحرب واشتدادها .

(٣) هو للضبي محمد بن عبد الله ، في رثاء ابنه . والضبي من كتاب الدولة السبكتكينية في غزنة .

(٤) لابس الصبر : المتصبر ، وفيهما تخييلية ومكنية .

٦٣٠ـ لقد زادني حُبّاً لنفسِيَ أنّني
بُغيضٌ إلى كلّ امرئٍ غيرِ طائلِ(١)

وقول أبي الطيب :

٦٣١ـ وإذا أتتكَ مَذمّتي من ناقص
فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ

فإنّ ذَمّ النّاقصِ أبا الطيب كبغض مَنْ هو غيرُ طائلٍ الطِّرِمَّاحَ، شهادةُ ذَمّ الناقص أبا الطيب كزيادة حُبِّ الطِّرِمَّاحِ لنفسه .

وكذا قول أبي العلاء المعري في مَرْثِيَةٍ :

٦٣٢ـ وما كُلْفَةُ البدرِ المنيرِ قديمةٌ
ولكنّها في وجهه أثرُ اللّطْمِ(٢)

وقول القَيْسَرَانيِّ :

٦٣٣ـ وأهْوَى الذي أهْوَى له البدرُ ساجداً
ألَسْتَ ترى في وجهه أثَرَ التُّرْبِ ؟(٣)

وأوضحُ من ذلك قولُ جَرير :

٦٣٤ـ فلا يَمْنعكَ من أرَبٍ لِحاهُمْ
سواءٌ ذو العِمامةِ والخِمارِ(٤)

---

(١) غير طائل : خسيس : دون، لا نفع فيه .

(٢) كلفة البدر : بقع لونها أحمر كدر ترى على وجهه . اللطم : ضرب الخد اطن الكف .

(٣) أهوى (الأولى) : أحب وأعشق . أهوى (الثانية) : خر وسقط . الضمير الذي أضيف إليه وجه هو ضمير البدر ، ووجهه : صفحته وما يرى منه. ترب : استعاره للكلفة التي تظهر في صفحة القمر . ويشتهر الشاعر بابن القيسراني ، هو أبو عبد الله محمد بن نصر .

(٤) الأرب : الحاجة وما يشتهيه الإنسان . اللحى : واحدها اللحية وهي شعر جانب وجه والذقن . العمامة : البيضة ، أو المغفرة ، وهما من أغطية الرأس في الحرب =

وقولُ أبي الطيب :

٦٣٥ – ومَنْ في كَفِّـه منهم قَنَـاةٌ
كمَن في كَفِّهِ منهـم خِضـابُ(١)

ولا يَغُرّك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نَسيبا والآخر مديحا أو هِجاءً أو افتخاراً أو غيرَ ذلك ؛ فإن الشاعر الحاذِق إذا عمد إلى المعنى المختَلَس لينظمه تَحَيَّل في إخفائه ، فغيَّر لفظَه ، وعدَل به عن نوعه ووَزْنه وقافيته .

النقل

٢٨٢ – ومنه النقل ، وهو : أن يُنْقَل معنى الأول إلى غير محله ، كقول البحتري :

٦٣٦ – سُلِبوا ؛ وأشرقَت الدِّمَـاء عليهِـمُ
مُحْمَرَّةً ، فكأنهـم لم يُسْلَبُوا(٢)

نقله أبو الطيب إلى السيف فقال :

٦٣٧ – يَبِس النَّجيـعُ عليه وَهْو مُجَـرَّدٌ
عن غِمْدِهِ ، فكأنَّمَا هو مُغْمَدُ(٣)

ومنه أن يكون معنى الثاني أشملَ من معنى الأول ، كقول جَرير :

٦٣٨ – إذا غَضِبَتْ عليكَ بنو تميـم
وَجَدْتَ النـاسَ كُلَّهم غِضابا

= وتطلق على ما يلف حول الرأس . الخمار : ما تغطي به المرأة رأسها ، وهو مضاف لمحذوف تقديره « ذات » دل عليه « ذو » ولا يصح عطفه على العمامة اقتضاء لمعنى التسوية .

(١) قناة : رمح . خضاب : صبغ حناء .

(٢) سلبه ثوبه : نزعه وجرده منه . أشرقت الدماء عليهم : ظهرت ظهوراً شاملا مثل ظهور الشمس .

(٣) يبس النجيع : جف الدم الضارب لونه إلى السواد .

وقول أبي نُواس :

٦٣٩ ـ ليس علــى الله بمُسْتَنْكَــرِ
أن يَجْمع العــالَمَ في واحــد

القلب

٢٨٣ ـ ومنه القلب ، وهو : أن يكون معنى الثاني نقيضَ معنى الأول سُمِّيَ بذلك لقَلْب المعنى إلى نقيضه ، كقول أبي الشِّيص :

٦٤٠ ـ أَجِدُ المَلاَمَةَ في هَوَاكِ لَذِيــذَةً
حُبّاً لِذِكْرِكِ ، فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ(١)

وقول أبي الطيب :

٦٤١ ـ أأحِبُّهُ وأحِبُّ فيــه مَلاَمَــةً ؟
إن المَلاَمَةَ فيه مِنْ أعدائــهِ

وكذا قول أبي الطيب أيضا :

٦٤٢ ـ والجِراحــاتُ عنــده نَغَمَــاتٌ
سَبَقَتْ قبــل سَيْبِــهِ بسؤال(٢)

فإنه ناقَصَ به قول أبي تَمَّام :

٦٤٣ ـ ونَغْمَةُ مُعْتَفٍ جَدْواهُ أحْلَــى
عــلى أذُنَيْهِ من نَغَمِ السَّماعِ(٣)

وقد تَبِعه البحتري فقال :

---

(١) الملامة : العتاب والعذل . اللوم : اللائمون . واحده لائم . وأبو الشيص هو محمد بن رزين الخزاعي .

(٢) الجراحات : المقصود منها المؤلمات المؤذيات . نغمات : المراد بها هنا أصوات . سيبه : عطائه .

(٣) نغمة معتف جدواه : صوت طالب معروفه .

٦٤٤ — نَشْوانُ يَطْرَبُ للسؤال كأنما
غَنَّاهُ مالك طيٍّ أو مَعْبَدُ(١)

٢٨٤ — ومنه أن يؤخذَ بعضُ المعنى ويُضاف إليه زيادةٌ تُحسّنه ، كقول الأفوَه الأوْدِيّ :

٦٤٥ — وترى الطَّيْرَ على آثارنا
رَأيَ عَيْنٍ ثِقَةً أنْ سَتُمارْ(٢)

وقول أبي تمام :

٦٤٦ — وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعلامِه ضُحىً
بِعِقْبانِ طَيْرٍ في الدِّماء نَواهِلِ(٣)
أقامتْ مَعَ الرَّاياتِ حتى كأنها
من الجَيْشِ ، إلا أنها لم تُقاتِلِ

فإن الأفوَهَ أفاد بقوله : «رأي عين» قُرْبَها ؛ لأنها إذا بَعدتْ تُخُيِّلَتْ ولم تُرَ ، وإنما يكون قربها توقعا للفريسة ، وهذا يؤكد المعنى المقصود ، ثم قال « ثقة أن سَتُمار » فجعلها واثقة بالميرَة .

---

(١) النشوان : من أخذته النشوة والارتياح لمسكر على الحقيقة أو لشدة سرور بشيء على المجاز . مالك بن أبي السمح . ومعبد بن وهب : من مشاهير المغنين في العهد الأموي .

(٢) رأى عين : رؤية معاينة . تمار : تطعم وتمنح الميرة : واسم الأفوه : صلاءة بن عمرو .

(٣) عقبان : جمع عقاب ، بضم العين ، وهو طائر من الجوارح قوي المخالب أعقف المنقار ، هذا حقيقته ، وهو المراد بعقبان الطير في الشطر الثاني ، أما عقبان الأعلام فهي تماثيل صغيرة من نحاس ونحوه موضوعة في أعلى الرايات ، والإضافة على معنى اللام ، أو أن العقبان مشبه به مضاف للمشبه ، نواهل : جمع ناهل أو ناهلة بمعنى شارب أو شاربة .

وأما أبو تمام فلم يُلمّ بشيء من ذلك ، لكن زاد على الأفوه بقوله « إلاّ أنها لم تقاتل » ثم بقوله « في الدماء نواهل » ثم بإقامتها مع الرايات حتى كأنها من الجيش ، وبذلك يتم حسن قوله « إلا أنها لم تقاتل » وهذه الزيادات حسَّنت قولَه ، وإن كان قد ترك بعض ما أتى به الأفوه .

وهذه الأنواع ونحوها أكثرها مقبولة .

٢٨٥ ــ ومنها ما أخرجه حُسْنُ التصرُّف من قَبيل الأخذ والاتباع إلى حيِّز الاختراع والابتداع ، وكلما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول .

متى يحكم على أحد الشاعرين بالأخذ ؟

٢٨٦ ــ هذا كله إذا علم أن الثاني أخذ من الأول ؟ وهذا لا يُعْلَم إلا بأن يُعْلَم أنه كان يحفظ قول الأول حينَ نَظَم قولَه ، أو بأن يُخْبِر هو عن نفسه أنه أخذه منه ؛ لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل تَوارُدِ الخواطر ، أي مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد إلى الأخذ والسرقة ، كما يحكى عن ابن مَيَّادَةَ أنه أنشد لنفسه :

٦٤٧ ــ مُفيدٌ ، ومِتْلافٌ ، إذا ما أتيتَــــهُ
تَهلّل ، واهْتَزَّ اهتزازَ المُهنَّــدِ(١)

فقيل له : أين يُذْهَبُ بك ؟ ! هذا للحطيئة ؟ فقال : الآن علمت أني شاعر ؛ إذ وافقتُه على قوله ولم أسمعه .

٢٨٧ ــ ولهذا لا ينبغي لأحَدٍ بَتُّ الحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم الحال ؛ وإلا فالذي ينبغي أنْ يقال « قال فلان كذا ، وقد سبقه إليه

---

(١) مفيد : نافع للناس بكرمه . متلاف : مبدد للمال بكرمه أيضاً . تهلل : تلألأ وجهه من السرور . المهند : السيف المشحوذ ، أو السيف المطبوع من حديد الهند . وابن ميادة اسمه الرماح بن أبرد .

فلان فقال كذا » فيغتنم به فضيلة الصدق ، ويسلم مِنْ دَعْوَى العلم بالغيب ونِسْبَةِ النقصِ إلى الغير .

* * *

ما يتصل بالسرقات

٢٨٨ – وما يتصل بهذا الفن ِالقول في الاقتباس ، والتضمينِ ، والعَقْدِ ، والحَلِّ ، والتلميح .

١ – الاقتباس

٢٨٩ – أما الاقتباس فهو : أن يُضمَّن الكلامُ شيئاً من القرآن أو الحديث ، لا على أنه منه ، كقول الحريري « فلم يكن إلا كلمْحِ البصر أو هو أقربُ ، حتى أنشد فأغربَ » (١) .

وقوله « أنا أنبئكم بتأويله ، وأميز صحيحَ القَول من عليله » (٢) .

وقول ابن نُبَاتة الخطيب : « فيا أيها الغَفَلَةَ المُطرِقون ، أما أنتم بهذا الحديث مُصدقون ؟ ما لكم لا تشفقون ؟ فوَرَبِّ السماء والارض إنه لَحَقٌّ مثلَ ما أنكم تَنْطِقون » (٣) .

وقوله أيضاً من خطبة أخرى ذكر فيها القيامة « هنالِكَ يُرفَعُ الحجابُ ، ويوضَعُ الكتابُ ، ويُجْمَعُ مَنْ وجَبَ له الثواب ، وحَقَّ عليه العقابُ ، فيُضربُ بينهم بسورٍ له بابٌ ، باطنه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قبله العذاب » (٤) .

وقول القاضي الفاضل وقد ذكر الإفرنج « وغضبوا زادهم الله غَضَبًا وأوقدوا ناراً للحرب جعلهم الله لها حطباً » (٥) .

---

(١) الاقتباس من الآية ٧٧ من سورة النحل .

(٢) الاقتباس من الآية ٤٥ من سورة يوسف .

(٣) الاقتباس من الآية ٢٣ من سورة الذاريات .

(٤) الاقتباس من الآية ١٣ من سورة الحديد .

(٥) الاقتباس من الآية ٦٤ من سورة المائدة .

وكقول الحماسيِّ :

٦٤٨ — إذا رُمْتُ عنها سَلْوَةً قال شافِــعٌ
من الحُبِّ : ميعادُ السُّلُوِّ المَقابرُ(١)

ستبقى لها في مُضْمَرِ القلب والحشا
سَريرةُ ودٍّ يوم تُبْلَى السَّرائر

وقول أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني :

٦٤٩ — لِآلِ فَريغُونَ في المَكْرُمـات
يَدٌ أوَّلاً ، واعتذارٌ أخيرا (٢)

إذا مَـا حَلَلْتَ بمَغْنـاهُمُ
رأيتَ نعيمـا ومُلْكاً كبـيرا

وقول الأبِيوَرْدِيِّ :

٦٥٠ — وقصائد مثـل الريـاض أضَعْتُها
في بـاخِلٍ ضاعَتْ به الأحسـابُ(٣)

فإذا تَنَاشَدَها الرُّواةُ ، وأبصروا المَمْدوحَ قالوا : «ساحرٌ كذَّابُ»

وقول الآخر :

---

(١) رمت : أردت . السلوة هنا : السلو والنسيان . شافع : شفيع ومساعد . مضمر القلب : مكنونه . سريرة : طوية . تبلى : تختبر . والشعر للأحوص بن محمد الأنصاري ، والاقتباس من الآية ٨ من سورة الطارق .

(٢) يد : أثر حسن ، وطريقه المجاز . مغناهم : موطنهم . والاقتباس من الآية ٢٠ من سورة الإنسان .

(٣) باخل : بخيل وشحيح . الأحساب : جمع حسب ، وهو ما تعده من مجد الآباء . تناشدها الرواة: أنشدها حفاظ الشعر بعضهم لبعض . والأبيوردي هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، والاقتباس من الآية ٢٤ من سورة غافر .

٦٥١ ـ لا تعاشر مَعْشراً ضَلُّوا الهُدَى
فَسَواءٌ أقبلوا أو أدبروا(١)

« بَدَتِ البغضاءُ مِنْ أفواههم ،
والذي يُخفونَ منها أكبرُ »

وقوله :

٦٥٢ ـ خُلَّة الغانيات خُلَّةُ سُوءٍ
فاتَّقوا الله يا أُولِي الألبابِ(٢)

وإذا ما سَألتُموهُنَّ شيئاً
«فاسْألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »

وقول الآخر :

٦٥٣ ـ إنْ كُنْتِ أزمعتِ على هَجرنا
من غير ما جُرْمٍ «فصبرٌ جَمِيلٌ »(٣)

وإن تبدَّلْتِ بنا غيرنا
« فحسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلْ »

وكقول الحريري « وكتمان الفقر زَهادةٌ ، وانتظارُ الفرج بالصَّبْر عبادَةٌ » فإن قوله « انتظار الفرج بالصبر عبادة » لفظُ الحديث .

---

(١) ضلوا الهدى : جاروا ومالوا عنه . والاقتباس من الآية ١١٨ من سورة آل عمران .

(٢) خلة : خصلة وعادة . الغانيات : المستغنيات . بجمالهن عن الزينة ؛ لأنهن فائقات الحسن ، والاقتباس في البيت الأول من الآية ١٠٠ من سورة المائدة أو ١٠ من سورة الطلاق . وفي البيت الثاني من الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٣) أزمعت : عزمت . والبيتان لأبي القاسم بن الحسن الكاتبي . والاقتباس في البيت الأول من الآية ١٨ من سورة يوسف ، أو من الآية ٨٣ منها أيضاً ، وفي البيت الثاني من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .

وقوله « قلنا : شاهَتْ الوُجوهُ ، وقَبُحَ اللُّكَعُ ومَنْ يرْجُوه » فإن قوله « شاهت الوجوه » لفظُ الحديث ؛ فإنه روي : لما اشتدَّت الحربُ يومَ حُنَيْنٍ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفاً من الحَصْباء ، فرَمَى بها في وجوه المشركين ، وقال « شاهت الوجوه » أي : قبحت . واللُّكَعُ قيل : هو اللئيم ، وقال أبو عُبَيْدٍ : هو العبد .

وكقول ابن عبَّاد :

٦٥٤ — قـال لي : إن رقيبي سَيِّئُ الخُلْقِ ؛ فدَارِهْ (١)
قلتُ : دعني ، وجهُك الجنَّةُ حُفَّتْ بالمَكَـارِهْ

اقتبس من لفظ الحديث « حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِه ، وحُفَّت النارُ بالشَّهَوات » .

أنواع الاقتباس

٢٩٠ — والاقتباس منه ما لا يُنْقَل فيه اللفظُ المُقْتَبَسُ عن معناه الأصليّ إلى معنى آخر ، كما تقدم ، ومنه ما هو بخلاف ذلك ، كقول ابن الرومي :

٦٥٥ — لئِنْ أخْطَأتُ في مَدْحِيـكَ ما أخطأتَ في مَنْعِي(٢)
لقد أنزلتُ حاجـاتِي « بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ »

ولا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن أو غيره ، كقول بعض المغاربة عند وفاة بعض أصحابه :

---

(١) داره : لاطفه وخاتله وخادعه . حفت : أحيطت .

(٢) الاقتباس من الآية ٣٧ من سورة إبراهيم . والوادي غير ذي الزرع : عني به في الآية الكريمة وادي مكة ، وفي البيت الجناب الذي لا نفع ولا خير فيه ، وبعض الرواة ينسب البيتين لإسماعيل القراطيسي .

٦٥٦ ـ قد كـان ما خِفْتُ أن يكونـا
إنّـا إلى الله راجِعُونـا(١)

وقول عُمَرَ الخيّام :

٦٥٧ ـ سبقتُ العالَمين إلى المعَالي
بِصائب فِكْرةٍ وَعُلُوّ هِمَّه
ولاح بحكمتي نورُ الهُدَى في
ليالٍ للضّلالة مُدْلَهِمَّهْ(٢)
يريد الجاهلون لِيُطْفِئُوهُ
« ويأبى الله إلا أن يُتِمَّهْ »

وكقول القاضي منصور الهرَوِيّ الأزْديّ :

٦٥٨ ـ فلو كانت الأخلاق تُحْوَى وراثةً
ولو كانت الآراء لا تتشعّبُ(٣)
لأصبح كُلُّ النّاس قد ضَمّهُمْ هَوَىً
كما أن كلَّ الناس قد ضَمّهُمْ أبُ
ولكنها الأقدارُ ، كُلٌّ مُيَسَّرٌ
لما هو مخلوق له ومُقَرَّبُ

اقتبس من لفظ الحديث « اعملوا ، كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له » .

* * *

(١) الاقتباس من الآية ١٥٦ من سورة البقرة . والصحيح أن البيت لأبي تمام ، قاله عند موت ابنه .

(٢) نور الهدى : مشبه به ومشبه متضايفان . ليال : المقصود بها ظلماتها ، مستعارة لانطماس الرشد في الضلالة ، وهي الجو عن الهدى . مدلهمة : كثيفة السواد ، والاقتباس من من الآية ٣٢ من سورة التوبة .

(٣) تحوى وراثة : تحاز وتحرز بالميراث . تتشعب : تتفرق وتختلف . هوى : ميل واتجاه . الأقدار : أقضية الله وأحكامه . ميسر : موفق .

٢٩١ ـ وأما التضمين فهو : أن يُضَمَّنَ الشعرُ شيئا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء ، كقول بعض المتأخرين ، قيل : هو ابن التِّلْميذِ الطبيب النَّصرانِيّ :

٦٥٩ ـ كانت بُلَهْنِيَةُ الشَّبِيبَةِ سَكْـرَةً
فَصَحَوتُ واستبدلْتُ سيرة مُجْمِلِ(١)

« وقَعَدْتُ أنتظر الفَنَـاء كَرَاكِـبٍ
عرفَ المحلَّ ، فباتَ دونَ المَنْزِلِ »

البيت الثاني لمسلم بن الوليد الأنصاري .

وقول عبد القاهر بن طاهر التميمي :

٦٦٠ ـ إذا ضـاق صدري وخِفْتُ العِدَى
تَمَثَّلْتُ بَيْتاً بحـالي يَلِيـقُ(٢)

« فبـالله أبلُغُ ما أرْتَجِـي
وبـالله أدفَعُ ما لا أُطِيـقُ »

وقول ابن العميد :

٦٦١ ـ وصاحبٍ كنتُ مَغْبُوطاً بصُحْبَتِـه
دَهْراً ، فغَادَرَني فَرْداً بلا سَكَنِ(٣)

---

(١) بلهنية الشبيبة : رخاء عهد الشباب ولينه . مجمل : معتدل غير مفرط ، أو صابر على الدهر غير مظهر مذلة . المحل : مكان الحلول والنزول . دون المنزل : قريباً منه . وابن التلميذ هو أمين الدولة ابو الحسن هبة الله بن صاعد ، المتوفى سنة ٥٦٠ هـ .

(٢) ضاق صدري : كثرت همومي ، والهموم بنات الصدر . تمثلت بيتاً : اتخذته مثلا أفيد منه .

(٣) وصاحب: صوابه النصب؛ إذ هو معطوف على قوله « زماناً» في بيت =

هبّتْ له رِيحُ إقبالٍ ، فطار بها
نَحْوَ السرور ، وألجاني إلى الحَزَنِ
كأنه كان مَطْوِيّاً على إحَنٍ
ولم يكن في ضُروبِ الشعر أنْشَدَنِي
« إن الكرامَ إذا ما أسْهَلُوا ذكروا
من كان يألَفُهُمْ في المنزل الخَشِنِ »

البيت لأبي تمام .

وكقول الحريري :

٦٦٢ — على أني سأنْشِدُ عند بَيْعِي :
« أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا » (١)

المصراع الأخير قيل : هو للعَرْجِيِّ ، وقيل : لأمَيَّةَ ابْنِ أبي الصَّلْتِ ، وتمام البيت :

٦٦٣ — « لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ » (٢)

قبله يقول فيه : أشكو إليك زماناً ... إلخ . كنت مغبوطاً بصحبته : كنت مرموقاً عظيماً يتمنى الناس أن يكونوا في مثل حالي بسبب صحبته . بلا سكن : بغير مؤنس تسكن إليه نفسي . هبت : ثارت . الإقبال : اتجاه الدنيا إلى المرء بالخير ، وهو مضاف إلى الريح على أنها مشبه به ، أو أن الريح بمعنى الرائحة استعيرت لدلائل الإقبال وبشائره . ألجاني : مسهل ألجأني ومعناه اضطرني . إحن : أحقاد ، واحدها إحنة . أسهلوا : أيسروا ، وهي رواية في البيت . والعباسي ينسب الأبيات الثلاثة الأولى في معاهد التنصيص للصاحب بن عباد ، وابن خلكان . والبيت الأخير لإبراهيم بن العباس الصولي .

(١) البيت أجراه الحريري على لسان غلام أبي زيد السروجي بطل مقاماته عندما عرضه للبيع .

(٢) الكريهة : الحرب . الثغر : موطن الضعف من الحدود ، وسداده — بكسر السين — سده بما يحتاجه من عدة وعدد . والعرجي عبد الله بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان ، شاعر غزل أموي تلميذ لابن أبي ربيعة .

ولا حاجةَ إلى تقديره ؛ لتمام المعنى بدونه .

ومثلُه قولُ الآخر :

٦٦٤ – قد قُلْتُ لما أطْلَعَتْ وَجَنَـاتُهُ
حوْلَ الشَّقيقِ الغَضِّ رَوْضَةَ آسٍ(١)
أعِذاره السَّاري العَجُولَ ترفُّقاً
« ما في وُقوفِكَ ساعةً مِنْ بَاسِ »

المصراع الأخير لأبي تمام .

وكقول الآخر :

٦٦٥ – كُنَّا مَعاً أمْسِ في بُؤسٍ نُكابِدُهُ
والعين والقلب مِنَّا في قَذًى وَأذًى(٢)
والآن أقْبَلَتِ الدُّنيا عليك بمـا
تَهْوَى ، فلا تَنْسَني ؛إنَّ الكرامَ إذا

أشار إلى بيت أبي تمام ، ولا بدَّ من تقدير الباقي منه ؛ لأن المعنى لا يتم بدونه .

وقد عُلِمَ بهذا أن تضمين ما دون البيت ضربان .

أحسن وجوه التضمين

٢٩٢ – وأحسن وجوه التضمين : أن يزيد المُضَمِّنُ في الفرع عليه في الأصل بنكتة ، كالتورية والتشبيه في قول صاحب التحبير :

---

(١) ر اته : خدوده . الشقيق : ورد أحمر ، استعاره لموطن الحمرة في خده . ـ ا ري ، النضير . الآس : الريحان . وروضة الآس : استعارة للشعر النابت ب جا جهه . العذار : الشعر النابت في جانب الوجه مما يلي الأذن . الساري : المـ ي لظهور بوجهه شيئاً فشيئاً . باس : بأس : أي حرج . والبيتان لابن خلكان ا . . أحمد بن إبراهيم .

(٢) ؤس : شدة . نكابده : نقاسيه . القذى : الجسم الغريب يقع في العين . إن الكر م إذا : من قول أبي تمام وهو البيت الرابع من الشاهد رقم ٦٦١ .

٦٦٦ – إذا الوَهْمُ أبْدَى لي لَمَاهَا وثَغْرَها
تذكّرتُ ما بَيْنَ العُذَيْبِ وَبارِقِ (١)
ويُذْكِرُني مِنْ قَدّها ومَدامعي
مَجَرَّ عَوالينا ومَجْرَى السَّوابِقِ

المصراعان الأخيران لأبي الطيب .

ولا يضر التغيير اليسير ليدخل في معنى الكلام ، كقول بعض المتأخرين في يَهوديٍّ به داء الثعلب :

٦٦٧ – أقول لِمَعْشَرٍ غَلِطوا وغَضُّوا
عن الشَّيْخِ الرَّشيد وأنكَرُوهُ (٢)
هو ابْنُ جَلاَ وطَلاَّعُ الثَّنايا
مَتَى يَضَعِ العِمامَةَ تَعْرِفُوه

---

(١) لماها : سمرة باطن شفتيها . ثغرها : مقدم أسنانها . العذيب وبارق : موضعان في الأصل ، وأراد بهما الشفة والثغر ، على أن الأول تصغير عذب ، وهو الريق – العذوبة من أوصافه – مراداً به الشفة وهي محله ، وأن الثاني وصف بمعنى لامع ، وما بينهما كناية عن الريق ، وهو الذي يتذكره بعد الوهم . قدها : قامتها . مدامعي : دموعي . مجر عوالينا : جر رماحنا وسحبها . مجرى السوابق : جري الخيل السباق . وفي البيت الثاني تشبيه ضمني . والشاعر ابن أبي الإصبع صاحب « تحرير التحبير » في علم البديع ، واسمه عبد العظيم بن عبد الواحد المصري ، ومجموع المصراعين اللذين وزعهما على بيتيه بالتضمين هما في الأصل مصراعا بيت واحد جعله المتنبي مطلع إحدى قصائده .

(٢) معشر : جماعة . غضوا عنه : أغفلوه وأعرضوا عنه ، وأصله أغمضوا عيونهم عنه تقززاً . الرشيد : الغوي الضال ، تهكما . والبيت والتضمين للسخرية بهذا اليهودي ، وألفاظ بيت التضمين مراد بها غير ما أريد في أصله ، ابن جلا هنا : ابن شعر جلا عن الرأس ، يريد وصفه بالقرع ، وأنه ملازم له . طلاع الثنايا : ركاب الصعاب في سبيل هذا الداء ، أو بارز مقدم الأسنان ، وفي بيت سحيم بن وثيل انظر الشاهد رقم ١٩٣ .

البيت لِسُحَيْم بن وثيل ، وأصْلُه :

٦٦٨ — أنا ابْــنُ جَلاَ وطَلاَّعُ الثـنايا
متى أَضَعِ العِمَــامَةَ تعرفونــي

أنواع التضمين

وربما سُمِّيَ تضمينُ البيت فما زادَ استعانةً ، وتضمينُ المصراع فما دونه تارةً إيداعاً وتارةً رَفْواً .

• • •

العقد

٢٩٣ — وأما العَقْدُ فهو : أن يُنْظَم نَثْرٌ لا على طريق الاقتباس :

١ — أما عقد القرآن فكقول الشاعر :

٦٦٩ — أَنِلْنِي بالــذي استقرضْــتَ خَطّاً
وأَشْهِدْ مَعْشَراً قــد شاهدوهُ(١)

فــإن اللهَ خَلاَّقَ البَرَايـــا
عَنَتْ لجــلال هَيْبَته الوُجُــوهُ

يقول « إذا تَدَايَنْتُــمْ بِدَيْــنٍ
إلى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُــوهُ »

٢ — وأما عقد الحديث فكما رُوِيَ للشافعي رضي الله عنه :

٦٧٠ — عُمْدَةُ الخــير عندنــا كلمــاتٌ
أربعٌ قالَهُنَّ خَيْــرُ البَرِيَّهْ(٢)

---

(١) أنلني : أعطني . استقرضت : استدنت . خطّا : يقصد به صك الدين . البرايا : الخلائق . عنت : خضعت ، العقد في البيت من بعض الآية ٢٨٢ من سورة البقرة . والأبيات للحسين بن الحسن الواساني الدمشقي .

(٢) عمدة الخير : عماده ، أي ما يعتمد عليه ويتكىء . البرية : الخلق ، وهي من برأ . وينسبان للامام الشافعي ، ولطاهر بن معوذ الإشبيلي .

اتق المُشْبِهَــاتِ ، وازْهَدْ ، ودَعْ ما
ليس يَعْنيكَ ، واعْمَلَنَّ بِنِيَّهْ

عَقَدَ قولَه عليه السلام « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشْتَبَهاتٌ » وقولَه عليه السلام « ازهد في الدنيا يُحِبَّكَ الله » وقوله عليه السلام « من حُسْنِ إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وقولَه عليه السلام « إنما الاعمال بالنيات » .

وأما عَقْدُ غيرهما فكقول أبي العتاهية :

٦٧١ — ما بــالُ مَــنْ أولُــهُ نُطْفَــةٌ
وَجِيفَــةٌ آخِــرُهُ يَفْخَــر ؟(١)

عَقَدَ قولَ علي رضي الله عنه « وما لابن آدم والفخر ، وإنما أوله نُطْفَةٌ ، وآخره جِيفَةٌ » .

وقوله أيضاً :

٦٧٢ — كفَى حزَنــاً بدفنكَ ، ثم أنــي
نَفَضْتُ تُرابَ قبركَ عن يَدَيَّا (٢)
وكانَتْ في حيــاتِكَ لي عِظــاتٌ
وأنتَ اليومَ أوعظُ منــكَ حيّاً

قيل : عَقَدَ قَوْلَ بعض الحكماء في الإسكندر لما مات « كان الملكُ أمْسِ أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظُ منه أمس » وقيل : هو قول المُوبَذِ لما مات قباذ الملك .

---

(١) النطفة : ماء الرجل قبل أن يتخلق في الرحم . وجيفة آخره : يريد أنه في آخره أمره جثة ميت منتنة .

(٢)نفض تراب قبره : كناية عن انقضاء تواصلهما وعدم تلاقيهما . عظات : زواجر ، واحدتها عظة .

وقول الآخر :

٦٧٣ – يا صاحبَ البَغْيِ إن البَغْيَ مَصْرَعَةٌ
فَارْبَعْ ؛ فخير فَعالِ المَرْءِ أعدله (١)
فلو بَغَى جَبَلٌ يوما على جَبَلٍ
لانْدَكَّ منه أعاليه وأسْفَلُهُ

عقد قول ابن عباس رضي الله عنهما « لو بغى جبل على جبل لدُكَّ الباغي » .

وقول الآخر :

٦٧٤ – إلبَسْ جديدَكَ إني لابس خَلَقِي
ولا جديد لمن لا يلبَسُ الخَلَقَا(٢)

عَقَدَ المثَل « لا جديد لمن لا خَلَقَ له » قالته عائشة رضي الله عنها وقد وَهَبَتْ مالاً كثيراً ، ثم أمرَتْ بثوب لها أن يُرْقَع ، يُضْرَبُ في الحَثّ على استصلاح المال .

* * *

الحل

٢٩٤ – وأما الحل فهو : أن يُنْثَرَ نَظْمٌ .

وشرط كونه مقبولاً شيئان :

أحدهما : أن يكون سَبْكُهُ مختاراً ، لا يتقاصر عن سَبْكِ أصله .

والثاني : أن يكون حَسَنَ الموقع ، مُسْتَقِراً في مَحَلِّهِ ، غيرَ قَلِقٍ ، وذلك كقول بعض المغاربة « فإنه لما قَبُحَتْ فعلاته ،

---

(١) البغي : الظلم . مصرعة : مهلكة أي سبب صرع وهلاك . اربع : توقف وانتظر وتمهل وتلبث . الفعال بالفتح : الفعل الحسن . اندك : انهدم حتى ساوى الأرض

(٢) الخلق : البالي الرث من الثياب .

وحَنْظَلَتْ نَخَلاته ، لم يزل سوءُ الظنِّ يَقْتادَهُ ، ويُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الذي يعتادُه » (١) حلَّ قولَ أبي الطيب :

٦٧٥ – إذا ساء فعل المرء ساءتْ ظُنونُهُ
وصَدَّقَ ما يعتادُه من تَوَهُّمِ

وكقول صاحب « الوَشْي المَرْقوم ، في حَلِّ المَنْظُوم » يصف قلم كاتب « فَلاَ تَحْظَى به دولةٌ إلا فَخَرَتْ على الدُّوَل ، وغَنِيَتْ به عن الحِيَلِ والخوَلِ . وقالت : أعْلَى الممالكِ ما يُبْنَى على الأقلام لا على الأسَل » (٢) حَلَّ قولَ أبي الطيب أيضاً :

٦٧٦ – * أعلى الممالك ما يبنى على الأسَلِ *

وكقول بعض كتاب العصر في وصف السيف : « أوْرَثَهُ عِشْقُ الرِّقَابِ نُحُولاً ؛ فبكى والدَّمْعُ مَطَرٌ تزيد به الخدودُ مُحُولاً » (٣). حَلَّ قولَ أبي الطيب أيضاً :

٦٧٧ – في الخدِّ إن عَزَمَ الخليطُ رَحيلا
مَطَرٌ تَزِيدُ به الخُدُودُ مُحُولا (٣)

* * *

٢٩٥ – وأما التلميح فهو : أن يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره . التلميح
فالأول : كقول ابن المعتز :

---

(١) حنظلت نخلاته : أثمرت ثمراً رديئاً مراً ، والمراد : ساءت أعماله وآذت .

(٢) « الوشي المرقوم ، في حل المنظوم » كتاب لابن الأثير صاحب « المثل السائر » تحظى به : تظفر وتفوز . الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، يستعمل بلفظ واحد في الجميع ، وقد يقال للمفرد : خائل . الأسل : الرماح ، واحده أسلة .

(٣) نحولا : سقماً ودقة . محولا : جدبا ، والمراد به شحوب الوجه ، تجوزاً . الخليط : المخالط والمعاشر . مطر : دمع ، على الاستعارة .

٦٧٨ ـ أَتَرَى الجِيرَةَ الذين تَـدَاعَوْا
عند سَيْرِ الحبيب وَقْتَ الزَّوالِ (١)

علموا أنني مُقيمٌ . وقَلْبِـي
راحِــلٌ فِيهِـمُ أمـامَ الجِمَالِ

مثل صاعِ العزيز في أَرْحُلِ القَـوْ
مِ ولا يعلمون ما في الرِّحَــالِ

وقول أبي تمام :

٦٧٩ ـ لَحِقْنا بأخْراهُمْ وقد حَوَّمَ الهوى
قلوباً عهدْنا طيرَها وَهْيَ وُقَّعُ (٢)

فرُدَّتْ علينا الشمسُ والليل راغِمٌ
بشمْسٍ لهم من جانب الخدْرِ تطلعُ

نَضَا ضَوْءُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَى
لبهجتها ثوبُ السمــاء المُجَزَّعُ

---

(١) الجيرة : الجيران . تداعوا : تنادوا . صاع العزيز : صواع صاحب مصر أيام يوسف : جامه ، كأس كان يشرب فيها قبل أن تتخذ مكيالا . أرحل ومثله رحال : جمع رحل ، ومن معانيه ما تستصحبه من الأثاث في السفر .

(٢) حوم الهوى قلوباً : جعلها تحوم وتدور حول الحبيبة . طير القلوب : خواطرها وما يخالجها ، مجازاً . وُقّعٌ : سواكن ثوابت ، واحدها واقع . وإذا سكنت خواطر القلوب سكنت القلوب وثبتت ، ردت الشمس : المقصود لازمه ، وهو استنارت جوانب الظلام ، أو المقصود من الشمس حقيقتها بادعاء أن حبيبته فرد من أفرادها . راغم : ذليل . بشمس : بحسناء كالشمس . الخدر : الخيمة . نضا : نزع . الدجنة : الظلمة الشديدة . وصبغها : لونها . ثوب السماء : الظلمة . المجزع من كل شيء : ما فيه سواد وبياض ، وظلمة الليل مجزعة بالنجوم . ألمت : نزلت . الركب : المسافرون .

فوالله ما أدْرِي : أأحــلامُ نــائمٍ
ألـمَّتْ بنا ، أم كان في الرَّكْبِ يوشَعُ

أشار إلى قصة يوشَعَ بن نُون فتَى موسى عليهما السلام وإستيقافه الشمسَ فإنه رُوِيَ أنه قاتل الجبَّارينَ يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمسُ خاف أن تغيب قبلَ أن يفرغ منهم ، ويدخلَ السبتُ ؛ فلا يحلّ له قتالُهم ؛ فدعا الله ؛ فردّ له الشمسَ حتّى فرغ من قتالهم .

والثاني: كقول الحريري : «وإني والله لطالما تلقَّيْتُ الشتّاء بِكَافَاتِه وأعددْتُ له الأُهَبَ قبلَ مُوافاتِه » أشار إلى قول ابن سُكَّرَةَ :

٦٨٠ — جاء الشتاء وعنــدي من حوائجــه
سَبْعٌ إذا القَطْرُ عن حاجاتنا حبسا(١)

كِنٌّ ، وكِيسٌ ، وكانونٌ ،وكأسُ طلا
بعدَ الكَبَابِ ، وكُسٌّ ناعِمٌ ، وكِسَا

وقوله أيضاً « بِتُّ بليلَةٍ نابِغِيَّةٍ » أوْمَأ به إلى قول النابغة .

٦٨١ — فَبِتُّ كـأني ســاورَتني ضَئِيــلَةٌ
من الرُّقْشِ في أنْيابِها السَّمُّ ناقِعُ(٢)

---

(١) القطر : المطر . حبس : منع وحال . الكن : البيت . الكيس : صرة المال . الكانون : الموقد . الطلا : الخمر . الكباب : اللحم المشرح المشوي . كسا : مقصور كساء وهو الثوب . وابن سكرة : محمد بن عبد الله الهاشمي ، قريع ابن الحجاج في شعر الهزل والمجون .

(٢) ليلة نابغية : ليلة من ليالي النابغة الذبياني . ساورتني : واثبتني أو وثبت علي . ضئيلة : حية دقيقة ، وأضر الحيات أضألها . جمع رقشاء ، وهي الحية المنقطة بسواد وبياض . سم ناقع : شديد .

وقول غيره :

٦٨٢ — لَعَمْرٌو مَعَ الرَّمْضَاءِ والنارُ تَلْتَظِي
أَرَقُّ وأَحْفَى منكَ في ساعة الكرْبِ (١)

أشار إلى البيت المشهور :

٦٨٢ — المُسْتَجِيرُ بعَمْرٍو عندَ كُرْبَتِهِ
كالمُسْتَجِيرِ من الرَّمْضاءِ بالنارِ

٢٩٦ — ومن التلميح ضرب يشبه اللُّغز ، كما رُوِيَ أن تَمِيمِيّاً قال لشريك النميري : « ما في الجَوَارِحِ أَحَبُّ إليَّ من البازِي » فقال : « إذا كان يَصِيدُ القَطَا » أشار التَّمِيمِيُّ إلى قول جرير :

٦٨٤ — أنا البازِي المُطِلُّ على نُمَيْرٍ
أُتِيحَ من السماء لها انصبابا (٢)

واشار شريك إلى قول الطِّرِمَّاح :

٦٨٥ — تَمِيمٌ بطُرْقِ اللُّؤْمِ أهدَى من القَطَا
ولو سَلَكَتْ طُرْقَ المكارِمِ ضَلَّتِ (٣)

---

(١) عمرو : هو عمرو بن الحارث ، استجار به كليب ليسقيه بعد أن ضربه جساس بن مرة ، فنزل وأجهز عليه . الرمضاء : شدة الحر ، أو الأرض الحامية من شدة حر الشمس . تلتظي : تتوقد وتتسعر : أحفى : أكرم وأشفق . الكرب : — الحزن الشديد والمحنة ، ومنه الكربة . المستجير : المستغيث . والبيت الأول لأبي تمام ، والثاني يظهر من قصته أنه لكليب .

(٢) البازي — بتخفيف الياء ، وبتشديدها ، وبدون ياء — ضرب من الصقور . أتيح : قدر وهيىء . انصبابا : نزولا من السماء وانحداراً .

(٣) أهدى : أكثر هداية . القطا : طائر في حجم الحمام ، يضرب به المثل في الاهتداء إلى منازله

الفصل الثاني

مواضع ينبغي للبليغ التأنق فيها

٢٩٧ ـ ينبغي للمتكلم أن يتأنَّق في ثلاثة مواضعَ من كلامه ، حتى تكون أعذَبَ لفظاً ، وأحسنَ سَبْكاً ، وأصحَّ معنىً .

الابتداء

٢٩٨ ـ الأول : الابتداء ؛ لأنه أوَّل ما يَقْرَع السمع ، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام ، فوعَى جميعَه ؛ وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورَفَضَه وإن كان في غاية الحسن .

فمن الابتداءات المختارة قولُ امْرِىءِ القيس :

٦٨٦ ـ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ »(١)

وقول النابغة :

٦٨٧ ـ كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ
وليلٍ أقاسيهِ بَطِيءِ الكَواكِبِ(٢)

وقول أبي الطيب :

٦٨٨ ـ أتَظُنُّني من زَلَّةٍ أتعَتَّبُ ؟!
قَلْبِي أرَقُّ عليكَ مِمَّا تَحْسَبُ(٣)

---

(١) عجزه : « بسقط اللوى بين الدخول فحومل » . قفا : طلب للوقوف من رفيقه . اللوى : الرمل الملتوي المعوج ، وسقطه : منقطعه ومنتهاه . الدخول وحومل : مكانان .

(٢) كليني : دعيني واتركيني . ناصب : متعب . أقاسيه : أتحمله وأعاني قسوته :

(٣) زلة : هفوة . أتعتب : ألوم .

وقوله :

٦٨٩ — أَرِيقُكِ ، أَمْ ماءُ الغَمَامَةِ ، أَمْ خَمْرُ؟
بِفِيَّ بَرُودٌ ، وَهْوَ في كَبِدي جَمْرُ(١)

وقوله :

٦٩٠ — فراقٌ ، ومن فارقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ
وأمٌّ ، ومَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ(٢)

وقوله :

٦٩١ — أَتُراهـا لِكَثْـرَةِ العشّـاقِ
تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المآقي ؟ (٣)

وقول الآخر :

٦٩٢ — زَمُّوا الجِمالَ ؛ فقُلْ لِلعَاذِلِ الجاني :
لا عاصمَ اليومَ مِنْ مِدْرَارِ أجْفَاني(٤)

ترك ما يتشاءم به

٢٩٩ — وينبغي أن يُجْتَنَبَ في المديح ما يُتطيَّرُ به ؛ فإنه قد يَتفاءَل به الممدوحُ أو بعضُ الحاضرين، كما رُوِيَ أن ذا الرُّمَّةِ أنشد هشامَ بن عبد الملك قصيدتَه البائيَّةِ :

---

(١) بفيّ : بفمي . برود : بارد ، يقول : ريقك بارد لذيذ بفمي، وهو كنار في كبدي ، إذ أنه يهيج حبي. وفي الشطر الأول تجاهل العارف، وتشبيهان ضمنيان

(٢) غير مذمم : غير مذموم ولا معيب . أم : قصد .

(٣) أتراها : أتظنها . تحسب : تظن . خلقة : فطرة وطبيعة . المآقي: مجاري العيون ، واحده مؤق بهمز العين ، وبتسهيلها .

(٤) زموا الجمال : شدوا عليها الرحال . لا عاصم : لا واقي . مدرار أجفاني : دموعي الغزيرة السيالة .

٦٩٣ — * ما بالُ عينِكَ منها الماء ينْسَكِبُ ؟ ! *(١)

فقال هشام : بل عينُك .

ويقال : إن ابن مُقاتِلٍ الضرير أنشد الداعِيَ العَلَوِيَّ قصيدته التي أولُها :

٦٩٤ — * مَوْعِدُ أَحْبابِكَ بالفُرْقَةِ غَدْ *(٢)

فقال له الداعي : (بَلْ) موعد أحبابك ، ولك المثل السُّوء .

ورُوِيَ أيضاً أنه دخل عليه في يوم مِهْرَجان وأنشد :

٦٩٥ — لا تَقُلْ : بُشْرَى ، ولكن بُشْرَيَان
غُرَّةُ الدَّاعِي ، ويومُ المِهْرَجان (٣)

فتطيَّر به ، وقال : أعمى يبتدىء بهذا يوم المهرجان ؟ ! وقيل بَطَحَه وضربه خمسين عَصاً ، وقال : إصلاحُ أدبهِ أبلغ في ثوابه .

وقيل : لما بَنَى المُعْتَصِمُ بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه ؛ أنشده إسحاق الموصِلِيُّ :

٦٩٦ — يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى ، وَمَحَاكِ
يا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أبْلاكِ ؟(٤)

---

(١) بقيته : كأنه من كُلًى مَفريّة سَرِب * ينسكب : ينصب . كلى : اسم جنس ، واحدته كلية بضم أوله ، وهي العضو المعروف في حشا الإنسان فوق صلبه . مفرية : مقطعة مشققة . سَرِب : سائل .

(٢) البيت مطلع أرجوزة . ابن مقاتل : هو نصر بن نصر الحلواني . والداعي هو محمد بن زيد الحسني صاحب طبرستان .

(٣) الغرة : بياض في الجبهة ، ومراده الوجه ، جعله غرة كله . المهرجان : عيد فارسي يكون أول الخريف .

(٤) البلى : القدم . أبلاك : صيرك بالية .

فتطيَّر المعتصم بهذا الابتداء ، وأمر بهدم القصر .

ومن أراد ذِكْرَ الدِّيار والأطلال في مديح فليَقُل مثل قول القُطاميّ :

٦٩٧ — • إنا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ •(١)

أو مثل قول أشْجَعَ السُّلَمِيّ :

٦٩٨ — قَصْرٌ عليه تَحِيَّةٌ وسَلامُ
خَلَعَتْ عليه جَمَالَها الأيَّامُ(٢)

أحسن الابتداءات

٣٠٠ — وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، ويُسَمَّى بَراعةَ الاستهلال ، كقول أبي تمام يُهَنِّئُ المعتصم بالله بفتح عَمُّورِيَّةَ ، وكان أهلُ التنجيم زعموا أنها لاتفتح في ذلك الوقت :

٦٩٩ — السيْفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعِبِ(٣)

بِيضُ الصَّفَائِحِ ، لا سُودُ الصَّحائِفِ ، في
مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقول أبي محمد الخازن يهنِّيء ابن عَبّادٍ بمولود لبنته :

---

(١) بقيته : • وإن بليت ، وإن طالت بك الطيل • الطلل : الأثر الشاخص من آثار الديار . الطيل : آماد الدهر ، واحدها طيلة . والقطامي يعرف بالشرقي واسمه عمير بن شييم .

(٢) خلعت عليه جمالها : ألبسته جمالها وكسته به .

(٣) حد السيف : شفرته وجانبه الماضي . الحد : الفاصل . بيض الصفائح : السيوف . سود الصحائف : الرسائل والكتب . من السيف : صلبه . جلاء الشك : كشفه وإذهابه .

٧٠٠ــ بُشْرَى ؛ فقد أنْجزَ الإقبالُ ما وَعَدا
وكوكَبُ المجد في أفْقِ العُلا صَعَدا(١)

وقول الآخر :

٧٠١ــ أبْشِرْ ؛ فقد جاء ما تريد
أباد أعداءك المُبيدُ(٢)

وكقول أبي الفرج السَّاوِيِّ يرثي بعضَ الملوك من آل بُوَيْه ــ أظنُّه فخرَ الدولة ــ :

٧٠٢ــ هِيَ الدنيا تقول بِمِلْءِ فيها
حَذَارِ حَذارِ من بَطْشي وفَتْكِي(٣)

وكذا قول أبي الطيب يرثي أمَّ سيف الدولة :

٧٠٣ــ نُعِدُّ المشْرَفيّة وللعوَالي وتَقْتلُنا المنُونُ بلا قِتالِ (٤)
ونرْتبِطُالسوابِقَ مُقْرَباتٍ وما يُنجِينَ من خبَبِ اللَّيالي

---

(١) أنجز : قضى ووفى . الإقبال : قدوم الدنيا بخيرها . كوكب المجد : استعارة للمولود . الأفق : الناحية من نواحي الفلك ، وإثباته للعلا تخييل ، واسم الخازن عبد الله بن محمد .

(٢) أباد . أهلك ، والجملة دعائية .

(٣) هي : الحال والقصة . تقول بملء فيها : تقول مجاهرة رافعة الصوت ، وطريقه الكناية ، والدنيا لا تقول ، ولكن بما قدمت من دلائل التغيير والتبديل الواضحة كانت كأنها قالت .

(٤) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام . العوالي : الرماح . المنون : الموت . السوابق : الخيل السباقة في العدو ، وارتباطها : إعدادها ، مقربات : مكرمات بتقريب معلفها ومربطها اعتزازاً بها . الخبب : ضرب خاص من السير السريع .

التخلص

٣٠١ – الثاني : التخلص ، ونعني به الانتقال مما شبب الكلامُ به من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ؛ لأن السامع يكون مُترقّباً للانتقال من التشبيب المقصود! كيف يكون؟ فاذا كان حسناً متلائم الطرفين حرّك من نَشاطِ السامع ، وأعانَ على اصغائه إلى ما بعده ، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس .

مثل للتخلصات المختارة

فمن التخلُّصات المختارة قولُ أبي تمام :

٧٠٤ – يقول في قُومَسٍ قَومِي ، وقد أخَذَتْ
مِنَّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ :(٢)
أمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغي أن تَؤُمَّ بنا؟
فقلت : كَلاَّ ، ولكنْ مطلَعَ الجُودِ

وقول مُسْلِم بن الوَليد :

٧٠٥ – أجِدَّكِ ما تدرينَ أنْ رُبَّ لَيْلَةٍ
كأنَّ دُجاها من قُرونِكِ يُنْشَرُ؟(١)
سَهِرْتُ بها حتى تَجلَّتْ بغُرَّةٍ
كغُرَّةِ يحيى حين يُذْكَرُ جَعْفَرُ

---

(١) قومس : موضع جهة خراسان . أخذت منا : نالت منا وأثرت فينا . السرى : السير ليلا . المهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة . القود : جمع قوداء وهي الذلول المنقادة ، أو طويلة الظهر والعنق . تؤم : تقصد . كلا : هي هنا لرد الكلام السابق .

(٢) أجدك : يصح أن يقرأ بفتح الجيم وبكسرها ، وهنا استفهام وقسم ، والأصل « بجدك أما تدرين أن رب ليلة – إلخ » فحذف حرف الجر فانتصب المقسم به على نزع الخافض ، والجد بالفتح البخت والحظ ، وبالكسر الاجتهاد في الأمر ، وضد الهزل ، والشيء المحقق . دجاها : ظلمتها . قرونك : ذوائبك . تجلت : انكشفت وانجلت . بغرة : بشمس .

وقول أبي الطيب يمدح المُغيثَ العِجْليَّ :

٧٠٦ ــ مرَّتْ بنـا بين تِربَيْها ، فقلت لها:
مِنْ أيْنَ جانَسَ هذا الشّادِنُ العرَبا؟!(١)

فاستضحكت ، ثم قالت : كالمُغيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى ، وهْوَ من عِجْلٍ إذاانْتَسَبا

وقوله أيضاً :

٧٠٧ ــ خليليَّ ، مالي ؟! لا أرَى غير شاعر
فكَمْ مِنهُمُ الدَّعْوَى ومِنِّي القصائدُ؟(٢)

فلاَ تَعجبا ؛ إن السيوفَ كثيرةٌ
ولكنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ اليومَ واحِدُ

* * *

٣٠٢ ــ وقد يُنتقل من الفن الذي شُبِّب الكلامُ به إلى ما لا يلائمه ، ويسمَّى ذلك الاقتضاب ، وهو مذهب العرب الأوَلِ ، ومن يليهم من المُخَضْرَمين ، كقول أبي تمام :(٣) الاقتضاب

٧٠٨ ــ لو رأى الله أن في الشَّيْبِ خيْراً
جاوَرَتْهُ الأبرار في الخُلْدِ شِيبا

كلَّ يومٍ تُبدي صروفُ الليالي
خُلُقاً من أبي سَعِيدٍ غَريبا

---

(١) تربيتها : قرينتيها أو لدتيها اللتين ولدتا معها . الشادن : الظبي الصغير . ليث الشرى : أسد من تلك المأسدة المعروفة بجانب الفرات . عجل : قبيلة .

(٢) مالي : استفهام تعجبي . الدعوى : الادعاء .

(٣) هذا مثال للاقتضاب مطلقاً ، وأبو تمام من الشعراء المحدثين .

فصل الخطاب

٣٠٣ — ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلّص ، كقول القائل بعد حمد الله « أما بعد » قيل : وهو فَصْلُ الخطاب .

وكقوله تعالى : « هذَا ، وإنَّ للطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » (١) أي : الأمر هذا ، أو هذا كما ذكر .

وقوله تعالى : « هذَا ذِكْرٌ وَإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لحُسْنَ مَآبٍ » (٢) .

ونحوه قول الكاتب : هذا باب ، هذا فصل .

* * *

الانتهاء

٣٠٤ — الثالث : الانتهاء ، لإنه آخر ما يَعِيهِ السمع ، ويَرْتَسِمُ في النفس، فإن كان مختاراً كما وصفنا جَبَرَ ما عساه وقع فيما قَبله من التقصير ، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك ، وربما أنْسَى محاسن ما قبله .

فمن الانتهاءات المرضية قولُ أبي نُواس :

٧٠٩ — فَبَقِيتَ للعلم الذي تُهْدِي له
وتقاعَسَتْ عن يَوْمِكَ الأيامُ (٣)

وقوله :

٧١٠ — وإني جَدِيرٌ — إذ بَلَغْتُكَ — بالمُنَى
وأنت بما أمَّلْتُ منك جَدِيرُ (٤)

---

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٩ من سورة ص .

(٣) بقيت للعلم : دعاء . تهدى له : أصل معناه تقدم له الهدايا ، والمقصد تكرمه بإكرام أهله . تقاعست : قعدت وتأخرت عن بلوغ يومك .

(٤) جدير : حقيق وأهل لها . إن تولني : إن تمنحني . والبيتان لأبي نواس أيضاً

فإنْ تُولِني منكَ الجميـلَ فأهْلُهُ
وإلاَّ فـإني عـاذِرٌ وَشَكُورُ

وقول أبي تمام في خاتمة قصيدة فتح عَمُّورِيَّةَ :

٧١١ - إن كان بين صروف الدهر مِنْ رَحِمٍ
مَوصولة ، أو ذِمـامٍ غيرِ مُقْتَضَبِ(١)

فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بهـا
وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ

أبْقَتْ بني الأصفرِ المِمْراضِ كاسْمِهِمُ
صُفْرَ الوجوه ، وجلَّت أوجُهَ العَرَبِ

أحسن الانتهاءات

٣٠٥ - وأحسن الانتهاءات ما آذن بانتهاء الكلام ، كقول الآخر :

٧١٢ - بَقيتَ بَقاءَ الدهرِ يا كَهْفَ أهْلِهِ
وهـذا دُعاءٌ لِلبَرِيَّةِ شامِـلُ(٢)

وقوله :

٧١١ - فلا حَطَّتْ لكَ الهَيْجـاء سَرْجاً
ولا ذاقَتْ لك الدنيا فِرَاقَـا(٣)

---

(١) رحم : قرابة وصلة . ذمام : عهد . مقتضب : مقطوع . بنو الأصفر : الروم . الممراض : الشديد المرض والعلة . جلت أوجه العرب : حلتها وأظهرتها . والمراد أن أيام نصره هذه أخزت الروم وأحزنتهم ، وشرفت العرب وسرتهم ، وكان لكل في وجه صاحبه علامة .

(٢) الكهف هنا : الملجأ والملاذ . وينسب هذا البيت للمعري ، وللمتنبي .

(٣) الشطران دعاء للممدوح . حطت : أنزلت . الهيجاء : الحرب ، ومراده لا أعجزتك الحرب ولا خذلتك ، أي لا عجزت فيها ولا نيل منك .

وجميعُ فَواتِحِ السُّوَرِ وخواتِمِها واردةٌ على أحسنِ وُجوهِ البلاغةِ وأكملِها ، يظهر ذلك بالتأمُّلِ فيها ، مع التدبُّرِ لما تَقَدَّمَ من الأصولِ .

والله الموفق للخيرات

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

الفهرس